محمد الفقي

قصص الأنبياء

أحداثها وعبرها

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - ت - ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الثانية

١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م

تم صف الأحرف بمكتب اليُسر
القاهرة - ت : ٢٤٤٩٧٠٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

بقلم فضيلة الإمام الأكبر : الدكتور الشيخ عبدالحليم محمود

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمـــد ، وعلى آله وأصحابه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

وبعد . .

يقول الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾(١) .

ويقول سبحانه وتعالى في سورة هود : ﴿ وَكُلاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِن أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾(٢) .

وفي سورة الكهف : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾(٣) .

وفي سورة يوسف : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾(٤)

وقد اشتمل القرآن الكريم على كثير من القصص الذي تشير إليه هذه الآيات الكريمة ومثيلاتها ، فمن قصص الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، إلى قصص : ﴿ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ ﴾(٥) ، أو قصص : ﴿ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾(٦) ، أو : ﴿ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى ﴾(٧) . وكلها من القصص الحق كما وصفه الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾(٨) ، و : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾(٩) .

---

(١) غـافـر : ٧٨ — (٢) هـود : ١٢٠ — (٣) الكهف : ١٣

(٤) يوسـف : ١١١ — (٥) الأحقاف : ١٨ — (٦) هود : ١١٦

(٧) هـود : ١٠٠ — (٨) آل عمران : ٦٢ — (٩) يوسف : ٣

وتجيء هذه القصص - حيثما جاءت في سياق القرآن الكريم - للتأمل والتدبر، وللعظة والعبرة، وذلك قوله تعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الأَلْبَابِ ﴾[1]، وقوله جل شأنه: ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2].

وقد زخرت المكتبة الإسلامية، على مرّ عصور التاريخ، بالعديد من الكتب التي تتناول القَصص القرآني، وبخاصة ما انتهى إلينا من تُراث السلف الصالح سواء في التفاسير المشهورة ومطوّلات التاريخ، أو فيما كان مقصوراً على ناحية بعينها كقَصص الأنبياء. ولا تزال المكتبة الإسلامية تتلقى المزيد من هذه الكتب التي لا تنتهي الحاجة إليها في جيل من الأجيال.

وقد وفّقَ اللّه سبحانه وتعالى أخانا الكاتب الإسلامي المعاصر الأستاذ «محمد الفقي» إلى اتباع هذا النهج الحميد الذي سبق إليه الأئمةُ من مؤرخي الإسلام ومفكريه، فجاء كتابه الذي نُقَدِّمه اليوم عن «قَصص الأنبياء: أحداثها وعِبرها» حلقة جديدة في سلسلة قديمة عتيدة، تُفيد منها وتُضيف إليها.

وهو في هذا الكتاب يقدم للقارئ خلاصة وافية لآراء المفسرين والشراح وروايات المؤرخين، على اختلاف وجهات النظر فيها، ويوازن بينها ويُرَجِّح منها ما يعتقد أنه أرجح في الميزان أو أقرب إلى الرجحان.

وهو يُوَفَّق في كل ذلك توفيقاً نسأل الله أن يُديمه عليه ويزيده منه. ونرجو أن يسلك هذا الكتاب طريقه إلى قلوب القرّاء وعقولهم: علماً ينفعهم، وزاداً يتزودون به لدنياهم وآخرتهم، وموعظة وذكرى للمؤمنين: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[3].

اللّهم صلِّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، وسلم تسليماً، وكن بنا وبالمؤمنين رؤوفاً رحيماً.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دكتور عبد الحليم محمود

* * *

---

(1) يوسف: 111 (2) الأعراف: 176 (3) سورة ق: 37

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب بروائع الآيات وعظائم القصص التي تُملي العبر على هذه الحياة وتقص عليها شتى الوقائع التي هبطت بها من السماء على هذا الكون وآفاقه : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾[1] فتحدثت عن أخبار من مضى وآثارهم ، وتعرضت لذكر ما حاق بجبابرتهم وطغاتهم ممن حاربوا الله ورسله ، ومن اشترك معهم وشايعهم على إشعال تلك الفتن ومآسيها في تلك القرون ، وما كان يصنع من أفعال وانفعالات مع من اتبعوا النور الذي جاء به الرسل هُدي ورحمة للعالمين .

وقد دعا الله بهذه القَصص وآياتها إلى الاعتبار والتفكير في مصائر هؤلاء وما آل إليه أمرهم فقال جل شأنه : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ، كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾[3] فالقصة تعبير صادق عن مدى تطور الأحداث وتوقدها في تلك القرون وتوجيه هاد إلى سيرها ومسيرها وتصرفات الجبابرة والطغاة في كل عصر من العصور .

نعم إنها دروس واعظة وآيات موجهة تجعل منها نُذراً لمن حدثته نفسه في أي قرن من القرون على القيام بشن حرب من الفتن بأي جهاز من أجهزة القهر والتكذيب ، ومُذكّراً لمن يخرج على هَدى الشرائع السماوية وتعاليمها جيلاً بعد جيل . فالقَصص على اختلاف أنواعها وتنوع أحداثها وتفاقم خطوبها وتباين

---

(١) الأنفال : ٤٢ (٢) آل عمران : ١٣٧ (٣) يونس : ١٣ـ ١٤

وقائعها قد عبرت عن مهام الرسل ووظائفهم وأعربت عما يجب على المرسل إليهم في هذه الحياة إذ يقول عزّ من قائل : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[1] ، وقال : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾[2] ، وقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[3] فقامت دعوتهم على هذه الدعامات القوية وأسست على هذه المبادئ الرشيدة والسياسة الحكيمة التي هدت إليها الشرائع الربانية ودعت إلى العمل بها وإن تفاوتت قوةً وضعفاً بحسب استعداد المجتمع الإنساني ومدى قبوله لهذه الدعوات وكفايته لها : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ ﴾[4] : شأن كل رسالة تستقبلها الحياة وكل دعوة يتلقاها بنو الإنسان . أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له دعا إلى الاعتراف بوحدانيته ووجوب الإقرار بربوبيته وألوهيته تحقيقاً لما أخذ عليهم من العهود والمواثيق حين أشهدهم على أنفسهم وهم في صلب آدم بقوله : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ، قَالُوا بَلَى ﴾[5] نعم إنه إلهٌ واحد لا ربَّ غيره ولا معبود سواه يرشد إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾[6] ، وقوله : ﴿ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾[7] وقوله : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[8] .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبدهُ ورسوله المنّزل عليه قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴾[9] وقوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ

---

(١) النحل : ٣٦ (٢) الزخرف : ٤٥ (٣) الأنبياء : ٢٥
(٤) النحل : ٣٦ (٥) الأعراف : ١٧٢ (٦) البقرة : ١٦٣
(٧) البقرة : ٢٥٥ (٨) الأنبياء : ٢٢ (٩) يوسف : ١١١

الغَافِلِينَ ﴾[1].. فأعلم الله رسوله ﷺ بهذه الآيات والقصص ما وقع من الجرائم الشنيعة في تلك العهود ، وما هدّد الحياة من المظالم والقساوة في آفاق تلك الممالك ، وما انتهى إليه ظلمهم وآل إليه طغيانهم ، ولذلك قال يخاطبه عليه الصلاة والسلام : ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾[2] . الآية وما من شك في أنها كانت تتشكل في صور مختلفة وتتلون بألوان متفاوتة ، وذلك بحسب الشخصيات التي كانت تحركها ، والأحداث التي كانت تشكلها وتزيد من خطورتها وتلهب من خطرها فتهتز لها الأرجاء ويتحرك بها الساكن ويسكن المتحرك ، فتسيطر على ضعاف العقول وتستولي على مرضى النفوس، فكانوا يدورون مع الأحداث حيثما دارت وكيفما تشكلت وتلونت . أما من استجاب لدعوة الرسل ولاقت منه آذاناً صاغية وقلوباً واعية فقد تزود بمدلول قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[3] .

ومع أنها دعوة إلى العبر وآية من آيات التذكير فهي أروع معجزة على صدق نبوته ، وأعظم آية على تحقق وكمال رسالته ﷺ ، وهذه المعجزة لم ولن تتأثر بمرور الأيام عليها ولا بمرورها على الأيام ، لأن الله جل شأنه تعهدها بالحفظ والبقاء فقال جلت قدرته : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[4] .

ويهمني أن أكتب عن القصص وأحداثها فأجعل منها كتاباً يتحدث عنها وعن آثارها وعبرها بقدر ما يتسع له المقام من تاريخ من اصطفاهم الله لعباده واجتباهم من خلقه من الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وما قاموا به ولاقوه في سبيل نشر دعواتهم وتبليغ رسالاتهم لتلك العصور والأيام،

---

(١) يوسف : ٣ .
(٢) طه : ٩٩ .
(٣) الحديد : ٢٥ .
(٤) الحجر : ٩ .

وما سميته باسم « قصص الأنبياء : أحداثها وعبرها » : إلا ليكون هناك تناسب بين الاسم والمسمى ، راجياً منه تعالى أن يمدني بروح من عنده ، ويلهمني الصواب في مراحل الكتابة عن آياته ، حتى يؤتي ثمره ، ويحقق حصاده ، وينتفع به الإسلام والمسلمون .

والله الهادي إلى سواء السبيل .

محمد الفقي

* * *

في تلك القرون التي قد خلت من قبل كان الله تعالى يرسل رسله بالهدى ودين الحق إلى تلك الأمم ويبعثهم إلى هؤلاء الأقوام في تلك العهود ، فكان كل رسول يقوم بثورة بعيدة المدى على تلك النظم الظالمة والمعتقدات الفاسدة التي كانت تقوم حينذاك ويفرض الطغاة بقاءها على الأمم في تلك القرون ويبسطونها على الأقوام في آفاق تلكم العهود فيسيطرون باستبدادهم وظلمهم على شتى الأرجاء ويظلون يقبضون على أزمّة الأمور في جميع النواحي ، وكان اعتمادهم في كل ذلك وفي فرض السيطرة وبسط السلطان على وسائل مختلفة الأساليب متفاوتة الغاية ، والرسول إنما أرسل إلى تلكم الأمم ليقضي بدعوته على تلك الأوضاع الظالمة ، ويهدم بما جاء به تلك العقائد الفاسدة التي كانت تعتقدها الأمم في مختلف البلاد ويعملون على تغلغلها وبقائها بشتى الوسائل ومختلف الطرق ، وهنا كانت تقوم معارك شديدة البأس خطيرة المدى بين ذلك الرسول ومن آمن معه وبين أولئكم الظلمة والطغاة ومن بقي على ضلالة معهم ، ولا تنطفئ نيران ذلك التصارع ولا تقف وحى تلك الحروب لأن الدعوة إلى الله تعالى بالاعتراف بتوحيده والإقرار بوحدانيته لا يمكن أن ينطفئ نورها ، ويستحيل أن يقف ذلك النور عند حد أو ينتهي إلى غاية .

والقصص القرآنية قد ضربت الأمثال للناس لعلهم يتفكرون في مصائر أولئكم الجبابرة ويعتبرون بما آل إليه أمرهم وانتهى ظلمهم وطغيانهم ، فيعملون بتعاليم دينهم ويفتحون قلوبهم لدعوة ربهم واستجابة لخالقهم ، وبلاغ رسولهم ﷺ وإلى ذلك يوحى قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[1] فهم في حاجة أبداً إلى العظات الإسلامية

---

(١) الأنفال : ٢٤

والتذكير الرباني والإيقاظ الإلهي لا سيما وأنهم قريبو عهد بفرعون هذه الأمة « أبو جهل » ومن تبعه ممن عتَوا عُتُواً كبيراً ، وطغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد ، فكان عاقبة أمرهم خُسراً ووبالاً عليهم . وقد خاب من افترى .

وإذا كان القلم يطاوعنا في الكتابة عن القصص كما ينبغي ، فإن الكتاب الذي توجهت الحاجة إليه لا يقبل منا إلا إيجازاً كريماً واختصاراً مبيناً ، نزولاً على رغبة الكثير من الناس ، وتحقيقاً لأمانيهم وآمالهم ، غير أنني قبل أن أكتب عن القصص يجب أن يتوجه قلمي إلى ذكر الفائدة العظيمة التي يستهدفها تكرار القصة ، لكن في إيجاز غير مخل بالمقصود من ذلك التكرار بحيث يُزيل من الواهم وهمه ، ويُشعر السامع بتجليات التكرار وآثاره ومزاياه .

فالقصة في كل مرة من التكرار تكشف عن جانب هائل من جوانب الأسرار التي رفعت الستار عنها ، أو تجسم صـــورة ليست في الصورة الأخرى ، أو تتحدث عن حَدَث زائد عما تحدثت عنه تلك الصورة ، الأمر الذي لا تتم القصة بدون عرض ذلك الحدث ، ولا تكمل بغير عرض ذلك الجديد . وكل ذلك بدون أن يقع في الأسلوب اضطراب أو تناقض أو ثقل . لأنها إنما جاءت بحَدَث جديد يُعَبِّرعن مدى فصاحة القرآن وإعجازه ، فإنه تعالى قد أعجز البشر عن أن يأتوا بسورة من مثله . نعم إنه تحداهم إذ يقول : ﴿ وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾[1] .

وهناك أنواع أخرى من أنواع التحدي ، بل القرآن كله معجز ومتحدي حتى بكل لفظ من ألفاظه .

فالزيادة التي يتوهم متوهم تكرارها في القَصص القرآنية هي التي جعلت ذلك التكرار له قيمته وتقديره بالصورة التي عُرِضَ بها رأكسبت ما أريد إبرازه منها جمالاً وجلالاً .

---

(١) البقرة : ٢٣ ــ ٢٤

ويجدر بنا أن نستعرض صورتين من القصص لشخصية واحدة ، وبمقابلة إحداهما بالأخرى ، يتبين ما تُوحي به الأحداث التي تزيد في إحداهما عن الأخرى من فوائد جديدة ومزايا عظيمة الشأن كبيرة الأثر والتأثير ، إذ أنها تُجَدِّد في النفوس معلومات جديدة ووقائع مفيدة غير مرجوة في القصة الأخرى مع أنهما مسوقتان لنفس الشخصية ، وبمتابعة النظر في سائر القصص يعطيك التكرار أعظم الثمرات وأسمى الفوائد التي ينبغي الوقوف عليها ، ليستكمل معلوماته عن القصة ويجني منها ما يحتاجه من عبر جديدة وآيات مفيدة ، لها شأنها في التذكير وإيقاظ القلوب .

ففي سورة طه نجد فيها من قصص سيدنا موسى عليه السلام ما يرشد إليه قوله تعالى: ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ، وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي * إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ ، فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾[1] .

وفي سورة القصص جاءت القصة على النحو الآتي مع زيادات بالغة التقدير: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ، فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ، إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ، إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ * وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ، لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا ، إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ، فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا

---

(١) طـه : ٣٨ – ٤٠

يَشْعُرُونَ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ المَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾[1] .

فهذه التحركات والزيادات التي تراها في سورة القصص تعطيك صورة صادقة عن مدى الفرق بين القصتين ، فإن الأحداث التي تحركها قصة سيدنا موسى في سورة القصص ، غير الأحداث التي تحركها قصة سيدنا موسى في سورة طه . يهدي إلى ذلك ويدل عليه أن ماجاء في سورة القصص كان عرضاً لقصة سيدنا موسى في مجال الحياة كلها ، للعظة والعبرة : ليجد فيها بنو إسرائيل ما يذكرهم بفضل الله عليهم ، وإنقاذ الله لهم من البلاء الذي كان يصبه فرعون عليهم ، ويجد فيها العرب مشهداً من مشاهد الصراع بين الحق والباطل ، وما ينتهي إليه ذلك الصراع القائم بينهما من انتصار الحق وأهله ، وخذلان الباطل وما يتحزب وينتصر له ، ثم يجد فيها النبي ﷺ والمسلمون عزاء يشد أزرهم فيما يحل بهم ويساق إليهم من قريش من ألوان الأذى وأنواع البلاء والأضرار .

ولهذا نرى أن القصة قد بدأت في سورة القصص بما كان من فرعون من علو واستكبار واستبداد ، وما وعد الله به المستضعفين من تأييد وإعزاز . وهذا ما خلت منه الصورة التي جاءت في سورة طه ، حيث جاء ذكر القصة فيها في معرض حديث خاص موجه إلى موسى ليذكر به فضل الله عليه من أول ولادته ، وهذا فضلاً عما أوحي الله به إلى أم موسى بعد مولده مما جاء في سورة القصص مفصلاً بعض الشئ ، أما ما جاء في سورة طه فقد جاء مجملاً يشهد لهذه النظرية قوله تعالى في سورة القصص : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعيه ، فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليَمِّ ولاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي ، إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المُرْسَلِينَ ﴾ كما يهدي بسورة طه مما ينبغي أن تنعم

---

(1) القصص : ٧ - ١٣

النظر فيه إذ جاء بقوله : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ﴾ فإنك لتجد فرقاً بين القصتين في الأحداث والوقائع وترى الألوان المختلفة بين الصورتين حين تضم بعضهما إلى بعض وتجمعهما في إطار واحد ، وهذا يعطيك صورة مجسمة للحدث تراه فيها من جميع جهاته فقوله : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ فهذه الأحداث التي في سورة طه تجري مندفعة ، فتقذفه في التابوت قذفاً ، وتقذفه كذلك في اليم ولا تلقيه به ، فالمطلوب في سورة طه أن تقذف بوليدها بعيداً عن موطن الخطر ، فإذا أفلت من يدها وامتلأ قلبها هلعاً وفزعاً جاءها ما يطمئنها مما وعدها به في قوله : ﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ، إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

ومن هنا يتضح لك ما بين الصورتين من تجاوب مع ما في إحداهما من زيادات عن الأخرى . وما جاء في سورة القصص من قوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ، فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ فإن في ذلك إعداداً لما سيكون وتمهيداً للحدث قبل أن يقع ، فأم موسى ستحتفظ بوليدها عندها وترضعه إلى أن تستشعر الخطر من فرعون وجنوده ، ولكنها عندما يفجأها الخطر ويحدق بها وتتحرك الأحداث في اندفاع وسرعة : تبادر إلى التابوت الذي أعدته للقيام بهذا الحدث العظيم . . إلخ . ومن لي بأن أكتب في هذا الموضوع ، فهيهات أن يكتب فيه مثلي ، فإنه موضوع على جانب عظيم من الأهمية ، وليس لمثلي أن يتعرض له بالصورة التي تلقي أشعتها على جميع جوانبه ، ولذلك اكتفيت بما جئت به من توجيه محدود الجوانب في هذا الشأن تاركاً لمن أوتي الحكمة وفصل الخطاب أن يتحدث إلى الأمة الإسلامية عن كل ما جاء بهذا المجال لا سيما وأن كتابي هذا سيكون في إطار لا يتسع إلا إلى القصة وما يُقصد من أحداثها ووقائعها ، وما تستهدفه من عبر وآيات، ولكن في إيجاز غير مخل بمقصود القصة وأهدافها كما أشرنا إلى ذلك .

والموضوع الذي أقصده وأستهل كتابي به أولا ، هو قصة أول خلق الله من الإنس : سيدنا آدم عليه السلام ، وهي لذلك عظيمة الشأن جليلة القدر ، ولكن قبل أن أتحدث عنها ، ينبغي أن يتقدمها الحديث إجمالاً عن أول مخلوقات الله تعالى ، لأن الحديث عنها يعتبر مكملاً لها ، وإن كان أصحاب الثقافات ومن يتصدون للكتابة عن هذه القصص لا يميلون إلى الحديث في هذا الشأن كثيراً ، وإني أوافق تقديرهم لذلك وأتحدث عن موضوع الخلق قبل آدم عليه السلام ، ولكن باختصار إتماماً للفائدة .

* * *

• أول المخلوقات نشأة :

قال ابن جرير : حدثني المتنبي ، حدثنا عبدالله بن صالح ، حدثنى أبو معشر عن سعيد بن أبي سعيد عن عبد الله بن سلام أنه قال : إن الله بدأ الخلق يوم الأحد فخلق الأرضين في الأحد والإثنين ، وخلق الأقوات والرواسي في الثلاثاء والأربعاء ، وخلق السموات في الخميس والجمعة ، وفرغ في آخر ساعة من يوم الجمعة فخلق فيها آدم على عجل ، فتلك الساعة التي تقوم فيها الساعة .

وقد قال تعالي في ذلك : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ في يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ، ذَلِكَ رَبُّ العَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا في أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ* ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَو كَرْهاً ، قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوات فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيم ﴾[١] .

وقد وردت الآيات التي تنطق بخلق آدم ، وتتحدث عن المراحل التي صاحبت خلقه ، ولازمت تطورات تكوينه عليه السلام .

* * *

---

(١) فصلت : ٩ - ١٢

قصة آدم عليه السلام

لما تفضل الله تعالى على هذه الحياة بلطيف حكمته وعظيم قدرته وجليل مشيئته وإرادته ، خلق الإنسان وشرّفه وجعله خليفته ومحل نظره ومورد وحيه وسر تجلياته وموضع مناجاته ، ولذلك كان توجيه الخطاب السماوى إليه على لسان رسله وأنبيائه . إذ أنك ترى عن كل العهود قصصاً لايأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، لأنها جاءت في تنزيل من رب العالمين . وهذه القصص التي نتحدث عنها إلى الحياة هي قلب الرسالة السماوية وسر من أسرار آياتها، لأنها تتكلم عن وقائع حصلت فعلاً وقامت بلا ارتياب وتطورت أحداثها مع الشخصيات التي كانت تدور حولها الحوادث ، وتقع فى آفاقها الأحداث والتحركات . والقرآن الكريم هو الذى احتوى هذه القصص وتضمنها وهدانا إليها ، ودعانا للعبرة بأحداثها والاعتبار بآياتها ووقائعها ، فوجّه الملائكة أولاً إلى أنه سيجعل فى الأرض خليفة : إذ يقول جل شأنه للملائكة قبل تكوين الخلق وإبرازهم إلى هذا الوجود فى محكم كتابه : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ - حتى بلغ : ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَاىَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[1] . ويقول تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ ، خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[2] . ويقول : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾[3] . ويقول : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾[4] . إلى آخر ما جاء فى هذا الشأن من الآيات والتطورات التى صاحبت آدم عليه السلام فى مراحل تكوينه وقبلها وإلى أن تمت تسويته .

---

(١) البقرة : ٣٠ - ٣٨
(٢) آل عمران : ٥٩
(٣) الأعراف : ١٨٩
(٤) الأعراف : ١١

وإنى وإن كنت أتيت فى مستهل هذا الكتاب بآية من آيات القصص التى تقطع بأن فى التكرار حادثاً جديداً زائداً على ما فى القصة التى تحدثت عن نفس الشخصية أولاً ، إلا أنه يجدر بنا أن نستعرض كذلك قصة آدم عليه السلام وما جاء بها من التكرار فى نظر أهل الوهم ، وأوجه القلوب النيرة إلى الفوائد التى تكمل القصة وتنطق بمزايا ذلك التكرار : ﴿ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾[1]. فقد جاء فى سورة الأعراف قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ، قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ، وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا ، لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ * وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ، فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ، وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ * قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ

---

(١) المدثر : ٣١ .

مِنَ الخَاسِرِينَ * قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾[1].

وإنى أترك لك النظر فى مقابلة هذه الأحداث والوقائع التى تقررت فى قصة آدم بسورة الأعراف بالأحداث والوقائع التى جاءت بالقصة الأخرى في سورة البقرة كما أترك لك الحكم علي ما في هاتين القصتين من وقائع وأحداث فهل تري أن ما في هذه القصة هو نفس ما في القصة الأولي : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أو أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[2]. وهكذا كل قصة تكررت فيها الأحداث والوقائع . وهذه القصة وإن ذُكرت في عدة مواضع متفرقة في القرآن إلا أننا سنتحدث عن مضمون ما دلت عليه تلك القصص كلها ومـا تعرضت لذكرها من أحاديث وردت عن رسول الله ﷺ بهذا الشأن وأعلمهم فيها بما يريد أن يخلق من آدم وذريته الذين يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرنٍ وجيلاً بعد جيل يدل علي أن المراد من هذا قوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الأَرْضِ ﴾[3]. وقوله : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾[4]. وليس المراد بالخليفة آدم عليه السلام وحده إذ لو كان كذلك لما حسـن من الملائكة قولهم : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾[5] . فإنهم إنما أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك وكأنهم قد علموا ذلك بعلم خاص أو أنهم علموا ذلك باطلاعهم علي ما في اللوح المحفوظ مما يخص هذه المملكة وهذا الوجود ، فأخبر الله تعالي الملائكة وأحاطهم علماً وخاطبهم بقوله : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ لحكمة علي جانب عظيم من التقدير وهى كونه تعالي أخبر بالأمر العظيم قبل كونه وحصوله ، فقالت الملائكة سائلين علي وجه الاستكشاف والاستفسار عن وجه الحكمه في ذلك لا علي وجه الاعتراض كما قد يتـوهم ذلـك الغـافلين

---

(١) الأعراف : ١١ – ٢٤
(٢) سورة ق : ٣٧
(٣) الأنعام : ١٦٥
(٤) الأعراف : ١٦٩
(٥) البقرة : ٣٠.

من المفســرين إذ قالوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾. أي إنا نعبدك دائماً ولا يعصيك منا أحد فإن كان المراد بخلق هؤلاء أن يعبدوك فها نحن لا نفتر عن عبادتـك ليلاً ولا نهاراً ، وقد شاءت إرادته أن يجيبهم على استعلامهم إذ يقول تعالي ويهدي إليه : ﴿ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَالاَ تَعْلَمُونَ ﴾[1]. أي إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هؤلاء ما لا تعملون ، فإنه سيوجد منهم الأنبياء والمرسلون والصديقون والشهداء والصالحون .

ثم أراد اللّه تعالى بتربة آدم أن تُرفع فرُفعت ، فخلق آدم من طين لازب من حمأٍ مسنون بيده ، فمكث أربعين يوماً جسداً ملقي فلما بلغ الحين الذي أراد اللّه أن ينفخ فيه الروح قال للملائكة : إذا نفخت فيه من روحي فاسجدوا له ، فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح في رأسه عطس فقالت الملائكة له : قل : « الحمد للّه » فقال : « الحمد للّه » فقال الله تعالي : « رحمك ربــك » ، فلما دخل الروح في عينيه نظر إلي ثمار الجنة ، فلما دخل في جوفه اشتهي الطعام ، فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه عجلا منه الي ثمار الجنة ، فقال تعالي في ذلك: ﴿ خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾[2]. قال : ﴿ فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّــاجِدِينَ ﴾[3]. حقاً إنه أبى واستكبر وكان من الكافرين فقال اللّه له : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾. لما خلقت بيدي ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ﴾. ولم أسجد لبشر خلقته من قبل ، فقال اللّهُ له : ﴿ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾. أي ما ينبغي عليك أن تتكبر فيها : ﴿ فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾[4] .

وقد كان سجود الملائكة وفاءً لعهد اللّه الذي عهد إليهم وطاعة لأمره الذى أمرهم به ، وقام عدو اللّه إبليس من بينهم فلم يسجد متكبراً متعظماً حقداً فقال لــه:

---

(١) البقرة : ٣٠.
(٢) الأنبياء : ٣٧
(٣) الحجر : ٣٠ - ٣١
(٤) الأعراف : ١٢ـــ ١٣ ، والصغار : المذلة .

﴿ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾[1] -إلى قولـه : ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[2].

فلما فرغ الله من إبليس ومعاتبته وأبي إلا المعصية أودع الله تعالي عليه اللعنة وأخرجه من الجنة . فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « خلق الله عز وجل آدم بيده ونفخ فيه من روحه وأمر الملائكة فسجدوا له فجلس فعطس فقال: « الحمد لله » فقال له ربه : « يرحمك ربك . . ائت أولئك الملأ من الملائكة فقل لهم : السلام عليكم » فقالوا له : « وعليك السلام ورحمة الله وبركاته » ثم رجع إلي ربه عر وجل فقال له : « هذه تحيتك وتحية ذريتك بينهم » .

فلما أظهر إبليس ما كان مخفياً في نفسه من الكبر والمعصية لربه وكانت الملائكة قد قالت لربها حين قال لهم : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾[3]. قال لهم : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَالاَ تَعْلَمُونَ ﴾[3]. تَبين لهم مـــا كان عنده مستتراً وعَلِمُوا أن من بينهم من تقع منه المعصية لله عزّ وجّل والخلاف لأمره .

ثم بَينّ تعالي شرف آدم عليهم في العلم فقال : ﴿ وَعَلَّـمَ آدَمَ الأَسْـمَاءَ كُلَّهَا ﴾ . قال ابن عباس : « هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس : إنسان ودابة وأرض وسهل وبحر وجبل وأشباه ذلك » ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ ﴾[4]. أي سبحانك أن يحيط أحد بشئ من علمك من غير تعليمك كما قال : ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ

(١) سورة ص : ٧٥
(٢) سورة ص : ٨٥
(٣) البقرة : ٣٠
(٤) البقرة ٣١ - ٣٢

منْ علمه إلاَّ بمَا شَاءَ ﴾[1]. قَالَ : ﴿ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ، فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾[2]. أي أعلم السر كما أعلم العلانية وما من شك في أن قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى ﴾[3]. إكرام عظيم من الله تعالى لآدم حين خلقه بيده ونفخ فيه من روحه كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾[4]. فهذه أربع تشريفات : خلقه له بيده الكريمة ، ونفخه من روحه ، وأمره الملائكة بالسجود له ، وتعليمه أسماء الأشياء .

وقد استحق إبليس من اللهَّ اللعنة إلى يوم الدين كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾. لأنه استلزم تنقصه لآدم وازدرائه به وترفعه عليه مخالفة الأمر الإلهي كما جاء في قوله : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ المَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾[5].

ثم شرع إبليس في الاعتذار بما لا يُجدي عنه شيئاً ، وكان اعتذاره أقبح وأشد من ذنبه ، وقد جاء ذلك في سورة الإسراء حيث يقول تعالي : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ

---

(١) البقرة : ٢٥٥ (٢) البقرة : ٣٣ (٣) البقرة : ٣٤
(٤) الحجر : ٢٩ (٥) الحجر : ٢٩ - ٣٤

أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً * قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ وَعِدْهُمْ ، وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ، وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾[1].

قال الحسن البصري : لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين قط ، وقال ابن مسعود وابن عباس وجماعة من الصحابة وسعيد بن المسيب وآخرون : كان إبليس رئيس الملائكة بالسماء الدنيا . قال ابن عباس : وكان اسمه عزازيل ، قال ابن عباس : وكان من حي من الملائكة يقال لهم « الجن » وكانوا خزان للجنان وكان من أشرفهم ومن أكثرهم علماً وعبادة ، وكان من أولي الأجنحة الأربعة فمسخه الله شيطاناً رجيماً .

وقد اختلف المفسرون في الملائكة المأمورون بالسجود لآدم ، أهم جمع الملائكة كما دل عليه عموم الآيات – وهو قول الجمهور – أو المراد بهم ملائكة الأرض كما رواه ابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس وفيه انقطاع وفي السياق نكارة ، وإن كان بعض المتأخرين قد رجحه ولكن الأظهر من السياقات الأول ويدل عليه الحديث الذي يقول فيه : « وأسجد له ملائكته » وهذا عموم بلا ريب في ذلك .

وقد نقل أهل العلم عن عبد الله بن عباس وغيره في خلق حواء : « ثم أخذ ضلعاً من أضلاعه من شقه الأيسر ولأم مكانها لحماً ، وآدم نائم لم يهب من نومه حتى خلق الله تعالى من ضلعه تلك زوجته حواء فسواها امرأة ليسكن إليها ،فلما كشف عنه السِّنة وهبَّ من نومه رآها في جنبه وقال –فيما يزعمون–: لحمي ودمي وزوجتي . فسكن إليها ، فلما زوَّجه الله تعالى وجعل له سكناً من نفسه قال له : ﴿ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[2]. فأباح الله لهما

---

(1) الإسراء : ٦١ – ٦٥

(2) البقرة : ٣٥

الأكل من ثمار الجنة وأطايبها غير شجرة واحدة ابتلاءً منه تعالى لهما بذلك ليمضي قضاء الله تعالي فيهما وفي ذريتهما ، نعم أمر الله تعالي آدم وزوجته أن يسكنا الجنة فقال : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا ولاَ تَقْرَبَا هَذِه الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمينَ ﴾ . وقال في الأعراف : ﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُوراً ، لَمَنْ تبعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أجْمَعينَ * وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ولاَ تَقْرَبا هَذِه الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمينَ ﴾[1]. وسياق ذلك يدل علي أن خلق حواء كان قبل دخول آدم الجنة لقوله تعالي : ﴿ ويَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ . وقد صرح بذلك إسحاق بن يسار وهو ما يقتضيه ظاهر هذه الآيات ، وقد قيل : إن الشجرة المنهي عن الأكل منها هي شجرة الكرم ، وقيل : إنها الحنطة ، وقيل : إنها التينة ، وقد أبهم الله ذكرها وتعيينها ولو كان في ذكرها مصلحة تعود إلينا لعينها ، والجنة التي أدخلها الله آدم هل هي في السماء أو في الأرض ؟ الجمهور علي أنها هي التي في السماء وهي جنة المأوي لظاهر الآيات والأحاديث . قال تعالي : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾. والألف واللام إنما تعود على معهود ذهني وهو المستقر شرعاً من جنة المأوي ، وروي مسلم في صحيحه من حديث أبي مالك الأشجعي عن أبي حازم سلمة بن دينار عن أبي هريرة وأبومالك عن ربعة عن حذيفة ، قالا : قال رسول الله ﷺ : « يجمع الله الناس فيقوم المؤمنون حين تُزلف لهم الجنة فيأتون آدم فيقولون : يا أبانا استفتح لنا الجنة ، فيقول : وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم » ، وقد ذكر الحديث بطوله وهذا الحديث فيه قوة جيدة ظاهرة الدلالة علي أن المراد من الجنة إنما هي جنة المأوي ، ولا يخلو هذا الكلام عن نظر ، فقد قال آخرون : بل الجنة التي أسكنها آدم لم تكن جنة الخلد لانه كُلِّفَ فيها أن لا يأكل من تلك الشجرة ،

---

(١) الأعراف : ١٨ - ١٩

ولأنه نام فيها ، وأُخرج منها ، ودخل عليه إبليس فيها ، وهذا مما ينافي أن تكون جنة المأوي ، وهذا القول محكي عن أُبيِّ بن كعب وعبد الله بن عباس ووهب بن منبه وسفيان بن عينية ، واختاره ابن قتيبة في المعارف والقاضي منذر ابن سعيد البسلوطي في تفسيره وأفرد له مصنفاً علي حدَة ، وحكاه عن الإمام أبي حنيفة وأصحابه . ﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ * قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[1] وهذا اعتراف ورجوع إلي الإنابة وتذلل وخضوع واستكانة وافتقار إليه تعالي في الساعة الراهنة .

وظاهر الآيات يدل علي أنه كان بالجنة هو وزوجته حواء ، وأنها كانت بالسماء لا كما قيل إنها في الأرضَ ، ويشهد لذلك قوله تعالي : ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾[2] . وهذا خطاب لآدم وحواء وإبليس ، ومثله في سورة طه قوله : ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً ، بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾[3] . وقد كرره لفظاً وإن كان واحداً وناط مع كل مرة حكماً ، فناط في الأول عداوتهم فيما بينهم ، وبالثاني الاشتراط عليهم أن من تبع هداه الذي ينزله عليهم بعد ذلك فهو السعيد ، ومن خالفه فهو الشقي ، وقد قيل : إنه مكث بالجنة مائة عام ، وقيل : إنه مكث بها ستين عاماً ، علماً بأن الحية قد أهبطت معهم وفي المكان الذي أهبط إليه آدم أقوال ، فقد قيل : إنه أُهبط إلى الهند وحواء إلي جُدَّة وإبليس بدستميان من البصرة على أميال ، وأُهبطت الحية بأصبهان ، وهذا منقول عن الحسن ورواه ابن أبي حاتم ، وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس : « ما أُسكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس » ، وقوله تعالي : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾[4] . قيل هي قوله:

(١) الأعراف : ٢٢
(٢) البقرة : ٣٦
(٣) طه : ١٢٣
(٤) البقرة : ٣٦

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾[1]. روي هذا عن مجاهد وسعيد بن جبير وأبي العالية والربيع بن أنس والحسن وقتادة ومحمد بن كعب وخالد بن معدان وعطاء الخراساني وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

وروي الحاكم في مستدركه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنَ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾. قال: قال آدم : يارب ألم تخلقني بيدك ؟ قيل له : بلي . ونفخت فيَّ من روحك ؟ قيل له : بلي . وعطست فقلتُ : « يرحمك ربك » وسبقت رحمتك غضبك ؟ قيل له : بلي . وكتبت عليَّ أن أعمل هذا ؟ قيل له : بلى . قال : أفرأيت إن تبت هل أنت راجعي إلي الجنة ؟ قال : نعم .

* * *

• احتجاج آدم وموسى عليهما السلام :

قال البخاري : حدثنا قتيبة ، حدثنا أيوب بن النجار عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبى هريرة عن النبي ﷺ قال : « حاجَّ موسي آدم عليهما السلام . فقال له : أنت الذي أخرجت الناس بذنبك من الجنة وأشقيتهم ؟ قال آدم : ياموسي ، أنت الذى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ، أتلومني علي أمر قد كتبه الله عليَّ قبل أن يخلقني وقدَّره عليَّ قبل أن يخلقني ؟ - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فحج آدم موسى » .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا يونس بن عبد الأعلي ، أنبأنا ابن وهب ، أخبرني أنس بن عياض عن الحارث بن أبي دياب عن يزيد بن هرمز : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : «احتج آدم وموسى عند ربهما فحَّج آدم موسى، قال موسى : أنت الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك

---

(١) الأعراف : ٢٣

ملائكته ، وأسكنك جنته ، ثم أهبطت الناس إلي الأرض بخطيئتك ؟ قال آدم : أنت موسي الذى اصطفاك الله برسالته ، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء، وقربك نجياً ، فبكم وجدت الله كتب التوراة ؟ قال موسي : بأربعين عاماً ، قال آدم : فهل وجدت فيها : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾[1]. قال : نعم . قال : أفتلومني على أن عملت عملاً كتب الله عليّ أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة ؟ قال : قال رسول الله ﷺ : « فحجَّ آدم موسي » ، وقد رُوي هذا الحديث عن أبي هريرة من طرق عدة ، رواه الحافظ وأبو يعلي الموصلي فى مسنده من حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : حدثنا الحارث بن مسكين المصري ، حدثنا عبد الله بن وهب ، أخبرني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ قال : « قال موسي عليه السلام : يارب ، أرنا آدم الذى أخرجنا ونفسه من الجنة ، فأراه آدم عليه السلام فقال : أنت آدم ؟ فقال آدم : نعم . فقال : أنت الذي نفخ الله فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وعلّمك الأسماء كلها ؟ قال : نعم . قال : فما حملك على أن أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ فقال له آدم : من أنت ؟ فقال : أنا موسى . قال : أنت موسى نبي بني إسرائيل ؟ أنت الذى كلمك الله من وراء الحجاب فلم يجعل بينك وبينه رسولاً من خلقه ؟ قال : نعم . قال : تلومني علي أمر قد سبق من الله عزّ وجل القضاء به قبل ، قال رسول الله ﷺ : « فحجَّ آدمُ موسى .. فحجَّ آدمُ موسى » . وإنما حجَّه لأنه لامه علي ذنب تاب منه ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، وقيل : إنما حجَّه لأنه أكبر منه وأقدم . وقيل : لأنه أبوه ، وقيل: لأنهما في شريعتين متغايرتين . والتحقيق أن هذا الحديث رُوى بألفاظ كثيرة بعضها مروي بالمعني وفيه نظر .

(١) طه : ١٢١

ومدار معظمها في الصحيحين وغيرهما علي أنه لامه علي إخراجه نفسه وذريته من الجنة فقال له آدم : أنا لم أخرجكم ، وإنما أخرجكم الذى رتب الإخراج على أكلى من الشجرة ، والذى رتب ذلك وقدّره وكتبه قبل أن أُخلق هو الله عز وجل ، فأنت تلومني على أمر ليس له نسبة إليّ أكثر من أني نُهيت عن الأكل من الشجرة فأكلت منها ، وكون الإخراج مترتباً علي ذلك ليس من فعلي ، فأنا لم أخرجكم ولا نفسى من الجنة ، وإنما كان هذا من قَدَرِ الله وصُنعه وله الحكمة في ذلك ، فلهذا حجّ آدمُ موسي . ومن كذّب بهذا الحديث فمعاند لأنه متواتر عن أبي هريرة .

فلما نفد عُمْر آدم بعث إليه ملك الموت ، فقال آدم : أو لم يبق من عمرى أربعون سنة ؟ قال له الملك : أو لم تعطها ابنك داوود ؟ فجحد ذلك فجحدت ذريته ، ونسي فنسيت ذريته . وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار والترمذى والنسائى في « اليوم والليلة » من حديث صفوان بن عيسي عن الحارث بن عبد الرحمن بن أبى ذباب عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ ، وقال الترمذى: حديث حسن غريب من هذا الوجه ، وروى الإمام أحمد قال : حدثنا حسين بن محمد ، حدثنا جرير - يعنى ابن حازم - عن كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنُعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلاً قال : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ، قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا ، أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ ، أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ المُبْطِلُونَ ﴾[1]. وإسناد هذا الحديث جيد قوي علي شرط مسلم .

وقال الإمام مالك بن أنس في موطئه عن زيد بن أبى أنيسه : أن

---

(١) الأعراف : ١٧٢ ، ١٧٣ .

عبدالحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أخبره عن مسلم بن يسار الجهنى أن عمر بن الخطاب سُئل عن هذه الآية : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ، قَالُوا بَلَى ﴾[1].

فقال عمر بن الخطاب : سمعت رسول الله ﷺ يُسئل عنها فقال : « إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية قال : خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية قال : خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون ».

وهذه الاحاديث دالة على استخراجه تعالى ذرية آدم من ظهره كالذر وقسمهم قسمين : أهل اليمين وأهل الشمال ، وقال : هؤلاء للجنة ولا أبالى ، وهؤلاء للنار ولا أبالى .

وقد ذكروا أنه كان يُولد له فى كل بطن ذكر وأنثى ، وأمر أن يُزَوَج كل ابن أخت أخيه التى ولدت معه ، والآخر بالأخرى . . وهلم جراً ، ولم يكن تحل أُخت لأخيها الذى ولدت معه . . . والله أعلم .

* * *

• مأساة قتل قابيل أخاه هابيل والباعث عليها :

تتحدث هذه القصة عن أخطر حدث تاريخي أوقد ناره الحقد في أول إشراق النبوة على هذه الحياة ، وتتكلم الوقائع عن أشنع جُرم وقع فى هذا الكون وآفاقه وأفظع عبرة تاريخية اهتز لها الوجود وتحركت الحياة ، فجعلت الناس في حيرة مدهشة وذهول بالغ الأثر خطير التأثير ، إذ أنه أول حادث من نوعه فاجأ وجه الأرض فاسودت به الأيام وهلعت له القلوب وأصاب الدنيا فى صميمها وفجعها فى أول عهدها خالية الذهن عن وقوع مثل هذه الأحداث ، ولم يخطر ببالها وقوع

(١) الأعراف : ١٧٢

ذلك الشر الوبيل الذى يتحدث سببه فى أن آدم عليه السلام كان يزوج ذكر كل بطن أنثى الأخرى ، وقد ذكر جمهور المفسرين على أنهما ابنـــاه لصلبـــه وقاله ابن عباس وابن عمر وغيرهما ، فولدت مع قابيـــل أختـــاً جميلة واسمها « إقليمياء » ومع هابيـــل أختا ليست بذات جمال واسمها « ليوذا » ، فلما أراد آدم لها الزواج قال قابيل : أنا أحق بأختى ، فأمره آدم أن لا يقرب منها لأن هذه سنته التي اتخذها ، وزجره فم ينزجر ، فاتفقوا على تقديم القربان فقربا لذلك قرباناً فكان قربان قابيل حزمة من سنبل لأنه كان صاحب زرع وقد اختارها من ارداً زرعه ، ثم إنه مع ذلك وجد فيها سنبلة طيبة ففركها وأكلها، وكان قربان هابيل كبشاً سميناً لأنه كان صاحب غنم ، فنزلت نار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل فغضب لذلك وقال : لأقتلنك حتى لاتنكح أختى . فقال هابيل : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾[1]. وروى عن ابن عباس من وجوه أخر . وعن عبد الله بن عمرو . وقال عبد الله بن عمرو : وأيم الله إن كان المقتول لأشد الرجلين ، ولكن منعه التحرج أن يبسط إليه يده ، فلما كان ذات ليلة أبطأ هابيل فى الرعى فبعث آدم أخاه قابيل لينظر ما بطأ به ، فلما ذهب إذا هو به فقال لـه : تُقُبِلَ منـك ولم يُتَقَـبَلْ منـي ، فـقال : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ ، وقد كان قابيل كافراً وهابيل مؤمناً ، فغضب قابيل عندما بادره بقوله هذا وضربه بحديدة كانت معه فقتله ، وقيل : إنه إنما قتله بصخرة رماه بها على رأسه وهو نائم فشدخته ، وقيل : بل خنقه خنقاً شديداً فـمات . . وأياً كان ، فقد اندفع إلى قتله بدافع الحقد غير أنه لما توعده بالقتل قال : ﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ، إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾[2]. فكان ذلك دليلاً على حسن خُلُق وخوف من الله تعالى وخشية منه وتورعاً أن يقابل أخاه بالسوء الذى أراد منه أخوه مثله ، وقد ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا تقابل المسلمان بسيفيهما

---

(١) المائدة : ٢٧ (٢) المائدة : ٢٨

فالقاتل والمقتول في النار » . قالوا : يارسول الله ، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال : « لأنه كان حريصاً على قتل صاحبه » ، وقد بيَّن لأخيه سر تورعه عن مقابلة السوء بمثله فقال : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾[1]. أى : إنى أريد ترك مقاتلتك – وإن كنت أقدر عليها منك وأقوى – إذ أنني قد عزمت على مـا عزمت عليه فى أنك تتحمل إثم قتلى مع ما لك من الآثام التى جنيتها فى حياتك التى تتقدم حادث ما تريد أن تُوقعه بى ، وليس المراد أن آثام المقتول تتحول بمجرد قتله إلى القاتل ، وإن كان ذلك قد يتفق مع بعض الأشخاص يوم القيامة بأن يُطالِب المقتولُ القاتلَ بما وقع منه من ظلم المقتول فلا تفي حسنات القاتل بهذه المظلمة فتتحول منه سيئات المقتول إلى القاتل ، كما ثبت بذلك الحديث الصحيح فى سائر المظالم والقتل من أعظمها شناعة وأخطرها أثراً ، وقد روى الإمام أحمد وأبو داوود والترمذي عن سعد بن أبي وقاص أنه قال عند فتنة عثمان بن عفان : أشـهد أن رسول الله ﷺ قال : « إنها ستكون فتنة ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشى ، والماشى خير من الساعي » قال : أفرأيت إن دخـل علـيّ بيتى فبسط يده إليّ ليقتلنى ؟ قال : « كـن كابـن آدم ». ورواه ابن مردويه عن حذيفه بن اليـمان مرفوعاً وقال : « كن كخير ابنى آدم » ، وروى مسلم وأهل السنن – إلا النسائى – عن أبى ذر نحو هذا .

وأما الآخر فقد قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ووكيع قالا : حدثنا الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تُقتل نفسٌ ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها لأنه كان أول من سن القتل » .

وقد قيل إن بدمشق جبلاً يُقال له « قاسيون » شمالي دمشق به مغارة يقال لها « مغارة الدم » وهى مشهورة بأنها المكان الذى قتل قابيل أخاه هابيل عندها ، وذلك مما تلقوه عن أهل الكتاب ، والله أعلم بمدى صحة هذا .

(١) المائدة : ٢٩

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة أحمد بن كثير – وقال : إنه كان من الصالحين – أنه رأى النبى ﷺ وأبا بكر وعمر وهابيل ، وأنه استحلف هابيل أن هذا دمه فحلف لهُ ، وذكر : أنه سأل الله تعالي أن يجعل هذا المكان يُستجاب عنده الدعاء فأجابه إلى ذلك وصدّقه في ذلك رسول الله ﷺ ، وقال: إنه وأبا بكر وعمر يزورون هذا المكان فى كل يوم خميس . وهذا منام لو صح عن أحمد بن كثير لم يترتب عليه حكم شرعي .

ولا يفوتني أن أوجه القلوب إلى أن ما اتفق عليه أئمة الدين وعلماء الإسلام وحققوه أن الدفاع عن النفس واجب شرعاً ، قال مجاهد : كان الفرض عليهم أن لا يستل أحد سيفاً ولا يمتنع ممن يريد قتله ، وقد كان هذا في شرعهم ، وأما في شريعتنا الغرّاء فالواجب رده ودفعه لما فيه من وجوب الدفع عن نفسه .

وفيما ذكرته يُعبّر قوله تعالي : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ ، إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[1] .

وقد حار فى أمر مواراته وكيف يفعل بأخيه القتيل : ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ ، قَالَ يَاوَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي ، فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾[2] . ذكر بعضهم أنه لما قتله حمله علي ظهره سنة ، ولم يزل حاملاً له حتى بعث الله غرابين أخوين فتقاتلا فقتل أحدهما الآخر فلما قتله عمد إلى الأرض يحفر له فيها ، ثم ألقاه ودفنه وواراه ، فلما رآه يصنع ذلك قال :

(١) المائدة : ٢٧ – ٣٠ . (٢) المائدة : ٣١

﴿ يَاوَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي ﴾.
ففعل مثل ما فعله الغراب فواراه ودفنه .

وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير فى تاريخه عن بعضهم أن حواء ولدت لآدم أربعين ولداً فى عشرين بطناً ، قاله ابن إسحاق ، وقيل : مائة وعشرين بطناً في كل بطن ذكر وأنثى أولهم قابيل وأخته ، وآخرهم عبد المغيث وأخته أم المغيث . . . ثم انتشر الناس بعد ذلك وكثروا وامتدوا في الأرض ونَمُوا كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾[1]. وقد ذكر أهل التاريخ : أن آدم عليه السلام لم يمت حتي رأي من ذريته من أولاده وأولاد أولاده أربعمائة ألفاً ، وقد كان من بين أولاده « شيث » وكان عمر آدم حينئذ مائة وثلاثين سنة ، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وسبع سنين .

* * *

● ذكر وفاة آدم عليه السلام ووصيته لابنه « شيث »:

كان شيث عليه السلام نبياً ، ويشهد لذلك حديث أبي ذر عن رسول الله ﷺ الذي يتحدث ويوحي بنبوته إذ يقول ﷺ : « إن الله أنزل مائة صحيفة وأربع صحف ، علي شيث خمسين صحيفة » ومعنى « شيث » : هيبة الله ، وسمياه بذلك لأنهما رزُقاه بعد أن قُتل هابيل .

قال محمد بن إسحاق : ولما حضرت آدم الوفاة عهد إلي ابنه شيث وعلّمه ساعات اللّيل والنهار ، وعلّمه عبادات تلك الساعات ، وأعلمه بوقوع الطوفان بعد ذلك . وكانت وفاته يوم الجمعة وبعد ذلك اليوم جاءته الملائكة بحنوط وكفن من عند الله عز وجل من الجنة ، وعَزُّوا فيه ابنه ووصيه شيثاً عليه السلام. قال ابن إسحاق : وكُسِفت الشمس والقمر سبعة أيام بلياليهن .

---

(١) النساء : ١

واختلفوا في موضع دفنه ، والمشهور أنه دُفن عند الجبل الذي أهبط فيه في الهند ، وقيل : بجبل أبي قبيس بمكة ، وقد ماتت بعده حواء بسنة واحدة وعمره ألف سنة كما جاء ذلك عن ابن عباس وأبي هريرة في حديث مرفوعاً : « أن عمره اكتُتِبَ في اللوح المحظوظ ألف سنة » وقد قام بأعباء الأمر بعده ولـده « شيث » عليه السلام وكان نبياً بنص الحديث الذي رواه ابن حبان في صحيحه عن أبي ذر مرفوعا أنه : « أنزل عليه خمسون صحيفة » ، هذا ما استطعنا تحقيقه في قصة قابيل وهابيل . . تلك المأساة الحزينة وغيرها مما كتبناه عن وفاة آدم وعهده إلي ابنه « شيثاً » وما يتصل بذلك الشأن . . . والله أعلم .

* * *

قصة إدريس عليه السلام

تكلم القرآن الكريم عن إدريس وأثنى الله عليه فيه ووصفه بالنبوة والصديقية قال الله تعالي في ذلك : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ، إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً * وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِياً ﴾[1]. فإدريس الذي أثني عليه الله بهذا الثناء ووصفه بهذين الوصفين العظيمين هو أول بني آدم أعطى النبوة بعد آدم وشيث عليهما السلام ، وهو ابن شيث ويسمى « خنوخ » ، وقد ذكر ابن إسحاق ، أنه أول من خط بالقلم ، وقد أدرك من حياة آدم ثلاثمائة سنة ولجلال قدره ورفيع مكانته عند ربه وعلو شأنه عند خالقه رفعه إلى السماء الرابعة ، إذ يقول جل شأنه : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانَاً عَلِيًّاً ﴾ . يحدد ما حققناه من أنه في السماء الرابعة ويشهد به ما جاء في الصحيحين من حديث الإسراء والمعراج أن رسول الله ﷺ مرَّ به وهو في السماء الرابعة ، وقدر وي ابن جرير عن يونس عن عبد الأعلي عن ابن وهب عن جرير بن حازم عن الأعمش عن شمر بن عطية عن هلال بن يساف قال : سأل ابن عباس كعباً وأنا حاضر فقال له : ما قول الله تعالى لإدريس : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانَاً عَلِيًّاً ﴾ . فقال كعب : أما إدريس فإن الله أوحى إليه أني أرفع لك كل يوم مثلَ جميع عمل بني آدم - لعل ذلك من أهل زمانه - فأحب أن يزداد عملاً فأتاه خليل له من الملائكة فقال : إن الله أوحى إليَّ كذا وكذا ، فكلم مَلَك الموت حتى أزداد عملاً ، فحمله بين جناحيه ثم صعد به إلى السماء فلما كان في السماء الرابعة تلقاه ملك الموت منحدراً ، فكلم ملك الموت في الذي كلمه فيه إدريس فقال : وأين إدريس ؟ فقال : هو ذا على ظهري ، فقال ملك الموت : ياعجبا ! بعثت وقيل لي : اقبض روح إدريس في السماء الرابعة فجعلت أقول : كيف أقبض روحه في السماء الرابعة وهو في الأرض ؟ فقبض روحه هناك ، فذلك قول الله عز وجل :﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانَاً عَلِيًّاً ﴾.وإلى هنا انتهت قصة إدريس عليه السلام.

* * *

(١) مريم : ٥٦ - ٥٧

قصة نوح عليه السلام

سيدنا نوح عليه السلام هو نوح بن لامك بن متوشلح بن خنوخ - وهو إدريس - ابن يرد بن مهلاييل بن قينن بن أنوش بن شيث بن آدم أبي البشر عليه السلام، وكان مولده بعد وفاة آدم بمائة سنة وعشرين سنة فيما ذكره ابن جرير وغيره ، وقال الحافظ أبو حاتم بن حبان في صحيحه : إنه كان بينه وبين آدم عشرة قرون،وأقام الدليل على ذلك بالسند حيث قال : حدثنا محمد بن عمر بن يوسف ، حدثنا محمد بن عبد الملك بن زنجويه ، حدثنا أبو توبة ، حدثنا معاوية بن سلاَّم عن أخيه زيد بن سلاَّم ، سمعت أبا سلاَّم ، سمعت أبا أمامة أن رجلا قال : يارسول الله . . أنبي كان آدم ؟ قال : « نعم .. مكلمٌ » ، قال : فكم كان بينه وبين نوح ؟ قال : عشرة قرون . وهذا على شرط مسلم ولم يخرجه، وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال : « كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ».

وقد بعثَهُ الله إلي قومه لما عُبِدت الأصنام والطواغيت وعمد الناس إلي الضلالة والكفر رحمة بهم وشفقة عليهم ، ينطق بذلك قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾. وكان قومه يقال لهم « بنو راسب » وقد اختلفوا في مقدار سنه يوم بُعث إليهم ، فقيل : كان ابن خمسين سنة ، وقيل : كان ابن ثلاثمائة وخمسين سنة ، وقيل : ابن أربعمائة وثمانين سنة ، وقد حكي هذه الأقوال ابن جرير وعزا القول الأخير إلى ابن عباس ، وقد ذكر الله قصته وما كان من قومه وما أنزل بمن كفر به منهم من العذاب يوم الطوفان بالطوفان ، وما أنجاهُ الله وأصحاب السفينة وكيف أنجاهم ، وذلك في غير ما موضع من كتابه الكريم . . فقد جاء ذلك في الأعراف ويونس وهود والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصافات واقتربت ، وأنزل فيه سورة

كاملة فقال في الأعراف : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وأَنْصَحُ لَكُمْ وأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ * أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَاً عَمِينَ ﴾[1].

ويهمني أن أتحدث عن أروع حدث تاريخي وأول لون من ألوان العذاب نزل بالمرسل إليهم تحقيقاً لما أوعدهم به بعد أن أرشدهم ودعاهم إلى عبادة الله تعالى ووجوب توحيده والإقرار بربوبيته ووحدانيته وعصوه وخالفوا دعوته وظلوا على عبادة أصنامهم وفي ضلالهم وعنادهم .

* * *

● حادث إغراق قوم نوح وإنجائه ومن آمن معه عليه السلام :

قال تعالى في سورة هود : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ لاَ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ * فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَومِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ * وَيَا قَومِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً ، إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ ، وَمَا أَنَا بِطَارِدِ

---

(١) الأعراف : ٥٩ - ٦٤

الَّذينَ آمَنـُواْ ، إِنَّهُـمْ مُلاَقُـوا رَبِّهُـمْ وَلَكنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُـونَ * وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنصُرُني منَ اللهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ ، أفَلاَ تَذَكَّرُونَ * وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عندي خَزَائنُ اللَّهِ وَلاَ أَعلَمُ الغَيْبَ وَلاَأَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ للَّذينَ تَزْدَري أَعيُنُكُمْ لنْ يُؤْتيَهُمُ اللهُ خَيْراً ، اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أنفُسِهِمْ ، إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالمِينَ * قَالُوا يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فأَكْثَرتَ جِدالَنَا فَأْتنَا بِمَا تَعدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادقِينَ * قَالَ إِنَمَا يَأْتيكُمْ به اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجزينَ * وَلاَيَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُريـدُ أَنْ يُغْويَكُمْ ، هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيه تُرْجَعُونَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَا تُجْرِمُونَ * وَأُوْحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمنَ منْ قَوْمكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * واصْنَعِ الفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْينَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذينَ ظَلَمُوا ، إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ * وَيَصْنَعُ الفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْه مَلأٌ مِنْ قَوْمِه سَخرُوا مِنْهُ ، قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعلَمُونَ مَنْ يَأْتيهِ عَذَابٌ يُخْزِيه وَيَحلُّ عليْه عَذَابٌ مُقيمٌ * حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّور قُلْنَا احْمِلْ فيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَين وأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْه القَوْلُ وَمَنْ آمَنَ ، وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ * وَقَالَ ارْكَبُـوا فيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ، إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَابُنَي ارْكَبْ مَعَنا وَلاَ تَكُنْ مَعَ الكَافرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ المَاءِ ، قَالَ لاَ عَاصِمَ اليَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ ، وَحَالَ بَيْنَهُمَا المَوْجُ فَكَانَ مِنَ المُغْرَقِينَ * وقيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَك وَيَاسَمَاءُ أقْلعي وَغيضَ المَاءُ وقُضِيَ الأَمْرُ واسْتَوَتْ عَلَى الجُودِي وقيلَ بُعْداً للقَوْمِ الظَّالمينَ * وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ

الحَاكمينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَالَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ، وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الخَاسِرِينَ * قِيلَ يَانُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ، وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَاكُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ، فَاصْبِرْ ، إِنَّ العَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1].

وقد جاء ذكر سيدنا نوح عليه السـلام في مواضـع أخرى متفرقة غير التي ذكرناها وأشرنا إليها في أول قصته عليه السلام . وأما مضمون ما جرى له مع قومه مأخوذاً من الكتاب والسنة والآثار فإنا سنتكلم عنه بقدر ما يهدينا إليه الله تعالى وما يستطيع المقام قبوله من مضمونها وآياتها ، ونلفت النظر إلى أننا قدمنا عن ابن عباس أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام روى ذلك الإمام البخاري ، والقرن : الجيل أو المدة ، على خلاف في المراد من ذلك .

ثم بعد تلك القرون الصالحة حدثت أمور واستيقظت أحداث اقتضت توجه أهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام ، وكان الداعي إلى ذلك ما رواه البخاري وغيره من أن « وداً وسواع ويغوث ويعوق ونسراً » كانت أسماء رجال صالحين ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا ، فلم تُعبد حتى إذا هلك أولئك القوم الذين يعرفون ذلك ونُسِخَ العلم عُبدت ، قال ابن عباس : وصارت هذه الأوثان التي كانت تُعبد في قوم نوح في العرب بعد ، وهكذا قال عكرمة

(١) هود : ٢٥ - ٤٩

والضحاك وقتادة ومحمد بن إسـحاق ، وقال ابن جرير في تفسـيره : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مهران عن سعيد عن موسى عن محمد بن قيـس قال : كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوروهم فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يَسقون المطر ، فعبدوهم وقد برهنت روايات أُخرى على صحة تلك الروايـات ، وكان أول ما عُبِد غير الله الصنم الذي سموه « ود » ومقتضى هذا السياق أن كل صنم من تلك الأصنام التي سموها عبده طائفة من الناس ، وقد ذُكر أنه لما تطاولت العهود والأزمان جعلوا تلك الصور تماثيل مجسدة ليكون أثبت لهم . والمقصود أن الفساد لما انتشر في الأرض وعم البلاء بعبادة الأصنام بعث الله عبده ورسوله نوحاً عليه السلام يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهي عن عبادة سواه ، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ، كما ثبت ذلك في الصحيحين ، فدعاهم إلى إفراد عبادة الله وحدهُ لا شريك له ، وأن لا يعبدوا معه صنماً ولا تمثالاً ولا طاغوتاً ، وأن يعترفوا بوحدانيته وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ، كما أمر الله تعالى من بعده من الرسل الذين هم كلهم من ذريته ، كما قال فيه وفي إبراهيم : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾[1].

أي كل نبي من بعد نوح فمن ذريته وكذلك إبراهيم ، قـال تـعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[2]. وقال تعالى : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾[3]. وقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا

---

(١) الحديد : ٢٦ (٢) النحل : ٣٦ (٣) الزخرف : ٤٥

فَاعْبُدُون ﴾[1]. ولهذا قال نوح لقومه : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[2]. وقال : ﴿ أَنْ لاَ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾[3].وقال : ﴿ يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾[4] . فبيّن بذلك أنه دعاهم إلى الله بأنواع الدعوة سراً وجهراً ، ليلاً ونهاراً ، قال الملأ من قومه - أي السادة والكبراء منهم : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ * قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[5]. وكان ذلك منه رداً عليه ، أي لست كما تزعمون من أني ضال بل على الهدي المستقيم رسول من رب العالمين ، أي الذي يقول للشئ كن فيكون : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾[6]. وهذا شأن كل رسول أن يكون أعلم بالله عز وجل من سواه ولما طلبوا منه أن يطرد الذين اتبعوه من الضعفاء قال : ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ، إِنَّهُمْ مُلاَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ ﴾[7]. كأنهم طلبوا منه أن يبعد هؤلاء الذين آمنوا به واتبعوا الحق الذي جاء به ، ووعدوه أنه إن فعل ذلك اجتمعوا به ، فرفض ذلك الطلب القائم على غير هدي ورد عليهم بقوله : ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ، إِنَّهُمْ مُلاَقُوا رَبِّهِمْ ﴾[8]. أي : فأخاف من الله جلت قدرته إن طردتهم ﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾[9]. ولهذا لما سأل كفار قريش رسول الله ﷺ أن يطرد عنه ضعفاء المؤمنين أمثال عمّار وصُهيب وبلال وخبّاب وأشباههم نهاه الله عن ذلك حيث قال في سورة الأنعام : ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ

---

(1) الأنبياء : 25 (2) الأعراف : 59 (3) هود : 26

(4) الأعراف : 59 (5) الأعراف : 60-61 (6) الأعراف : 62

(7) هود : 29 (8) هود : 29 (9) يونس : 3

رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[1]. كما جاء ما يوحى إلى مثل ذلك في سورة الكهف ، وقد تطاول الزمان والمجادلة قائمة بينه وبينهم كما قال تعالى : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾[2]. أي : ومع هذه المدة الطويلة فما آمن به إلا القليل منهم ، وكان كلما انقرض جيل وصوا من بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربته ومخالفته ولهذا قالوا : ﴿ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[3]. وقد واجههم بأبلغ رد وأقومه إذ قال : ﴿ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾[4]. أي : إنما الذي يقدر على ذلك الله عز وجل فإنه الذي لا يعجزه شيء . وبعد جدل عنيف طال مداه أوحى الله إليه : ﴿ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾[5]. فكان ذلك تسلية له عما كان منهم إليه : ﴿ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾[6].

* * *

• سفينة النجاة وتطورها في جميع مراحلها :

لقد أمر الله نوحاً أن يصنع سفينة يركب فيها ومن آمن معه من قومه إذ يقول : ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ، إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾[7]. وذلك أن نوحاً عليه السلام لما يئس من صلاحهم وانقيادهم ورأى أن لا خير فيهم وتوصلوا إلى أذيته وجهروا بتكذيبه بكافة الطرق دعا عليهم دعوة غضب الله عليهم فلبى دعوته فأجاب طلبته إذ يقول :

---

(١) الأنعام : ٥٢ — (٢) العنكبوت : ١٤ — (٣) هود : ٣٢
(٤) هود : ٣٣ — (٥) هود : ٣٦ — (٦) هود : ٣٦
(٧) هود : ٣٧

﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾[1]. وقال : ﴿ وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾[2]. وقال عز من قائل : ﴿ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾[3]. وقال تعالى : ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَاراً ﴾[4]. وقال في دعائه عليهم عليه السلام : ﴿ رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً ﴾[5].

وقدّم الله إليه أنه إذا جاء أمره وحل بهم بأسه الذي لا يُرد عن القوم المجرمين ، فلا تأخذه بهم رقة ولا يجعل في قلبه عليهم رحمة ولذلك وجّه إليه قوله : ﴿ وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ، إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ * وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ، قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾[6]. استبعاداً لما توعدهم به وقد قال رداً عليهم : ﴿ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ ﴾. أي : نستهزئ ﴿ مِنْكُمْ ﴾ أي: نتعجب من استمراركم على كفركم وعنادكم الذي يقتضي وقوع العذاب بكم وحلوله عليكم وقد أنذرهم بقوله : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾[7].

وكانت السفينة من خشب الساج ، وقيل : من الصنوبر- وهو نص ما جاء في التوراة – وأمره أن يجعل طولها ثمانين ذراعاً وأن يطلى ظاهرها وباطنها بالقار وأن يجعل لها جؤجؤاً [8] أزور يشق الماء [9] وكان ارتفاعها ثلاثين

---

(١) الصافات : ٧٥ – ٧٦ (٢) الأنبياء : ٧٦ (٣) المؤمنون : ٢٦
(٤) نوح : ٢٥ (٥) نوح : ٢٦ – ٢٧ (٦) هود : ٣٧ – ٣٨
(٧) هود : ٣٩ (٨) الجؤجؤ : الصدر – أي يجعل للسفينة صدراً .
(٩) الأزور : المائل .

ذراعاً ، وكانت ثلاث طبقات كل واحدة منها عشرة أذرع ، فالسفلى للدواب والوحوش ، والوسطى للناس ، والعليا للطيور . وقد قال له تعالى تنبيهاً وإرشاداً : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ، وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ، إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾[1]. وبهذا تقدم إليه بأمره العظيم أنه إذا جاء أمره وحل بهم بأسه وعقابه أن يحمل معه في هذه السفينة من كل زوجين اثنين ، وسائر ما فيه روح من المأكولات وغيرها ، إبقاء على نسلها ، وأن يحمل معه أهله - أي أهل بيته - إلا من سبق عليه القول منهم ، أي : إلا من كان كافراً فإنه قد نفذت فيه الدعوة التي لا ترد ووجب عليه حلول البأس الذي لا يُرد ، أيضاً وأمره كذلك أن لا يراجعه فيهم إذا حل بهم العذاب العظيم .

وقوله : ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾. المراد بالتنور عند الجمهور وجه الأرض ، والمعنى : نبعث الأرض من سائر أرجائها حتى نبعت التنانير التي هي محال للنار .

* * *

• عدد من كان معه بالسفينة :

وقد اختلف العلماء في عدد من ركب معه في السفينة ، فعن ابن عباس : كانوا ثمانين نفساً ومعهم نساؤهم ، وعن كعب الأحبار : كانوا اثنين وسبعين نفساً . وأما امرأة نوح وهي أم أولاده كلهم وهم : « حام وسام ويافث وبام » - وهو الذي لم يسمى عند أهل الكتاب « كنعان » - وقيل غرق مع من غرق لأنه لم يؤمن مع من آمن ، وعابر : فقد ماتت قبل الطوفان وقيل إنها غرقت مع من

---

(١) المؤمنون : ٢٧

غرق ، وقد كانت ممن سبق عليه القول لكفرها ، وقد أمره سبحانه أن يحمده على ما سَخَّرَ له من السفينة فنجاه بها وفتح بينه وبين قومه وأقر عينه ممن خالفه وكذبه ، وقد عمل نوح بهذه الوصية ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ، إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[1]. أي : على اسم الله ابتداء سيرها وانتهاؤها ﴿ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾. أي : وذو عقاب أليم مع كونه غفوراً رحيماً لا يُرد بأسه عن القوم المجرمين ، كما أحل بأهل الأرض الذين كفروا به وعبدوا غيره قال تعالى : ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾[2]. ، وذلك أن الله تعالى أ رسل من السماء مطراً لم تعهده الأرض قبل ذلك ولا تمطره بعده ، فقد كان كأفواه القرب ، وأمر الأرض فنبعت من جميع جهاتها وأ رجائها قال تعالى : ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾[3]. ، أي : بحفظنا وكلاءتنا وحراستنا ومشاهدتنا لها ﴿ جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴾[4]. ولما زاد الماء وطغى على الأرض وعَمَّ جميعها سارع إلى نجدته ونجاته ولذلك قال : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ [5] * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾[6].

وقد كان ذلك : ارتفع الماء على أعلى جبل في الأرض خمسة عشر ذراعاً ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلاَ تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾[7]. والابن المشار إليه بهذا النداء هو المسمى « يام » وعند

---

(١) هود : ٤١ (٢) هود ٤٢ (٣) القمر : ١١ - ١٤ ، والدسر : المسامير .

(٤) القمر : ١٤ (٥) أي السفينة . (٦) الحاقة : ١١ - ١٢

(٧) هود : ٤٢

أهل الكتاب كما قلنا اسمه « كنعان » وقد كان كافراً عمل عملاً غير صالح فخالف أباه في دينه وعقيدته فهلك مع من هلك .

ولما فرغ جل شأنه من أهل الأرض ولم يبق أحد ممن عبد غير الله تعالى أمر الله الأرض أن تبتلع ماءها ، وأمر السماء أن تمسك عن المطر ﴿ وَغِيضَ الْمَاءُ ﴾[1]. أي : نقص عما كان عليه ﴿ وَقُضِيَ الأَمْرُ ﴾[1]. أي : وقع وحل بهم الذي كان قد سبق في علمه وقدره من إحلاله بهم ما حل بهم ﴿ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[1]. أي : نودي عليهم بلسان القدرة ، بعداً لهم من رحمة الله ومغفرته ، قال تعالى : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾[2]. وقال : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾[3]. وقال تعالى : ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصَاراً ﴾[4].

* * *

• ذكر صومه وحجه ووصيته لولده عليه السلام :

قد كان ﷺ يصوم الدهر إلا يوم الفطر والأضحى ، قال ابن ماجه : « باب صيام نوح عليه السلام : حدثنا أبو الزِّنباع روح بن فرج ، حدثنا عمر بن خالد الحرَّاني ، حدثنا ابن لهيعة عن أبي قتادة عن يزيد بن رباح أبي فراس : أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « صام نوح الدهر إلا يوم الفطر والأضحى » . وعن عكرمة عن ابن عباس قال : « حَجَّ رسول الله ﷺ فلما أتى وادي عسفان قال : يا أبا بكر ، أي واد هذا ؟ قال : هذا وادي عسفان . قال : لقد مر بهذا نوح وهود وإبراهيم على بكران لهم حمر[5].

---

(١) هود : ٤٤ — (٢) الشعراء : ١١٩ - ١٢٢ — (٣) العنكبوت : ١٥
(٤) نوح : ٢٥ — (٥) البكران : النوق الفتية .

خُطُمهم الليف وأزرهم العباء وأرديتهم النّمار يحجون البيت العتيق » ، (فيه غرابة) . . وعن عبد الله بن عمرو قال : كنا عند رسول الله ﷺ فجاء رجل من أهل البادية عليه جبة سيحان مَزْرورَةِ بالديباج فقال : « ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس ابن فارس » أو قال :« يريد أن يضع كل فارس ابن فارس ورفع كل راع ابن راع » .

قال : فأخذ رسول الله ﷺ بمجامع جبته وقال : « ألا أرى عليك لباس من لا يعقل » ! ثم قال : « إن نبي الله نوح عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه : إني قاص عليك وصية ، آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين : آمرك بلا إله إلا الله فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ، ووضعت «لا إله إلا اللّـه » في كفة رجحت بهن « لا إله إلا الله » ، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة ضمتهن « لا إله إلا الله ، وسبحان الله وبحمده» فإن بها صلات كل شئ وبها يُرزق الخلق . وأنهـاك عـن الشـرك والكـبـر . قلت - أو قيل - : يارسول الله ، هذا الشرك قد عرفناه فمـا الكبر ؟ أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان ؟ قال : لا . قال : هو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها ؟ قال : لا . قال : هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها ؟ . قال : لا . . قال : هو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه ؟ قال : لا . قلت - أو قيل - : يارسول الله ، فما الكبر ؟ ، قال : « سفه الحق وغمط الناس » .

وقد عاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة ، وأما قبره عليه السلام فقد روى ابن جرير والأزرقي عن عبدالرحمن بن سابط - أو غيره من التابعين مرسلاً أن قبر نوح عليه السلام بالمسجد الحرام . وهذا القول أقوى بكثير مما ذكره المتأخرون من أنه ببلدة بالبقاع تعرف اليوم ب « كرك نوح » . والله أعلم .

* * *

قصة هود عليه السلام

سيدنا هود هو : هود بن شالخ أبن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلم ، وكان من قبيلة يقال لهم « عاد بن عوص بن سام بن نوح عليه السلام » ، وكانوا عرباً يسكنون الأحقاف - وهي جبال الرمل - وكانت باليمن بين عُمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر يقال لها « الشحر » ، واسم واديهم « مغيث » ، وكانوا كثيراً ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخمة يوحى بذلك قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾[1].

ويقال : إن هوداً عليه السلام أول من تكلم بالعربية ، وقيل : أول من تكلم بها غيره . وأول من عبد الأصنام بعد الطوفان هم عاد الأولى ، وكانت أصنامهم ثلاثة : « صمداً وصموداً وهراً » فبعث الله فيهم أخاهم هوداً عليه السلام فدعاهم إلى الله تعالى يتحدث بذلك ما جاء في سورة الأعراف من قوله :

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً . قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلاَ تَتَّقُونَ * قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ * أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ ، وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ، فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ، فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ

---

(١) الفجر : ٦ - ٨ .

رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ، أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾[1]. وقال بعد ذكر قصة نوح في سورة هود : ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً ، قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ * يَاقَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ، إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ، أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾[2]. إلى قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ، جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَلاَ إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ ، أَلاَ بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾[3]. وكذلك جاء ذكر هود في سورة المؤمنون بعد قصة قوم نوح إذ يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ * فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾[4]. . . ثم قال تعالى في الشعراء بعد قصة قوم نوح أيضاً : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلاَ تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾[5]. . . وكذلك جاء في سورة حم والسجدة والأحقاف والذاريات والنجم واقتربت والحاقة والفجر ، وقد جرى ذكر عاد في سورة براءة وإبراهيم والفرقان والعنكبوت و(ص) و(ق) ، ولا يخفى أننا قلنا : إنهم أول من عبد الأصنام بعد الطوفان كما قررنا ذلك فيما تقدم ، وذلك بيّن في قوله لهم : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ﴾[6] : أي جعلهم أشد أهل زمانهم في الخلقة والشدة والبطش ، وقد كانوا جفاة كافرين وعتاة متمردين في عبادة الأصنام ، فأرسل الله فيهم رجلاً منهم يدعوهم إلى الله وإلى إفراده بالعبادة

---

(١) الأعراف : ٦٥ – ٧٢ (٢) هود : ٥٠ – ٥١ (٣) هود : ٥٩ – ٦٠

(٤) المؤمنون : ٣١ – ٣٢ (٥) الشعراء : ١٢٣ – ١٢٥ (٦) الأعراف : ٦٩

والإخلاص له ، فكذّبوه وخالفوه فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، فلما أمرهم بعبادة الله ودعاهم لطاعته واستغفاره ، ووعدهم على ذلك خير الدنيا والآخرة، وتوعدهم على مخالفة ذلك عقوبة الدنيا والآخرة ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ ﴾[1]. أي : إن هذا الأمر الذي تدعونا إليه سفه بالنسبة إلى ما نحن عليه من عبادة الأصنام التي يُرتجى منها النصر والرزق، ومع هذا نظن أنك تكذب في دعواك أن الله أرسلك ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[2]. أي : ليس الأمر كما تظنون ولا كما تعتقدون ﴿ أُبَلِّغُكُم رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُم نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾[3]. والبلاغ يستلزم عدم الكذب في أصل المبْلَغ وعدم الزيادة فيه والنقص منه ، ويستلزم إبلاغه بعبارة فصيحة وجيزة جامعة مانعة لا لبس فيها ولا اختلاف ، وهو مع هذا البلاغ على هذه الصفة في غاية النصح لقومه والشفقة عليهم والحرص على هدايتهم لا ينبغي منهم أجراً ولا يطلب جعلاً ، بل هو مخلص لله تعالى في الدعوة إليه والنصح لخلقه لأن الخير كله في يديه وأمره ولهذا قال :

﴿يَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[4].

أي أما لكم عقل تميزون به وتفهمون أني أدعوكم إلى الحق البين الذي تشهد به فطركم التي خلقتم عليها ، وهودين الحق الذي بعث الله به نوحاً وأهلك مَنْ خالفه من الخلق ، وها أنا أدعوكم إليه ولا أسألكم أجراً عليه ، وقال قوم هود له فيما قالوا : ﴿ يَاهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَانَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾[5] يقولون : ما جئتنا بخارق يشهد لك بصدق ما جئت به ، وما نحن بالذين نترك عبادة أصنامنا عن مجرد قولك بلا دليل أقمته ولا برهان نصبته ، وما نظن إلا

---

(1) الأعراف : ٦٦ (2) الأعراف : ٦٧ (3) الأعراف : ٦٨

(4) هود : ٥١ (5) هود : ٥٣ – ٥٤

أنك مجنون فيما تزعمه ، وعندنا أنه إنما أصابك هذا لأن بعض آلهتنا غضب عليك فأصابك في عقلك فاعتراك جنون بسبب ذلك وهو المراد من قولهم : ﴿ إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾[1]. ولذلك تحداهم وتبرأ من آلهتهم إذ أنها لا تنفع ولا تضر لأنها جماد ، حكمها حكمه وفعلها فعله ، نعم ، إنه تحداهم إذ وجه إليهم ذلك الرد البالغ القدير ﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِ ﴾[2]. وهذا الدليل بعينه قد استدل به نوح عليه السلام قبله في قوله: ﴿ يَاقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾[3] . كما كان رد الخليل على قومه إذ قال لهم : ﴿ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً ، وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ، أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً ﴾[4]. . . إلى قوله : ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ * أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ ﴾[5]. استبعدوا أن يبعث الله رسولاً بشرياً وهذه الشبهة أدلى بها كثير من الكفرة قديماً وحديثاً ، ولذلك قال لهم هود عليه السلام رداً على تلك الشبهة : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ ﴾[6]. أي : ليس هذا بعجيب فإن الله أعلم حيث يجعل رسالته ، ولما تمشى معهم في الوعظ قالوا له مما قالوا : ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ، فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[7].

أي: أجئتنا لنعبد الله وحده ونخالف آباءنا وأسلافنا وما كانوا عليه ، فإن كنت صادقاً فيما جئت به فأتنا بما تعدنا من العذاب والنكال فإنا لا نؤمن لك ولا نتبعك ولا نصدقك ، كما قالوا : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ * إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾[8].

---

(١) هود : ٥٤ (٢) هود : ٥٤ ٥٥ (٣) يونس : ٧١
(٤) الأنعام : ٨٠ – ٨١ (٥) المؤمنون : ٣٤ – ٣٥ (٦) الأعراف : ٦٣
(٧) الأعراف : ٧٠ (٨) الشعراء : ١٣٦ – ١٣٨

وقد ذكر الله تعالى خبر إهلاكهم في غير ما آية مجملاً ومفصلاً كقوله: ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾[١]. وكقوله : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَتِلْكَ عَادٌ ، جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ ﴾[٢]. وهي كثيرة وهذا في مجمل إهلاكهم .

وأما تفصيل إهلاكهم فقد قال تعالى في ذلك : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا ، بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ، رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٣]. كان هذا أول ما ابتدأهم العذاب أنهم كانوا محلين[٤] مسنتين [٥] ، فطلبوا السُقيا فرأوا عارضاً في السماء وظنوه سُقيا رحمة فإذا هو سقيا عذاب ، ولهـــذا قال تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ﴾[٦]. أي من وقوع العذاب وهو قولهم : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[٧]. ومثلها في الأعراف فهؤلاء لما أبوا إلا الكفر بالله عز وجل أمسك عنهم المطر ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك ، وقد كان الناس إذا جهدهم أمر في ذلك الزمان فطلبوا مـن الله الفرج منه إنما يطلبونه بحرمة ومكان بيته ، وكان معروفاً عند أهل ذلك الزمان وبه العماليق وهم من سلالة « عمليق بن لاود بن سام بن نوح عليه الســـلام » ، وكان سيدهم إذ ذاك رجلاً يقال له « معاوية بن بكر » ، وكانت أمه من قوم عاد واسمها « جلهدة ابنة الخبيري » فبعث عاد وفداً قريباً من سبعين رجلا ليستسقوا لهم عند الحرم فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة فنزلوا عـليــه فـأقـاموا عنده شهراً يشـربون الخمر ، وتغنيهـم الجـرادتـان - قينتان [٨] لمعاوية - وكانوا قد وصلوا إليه في شهر فلما طال مقامهم عنده

---

(١) الأعراف : ٧٢ (٢) هود : ٥٨ - ٥٩ (٣) الأحقاف : ٢٤

(٤) محلين : أي أصابهم المحل وهو الشدة وانقطاع المطر .

(٥) مسنتين : أي أصابتهم السنة وهي الجدب والقحط .

(٦) الأحقاف : ٢٤ (٧) الأعراف : ٧٠ (٨) القينة : الأمة المغنية .

وأخذته شفقة على قومه واستحيا منهم أن يأمرهم بالانصراف عمل شعراً يُعرِّض لهم فيه بالانصراف ، وأمر القينتين أن تغنياهم بذلك الشعر ليحملهم ذلك على الانصراف والسفر . وقال :

ألا ياقيل ويحك قم فَهيْنم	لعل الله يُصحبْنا غماما
فيسقي الأرض عاد إن عاداً	قد أمسُوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس نرجو	به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهمُ بخير	فقد أمست نساؤهم أيامي
وأن الوحش يأتيهم جهاراً	ولا يخشى لعاديّ سهاما
وأنتم هاهنا فيما اشتهيتم	نهاركم وليلكمُ تماما
فقُبِّح وفدكم من وفد قوم	ولا لُقُّوا التحية والسلاما

فعند ذلك تنبّه القوم لما جاءوا له فنهضوا إلى الحرم ودعوا لقومهم فدعا داعيهم وهو قَيل بن عنز فأنشأ الله سحابات ثلاثاً : بيضاء وحمراء وسوداء ، ثم ناداه مناد من السماء : اختر لنفسك - أو لقومك - من هذا السحاب . فقال : اخترت السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماءً فناداه مناد : « اخترت رماد رَمْدَدا ، لا تبْقى من عاد أحداً ، لا والداً يترك ولا ولداً ، إلا جعلته همدا ، إلا بني اللوذية الهَمَدا » وهم بطن من عاد كانوا مقيمين بمكة فلم يصبهم ما أصاب قومهم ، ومن بقي من أنسابهم وأعقابهم فهم « عاد الآخرة » وساق الله السحابة السوداء بما فيها من النقمة إلى عاد حتى تخرج إليهم من واد يقال له « المغيث » وقد أشرنا إلى هذا الوادي ، فلما رأوها استبشروا و : ﴿ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا ﴾[1]. فيقول الله تعالى تبكيتاً لهم وقطعاً لأطماعهم : ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ، رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾[2].

(١) الأحقاف : ٢٤
(٢) الأحقاف : ٢٤ - ٢٥

أي : إنها تهلك كل شئ أمرت به ، وكان أول من رأى تلك السحابة امرأة من عاد يُقال لها « مهد » فَسَخَّرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً [١] ، فلم تدع أحداً في عاد إلا وهلك .

واعتزل هود في حظيرة ومن معه من المؤمنين فلم يصبهم ، وقد كانت تمر على عاد فيما بين السماء والأرض فتدمغهم بالحجارة فتقضي عليهم ، ولذلك قال أبــو وائــل : وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وفداً لهم قالوا : لا تكن كوافد عاد . وقد تركتهم ريح العذاب صرعى كما قال تعالى : ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾[٢]. شبههم الله تعالى بأعجاز النخل التي لا رؤوس لها ، وذلك لأن الريح كانتْ تجئ إلى أحدهم فتحمله فترفعه في الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى جثة بلا رأس ، يشهد لذلـك قــولــه : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَـراً فِي يَــوْمِ نَحْــسٍ مُسْتَمِرٍ ﴾[٣] ، أي : دائم العذاب عليهم في تتابع لم ينقطع عنهم أبداً وصوره الله تعالى فقال : ﴿ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾[٤]. ، وقال تعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِــمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾[٥]. ، أي التي لا تنتج خيراً و﴿ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾[٦]، أي : كالشئ البالي الفــاني الذي لا يُنتفع به أصلاً .

وقد ثبت في الصحيحين من حديث شعبة عن الحكم عن مجاهد عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال : « نُصرتُ بالصبا وأهلكت عاد بالدبور » ، وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حــدثنــا محمد بن يحيى بن الضرير ، حــدثنا ابن فضيل عن مسلم عن مجاهد عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ :« ما فتح الله على عاد من الريح التي أهلكوا بها إلا مثــل الخاتــم فمرت بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم بين السماء والأرض ، فلما رأى ذلك أهل الحـاضرة

---

(١) الحسوم : الدائمة المتتابعة .
(٢) الحاقة : ٧
(٣) القمر : ١٩
(٤) القمر : ٢٠
(٥) الذاريات : ٤١
(٦) الذاريات : ٤٢

من عاد – الريح وما فيها – قالوا: هذا عارض ممطرنا ، فأتت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة » ، وقد رواه الطبراني عن عبد الله بن أحمد عن اسماعيل بن زكريا الكوفي عن أبي مالك عن مسلم الملائي عن مجاهد وسعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « ما فتح الله على عاد من الريح إلا مثل موضع الخاتم ، ثم أرسلت عليهم البدو إلى الحضر ، فلما رآها أهل الحضر قالوا : هذا عارض ممطرنا مستقبل أوديتنا ، وكان أهل البوادي فيها فألقى أهل البادية على أهل الحاضرة حتى هلكوا » .

وقد بيننا أن هود عليه السلام قد حج عندما تحدثنا عن حج نوح عليه السلام، وقد روى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن ذكر صفة قبر هود عليه السلام في بلاد اليمن ، وذكر آخرون : أنه بدمشق وبجامعها مكان بحائطه القبلي يزعم بعض الناس أنه قبر هود عليه السلام . والله أعلم .

* * *

قصة صالح نبي ثمود عليه السلام

يريد القلم أن يكتب عن قصة سيدنا صالح عليه السلام ولكنه يؤثر أولاً أن يتحدث عن سر تسمية ثمود بهذا الاسم لاتصال ذلك بموضوعنا الذي نريد أن نكشف عن أطواره وتطوراته ليقف كل باحث وكل مطلع على ما عساه ينفعه ويهديه في توخيه لمثل هذه القصة وما تستهدفه ويقصد منها .

فثمود قبيلة مشهورة سميت باسم جدها ثمود أخي جديس وهما ابنا عاثر بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام ، وكانوا عرباً من العاربة يسكنون الحِجْر الذي بين الحجاز وتبوك ، وقد مر به رسول الله ﷺ وهو في طريقه إلى تبوك بمن معه من المسلمين للغزو وكانوا يعبدون الأصنام كقوم عاد فإنهم جاءوا من بعدهم فبعث الله فيهم رجلاً منهم وهو عبد الله ورسوله صالح بن عبيد بن ماسح بن عبيد بن حادر بن ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وأن يخلعوا الأصنام والأنداد ولا يشركوا به شيئاً ، فآمنت به طائفة منهم وكفر جمهورهم به ونالوا منه بالمقال والفعال وهمُّوا بقتله ولكنهم قتلوا الناقة التي جعلها الله حجة عليهم فأخذهم الله بما كانوا يعملون ، وقد هدانا الله إلى ذلك الإرسال العظيم بقوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً ، قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ، قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ، فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ، وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الجِبَالَ بُيُوتاً ، فَاذْكُرُوا آلاَءَ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * قَالَ المَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ، قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ

بـه كـافـرُونَ * فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَاصَالِحُ ائتنا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لاَ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾(١) .

وقال تعالى في سورة هود : ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً ، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِـــنَ الأَرْضِ وَاسْـــتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (٢) . . . إلى قوله تعالى : ﴿ أَلاَ إِنَّ ثَمُوداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ ، أَلاَ بُعْداً لِثَمُودَ ﴾ (٣) .

وقال في ذكر ثمود (بالحجر والإسراء والشعراء والنمل وحم السجدة واقتربت) ما يبعث على أشد العبر وأروع آيات الاعتبار والتذكير وفي ذلك ذكرى لمن كان له قلب وهدى إلى الاعتبار بالعبر والنذر ، وكثيراً ما يقرن الله تعالى في كتابه بين ذكر عاد وثمود ، يهدي إلى ذلك ما جاء في السور : براءة وإبراهيم والفرقان و(ص) و(ق) والنجم والفجر ، ويظهر أن ذلك إنما جاء لاشتراكهما في شدة الكفر وعكوفهما البالغ على العتو والعناد والاستكبار والتمادي في ذلك بعد زجرهم وإنذارهم بالآيات التي لم تجد لها فيهم أثراً ولم تترك بهم إلا عناداً وكفراً ، فيأتيهم العذاب وما أنذروا به من حيث لا يشعرون فيدمرهم ويقضي عليهم ، وفي ذلك عبرة لأولى الألباب حيث حل ووقع بهم ما لم يكونوا يتوقعون وينتظرون ، مما لم يبق عليهم ولم يذرهم في طغيانهم ، وقد نجى الله نبيهم صالحاً كما نجى قبله هوداً وغيره من المرسلين ، ومع أن قوم صالح جاءوا بعد عاد ولم يعتبروا بما صار إليهم أمرهم وأنتهى حالهم فقد وجه إليهم رسولهم من آيات التـذكير ما كان يجب أن لا يلههم الأمل بعد ذلك ، إذ قال: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، هَذِهِ نَـاقَـةُ اللَّهِ لَـكُمْ آيَـةً ، فَـــذَرُوهَــا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ، وَلاَ تَمَسُّوهَـــا

(١) الأعراف : ٧٣ - ٧٩ . (٢) هود : ٦١ . (٣) هود : ٦٨ .

بسوء فيأخذكم عذاب أليم * واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض ﴾ [1] . فذكرهم بنعم الله وآلائه عليهم ليقوموا بشكره ويؤدوا ما كلفهم رسولهم به من توحيد ربهم وعبادة خالقهم ورازقهم ولزوم طاعة مولاهم ووجوب الإقرار بوحدانيته وألوهيته ، وتوعد من يخالف ذلك بسوء العقبى وسوء المصير ، ولم يقف معهم عند إنذاره لهم بل ذكرهم بنعمه تعالى عليهم ووعظهم بقوله : ﴿ أتتركون في ما ههنا آمنين * في جنات وعيون * وزروع ونخل طلعها هضيم ﴾ [2] أي متراكم كثير حسن بهي ناضج ﴿ وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين ﴾ [3] أي حاذقين في صنعتها وإتقانها وإحكامها ﴿ فاتقوا الله وأطيعون * ولا تطيعوا أمر المسرفين * الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ﴾ [4] وقال لهم أيضاً : ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾ [5] أي هو الذي خلقكم فأنشأكم من الأرض وجعلكم عمارها ، أي أعطاكموها بما فيها من الزروع والثمار فهو الخالق الرازق وهو الذي يستحق العبادة دون سواه ﴿ فاستغفروه ثم توبوا إليه ﴾ [5] أي : أقلعوا عما أنتم فيه من الكفر والضلال وأقيموا على عبادته وطاعته ، فإنه يقبل منكم ويتجافى عنكم ﴿ إن ربي قريب مجيب ﴾ [5] . وقد ردوا عليه بعد هذه العظات البالغة إذ وجهوا إليه ذلك الرد القبيح : ﴿ قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا ﴾[6] أي قد كنا نرجو أن يكون عقلك كاملاً قبل هذه المقالة وهي دعاؤك إيانا أن نفرد العبادة لله وحده ونترك ما كنا نعبده من الأنداد وأن نعدل عن دين آبائنا وأجدادنا ، يدل على هذا قولهم : ﴿ أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب ﴾ [6] ، ولما وجهوا إليه ذلك الرد بهذه العبارات لم يشأ أن يقابلهم بجاف الرد ، بل إنه عليه السلام لم يتعداه الأدب ولم يتخط حسن

---

(1) الأعراف : ٧٣ ، ٧٤ . (2) الشعراء : ١٤٦ - ١٤٨ . (3) الشعراء : ١٤٩ .
(4) الشعراء : ١٥٠ - ١٥٢ . (5) هـــود : ٦١ . (6) هـــود : ٦٢ .

الخُلُق والتعاليم الدينية فتلطف معهم في الرد حيث قال لهم : ﴿ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾ (١) أي : فما ظنكم إن كان الأمر كمَا أقول لكم وأدعوكم إليه ماذا يكون عذركم عند الله ؟ وماذا يُخَلصَكُم من بين يديه وأنتم تطلبون مني أن أترك دعوتكم إليه ؟ ﴿ فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ، فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ (١) أي : أنني لو تركت دعوتكم إلى طاعته وتبليغكم ما أرسلت به إليكم لما استطاع أحد منكم ولا من غيركم أن ينجيني منه ويجيرني من غضبه وينصرني إن حل بي عذابه وسخطه ، فإن تركي دعوته لا يزيدني إلا خسراناً ، ولذلك فإن واجبي أن أستمر في دعوتكم إليه ووجوب توحيده والاعتراف بربوبيته ، وقد وجهوا إليه اختبارات بعيدة المدى وهو في جميعها يجيبهم إلى ما سألوه ، فلما رأوا منه ما عاينوه من معجزات باهرة ، فتنفطر تلك الصخرة التي ظنوا عجزه عن انفطارها بناقة عظيمة عشراء ، آمن كثير منهم واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم ولهذا قال : ﴿ فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ (٢) أي جحدوا بها ولم يتبعوا الحق بسببها ، أي لم يتبع أكثرهم هذه الآية وتلك المعجزة ولم يؤمن بها ، أما من آمن منهم فكان رئيسهم « جندع به عمرو به محلاة بن لبيد بن حواس » فهو من أشراف ثمود ورؤسائهم وقد هَمَّ بقية الأشراف بالإسلام فصدهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد ، والحباب صاحب أوثانهم ، ولباب بن صعر بن جلمس ، ودعا جندع ابن عمه شهاب بن خليفة وكان من أشرافهم فَهَمّ بالإسلام فنهاه أولئك عنه فمال إلى البقاء معهم وبقى على مسلكهم . . . وقد قال في ذلك رجل من المسلمين يقال له « مهرش بن غنية بن الزميل » رحمه الله هذه الأبيات :

وكانت عصبة من آل عمرو	إلى دين النبي دعوا شهابا
عزيز ثمود كلهم جميعاً	فَهَمّ بأن يجيب ولو أجابا
لأصبح صالح فينا عزيزاً	وما عدلوا بصاحبها ذؤابا

(١) هود : ٦٣ (٢) الأعراف : ١٠٣

ولكن الغواة من آل حجر تولوا من بعد رشدهم ذبابا

ولهذا قال لهم صالح عليه السلام : ﴿ هَذِه نَاقَةُ اللَّه لَكُمْ آيَةً ﴾[1] . أضافها لله إضافة تشريف وتعظيم ، وقوله : ﴿ لَكُمْ آيَةً ﴾ أي دليلاً على صدق ما جئتكم به . ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾[1] ، فاتفق الحال على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم ترعى حيث شاءت من أرضهم وترد الماء يوماً بعد يوم ، وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذاك ، فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء في يومهم لغدهم ، ولهذه الاعتبارات قال تعالى : ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ ﴾[2] ، فلما طال عليهم هذا الحال استقر رأيهم على أن يعقروا هذه الناقة ليتخلصوا ويستريحوا منها ، فتولى قتلها « قدار بن سالف بن جندع » وكان يقال إنه ابن زانية ولد على فراش سالف وهو ابن رجل يقال له صيبان وكان هذا منهم باتفاقهم جميعاً ولذلك قال تعالى : ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾[3] ولما تمادوا في تكذيب رسولهم ومخالفة أمر ربهم بعقر الناقة التي نُهوا عن عقرها وتكذيبهم نبيهم مع قيام الأدلة القاطعة على صدق نبرته واستعجالهم لوقوع العذاب الدال عليه قوله : ﴿ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[4] فعقروها وعتوا عن أمـــر ربهم ﴿ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾[5] دفعهم كفرهم وحملهم عنادهم وبغيهم على استبعاد الحق ووقوع العذاب بهم ، فقال لهم نبيهم: ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ، ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾[6] ، فلما أمسوا هموا بقتله عليه السلام وأرادوا أن يلحقوه فيـــما يزعمـــون بالناقـــة ولـذلك ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾[7] أي : لنكسبنه في داره مع أهله فنقتلنه

---

(١) هود : ٦٤ (٢) القمر : ٢٧ (٣) القمر : ٢٩ ـ ٣٠ .
(٤) الأعراف : ٧٣ (٥) الأعراف : ٧٧ (٦) هود : ٦٥
(٧) النمل : ٤٩

ثم نجحدن قتله وننكره إن طالبنا أولياؤه بذلك الدم ، يشهد لذلك قولهم : ﴿ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ (١).

ولكن انظر كيف كان عاقبة أمرهم ونهاية مكرهم ومآل تخبطهم في تقديرهم في قوله : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (٢) .

فبعد الأيام التي ضربها لهم صالح جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم ورجفة من أسفل منهم ففاضت الأرواح وزهقت النفوس وسكنت الحركات وخشعت الأصوات وحقت الحقائق فأصبحوا في دارهم جاثمين جثثاً لا أرواح فيها ولا حراك بها ، ولم يبق منهم إلا جارية كانت مقعدة واسمها « كلبة بنت السلق » وكانت شديدة الكفر والعداوة لصالح عليه السلام ، فلما رأت العذاب أطلقت رجلاها فقامت تسعى كأسرع شئ فأتت حياً من العرب فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها واستسقتهم ماء فلما شربت ماتت ، فقوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾(٣) أي كأن لم يقيموا بها في سعة ورزق وغناء ﴿ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ، أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ ﴾(٣) أي : نادى عليهم لسان القدر بهذا .

* * *

● **خطاب صالح عليه السلام لقومه بعد هلاكهم :**

وقد خاطب رسول الله صالح عليه السلام قومه بعد أن حل بهم ما حل من العذاب ونزل بآفاقهم من الهلاك ، فقد عزم على الارتحال من محلتهم قائلاً لهم: ﴿ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ

---

(١) النمل : ٤٩ (٢) النمل : ٥٠ - ٥٣ (٣) هود : ٦٧ - ٦٨

النَّاصحينَ ﴾ (١) أي : أنني جهدت في هدايتكم بكل ما استطعت وحرصت على ذَلك بقولي وفعلي ونيتي ولكن لا تحبون الناصحين ، أي : لم تكن سجاياكم وطبائعكم تقبل الحق ولا تريده ، فلهذا صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب الأليم المستمر بكم إلى ما لا نهاية ، ولا حيلة لي فيما وقع بكم ، والذي وجب عليّ من أداء الرسالة قد فعلته وبلغتكم إياه ، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ، وهكذا خاطب النبي ﷺ أهل قليب بدر بعد ثلاث ليال إذ وقف عليهم وقد ركب راحلته وأمر بالرحيل عن بدر فقال : « يا أهل القليب ، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقا » ، وقال لهم فيما قال : « بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم ، كذبتموني وصدقني الناس ، وأخرجتموني وآواني الناس ، وقاتلتموني ونصرني الناس ، فبئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم » ، فقال له عمر : يارسول الله ، تخاطب قوماً قد جيفوا ؟ فقال: « والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يجيبون » ، ويقال : إن صالحاً انتقل إلى حرم الله وبقى حتى مات به صلى الله عليه وسلم .

* * *

---

(١) الأعـــراف : ٧٩

قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام وما يتصل بها

لا يستطيع القلم أن يكتب عن شخصية سيدنا إبراهيم عليه السلام ، ولا أن يحيط علماً بجوانب عظمته ، ولا أن يُعَبِّر عن مدى فضله وجلال قدره وكُنه حقيقته لأنه لا يجد من آيات التقدير ما يمكنه من السير في هذا الشأن ، ولا يلقي من سحر البيان ما يصف به ذلك الكمال الإنساني والنور الرباني ، وكيف يجد من آيات البلاغة ومعجزات الفصاحة ما يعبر به عن مدى تلك الشخصية العظيمة وقد اتخذه الله خليلاً ؟ وكل الأقلام إنما تقف عند هذا الحد ولا تتعدى ذلك الجلال ، وإنما الذي يمكن أن نقوم بالكتابة فيه هذه القصة وهي وحدها التي تتحدث عن جلاله وتتكلم عن مدى قدره ورفيع ذكره وعظيم نسبه ، وكيف لا ؟ وهو إبراهيم بن تارخ بن تاحور بن ساروغ بن راغو بن فالغ بن عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام .

وحكى الحافظ ابن عساكر في ترجمة الخليل إبراهيم من تاريخه عن إسحاق بن بشر الكاهلي صاحب كتاب « المبتدأ » أن اسم أم إبراهيم « أميلة » ثم أورد عنه في خبر ولادتها له حكاية طويلة لا داعي لذكرها ، وقال الكلبي : اسمها « بونا » بنت كرينا بن كرثي من بني أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام .

وروى ابن عساكر من غير وجه عن عكرمة أنه قال : « كان إبراهيم عليه السلام يكني « أبا الضيفان » ولما كان عمر تارخ خمساً وسبعين سنة ولد له إبراهيم عليه السلام وتاحور وهاران ، وولد لهاران لوط ، وعندهم أن إبراهيم عليه السلام هو الأوسط وأن هاران مات في حياة أبيه في أرضه التي ولد فيها وهي أرض الكلدانيين - يعنون أرض « بابل » - وهذا هو الصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ والأخبار . وصحح ذلك الحافظ ابن عساكر بعد ما روى من طريق هشام بن عمار عن الوليد عن سعيد بن عبد العزيز عن مكحول عن ابن عباس قال : وُلِدَ إبراهيم بغوطة دمشق بقرية يقال لها « برزة » في جبل

يقال لـه « قاسيون » . ثم قال : والصحيح أنه وُلِدَ بـ « بابل » وإنما نُسب إليه هذا المقام لأنه صلى فيه إذ جاء معيناً للوط عليه السلام ، ثم تزوج إبراهيم «سارة»، وتاحور « ملكا » ابنة هاران - يعنون بذلك ابنة عمه - وكانت سارة عاقراً لا تلد ، وانطلق تارخ بابنه إبراهيم وامرأته سارة وابن أخيه لوط بن هاران فخرج بهم من أرض الكلدانيين إلى أرض الكنعانيين ، فنزلوا حرَّان فمات بها تارخ وله من العمر مئتان وخمسون سنة ، وهذا يدل على أنه لم يُولد بـ « حرَّان» وإنما كان مولده بأرض الكلدانيين وهي أرض « بابل » وما والاها ، ثم ارتحلوا عنها قاصدين أرض الكنعانيين وهي بلاد بيت المقدس ، فأقاموا بــ«حرَّان»وهي أرض الكنعانيين في ذلك العهد ، وكذلك أرض الجزيرة والشام أيضاً ، وكانوا في ذلك الزمن يعبدون الكواكب السبعة المعروفة ، والذين عمروا دمشق كانوا على عبادة الكواكب يستقبلون القطب الشمالي ويعبدون الكواكب السبعة بأنواع من الفعال ، ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكل لكل كوكب منها ، ويعملون لها أعياداً وقرابين ، وهكذا كان أهل حران كفاراً ومن كان على وجه الأرض حينئذ كان كذلك لأنهم جميعاً كانوا يعبدون الكواكب والأصنام سوى إبراهيم وامرأته سارة وابن أخيه لوط عليهم السلام وكان الخليل هو الذي أزال الله به تلك الشرور وقضى عليها وأبطل به ذلك الضلال ، فإن الله تعالى آتاه رشده في صغره وابتعثه رسولاً واتخذه خليلاً في كبره ولــذلك قال : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾[1] أي : كنا عالمين أنه أهل لذلك ، ويوحى بأنه رسول الله إلى قومه قوله تعالى في سورة العنكبوت : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً، إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ، إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ * أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ

---

(١) الأنبيــاء : ٥١

اللَّهُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ ، إنَّ ذَلكَ عَلَى اللهِ يَسيرٌ * قُلْ سيرُوا في الأرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ ، ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ ، إنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ * يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ ، وإلَيْهِ تُقْلَبُونَ * وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ في الأرْضِ ولاَ في السَّمَاءِ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَليٍ وَلاَ نَصيرٍ * والَّذينَ كَفَرُوا بآيَاتِ اللهِ وَلِقَائهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتي وأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أليمٌ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إلاَّ أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ، إنَّ في ذَلكَ لآيَاتٍ لِقَومٍ يُؤْمِنـــُونَ ﴾ (١) . . . إلى أن قال : ﴿ ووَهَبْنَا لَهُ إسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا في ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوةَ والكِتَابَ وآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ في الدُّنْيَا ، وإنَّهُ في الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٢) .

* * *

- **المناظرة بين إبراهيم وقومه ومـدى خـطرهـا ، واحتجاج الله بها على مشركي العرب :**

كثيراً ما يحتج الله تعالى على مشركي العرب بأحوال إبراهيم عليه السلام ومواقفه العظيمة التي تتحدث بها الرسالة السماوية وتنطق الأيام بجلالها وتفخر الأجيال بعد الأجيال بآياتها ، وذلك لأنه يعترف بفضله جميع الطوائف والملل .

وقد ذكر الله تعالى حكاية حاله في معرض احتجاجه على المشركين واعتراف العالم بفضله وعلو مرتبته ، مما لم يتفق ذلك لأحد كما اتفق لإبراهيم عليه السلام . والسبب في ذلك يرجع إلى أنه حصل عهد بين الرب وبين العبد ، أي قامت معاهدة بينهما ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾(٣) فإبراهيم عليه السلام قد وفىٍّ بعهد العبودية ، والله تعالى شهد له بذلك على سبيل الإجمال تارة وعلى سبيل التفصيل تارة أخرى .

---

(١) العنكبوت : ١٦ – ٢٤ (٢) العنكبوت : ٢٧ (٣) البقرة : ٤٠ .

أما الإجمال فقد أتى به في آيتين إحداهما قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾(١) وهذه شهادة منه تعالى بأنه تمم عهد العبودية ، والثانية قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(٢) .

وأما التفصيل فهو أنه عليه السلام ناظر في إثبات التوحيد وإبطال القول بالشركاء والأنداد في مقامات كثيرة ، أما المقام الأول : فإنه في مناظرته لأبيه حيث قال له : ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً ﴾(٣) وسنتحدث عن هذا النسب ومدى صدقه من حيث أبوته لسيدنا إبراهيم وعدم أبوته له ، والقول الفصل الذي ينبغي الأخذ به واعتباره في هذا الشأن الهام ، (المقام الثاني) مناظرته مع قومه التي يوحى بها قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً ، قَالَ هَذَا رَبِّي ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴾(٤) ، (والمقام الثالث) مناظرته مع ملك زمانه إذ يقول إبراهيم : ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾(٥) فيقول الملك : ﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾(٥) فيقول إبراهيم : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾(٥) (والمقام الرابع) مناظرته مع الكفار بالفعل إذ جاء ذلك في قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلاَّ كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا ﴾(٦)، وقالوا : ﴿ أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ (٧) ، فلما رأى القوم ذلك قالوا: ﴿ حَرِّقُوهُ وانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾(٨) ، ثم إنه بعد ذلك ضحى بولده اسماعيل عليهما السلام إذ قال له : ﴿ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ (٩)

(١) البقرة : ١٢٤ (٢) البقرة : ١٣١ (٣) مريم : ٤٢
(٤) الأنعام : ٧٦ (٥) البقرة : ٢٥٨ (٦) الأنبياء : ٥٨ — ٥٩
(٧) الأنبياء : ٦٢–٦٣ (٨) الأنبياء : ٦٨ (٩) الصافات : ١٠٢

فقال له ابنه إسماعيل عليه السلام : ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ، سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾[1] فمن هذا أثبت إبراهيم عليه السلام قلبه للعرفان ولسانه للبرهان وبدنه للنيران وولده للقربان . ثم إنه سأل ربه هذا السؤال فقال : ﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴾[2] فوجب في كرم الله تعالى أن يجيب دعاءه ويستجيب سؤاله ويحقق مطلوبه فاستجاب له ما طلب وحقق ما سأل فجعله مقبولاً لجميع الفرق والطوائف إلى يوم القيامة .

ولما كان العرب معترفين بفضله فقد جعل الله تعالى مناظرته حجة على مشركي العرب ومنافقيهم .

* * *

- **الآراء الحية التي يراها أولوا الألباب وتؤيدها الأخبار في بُعْدِ نسبة آزر إلى إبراهيم عليه السلام :**

يستبعد أولوا الألباب وأهل الذكر نسبة آزر لإبراهيم عليه السلام ، وإني أقف في جانب من يرى هذا الرأي ويستبعد هذه النسبة وإن كان ظاهر الآية يدل على خلاف ذلك .

فقد قالت الشيعة : إن أحداً من آباء الرسول عليه الصلاة والسلام ما كان كافراً ، وأنكروا أن يقال : إن إبراهيم كان كافراً ، وذكروا أن آزر كان عم إبراهيم عليه السلام وما كان والداً له ، واحتجوا على قولهم هذا بأن آباء الأنبياء ما كانوا كفاراً ، يدل على هذا ويقوم به البرهان من وجوه ، منها قوله تعالى : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾[3] قيل: إن معنى ذلك أنه كان ينقل روحه من ساجد إلى ساجد ، وعلى هذا التقدير فالآية دالة على أن جميع آباء سيدنا محمد ﷺ كانوا مسلمين ، ويجب بهذا الاعتبار

---

(١) الصافات : ١٠٢ (٢) الشعراء : ٨٤ (٢) الشعراء : ٢١٨ – ٢١٩

والتقدير الصحيح القطع بأن والد إبراهيم عليه السلام كان مسلماً ، ويشهد بهذا ويقطع به قوله ﷺ : « لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهـرات » وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾(١) وذلك يوجب أن يُقال إن أحداً من أجداده عليه الصلاة والسلام ما كان من المشركين . فإذا ثبت هذا ثبت أن والد إبراهيم عليه السلام ما كان مشركاً ، وقد ثبت أن آزر كان مشركاً، فوجب القطع بأن والد إبراهيم عليه السلام كان إنساناً آخر غير آزر ، وقد ثبت كذلك أنه لم يكن والداً له لأنه كان يشافهه بالغلظة والجفاء ، ويدل على هذا قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾(٢) وقد قال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً ﴾(٣) بل كان عماً له ، فأما والد إبراهيم عليه السلام فهو « تارخ » كما قدمنا ذلك في نسبه عليه السلام ، والعم قد يُسمى بالأب عند العرب ، قال الضحاك عن ابن عباس : إن أبا إبراهيم لم يكن اسمه آزر إنما كان اسمه تارخ (رواه ابن أبي حاتم) ، وعن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ ﴾(٤) : يعني بآزر الصنم وأبو إبراهيم اسمه « تارخ » وأمه اسمها « مثاني » وامرأته اسمها « سارة » وأم إسماعيل اسمها «هاجر» وقال مجاهد والسدي : آزر اسم صنم .

وقد اشتمل كلام إبراهيم لأبيه في هذه الآية على ذكر الحجة العقلية التي يتحدث بها قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً ، إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً ، قَالَ هَذَا رَبِّي ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴾(٥) على

(١) التوبة : ٢٨ (٢) الأنعام : ٧٤ (٣) لقمان : ١٤ – ١٥
(٤) الأنعام : ٧٤ (٥) الأنعام : ٧٤ – ٧٦

فساد قول عبدة الأصنام من وجهين : (الأول) أن قوله :﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ﴾ يدل على أنهم كانوا يقولون بكثرة الآلهة ، والقول بكثرة الآلهة باطل بالدليل العقلي الذي فُهم من قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [1] ، (والثاني) أن هذه الأصنام لو جُعلت لها القدرة على الخير والشر لكان الصنم الواحد كافياً ، فلما لم يكن كافيًا دل ذلك على أنها - وإن كثرت - فلا نفع فيها ألبتة .

وكما أريناه قبح عبادة الأصنام التي يدل عليها قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ ، فإنا نريه من آيات ألوهيتنا ووحدانيتنا ومدى قدرتنا ما يُدهش العقول ويأخذ بالألباب والذي يدل عليه قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ ، فنور جلال الله تعالى لائح غير منقطع ولا زائل ألبتة ، والأرواح البشرية لا تحرم من تلك الأنوار إلا من قيام الحجاب بينها وبين تلك الأنوار ، وذلك الحجاب ما هو إلا الاشتغال بغير الله تعالى ، وإذا كان الأمر كذلك ، فإنه بقدر ما يزول من ذلك الحجاب يحصل التجلي ، فقول إبراهيم عليه السلام ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ﴾ إشارة إلى تقبيح الاشتغال بغير عبادة الله تعالى لأن كل ما سوى الله فهو حجاب عن الله تعالى ، فلما زال ذلك الحجاب تجلى له ملكوت السموات والأرض تجلياً تاماً فقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ معناه : وبعد زوال الاشتغال بغير الله تعالى حصل له نور تجلي جلال الله تعالى له فيكون قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي ﴾ منشأ لهذه الفائدة الروحانية الجليلة وليس المقصود من إراءة الله تعالى إبراهيم ملكوت السموات والأرض هو مجرد أن يري إبراهيم ملكوت السموات والأرض ، بل المقصود أنه يتوسل ويتوصل بها إلى معرفة الله تعالى وجلاله وقدره وعظمته ، ودلالة ملك الله تعالى وملكوته على نعوت جلاله وسمات عظمته وعزته غير متناهية .

---

(١) الأنبياء : ٢٢

وحصول المعلومات التي لا نهاية لها دفعة واحدة في عقول الخلق محال ، فإذن لا سبيل إلى تحصيل تلك المعلومات والمعارف إلا بتحصيل بعضها عقيب بعض لا إلى نهاية ولا إلى آخر في المستقبل ، فلهذا السبب - والله أعلم - لم يقل : وكذلك أريناه ملكوت السموات والأرض ، بل قال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ وهذا هو المراد من قول المحققين : السفر إلى الله تعالى له نهاية ، وأما السفر في الله تعالى فإنه لا نهاية له .

ولا يفوتني أن ألفت العقول إلى أن الملكوت هو الملك ، وإنما زيدت (التاء) ، فيه للمبالغة .

وفي تفسير هذه الآية قولان : (الأول) أن الله تعالى أراه الملكوت بالعين فشق له السموات حتى رأى العرش والكرسي إلى حيث ينتهي إليه فوقية العالم الجسماني ، وشق له الأرض وإلى حيث ينتهي إلى السطح الآخر من العالم الجسماني، فرأى ما في السموات من العجائب والبدائع ، ورأى ما في باطن الأرض كذلك .

وقد ذكر أكثر المفسرين أن ملك ذلك العهد - وهو نمروذ - رأى رؤيا وعبَّرها المعبرون أنه يُولد غلام ينازعه في ملكه ، فأمر ذلك الملك بذبح كل غلام ، فحملت أم إبراهيم به وما أظهرت حملها للناس ، فلما جاءها الطلق ذهبت به إلى كهف في جبل ووضعت إبراهيم في ذلك الكهف وسدت عليه الباب بحجر ، فجاء جبريل عليه السلام ووضع أصبعه في فمه فمصه فخرج منه رزقه ، وظل جبريل عليه السلام يتعهده فكانت الأم تأتيه أحياناً فترضعه ، وبقى علي هذه الحال حتى كبر وعقل وعرف أن له رباً فسأل الأم فقال لها : من ربي ؟ فقالت: أنا ، فقال لها : ومن ربك ؟ فقالت : أبوك فقال للأب : ومن ربك؟ فقال له : ملك البلد . . فعرف إبراهيم عليه السلام جهلهما بربهما فنظر من باب ذلك الغار فلم ير شيئاً يستدل به على وجود الرب سبحانه وتعالى ، فرأى النجم الذي هو أضوأ النجوم في السماء فقال : هذا ربي . . . إلى آخر ما جاء في هذه المناظرة .

ثم إن القائلين بهذا القول قد اختلفوا ، فمنهم من قال : إن ذلك كان بعد البلوغ وجريان قلم التكليف عليه ، ومنهم من قال : إن ذلك كان قبل البلوغ ، واتفق أكثر المحققين على فساد القول بربوبية النجم فإن القول بربوبيته كفر بالإجماع ، والقول بالكفر غير جائز على الأنبياء بالإجماع ، وهذا هو الوجه الأول من وجوه إبطال القول بربوبية النجم .

(والوجه الثاني) أن إبراهيم عليه السلام كان قد عرف ربه قبل هذه الواقعة بالدليل ، والدليل على صحة هذا ما ذُكِرَ أنه تعالى أخبر عنه أنه قال قبل هذه الواقعة لأبيه آزر - كما هو ظاهر هذه الآية ، وقد كتبنا ما يثبت وجوب عدم الأخذ بظاهر هذه الآية بما أقمناه من أدلة وما أتينا به من براهين - والآية التي بتحدث عنها هي هوله تعالى : ﴿ أَتَتَخِذُ أَصْنَامَاً آلِهَةً ، إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (١) .

(الثالث) أنه تعالى حكى عنه أنه دعا أباه إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام - كما هو ظاهر هذه الآية أيضاً - ومن المعلوم أن من دعا إلى الله تعالى فإنه يقدم الرفق على العنف ، واللين على الغلظة ولا يتعرض للتعنيف والتغليظ إلا بعد فهم نفسه ، ومن هذا أثبت أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن عرف الله تعالى .

(الرابع) أن هذه الواقعة إنما قامت بعد أن أراه الله ملكوت السموات والأرض حتى رأى ما فوق العرش والكرسي وما تحتهما إلى ما تحت الثرى ، ومن كان منصبه في الدين كذلك وعلمه بالله عظيم الشأن ، فكيف يليق به أن يعتقد ألوهية الكواكب ؟ !

(الخامس) أنه تعالى وصف إبراهيم عليه السلام بأعظم صفة ، فوجه إليه قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (٢) وأقل مراتب القلب السليم أن

---

(١) الأنعام : ٧٤ (٢) الصافات : ٨٤

يكون سليماً من الكفر ، وقد مدحه أيضاً بقوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ (١) أي : آتنياه رشده من أول زمان الفترة وكنا عالمين بطهارته وكماله ، ونظير ذلك قوله : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (٢) .

(السادس) قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ (٣) أي : وليكون بسبب تلك الإراءة من الموقنين ، ثم قال بعد ذلك : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً ﴾ (٤) - والفاء في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ ﴾ للترتيب - وعلى ذلك فإنما تكون الواقعة قد وقعت بعد أن صار إبراهيم من الموقنين العارفين بربهم .

(السابع) أن هذه الواقعة إنما وقعت وحصلت بعد مناظرة قامت بين إبراهيم عليه السلام وقومه ، والدليل على ذلك أنه تعالى لما ذكر هذه القصة قال: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ﴾ (٥) ولم يقل : على نفسه ، ومن ذلك عُلِمَ أن هذه المباحثة إنما جرت مع قومه ليرشدهم إلي الإيمان والتوحيد .

(الثامن) أن القوم كانوا يقولون : إن إبراهيم اشتغل بالنظر في الكواكب والشمس والقمر حينما كان في الغار ، وهذا باطل ومحض افتراء ، لأنه لو كان كما قالوا وزينته لهم شياطينهم ما كان يُوجه إليهم قوله : ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (٦) وفضلاً عن ذلك فإنه لما كان في الغار لَمَ يكن هناك قوم ولا صنم ، فكيف يقال إنه كان يشتغل بالكواكب ؟ وهل يخاطب ما كان ليس موجوداً ؟

---

(١) الأنبياء : ٥١ (٢) الأنعام : ١٢٤ (٣) الأنعام : ٧٥
(٤) الأنعام : ٧٦ (٥) الأنعام : ٨٣ (٦) الأنعام : ٧٨

(التاسع) قال تعالى : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ، قَالَ أَتُحَاجُونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ﴾ (١) وكيف يحاجونه وهم بعد ما رأوه وما رآهم ، وهو دليل على أنه عليه السلام إنما اشتغل بالنظر في الكواكب والشمس والقمر بعد أن خالط قومه واتصل بهم ورآهم يعبدون الأصنام ودعوه إلى عبادتها فذكر لهم قوله : ﴿ لاَ أُحِبُ الآفِلِينَ ﴾ (٢) رداً عليهم وتنبيهاً لهم على فساد قولهم وبطلان آرائهم .

(العاشر) الله تعالى حكى عنه عليه السلام أنه قال لقومه : ﴿ وكَيفَ أخَافُ مَا أشْرَكْتُمْ ولاَ تَخَافُونَ أنّكُمْ أشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً ﴾ (٣) .

وهذا يدل على أن القوم كانوا خوّفوه بالأصنام كما حكى عن قوم هود أنهم قالوا له : ﴿ إنْ نَقُولُ إلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ (٤) ومعلوم أن كلامهم ذلك لا يليق بمن كان في الغار ، بل يقطع بأن ذلك إنما كان بعد البلوغ رليس الغرض منه إثبات ربوبية الكواكب ، بل الغرض منه أنه كان يناظر عبدة الكواكب وقد كان اعتقادهم أن الكواكب ربهم وإلههم ، فذكر إبراهيم عليه السلام ذلك القول الذي قالوه بلفظهم وعبارتهم حتى يرجع إليه فيبطله ، ثم ذكر عقيب ذلك ما يدل على فساده وهو قوله : ﴿ لاَ أُحِبُ الآفِلِينَ ﴾ وهذا الوجه هو أقوى جواب في هذا الشأن ، والدليل عليه أنه تعالى أقام الدليل في أول الآية على هذه المناظرة بقوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَتُنَا آتَيْنَاهَا إبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ﴾ وأفولها يدل على حدوثها ، وحدوثها يدل على افتقارها إلى فاعل قديم قادر ، ويجب أن تكون قادرية ذلك القادر أزلية وإلا لافتقرت قادريته إلى قادر آخر ، ولزم من ذلك التسلسل وهو محال ، وبذلك قد ثبتت أن قادريته

(١) الأنعام : ٨٠
(٢) الأنعام : ٧٦
(٣) الأنعام : ٨١
(٤) هــود : ٥٤

أزلية ، وإنما أوردنا هذا الدليل على هؤلاء الأقوام الذين كان يدعوهم إلى التوحيد ، ولا يبعد أن يكون عليه السلام إنما كان جالساً معهم ليلة من الليالي وزجرهم عن عبادة الكواكب ، فبينما هو في تقرير ذلك الكلام إذ وقع بصره على كوكب مضيء ، فلما أفل قال عليه السلام : « لو كان هذا الكوكب إلهاً لما انتقل من الصمود إلى الأفول ومن القوة إلى الضعف » ، ثم في أثناء ذلك الكلام طلع القمر وأفل ، فأعاد عليهم ذلك الكلام ، وكذا القول في الشمس .

والظاهر أن موعظته ومناظرته التي قامت وحصلت كانت بينه وبين أهل حرّان ، فإنهم هم الذين كانوا يعبدون الكواكب ، وأما أهل بابل فإنهم كانوا يعبدون الأصنام وهم الذين ناظرهم في عبادتها وكسرها عليهم وبيّن لهم بطلانها كما قال تعالى في ذلك : ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ (١) ، وقال في سورة الأنبياء : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾(٢) . . . إلى أن قال : ﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ (٣) ، وقال في سورة الشعراء : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (٤) وقد أقام عليهم الحجة إذ يقول : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ *

(١) العنكبوت : ٢٥
(٢) الأنبياء : ٥١ - ٥٢
(٣) الأنبياء : ٧٠ .
(٤) الشعراء : ٦٩ - ٧٤

وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ [1] وقال في سورة الصافات : ﴿ وَإِنَّ مِنَ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [2] .

يخبر اللّه تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه أنكر على قومه عبادة الأوثان وحقرها وصغرها عندهم فقال : ﴿ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ أي : معتكفون عندها وخاضعون لها ، قالوا : ﴿ وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ أي : ما كان حجتهم في ذلك إلا ما كان يصنعه آباؤهم وأجدادهم وما كانوا عليه من عبادة الأنداد وتلك حجة واهية ، ولذلك رد عليهم بأشنع رد إذ يقول : ﴿ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [3] وقال لهم : ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [4] ، فقولهم : ﴿ بَلْ وجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ تسليم منهم بأنها لا تسمع داعياً ولا تنفع ولا تضر ، وإنما الحامل لهم على عبادتها الاقتداء بأسلافهم ومن اتبعهم في ضلالهم .

وقد أقام البرهان القاطع على بطلان إلهية ما ادعوه بقوله لهم : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ العَالَمِينَ ﴾ [5] فلما رجعوا من عيدهم الذي كانوا يخرجون إليه في ظاهر البلد كل عام وجدوا أصنامهم محطمة فقالوا : ﴿ أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ [6] . إلى آخر ما جاء بهذا الشأن ، وقد عرَّض لهم بقوله : ﴿ فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ أنه أراد بذلك التعريض بأنها لا تنطق وبهذا يعترفون بأنها جماد كسائر الجمادات لا تصلح ألوهيتها ﴿ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [7] أي :

(١) الشعراء : ٧٧ - ٨١ (٢) الصافات : ٨٣ - ٨٤ (٣) الأنبياء : ٥٤
(٤) الشعراء : ٧٢ - ٧٤ (٥) الشعراء : ٧٥ - ٧٧ (٦) الأنبياء : ٦٢ - ٦٣
(٧) الأنبياء : ٦٤

فرجعوا على أنفسهم بالملامة إذ تركوها بلا حارس ولا راع لها يحرسها ويرعاها، وهذه الأصنام ثبت أنها مخلوقة وكيف يتعبد مخلوق لمخلوق مثله .

* * *

• إبراهيم وإلقاؤه في النار :

ولما لم تبق لهم حجة يقيمونها ، عدلوا عن الجدال والمناظرة وقالوا : ﴿ ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ ﴾[1] وذلك أنهم شرعوا يجمعون حطباً من جميع الأماكن التي يمكن جمعه منها ، ثم عمدوا إلى حفرة عظيمة فوضعوا فيها الحطب وأطلقوا فيها النار فتأججت والتهبت وعلا لها شرر لم يُر مثله قط ، ثم وضعوا ابراهيم عليه السلام في كفة منجنيق [2] صنعه لهم رجل من الأكراد يقال له « هيزن » وكان أول من صنع المجانيق ، ثم أخذوا يقيدونه ويكتفونه وهو يقول : « لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين ، لك الحمد ولك الملك لا شريك لك » فلما وضعوه في كفة المنجنيق مقيداً مكتوفاً ثم ألقوه منه إلى النـــار قال : ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ ونعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ كما روى البخاري عن ابن عباس أنه قال : ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ ونَعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ قالها إبراهيم حين ألقى في النار ، وقالها محمد ﷺ حـــين قيـــل له : ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيْمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ ونعْمَ الوكيلُ * فَانْقَلَبُوا بنعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾ [3].
وعن أبي هريرة قال : قال ﷺ : « لما ألقي إبراهيم في النار قال : اللّهم إنك في السماء واحد وأنا في الأرض واحد أعبدك » ، وذكر بعض السلف أن جبريل عليه السلام عرض له في الهواء ، فقال : يا إبراهيم ألك حاجة ؟ فقال: أما إليك فلا ، وعندئذ تسارع إليه فضل اللّه وعاجلته الرحمة فيوجه إلى النار: ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاَمَاً عَلَى إبْرَاهِيمَ ﴾ [4] قال ابن عباس

---

(١) الصافات : ٩٧ – ٩٨ (٢) المنجنيق : آلة ترمى بها الحجارة في الحرب .
(٣) آل عمران : ١٧٣ – ١٧٤ (٤) الأنبياء : ٦٩

وأبو العالية : « لولا أن الله قال : ﴿ وَسَلاَماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ لآذى إبراهيم بردها » فنجاه الله تعالى من النار التي أرادوا بها القضاء عليه وأن ينتصروا بها فخُذلوا ، وأرادوا أن يغلبوا فَغُلِبُوا هنالك وانقلبوا صاغرين ، وكذلك قال تعالى : ﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ ﴾ [1] .

* * *

● مناظرة إبراهيم عليه السلام مع النمروذ لعنه الله :

كان النمروذ هذا ملكاً جباراً ادعى الربوبية ، وهو صاحب النار والبعوضة ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والربيع والسدي وابن إسحاق وزيد بن أسلم وغيرهم ، وقد ذكر تعالى مناظرة خليله إبراهيم عليه السلام مع ذلك الجبار المتمرد ، فأبطل الخليل عليه دليله وبيَّن مدى جهله وألزمه الحجة وأوضح له طريق المحجة وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وأُمِيتُ ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ، وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [2] ، قال المفسرون وغيرهم من علماء النسب والأخبار : وهذا الملك هو ملك بابل واسمه النمروذ بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح عليه السلام . قال مجاهد وغيره : وكان أحد ملوك الدنيا ، فإنه قد ملك الدنيا أربعة فيما ذكره المؤرخون: مؤمنان وكافران ، فالمؤمنان : ذو القرنين وسليمان عليهما السلام ، والكافران : النمروذ وبختنصر . وقد استمر نمروذ هذا ملكاً أربعمائة سنة مثل فيها الطغيان والعتو والتجبر والظلم وآثر الحياة الدنيا . ولما دعاه إبراهيم عليه السلام إلى عبادة الله وحده لا شريك له حمله جهله وضلاله ، ودفعه عتوه

---

(١) الأنبياء : ٧٠ .　　(٢) البقرة : ٢٥٨

وتكبره على إنكار الصانع جل جلاله فحاج إبراهيم في ذلك وادعى لنفسه الألوهية والربوبية ، يشهد لهذا أنه عندما قال إبراهيم : ﴿ رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ ، قال قتادة والسدي وابن إسحاق : يعني أنه إذا أتى بالرجلين قد قُضي عليهما بالقتل فإذا عفا عن أحدهما وأمر بقتل الآخر ، فكأنه أحيا أحدهما وأمات الآخر (كذاب أشر) ، وهذا الذي قاله ليس بمعارضة للخليل ، بل هو كلام خارج عن مقام المناظرة ، وهذا يعتبر انقطاعاً لها ، ولذلك فإن إبراهيم قد أقام دليلاً آخر على وجود الصانع بيّن فيه بأروع بيان وأجلى حجة بطلان ما ادعاه ذلك الضال المضل وفساده إذ قال : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ ، يقول : هذه الشمس مسخرة كل يوم تطلع من المشرق كما سخرها خالقها ومسيرها وقاهرها ، وهو الذي لا إله إلا هو خالق كل شئ وهو على كل شئ قدير ، فإن كنت كما زعمت من أنك الذي تحيي وتميت فأت بهذه الشمس من المغرب . فإن الذي يُحيي ويُميت هو الذي يفعل ما يشاء ولا يُمانَع ولا يُغالَب ، فإن لم تستطع ذلك ولم تقدر على القيام به فلست كما زعمت ، وأنت تعلم وكل الناس تعلم أنك لا تقدر على شئ من هذا ، بل أنت أعجز وأقل من أن تخلق بعوضة أو أي شئ أقل من ذلك ، وقد ذكر السدي أن هذه المناظرة التي قامت بين إبراهيم عليه السلام وبين النمروذ كانت بعد أن خرج من النار ونجاه الله من كيدهم .

وقد روى عبد الرزاق عن معمر عن زيد بن أسلم أن النمروذ كان عنده طعام وكان الناس يفدون إليه للميرة ، فوفد إبراهيم في جملة من وفد للميرة ولم يكن اجتمع به إلا يومئذ ، فكانت بينهما هذه المناظرة ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطى الناس بل خرج وليس معه شئ من الطعام ، فلما قرب من أهله عمد إلى كثيب من التراب فملأ منه عَدْليه وقال : أشغل أهلي إذا قدمت عليهم ، فلما قدم وضع رحاله وجاء فاتكأ فنام ، فقامت امرأته « سارة » إلى العدلين فوجدتهما ملآنين طعاماً طيباً فعملت منه طعاماً ، فلما استيقظ إبراهيم وجد الذي أصلحوه فقال : أنّى لكم هذا ؟ قالت : من الذي جئت به . فعرف أنه

رزق رزقهموه عز رجل ، ولما أراد الله إهلاك النمروذ والقضاء عليه فتح عليه باباً من البعوض فسترت عين الشمس وأكلت عسكره الذين حشدهم لمحاربة إبراهيم ولم تترك فيهم إلا العظام ، ودخلت واحدة منها في دماغه فأكلته حتى صارت مثل الفأرة ، فكان أعز الناس عنده بعد ذلك من يضرب دماغه بمطرقة عتيدة في رأسه ، فبقى في هذا البلاء أربعين يوماً .

قال قتادة : هذا أول من تجبَّر وهو صاحب الصرح ببابل ، وقد أهلكه الله بهذه البعوضة وانتهى تاريخه بهذه النهاية . . إن في ذلك لذكرى لأولي الأبصار .

* * *

• هجرته عليه السلام إلى الشام ودخوله مصر واستقراره بالأرض المقدسة :

لما هجر إبراهيم عليه السلام قومه في الله وهاجر من بين أظهرهم وكانت امرأته عاقراً ولم يكن معه أحد في هذه الهجرة سوى ابن أخيه لوط بن هاران وامرأته سارة ووالده تارخ وامرأة لوط وأخوه ، وهبه الله بعد ذلك الأولاد الصالحين وجعل في ذريته النبوة والكتاب ، وقد قال تعالى معبراً عن ذلـك: ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي ، إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١) .

فكل نبي بُعِثَ بعده فهو من ذريته ، وكل نبأ نزل من السماء على نبي من الأنبياء من بعده فعلى أحد نسله وعقبه ، فضلاً من الله ونعمة أكرمهم بها وكرامة له حين ترك بلاده وأهله وأقرباءه وهاجر إلى بلد يتمكن فيها من عبادة الله تعالى ودعوة الخلق إليه ، وقد قال تعالى في ذلك : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ

(١) العنكبوت : ٢٦ - ٢٧

نَافِلَةً ، وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ [١] . . والأرض التي قصدها بالهجرة هي أرض الشام وهي التي قال الله عز وجل عنها: ﴿ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ [٢] ، قاله أبيّ بن كعب وأبو العالية وقتادة وغيرهم ، وروى العوفي عن ابن عباس قوله : ﴿ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ مكة ، ألم تسمع إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ﴾ [٣] ، وكانت هجرتهم هذه من بابل وفي صحبتهم أيضاً امرأة لوط وأخوه تاحور إلى « حرّان » ، ولما نزلوا بها مات تارخ أبو إبراهيم الذي لازمهم كذلك في الهجرة إلى الله تعالى .

ولما قدم الشام أوحى الله إليه : « إني جاعل هذه الأرض لخَلَفكَ من بعدك » فابتنى إبراهيم مذبحاً لله شكراً على هذه النعمة وضرب قبته شرق بيت المقدس ثم انطلق مرتحلاً إلى الميمن [٤] ، وأنه كان جوع وقحط وغلاء فارتحلوا إلى مصر ، وهنا أترك للبخاري يقص علينا قصة سارة مع ملكها ، إذ يقول رضى الله عنه: « حدثنا محمد بن محبوب ، حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن محمد عن أبي هريرة قال : لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات ، اثنتان منهن في ذات الله: قوله : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ [٥] وقوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ [٦] وقال : بينًا هو ذات يوم وسارة وإذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له : إن ههنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس ، فأرسل إليه وسأله عنها فقال : من هذه ؟ قال : أختي ، فأتى سارة فقال : يا سارة ، ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني . فأرسل إليها فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأَخذَ فقال : ادعي الله لي ولا أضرك ، فدعت الله فأطلق ثم تناولها الثانية فأَخذ مثلها أو أشد ، فقال : ادعي الله

---

(١) الأنبياء : ٧١ - ٧٣ (٢) الأنبياء : ٧١ (٣) آل عمران : ٩٦
(٤) أرض بيت المقدس وما والاها . (٥) الصافات : ٨٩ (٦) الأنبياء : ٦٣

لي ولا أضرك ، فدعت فأطلق ، فدعا بعض حجبته فقال : إنكم لم تأتنني بإنسان ، وإنما أتيتموني بشيطان ، فأخدمها هاجر ، فأتته وهو قائم يصلي فأومأ بيده مَهْيَم [1] . فقالت : رد الله كيد الكافر – أو الفاجر – في نحره، وأخدمني هاجر . قال أبو هريرة : فتلك أمكم يا بني ماء السماء . (تفرد به من هذا الوجه موقوفاً) .

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار عن عمرو بن علي الفَلاَّس عن عبد الوهاب الثقفي عن هشام بن حسان عن محمد سيرين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن إبراهيم لم يكذب قط إلا ثلاث كذبات ، كل ذلك في ذات الله ، قوله : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ وقوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ وبينما هو يسير في أرض جبار من الجبابرة إذ نزل منزلاً فأتى الجبار فقيل له : إنه قد نزل ههنا رجل معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه فسأله عنها فقال : إنها أختي ، فلما رجع إليها قال : إن هذا سألني عنك فقلت إنك أختي ، وإنه ليس اليوم مسلم غيري وغيرك ، وإنك أختي فلا تكذبيني عنده ، فانطلق بها فلما ذهب يتناولها أُخِذَ فقال : ادعى الله لي ولا أضرك ، فدعت له ، فأرسل ، فذهب يتناولها فأُخِذَ مثلها أو أشد منها فقال : ادعي الله لي ولا أضرك ، فدعت فأرسل – ثلاث مرات – فدعا أدنى حَشَمَه ، فقال : إنك لم تأتنني بإنسان ولكن أتيتني بشيطان ، أخرجها وأعطها هاجر ، فجاءت وإبراهيم قائم يصلي ، فلما أحس بها انصرف فقال : مَهْيَم ، فقالت : كفى الله كيد الظالم وأخدمني هاجر » . وأخرجاه من حديث هشام ، ثم قال البزار : لا يعلم إسناده عن محمد عن أبي هريرة إلا هشام ، ورواه غيره موقوفاً . وقوله في الحديث : «هي أختي» أي في دين الله ، وقوله لها : « إنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك» يعني زوجين مؤمنين غيري وغيرك ، ويتعين حمله على هذا لأن لوطاً كان معهم وهو نبي عليه السلام ، وقوله لها لما رجعت إليه : « مَهْيَم » ؟ معناه :ماالخبر؟

(١) أي ما الخبـر .

فقالت : إن الله رد كيد الكافر - وفي رواية : الفاجر ، وهو الملك - وأخدمني جارية .

وكان إبراهيم عليه السلام من وقت أن ذهب بها إلى الملك قام يصلي لله عز وجل ويسأله أن يدفع عن أهله وأن يرد بأس هذا الذي أراد أهله بسوء ، وهكذا فعلت هي أيضاً ، فلما أراد عدو الله أن ينال منها أمراً قامت إلى وضوئها وصلاتها ودعت الله عز وجل بما تقدم من الدعاء العظيم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ [١] فعصمها الله وصانها لعصمة عبده ورسوله وحبيبه وخليله إبراهيم عليه السلام ، ثم إنه بعد ذلك رجع من بلاد مصر إلى الأرض المقدسة التي كان فيها ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل وصحبتهم هاجر القبطية المصرية .

أما لوط عليه السلام فإنه نزح بما له من الأموال الجزيلة بأمر الخليل له في ذلك إلى أرض الغور المعروف بغور « زُغَر » فنزل سدوم [٢] وهي أم تلك البلاد في ذلك الزمان وكان أهلها أشراراً كفاراً فجاراً .

وأوحى الله تعالى إلى إبراهيم الخليل فأمره أن يمد بصره وينظر شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ، وبشره بأن هذه الأرض كلها سأجعلها لك ولِخَلَفِكَ إلى آخر الدهر، وسأكثر ذريتك حتى يصيروا بعدد تراب الأرض ، وهذه البشارة اتصلت بهذه الأمة بل وما كملت ولا كانت أعظم منها في هذه الأمة المحمدية . ويؤيد ذلك قول رسول الله ﷺ : « إن الله زوى [٣] لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها » .

ثم قالوا : إن طائفة من الجبارين تسلطوا على لوط عليه السلام فأسروه وأخذوا أمواله واستاقوا أنعامه . فلما بلغ الخبر إبراهيم عليه السلام سار

---

(١) البقـــــرة : ٤٥ (٢) اسم لقرية قوم لوط . (٣) زوى : جمع .

إليهم في ثلاثمائة وثمانية عشر رجلاً فاستنقذ لوطاً عليه السلام واسترجع أمواله وقتل من أعداء الله ورسوله خلقاً كثيراً فهزمهم وساق في آثارهم حتى وصل إلى شرقي دمشق وعسكر بظاهرها عند « بَرَزَة » ثم رجع مؤيداً منصوراً إلى بلاده وتلقاه ملوك بلاد بيت المقدس معظمين له مكرمِّين خاضعين ، واستقر ببلاده صلوات الله وسلامه عليه .

* * *

● أولاده عليه السلام :

وقد وُلِدَ له من الأولاد كثير . . أولهم إسماعيل عليه السلام من هاجر ، ثم إسحاق من سارة ، ولما ماتت تزوج « قنطورا » بنت يقطن الكنعانية فولدت له ستة : مدين وزمران وسرج ويقشان ونشق ، ولم يُسَمَّ السادس ، ثم تزوج بعدها « حجون » بنت أمين فولدت له خمسة : كيسان وسورج وأميم ولوطان ونافس .

هكذا ذكره أبو القاسم السهيلي في كتابه « التعريف والإعلام » .

* * *

● ذكر ثناء الله ورسوله على عبده إبراهيم :

لما وفى إبراهيم ما أمره به ربه من التكاليف العظيمة جعله الله للناس إماماً يقتدون به فقال : ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ، قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ (١) . . . . وسأل الله تعالى أن تكون الإمامة متصلة بسببه وباقية في نسبه وعقبه ، فأجيب إلى ما سأل ولذلك قال :

(١) البقرة : ١٢٤

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ (٢) فكل كتاب أنزل من السماء على نبي من الأنبياء بعد إبراهيم عند ذريته وشيعته ، وذلك أنه وُلِدَ له ولدان لصلبه هما « إسماعيل » من هاجر و « إسحاق » من سارة ، وولد لإسحاق « يعقوب » وهو الذي ينتسب إليه سائر أسباطهم ، فكانت فيهم النبوة وقد كثروا بحيث لا يعلم عددهم إلا الذي بعثهم واختصهم بالرسالة والنبوة حتى خُتِمُوا بعيسى . وأما إسماعيل فكانت منه العرب على اختلاف قبائلها ، ولم يوجد من سلالته من الأنبياء سوى سيدنا محمد الهاشمي القرشي عليه الصلاة والسلام . وقد أنكر الله تعالى على أهل الكتاب من اليهود والنصارى دعوى كل من الفريقين كون الخليل على ملتهم وطريقتهم فبرأه الله منهم وبيّن جهلهم في قوله : ﴿ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ (٣) ، وقد جردهم من العقل بقوله : ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ ورداً عليهم قال : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٤) فأعرب سبحانه وتعالى أنه على الدين الحنيف ولذلك قال : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ (٥) . . فنزّه الله تعالى خليله عن أن يكون يهودياً أو نصرانياً ، وإنما كان حنيفاً مسلماً ولم يكن من المشركين ، فقد كمله الله وأعطاه ما لم يعط نبياً ولا رسولاً من قبله ، كما قال : ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٦) . . وقال : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ، وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ (٧) وقد قيل : إنه مذكور في خمسة وثلاثين

---

(١) العنكبوت : ٢٧ (٢) الحديد : ٢٦ (٣) آل عمران : ٦٥
(٤) آل عمران : ٦٧ (٥) البقرة : ١٣٠ (٦) الأنعام : ١٦١
(٧) النســاء : ١٢٥

موضعاً من القرآن ، منها خمسة عشر في البقرة وحدها ، وهو أحد أولى العزم المنصوص عنهم في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ (١) .

ثم هو أشرف أولي العزم بعد سيدنا محمد ﷺ . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله » ولما كان إبراهيم أفضل الرسل وأولي العزم بعد محمد ﷺ أمرَ المصلّي أن يقول في تشهده : « اللّهُمَّ صَلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم » . . . إلخ .

وقد مات عن مائة وخمس وسبعين ، وقيل عن خمس وتسعين سنة ، ودُفِنَ صلوات الله وسلامه عليه في المغارة التي كانت بـ « حبرون » - بالحاء - عند امرأته سارة ، وتولى دفنه ابناه إسماعيل وإسحاق صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وقد ورد ما يدل على أنه عاش مائتي سنة .

* * *

● **قصة مولد سيدنا إسماعيل والأحداث العظيمة التي قارنت حياته عليه السلام :**

قال أهل الكتاب : إن إبراهيم عليه السلام سأل الله تعالى ذرية طيبة ، وإن الله تعالى بشره بذلك ، وإنه لما كان لإبراهيم ببلاد بيت المقدس عشرون سنة قالت له سارة : إن الرب قد حرمني الولد فادخل على أَمَتي هذه لعل الله يرزقني منها ولداً ، فلما وهبتها له دخل بها عليه السلام ، فحين دخل بها حملت منه ، قالوا : فلما حملت ارتفعت نفسها وقد خشيت هاجر أن يكون ذلك من بواعث الغيرة التي يجوز أن تتولد في نفس سارة فنزلت عند عين هناك ، فقال لها ملك من الملائكة : « لا تخافي . . فإن الله جاعل من هذا الغلام الذي حملتِ خيراً »

(١) الأحزاب : ٧

وأمرها بالرجوع إلى المكان الذي به إبراهيم عليه السلام وبشرها « أنها ستلد ابناً وتسميه إسماعيل ، ويكون وَحْشَ الناس ، يده على الكل ويد الكل به ، ويملك جميع بلاد إخوته » ، فشكرت الله عز وجل على ذلك .

وهذه البشارة قد انطبقت على ولده محمد ﷺ ، فإنه الذي سادت به العرب وملكت جميع البلاد شرقاً وغرباً ، وآتاها الله من العلم النافع والعمل الصالح ما لم تُؤتَ أمةٌ مِنَ الأمم قبلهم ، وما ذلك إلا بشرف رسولنا على سائر الرسل وبركة رسالته ويُمْن سفارته وكماله فيما بُعث وجاء به لجميع أهل الأرض .

ولما رجعت هاجر كما أمرت وضعت إسماعيل عليه السلام ، ولإبراهيم من العمر ست وثمانون سنة قبل مولد إسحاق بثلاث عشرة سنة .

ولما وُلِدَ إسماعيل أوحى الله إلى إبراهيم يبشره بإسحاق من سارة ، فخرَّ لله ساجداً ، فقال له : « قد استجبت لك في إسماعيل وباركت عليه وكثرته ونمَّيْتُه كثيراً ، ويولد له اثنا عشر عظيماً وأجعله رئيساً لشعب عظيم » وهذه أيضاً بشارة بهذه الأمة العظيمة وهؤلاء الإثنا عشر عظيماً هم الخلفاء الراشدون المبشر بهم حديث عبد الملك بن عمير عن جابر بن سمرة عن النبي ﷺ قال : « يكون اثنا عشر أميراً » - ثم قال كلمة لم أفهمها فسألت أبي ما قال ؟ قال : « كلهم من قريش » { أخرجاه في الصحيحين } ، وفي رواية : « لا يزال هذا الأمر قائماً - وفي رواية عزيزاً - حتى يكون إثنا عشر خليفة كلهم من قريش » .

فهؤلاء منهم الخلفاء الأربعة : أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ ، ومنهم عمر ابن عبد العزيز أيضاً ، ومنهم بعض بني العباس ، وليس المراد أنهم يكونوا إثنى عشر نَسَقاً ، بل إنه لا بد من وجودهم ، وليس المراد الأئمة الإثنى عشر الذين يعتقد فيهم الرافضة وأولهم « عليّ بن أبي طالب » رضى الله عنه ، وآخرهم المنتظر بسرداب سَامُرَّا - وهو محمد بن الحسن العسكري فيما يزعمون -

فإن أولئكَ لم يكن فيهم أنفع من عليّ وابنه الحسن بن عليّ حين ترك القتال وسلَّم الأمر لمعاوية وأخمد نار الفتنة وسَكَّن رحى الحروب بين المسلمين . والباقون من جملة الرعايا لم يكن لهـــم حكـــم على الأمة في أمر من الأمور . وأما ما يعتقدونه بسرداب سَامُرًا فذاك هَوَس في الرؤوس وهذيان في النفوس لا حقيقة له إلا في تخبط أفكارهم وعقم معتقداتهم .

ولم تطل إقامة هاجر مع إبراهيم عليه السلام ببلاد بيت المقدس – حيث يقيم بها – بعد أن ولدت إسماعيل ، بل ذهب إبراهيم بها وبولدها حيث وضعهما بمكة . . وذلك لأن سارة اشتملت على غيرة شديدة من هاجر لم تستطع إخفاءها فطلبت من إبراهيم عليه السلام أن يُغَيِّب وجهها عنها حتى تستريح منها ، فلما تركهما هناك وولى ظهره عنهما قامت إليه هـــاجـــر وتعلـقـت بثـيـابـه وقـالت : يا إبراهيم ، أين تذهب وتدعنا هنا وليس معنا ما يكفينا ؟ . فلم يجبها ، فلما ألحت عليه وهو لا يجيبها قالت له : آللّه أمَرَكَ بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : فإذن لا يضيعنا .

* * *

- **هجرة إبراهيم بابنه إسماعيل وأمه هاجر إلى مكــة وبنائـه البيت العتيق :**

قال البخاري : قال عبد اللّه بن محمد – هو أبو بكر بن أبي شيبة – حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن أيوب السختياني وكثير بن كثير بن المطلب ابن أبي وداعة – يزيد أحدهما عن الآخر – عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: « أول ما اتخذ النساء المِنْطَق من قِبَلِ أم إسماعيل ، أتخذت مِنْطَقاً لتُعفِّي أثَرَها على سارة » ، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ

أحد وليس بها ماء ، فوضعهما هنالك ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم قفَّى[1] إبراهيم منطلقًا فتبعته أم إسماعيل فقالت : يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوداي الذي ليس به أنيس ولا شئ ؟ . قالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها . فقالت له : آللّه أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت: إذن لا يضعينا . ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل البيت بوجهه ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾[2] وجعلت أم إسماعيل تُرضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال : يتلبط - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً ، فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت بطن الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً ، فلم تر أحداً.ففعلت ذلك سبع مرات .

قال ابن عباس : قال النبي ﷺ : « فلذلك سعى الناس بينهما » .

ولما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت : صه - تريد نفسها - ثم تسمعت فسمعت أيضاً فقالت : قد أَسْمَعْتَ إن كان عندك غَواث . فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه - أو قال : بجناحه - حتى ظهر الماء فجعلت تحَوِّضه وتقول بيدها هكذا - أو جعلت تغرف الماء في سقائها - وهو بعد يَفُور ما تغرف . قال ابن عباس : قال النبي ﷺ : « يرحم الله أم إسماعيل ، لو تركت زمزم - أو قال : لو لم تغرف من الماء - فكانت زمزم

---

(1) يفيء .

(2) إبراهيم : ٣٧

عيناً معيناً » . قال : فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك : لا تخافي الضَّيعْة فإن ههنا بيتاً لله يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله .

وقد كان البيت يومئذ مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله ، فظلت كذلك حتى مرت بهم رفقه من جُرْهُم - أو أهل بيت من جُرْهُم - مقبلين من طريق كُدَاء فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائراً عائفاً فقالوا : إن هذا الطائر لَيدورُ على ماء ، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء . فأرسلوا جَرِيًّا (١) أو جريين ، فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا وأم إسماعيل عند الماء فقالوا : أتـأذَنِين لنا أن ننزل عندك ؟ قالت : نعم ، ولكن لا حق لكم في الماء . قالوا : نعم .

قال عبد الله بن عباس : قال النبي ﷺ : « فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس » فنزلوا فأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم ، وثب الغلام بينهم وتعلم العربية منهم ، وقد أعجبهم حين شب فيهم فلما أدرك زوجوه امرأة منهم ، وفي خلال ذلك ماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع حاله ، فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا . ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم . فقالت : نحن بِشَرٍ ، نحن في ضيق وشدة . فشكت إليه . قال : فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له : يغير عتبة بابه . فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً فقال : هل جاءكم من أحد ؟ قالت : نعم ، جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته ، وسألني كيف عيشنا فأخبرته أنَّا في جهد وشدة . قال : فهل أوصاك بشيء ؟ قالت : نعم ، أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول لك : غير عتبة بابك . قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك فألحقي بأهلك . فطلقها وتزوج منهم أخرى ولبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد ذلك فلم يجده ، فدخل على امرأته

---

(١) الجـــــري : الرســـــول .

فسألها عنه فقالت : خرج يبتغي لنا . قال : كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم ، فقالت : نحن بخير وسعة . وأثنت على الله عز وجل . فقال : ماطعامكم ؟ قالت : اللحم . قال : فما شرابكم ؟ قالت : الماء . قال : اللّهم بارك لهم في اللحم والماء » .

قال النبي ﷺ : « ولم يكن لهم يومئذ حَبٌّ [1] ولو كان لهم حَبٌّ لدعا لهم فيه فهما لا يخلو[2] عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه » .

ثم قال لها إبراهيم عليه السلام : فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومُرِيه يُثَبِّتْ عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل قال : هل أتاكم من أحد ؟ قالت : نعم ، أتانا شيخ حسن الهيئة – وأثنت عليه – فسألني عنك فأخبرته ، فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنَّا بخير . قال : فأوصاك بشئ ؟ قالت : نعم ، هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تُثَبِّت عتبة بابك . قال : ذاك أبي وأنت العتبة أمرني أن أمسكك . ثم لبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم جاءهم بعد ذلك وإسماعيل يَبْرِي نَبْلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم ، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع بالولد الوالد ، ثم قال : يا إسماعيل ، إن الله أمرني بأمر . قال : فاصنع ما أمرك به ربك . قال : وتعينني ؟ قال : وأُعينك . قال : فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً ، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها ، فعند ذلك أعدوا العدة وأحضروا أجهزة البناء وأخذا يرفعان القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يقوم بالبناء ، ثم إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني ، وإسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[3] . . والحجر المشار إليه هو الذي

(١) الحَب : الجرة . (٢) يخلو : يقتصر . (٣) البقرة : ١٢٧

يُطلق عليه الآن مقام إبراهيم عليه السلام ، فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان أيضاً : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ . وقد ذكر الله تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه لما هاجر من بلاد قومه سأل ربه أن يهب له ولداً صالحاً فبشره الله بغلام حليم وهو إسماعيل عليه السلام ، لأنه أول من وُلِدَ له على رأس ست وثمانين سنة من عمره عليه السلام .

وهذا ما لا خلاف فيه بين أهل الملل لأنه أول ولده وبكره ، وبهذا يتحدث القرآن الكريم : ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ، قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ، سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ (٢) .

ويعبر قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾ : أي شب وصار يسعى في مصالحه كأبيه ﴿ قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ : أي فلما كان هذا، رأى إبراهيم عليه السلام أنه يؤمر بذبح ولده هذا . وفي الحديث

(١) البقرة : ١٢٧

(٢) الصافات : ٩٩ - ١١٣

عن ابن عباس مرفوعاً : « رؤيا الأنبياء وحي » قاله عبيد بن عمير أيضاً ، وقد كان هذا اختبار من الله تعالى لخليله في أن يذبح هذا الولد العزيز الذي جاء على كِبَرٍ بعد ما أمر بأن يُسكنه هو وأمه في بلاد قفر وواد ليس به جليس ولا أنيس ، ولا زرع ولا ضرع ، فامتثل أمر الله في ذلك وتركهما هناك ثقة بالله وتوكلاً عليه ، فجعل الله لهما فرجاً ومخرجاً ، ورزقهما من حيث لا يحتسبان .

ولما عرض على ولده أمر الرؤيا وما جاء فيها من ذبحه عليه السلام وذلك في قوله تعالى حاكياً عن سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿ قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ وذلك العرض الذي قام به إبراهيم ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قسراً ويذبحه قهراً ولذلك بادر الغلام بقوله ﴿ يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ، سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ وهذا الجواب في غاية السداد والطاعة للوالد ورب العباد ، فعند ذلك نُودي من الله عز وجل : ﴿ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴾ أي حصل المقصود من اختبارك وطاعتك ومبادرتك إلى امتثال أمر ربك وبَذْلكَ ولدك قرباناً لله تعالى كما جُدْتَ ببدنك للنيران ، ومالك تبذله للضيفان . قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ أسلما : أي استسلما لأمر الله تعالى وعزما على القيام بتحقيقه ولذلك قال تعالى : ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ أي ألقاه على وجهه ليقوم بذبحه ، وقد قيل : أراد أن يذبحه من قفاه لئلا يشاهده في حال ذبحه .(قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك) .

وقيل : بل أضجعه كما تُضجع الذبائح وبقي طرف جبينه لاصقاً بالأرض قال السدِّي وغيره : أمَرَّ السكين على حلقه فلم تقطع شيئاً . ولما وصل الأمر لهذا سارعت الرحمات الربانية لإنقاذه وبادرت بالإبقاء عليه وفدائه ، وعاجلته بتقديم العوض عنه فقال تعالى : ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ .

والمشهور عن الجمهور أن ذلك الفداء عبارة عن كبش أبيض أعين أقرن [1] رآه مربوطاً بَسُمرة في ثبير فذبحه بـ «منى» (قاله مجاهد) ، وقال عبيد بن عمير: ذبحه بالمقام ، والمشهور أنه ذبحه بـ «منى» وهوالذي ينطق بالواقع وعليه المعوّل .

والمعتبر أن الذبيح هو إسـماعيل عليه السلام وهذا هو الظاهر من القرآن بل يكاد يكون نصاً على أن الذبيح هو إسـماعيـل ، لأنه ذكر قصة الذبيح ثم قال بعده : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِياً مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾[2] وقد كثر الحديث في هذا الشأن ، والصحيح كما قلنا إنه إسماعيل عليه السلام . قال مجاهد وسعيد والشعبي ويوسف بن مهران وعطاء وغير واحد عن ابن عباس : هو إسماعيل عليه السلام ، وقال ابن جرير : حدثني يونس ، أنبأنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن قيـس عن عطـاء بن أبي رباح ، عن ابن عبـاس أنه قال : « المفدي إسماعيل ، وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود » وقال عبد الله ابن الإمام أحمد عن أبيه : هو إسماعيل . وقال ابن أبي حاتم : سألت أبي عن الذبيح فقال : الصحيح أنه إسماعيل عليه السلام .

هذا.. وقد قلنا إن الخليل عليه السلام وُلِدَ له كثير من الأولاد ، ولكن أشهرهم الأخوان النبيان الرسولان ، وأسنهما وأجلّهما الذبيح إسماعيل عليه السلام – ولا يخفى أن القرآن الكريم قد أثنى عليه ووصفه بأبلغ آيات الصبر وصدق الوعد وكمال الحلم ...إلى غير ذلك من الأوصـاف السـامية التي تتجـلى في قوله تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ، قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ، سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾[3] فطاوع أباه على

---

(١) الأعين : العظيم سواد العين ، والأقرن : الكبير القرنين .
(٢) الصافات : ١١٢ (٣) الصافات : ١٠١ – ١٠٢

ما دعاه إليه ووعده بأن سيصبر ، فوفّى بذلك وصبر عليه ، وفي قولــه تعـالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ، إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِياً * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّــلاةِ وَالزَّكَــاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيــاً ﴾[1] وفي قوله : ﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ ، وَكُلٌّ مِنَ الأَخْيَارِ ﴾[2] ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيــسَ وَذَا الْكِفْلِ ، كُلٌّ مِنَ الصَّــابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ، إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾[3] ، وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ ﴾[4] . . وفي قوله تعالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ ﴾[5] . . إلى غير ذلك من الآيات التي تحدثت عن جلال أوصافه وجمال نعوته ، وقد جعله نبيه ورسوله،وأمر بأن يؤمن بما جاء به وأُنزل إليه عبادَه ، ولذلك فإنه عليه السلام قام بالدعوة إلى الله تعالى ويبلغهم رسالته ووجههم إلى لزوم توحيده وواجب الاعتراف بوحدانيته ، وكان أول من ركب الخيل ، وأول من تكلم بالعربية الفصحى لأنه تعلمها من العرب العاربة بمكة حين نزل بها إذ كان له اتصال بـ« جرهم » والعماليق وأهل اليمن ، فكان ذلك عاملاً على النطق بها وتعليمه إياها ، فعن محمد بن علي بن الحسين ، عن آبائه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أول من فتق لسانه بالعربية البيّنة إسماعيل وهو ابن أربع عشر سنة » فقال له يونس: صدقت يا أبا سيل هكذا أبو جَرِيٍّ حدثني .

وقد قلنا إنه لما شب تزوج امرأة من العماليق وأمره أبوه بمفارقتها ففارقها

(١) مريم : ٥٤ – ٥٥
(٢) سورة ص : ٤٨
(٣) الأنبياء : ٨٥ – ٨٦
(٤) النساء : ١٦٣
(٥) البقرة : ١٣٦

واسمها « عمارة بنت سعد بن أسامة بن أكمل العملاقي » ثم نكح غيرها وأمره أن يمسك عليها ويستمر معها ، فاستمر معها ، واسم التي أمر بالاستمرار معها هي « اليده بنت مضاض بن عمرو الجرهمي » ، وقد أوضحنا الأسباب التي استدعت ذلك وقيل : هذه مرة ثالثة فولدت له اثنى عشر ولداً ذكراً وهم كما سماهم محمد بن إسحاق : « نابت وقيـــدار وأزبل ومبتي ومسمع وماش ودوصا ويطور وبنش وطيما وقيذما » وهكذا ذكرهم أهل الكتاب في كتابهم، وكان إسماعيل عليه السلام رسولا إلى أهل تلك الناحية وما والاها من قبائل جرهم والعماليق وأهل اليمن صلوات الله وسلامه عليه .

ولما حضرته الوفاة أوصى إلى أخيه إسحاق ، وزوّج ابنته « نسمة » من ابن أخيه « العيص » بن إسحاق ، فولدت له الروم ويقال لهم « بنو الأصفر » لصفرةٍ كانت في العيص ، وولدت له اليونان في أحد الأقوال ، ومن ولد العيص الأشبان قيل منهما أيضاً ، وتوقف ابن جرير في ذلك . ودُفن نبي الله إسماعيل مع أمه هاجر بالحِجر المسمى باسمه بالكعبة المشرفة ، وكان عمره يوم موته مائة وسبعاً وثلاثين سنة .

ورُوِيَ عن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أنه قال : شكا إسماعيل عليه السلام إلى ربه عز وجل حَرَّ مكة فأوحى الله إليه : « إني سأفتح لك باباً إلى الجنة إلى الموضع الذي تُدفن فيه ، يجري عليك روحها إلى يوم القيامة » وعرب الحجاز كلهم يُنسبون إلى ولديه نابت وقيدار .

* * *

• قصة إسحاق وبشارة الله إبراهيم بمولده عليه السلام :

يسوق الله تعالى بُشرى عظيمة القدر رفيعة الشأن إلى إبراهيم عليه السلام تتحدث بمولد إسحاق عليه السلام له ، وذلك بواسطة رسله وسفرائه إذ يقول

تعالى : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾[1] فقد كانت هذه البشارة به من الملائكة لإبراهيم وسارة ذاهبين إلى مدائن قوم لوط ليدمروا عليهم وينزلوا بهم ما يستحقونه من العذاب لكفرهم وفجورهم ، ويقول كذلك : ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَاماً ، قَالَ سَلَامٌ ﴾[2] ، ويقول : ﴿ وامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَاوَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ، رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ، إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾[3] . . . إلى غير ذلك من الآيات البينات التي أعربت عن هذا الشأن وتكلمت في هذا المجال ، وظاهر أنه تعالى يذكر أن الملائكة وقد كانوا ثلاثة : جبريل وميكائيل وإسرافيل - صلوات الله وسلامه عليهم - لما وردوا على إبراهيم عليه السلام أولاً حسبهم من الأضياف فعاملهم معاملة الضيوف وشوى لهم عجلاً سميناً من خيار بقره فلما قرّبه إليهم وعرضه عليهم ، لم ير لهم همة إلى الأكل بالكلية ، وذلك لأن الملائكة ليس فيهم قوة الحاجة إلى الطعام ولا دافع الميل له فنكرهم إبراهيم : ﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ، قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴾[4] أي لندمرهم ونفعل بهم ما هـم أهله ، فاستبشرت عند ذلك سارة غضباً لله عليهم وكانت قائمة على رؤوس الأضياف كما جرت به عادة العرب وغيرهم ، فلما ضحكت استبشاراً بذلك قال الله تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ أي بشرتها الملائكة بذلك فقالت : ﴿ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً ﴾ إذ كان سنه حينئذٍ تسعين سنة ، أي : كيف يلد مثلي وأنا عجوز وعقيم وهذا بعلي

(١) الصافات : ١١٢ - ١١٣
(٢) هود : ٦٩
(٣) هود : ٧١ - ٧٣
(٤) هود : ٧٠

- أي زوجي - شيخاً ، فتعجبت من وجود ولد والحالة كما وصفتها ولهذا قـالت : ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ وكذلك تعجب إبراهيم عليه السلام استبشاراً بما ساقته العناية إليه من البشارة العظيمة وتثبيتاً لها وفرحاً بهـا :
﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ * قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴾ [(١)] أكدوا الخبر بهذه البشارة ، وقرروه حيث قالوا : فبشرناهما بغلام عليم ، وهو إسحاق أخو إسماعيل ، وقوله تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ دليل على أنها تستمتع بوجود ولدها إسحاق ثم من بعده يُولَد له ولده يعقوب أي يولد في حياتهما لتقر أعينهما به كما قرت بولده ، ولم يُرَدْ هذا لم يكن لذكر يعقوب وتخصيص التنصيص عليه من دون سائر نسل إسحقاق فائدة ولما عين بالذكر دل على أنهما يتمتعان به ويسران بولده كما سُرّاً بولد أبيه من قبله ، وقال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، كُلاً هَدَيْنَا ﴾ [(٢)] ، وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾[(٣)] . .
ومن هذا يؤخذ أن إسحاق إنما كان بعد إسماعيل ، كما أن يعقوب جاء بعد إسحاق وهذا ظاهر من الآيات ، وإن كان إسحاق وُلِدَ في زمن إسماعيل ، وقد ثبت في الصحيحين من حديث سليمان بن مهران الأعمش عن إبراهيم بن يزيد التيمي ، عن أبيه عن أبي ذر قال : قلت: يارسول الله ، أي مسجد وُضِعَ أول؟. قال : « المسجد الحرام » . قلت: ثم أي ؟ . قال : «المسجد الأقصى» . قلت: كم بينهما ؟ . قال : «أربعون سنة » . قلت : ثم أي ؟ . قال : « حيث أدركتك الصلاة فصل فكلها مسجد » .

وعنـد أهل الكتاب أن يعقوب عليه السلام هو الذي أسس المسجد الأقصى وهو مسجد إيليا ببيت المقدس ولكن بعد بناء المسجد الحرام ، ويشهد لذلك الحديث المذكور وهذا متجه ، وهذا البناء الذي قام به يعقوب كان بعد بناء

(١) الحجر : ٥٤ - ٥٥ (٢) الأنعام : ٨٤ (٣) مريم : ٤٩

إبراهيم وإسماعيل للمسجد الحرام بأربعين عامـــا وبعد وجود إسحاق ، لأن إبراهيم عليه السلام لما دعا قال في دعائه كما قـــال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ ، فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ، وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾[1] . إلى أن قال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ، إِنَّ رَبِّي لَسَـــمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾[2] وكانت ولادة إسحاق بعد أخيه إسماعيل ولأبيه مائة سنة ، ولأخيه إسماعيل أربع عشرة سنة ، وعمر أمه سارة تسعون سنة .

وقد ذكره الله تعالى بالثناء عليه في غير ما آية في كـتابه الكريم فقال تعالى :﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾[3] وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » .

وذكر أهل الكتاب أن إسحاق لما تزوج « رفقا » بنت بتوابيل في حياة أبيه كان عمره أربعين سنة ، وأنها كانت عاقراً فدعا الله لها فحملت فولدت غلامين توأمين أولهما سموه « عيصو » ، وهو الذي تسميه العرب « العيص » وهو والد الروم ، والثاني خرج وقد أخذ بعقب أخيه فسموه « يعقوب » وهو إسرائيل الذي ينتسب إليه بنو إسرائيل ، وكان إسحاق يحب عيصو أكثر من يعقوب لأنه بكره وكانت أمهما « رفقا » تحب يعقوب أكثر لأنه الأصغر . ولما كبر إسحاق وضعف بصره اشتهى على ابنه « العيص » طعاما وأمره أن يذهب فيصطاد له

(١) إبراهيم : ٣٥ - ٣٧ (٢) إبراهيم : ٣٩ (٣) الصافات : ١١٢ - ١١٣

صيداً فيطبخه له ليبارك عليه ويدعو له ، وكــان « العيص » صاحب صيد فذهب يبتغي ذلك فأمرت « رفقا » ابنها يعقوب أن يذبح جديين من خيار غنمه ويصنع منهما طعاماً كما اشتهاه أبوه ويأتي إليه به قبل أخيه ليدعو له ، فقامت فألبسته ثياب أخيه وجعلت على ذراعيه وعنقه جلد الجديين لأن العيص كان أشعر الجسد ويعقوب ليس كذلك ، فلما جاء به وقرّبه إليه قال : من أنت ؟ قال: ولدك ، ولذلك ضمه إليه وجسّه وجعل يقول : « أما الصوت فصوت يعقوب وأما الجسد والثياب فالعيص » فلما أكل وفرغ دعا له أن يكون أكبر إخوتــه قدراً ، وكلمته عليهم وعلى الشعوب بعده وأن يكثر رزقه وولده .
فلما خرج من عنده جاء أخوه « العيص » بما أمره به فقرّب إليه فقال له : ما هذا يا بني ؟ قال : هذا الطعام الذي اشتهيته . فقال : أما جئتني به قبل الساعة وأكلت منه ودعوت لك ؟ فقال : لا والله . وعرف أن أخاه قد سبقه إلى ذلك فوجد في نفسه عليه وجداً كثيراً [1] ، وذكروا أنه تواعده بالقتل إذا مات أبوهما وسأل أباه فدعا له بدعوة أخرى وأن يجعل لذريته غليظ الأرض وأن تكثر أرزاقهم وثمارهم ، فلما سمعت أمهما ما يتواعد به العيص أخاه يعقوب أمرت ابنها يعقوب أن يذهب إلى أخيها « لابان » بأرض حرّان وأن يكون عنده إلى حين يسكن غضب أخيه وأن يتزوج من بناته وقالت لزوجها إسحاق أن يأمره بذلك ويوصيه ويدعو له ، ففعل .

فخرج يعقوب عليه السلام من عندهم من آخر ذلك اليوم فأدركه المساء في موضع فنام فيه وأخذ حجراً فوضعه تحت رأسه ونام فرأى في نومه ذاك معراجاً منصوباً من السـماء إلى الأرض وإذا الملائكة يصعدون فيه وينزلون ، والرب

---

(١) هذا وأمثاله من الأخبار والروايات التي حفلت به بعض كتب التواريخ والتفاسير ، ولم تسعف المؤلف - رحمه الله - المراجع التي تثبت وضع هذه الأخبار وأنها من الإسرائيليات التي دست على هذه الكتب .. ونحن نربأ بأنبياء الله أن تجوز عليهم الغفلة ، فلا يعرف اسحاق عليه السلام . وهو الكريم ابن الكريم ابنه يعقوب من العيص .. وهذه غفلة لا تجوز على أبسط الناس فكيف تجوز على نبي كريم ؟! ولهذا فنحن نحذر القارئ من أمثال هذه المزالق المدسوسة (المراجع) .

تبارك وتعالي يخاطبه ويقول له : إني سأبارك عليك وأكثر ذريتك وأجعل لك هذه الأرض ولعقبك من بعدك ، فلما هب من نومه فرح بما رأى ونذر لله : لئن رجع إلى أهله سالماً ليبنين في هذا الموضع معبداً لله عز وجل ، وأن جميع ما يُرزقه من شئ يكون لله عُشْرُه ، ثم عمد إلى ذلك الحجر فجعل عليه دهناً يتعرفه به وسمي ذلك الموضع « بيت إيل » أي بيت الله وهو موضع بيت المقدس الآن الذي بناه يعقوب بعد ذلك ، فلما قدم يعقوب على خاله أرض حرّان إذا له ابنتان اسم الكبرى « ليا » واسم الصغرى « راحيل » وكانت أحسنهما وأجملهما .

فطلب منه أن يزوجه « راحيل » فأجابه إلى ذلك بشرط أن يرعى غنمه سبع سنين ، فلما مضت المدة على خاله « لابان » صنع طعاماً وجمع الناس عليه وزف إليه ليلاً ابنته الكبرى « ليا » وكانت ضعيفة العينين قبيحة المنظر ، فلما أصبح يعقوب إذا هي « ليا » فقال لخاله : لم غدرت بي ، وإنما خطبت إليك « راحيل » ؟! فقال : ليس من سنتنا أن نزوج الصغرى قبل الكبرى فإن أحببت أختها فاعمل سبع سنين أخرى وأزوجكها ، فعمل سبع سنين أخرى وأدخلها عليه مع أختها [١] - وكان ذلك سائغاً في ملتهم - ثم نُسِخ في شريعة التوراة ، وهذا وحده دليل كاف على وقوع النسخ لأن فعل يعقوب عليه السلام دليل على جواز هذا وإباحته لأنه معصوم - ووهب « لابان » لكل واحدة من ابنتيه جارية. ووهب لـ « ليا » جارية اسمها « زلفى » ووهب لـ « راحيل » جارية اسمها «بلهى » وجبر الله تعالى ضعف « ليا » بأن وهب لها أولاداً ، فكان أول من ولدت ليعقوب روبيل ثم شمعون ثم لاوي ثم يهوذا . فغارت عند ذلك « راحيل» - وكانت لا تحمل - فوهبت ليعقوب جاريتها « بلهى » فوطئها فحملت فولدت له غلاماً سمته « دان » وحملت وولدت غلاماً آخر سمته « نيفتالي » فعمدت عند ذلك « ليا » فوهبت جاريتها « زلفى » إلى يعقوب عليه السلام فولدت له « جاد » و « أشـير » غلامين ذكرين ثم حملت « ليا » أيضاً فولدت غلاماً

(١) وهذا أيضًا من الإسرائيليات - التي ننبه عليها - وقد أغرم اليهود بالدس على أنبيائهم وصالحيهم من الأخلاق الوضيعة التي يبررون بها غش الأمم بعد ذلك .. فهذا يعقوب يخدع أباه ويغشه ، وهذا لابان يخدع ابن أخته ويغشه !! (المراجع) .

خامساً منها وسمته « إيساخر » ثم حملت وولدت غلاماً سادساً سمته « زبلون » ثم حملت وولدت بنتاً سمتها « دينا » فصار لها سبعة من يعقوب .

ثم دعت « راحيل » الله تعالى وسألته أن يهب لها غلاماً من يعقوب فسمع الله نداءها وأجاب دعاءها فحملت من نبي الله يعقوب فولدت له غلاماً عظيماً شريفاً حسناً جميلاً سمته « يـــوسف » كل هذا وهم مقيمون بأرض حرّان وهو يرعى على خاله غنمه بعد دخوله على البنتين ست سنين أخرى ، فصار مدة مقامه عشرين سنة .

فطلب يعقوب من خاله « لابـــان » أن يُسَــرِّحَــه ليَمُرَّ على أهله ، فقال له خاله : إني قد بورك لي بسببك فسلني من مالي ما شئت . فقال : تعطيني كل حَمْلٍ يولد من غنمك هذه السنة أبقع [1] وكل حمل مَلَمَّعْ أبيض بسواد ، وكل أملح ببياض [2] ، وكل أجْـلَحْ أبيض من المعز [3] فقال : نعم . فعمد بنوه فأبرزوا ما كان من غنم أبيهم على ما كان بهذه الصفات من التيوس لئلا يُولد شئ من الحملان على هذه الصفات ، وساروا بها مسيرة ثلاثة أيام عن غنم أبيهم ، وقد قالوا : إن يعقوب قد عمد لذلك إلى قضيان رطبة بيض من لوز ولب [4] فكان يقشرها بُلقاً ويصبها في مساقي الغنم من المياه لتنظر الغنم إليها فتفزع وتتحرك أولادها في بطونها فتصير ألوان حملانها كذلك . وهذا يكون من باب خوارق العادات وينتظم في سلك المعجزات ، فصار ليعقوب عليه السلام أغنام كثيرة ودواب وعبيد عظيمة الشأن ، وتغير له وجه خاله وبنيه وكأنهم انحصروا منه [5] .

وأوحى الله إلى يعقوب أن يرجع إلى بلاد أبيه وقومه ووعده أن يكون معه

---

(١) الأبقع : ما به سواد وبياض .
(٢) الأملح : ما يخالط بياضه سواد .
(٣) الأجلح : ما لا قرن له .
(٤) ودلب .
(٥) مرة ثالثة : نعود فنحذر من أمثال هذه الأخبار المدسوسة التي تريد أن تلصق بيعقوب عليه السلام طباع الغش والخداع (المراجع) .

فـعرض ذلك على أهله فأجابوه مبادرين إلى طاعته فتحَمَّل بأهله وماله ، وسرقت « راحيل » أصنام أبيها[1] ، فلما جاوزوا وتحيزوا عن بلادهم لحقهم «لابان » وقومه ، فلما اجتمع « لابان » بيعقوب عاتبه في خروجه بغير علمه وهَلاّ أعلمهم فيخرجهم في فرح ومزاهر وطبول ، وحتى يودع بناته وأولادهن . ولِمَ أخذوا أصنامه معهم ؟! ولم يكن عند يعقوب عــلم عن أصنامه فأنكر أن يكون أخذوا له ذلك ، فدخل بيوت بناته وإمائهن يفتش عن الأصنام فلم يجد شيئاً ، وكانت راحيل قد جعلتهن في برذعة جمل وهن تحتها ولم تقم واعتذرت بأنها طامث ، فلم يقدر عليهن ، فعند ذلك تواثقوا على رابية هناك يقال لها « جلعـــاد » على أنه لا يهين بناته ولا يتزوج عليهن ولا يجاوز هذه الرابية إلى بلاد الآخر ، لا « لابان » ولا « يعقوب » ، وعملا طعاماً وأكل القوم معهم وتودع كل منهما من الآخر وتفارقوا راجعين إلى بلادهم .

فلما اقترب يعقوب من أرض « ســــاعير » تلقته الملائكة يبشرونه بالقدوم ، وبعث يعقوب البُـــرْدَ إلى أخيه العيصو يترفق ويتواضع له ، فرجعت البُـرْدُ وأخبرت يعقوب بأن العيص قد ركب إليك في أربعمائة راجل . فخشى يعقوب من ذلك ودعا الله عز وجل وصلى له وتضرع إليه وتمسكن لديه وناشده عهده ووعده الذي وعده به وسأله أن يكف عنه شر أخيه العيص ، وأعد لأخيه هدية وهي مائتا شاة وعشرون تيساً ومائتا نعجة وعشرون كبشاً وثلاثون لقحة[2] وأربعون بقرة وعشرة من الثيران وعشرون أتاناً وعشرة من الحمر ، وأمر عبيده أن يسوقوا كلاً من هذه الأصناف وحده ، وليكن بين كل قطيع وقطيع مسافة ، فإذا لقيهم العيص فقال للأول : لمن أنت ، ولمن هذه التي معك ؟ فليقل : لعبدك يعقوب أهداها لسيدي « العيــص » ، وليقل الذي بعده كذلك ، وكذلك الذي من بعده ، ويقول كل منهم : وهو آت بعدنا .

---

(١) هكذا ...؟!!

(٢) اللقحة : الناقة الحلوب .

وتأخر يعقوب بزوجتيه وأَمَتيه وبنيه الأحد عشر بعد الكل بليلتين ، وجعل يسير فيهما ليلاً ويكمن نهاراً ، فلما كان وقت الفجر من الليلة الثانية تَبدَّى له مَلَكٌ من الملائكة في صورة رجل ، فظنه يعقوب رجلاً من الناسِ فأتاه يعقوب ليصارعه ويغالبه فظهر عليه يعقوب - فيما يروي - إلا أن الملكَ أصاب وركه فعرج يعقوب فلما أضاء الفجر قال له الملك : ما اسمك ؟ قال : يعقوب . قال: لا ينبغي أن تُدعى بعد اليوم إلا « إسرائيل » . فقال له يعقوب : ومن أنت وما اسمك؟ فذهب عنه فعلم أنه ملك من الملائكة ، وأصبح يعقوب وهو يعرج من رجله ، فلذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النَسا ء [١] . ورفع يعقوب عينيه فإذا أخوه « عيصـــو » قد أقبل في أربَعمائة راجل ، فتقدم أمام أهله فلما رأى أخاه العيص سجد له سبع مرات ، وكانت هذه تحيتهم في ذلك الزمان، وكان مشروعاً لهم كما سجدت الملائكة لآدم تحية له ، وكما سجد إخوة يوسف وأبواه له - كما سنذكر ذلك إن شاء الله في قصة يوسف - فلما رآه العيص تقدَّم إليه واحتضنه وقبَّله وبكى ، ورفع العيص عينيه ونظر إلى النساء والصبيان وقال له : من أين لك هؤلاء ؟ فقال : هؤلاء الذين وهب الله لعبدك ، فدنت الأمتان وبنوهما فسجدوا له ، ودنــت « ليـــا » وبنوها فسجدوا له ، ودنــت « راحيـــل » وابنها يوسف فخرّا سُجَّداً له كذلك ، وعوض عليه أن يقبل هديته التي أعدها له وألح عليه في ذلك فقبلها . ورجع العيص فتقدم أمامه ولحقه يعقوب بأهله وما معه من الأنعام والمواشـــي والعـــبيد قاصـــدين جبال « ســـاعير » التي هاجر إليها يعقوب ومن معه .

فلما مَرَّ بـ « ساحــور » ابتنى له بيتاً ولدوابه ظلالاً ثم مر على « أورشـليـم » قرية « شخيم » فنزل قبل القرية واشترى مزرعة « شخيم بن جمور » بمائة نعجة فبنى هنالك فسطاطه وابتنى هنالك مذبحاً أسماه « بيت إيـل » ، إله إسرائيل ، وأمره الله ببنائه ليستعلن له فيه ، وهو بيت المقدس اليوم الذي جدده بعد ذلك سليمان بن داوود عليهما السلام ، وهو مكان الصخرة التي علَّمها بوضع الدُهن عليه قبل ذلك .

---

(١) وهذا الخبر أيضاً من الإسرائيليات المدسوسة على الأنبياء عليهم السلام ، ولايوجد في المصادر الإسلامية ما يؤيد ذلك . (المراجع) .

وذكر أهل الكتاب هنا قصة « دينـا » بنت يعقوب بنت « ليـا » وما كان من أمرها مع « شخيم بن جمور » الذي قهرها على نفسها وأدخلها منزله ثم خطبها من أبيها وإخوتها ، فقال إخوتها : إلاَّ أن تختتنوا كلكم فنصاهركم وتصاهرونا فإنا لا نصاهر قوماً غُلفاً ، فأجابوهم إلى ذلك واختتنوا كلهم ، فلما كان اليوم الثالث واشتد وجعهم من الختان وألمه ، مال عليهم بنو يعقوب فقتلوهم عن آخرهم وقتلوا شخيماً وأباه جمور لقبيح ما صنعوا إليهم مضافاً إلى كفرهم وما كانوا يعبدونه من الأصنام [1] !!

ثم حملت راحيل فولدت غلاماً هو « بنيامين » إلا أنها جهدت في طلقها به جهداً شديداً وماتت عقيبه فدفنها يعقوب في « أفراث » وهي « بيت لحم » وصنع يعقوب على قبرها حجراً وهي الحجارة المعروفة بقبر راحيل إلى اليوم .

وكان أولاد يعقوب الذكور اثنى عشر رجلاً ، فمن « ليـا » : روبيل وشمعون ولاوى ويهوذا وإيساخر وزابلون ، ومن « راحيل » : يوسف وبنيامين ، ومن أمة راحيل : دان ونفتالي ، ومن أمَة ليا : جاد وأشير عليهم السلام .

وجاء يعقوب إلى أبيه إسحاق فأقام عنده بقرية حبرون التي بأرض كنعان حيث كان يسكن إبراهيم ، ثم مات إسحاق عن مائة وثمانين سنة ودفنه ابناه العيص ويعقوب مع أبيه إبراهيم في المغارة التي اشتراها . وهذا الخبر مروي عن أهل الكتاب وليس في الأخبار الإسلامية تعرض له ، والله أعلم .

* * *

● البيت العتيق وبناؤه والأسرار التي توحي بها آياته :

يجدر بنا أن نتحدث عن أروع آية شهدها العالم في كل القرون ، ونتكلم عن أعظم هدية روحية يستقبلها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها وتتجه إليها القلوب التى تهتدي بها وتنشد الحق في استقبالها .

---

(١) ألا ترى كيف يحاول اليهود نسبة الأنبياء وأولادهم إلى الغش والخداع حتى يجدوا ما يبررون به غشهم وخداعهم للأمم ؟! ونحن نربأ بأبناء الأنبياء أن تكون هذه أخلاقهم (المراجع) .

قال وهب بن منبّه : إن آدم عليه السلام لما أهبطَ إلي الأرض فرأي سعتها ولم يَرَ فيها أحداً غيره ، قال : يارب ، أما لهذه الأرض عامر يسبح بحمدك ويقدسك غيري ؟ قال الله تعالي : « إني سأجعل فيها من ولدك من يسبح بحمدي ويقدسني ، وسأجعل فيها بيوتاً تُرفع بذكري ويُسبح فيها خلقي ويُذكر فيها اسمي ، وسأجعل من تلك البيوت بيتاً أخصه بكرامتي وأوثره باسمي وأسميه بيتي ، وأنطق بعظمتي وعليه وضعت جلالي ، ثم أجعل ذلك البيت حرماً آمناً يحرم بحرمته من حوله ومن تحته ومن فوقه ، فمن حرَّمه بحُرمته استوجب بذلك كرامتي ، ومن أخاف أهله فقد ضيع ديني وخفر ذمتي وأباح حُرمتي ، أجعله أول بيت وُضِعَ للناس يأتونه شعثاً غبراً وعلي كل ضامر يأتين من كل فج عميق، يضجون بالتلبية ضجيجاً وينجون بالبكاء أجيجاً ويعجون بالتكبير عجيجاً ، فمن آثره لا يريد غيره فقد وفد إليَّ وزراني وضافني وحق علي الكريم أن يكرم وفده وأضيافه ، وأن ينعم ويتفضل ويُسْعف كلا بحاجته ، تَعْمُرُه يا آدم ما كنت حياً ثم تعمره الأمم والقرون والأنبياء من ولدك أمة بعد أمة وقرناً بعد قرن »، فهذا بدء أمر الكعبة حرسها الله تعالي ، ثم كانت على ذلك إلى أيام الطوفان وقد بقي مكان البيت خالياً بعد الطوفان ، وظل كذلك إلى زمان إبراهيم عليه السلام فأمره الله تعالي ببناء البيت وقد وُلدَ له ولدان : « إسماعيل » و« إسحاق »عليهما السلام قال تعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لاَ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾[1] ، وقالَ تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ، وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾[2] ، وقال تعالي :﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ

(١) الحج : ٢٦ - ٢٨ (٢) آل عمران : ٩٦ - ٩٧

قَالَ إنِّي جَاعِلُكَ للنَّاسِ إمَامًا ، قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾[1] . . وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وإسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ، إنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ، إنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ، إنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[2] . . . إلى آخر ما جاء في هذا الشأن من بينات الهدى والفرقان .

يذكر تعالى عن عبده ورسوله وصفيه وخليله إمام الحنفاء ووالد الأنبياء إبراهيم عليه السلام أنه بنى البيت العتيق الذي هو أول بيت وُضِعَ في الأرض لعبادة الله تعالى والإقرار بتوحيده وقد بوأه مكانه بقـــوله : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ﴾ أي أرشده إليه ودله عليه ، وقد رُوِيَ عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه أرشد إليه بوحي من الله عز وجل، وقد ذُكر أن الكعبة بحيال البيت المعمور بحيث إنه لو سقط - فرضاً - لسقط عليها ، وكذلك معابد السموات السبع ، كما قال بعض السلف : إن في كل سماء بيتاً يعبد الله فيه أهل كل سماء وهو فيها كالكعبة لأهل الأرض . فأمر الله تعالى نبيه إبراهيم أن يبني له بيتاً يكون لأهل الأرض كتلك المعابد للملائكة السموات وأرشده الله إلى مكان البيت المهيأ له المعيَّن لذلك منذ خلق السموات والأرض ، كما ثبت في الصحيحين : « إن هذا البلد حرَّمهُ الله يوم خلق الله السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة » وقـد قـال تعالى : ﴿ إنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾ نعم ، إنه وُضِعَ لعموم الناس للبركـة والـهـدى ﴿ فِيهِ آيَـاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إبْرَاهِيمَ ﴾

(١) البقرة : ١٢٤

(٢) البقرة : ١٢٧ - ١٢٩

أي الحجـــر الذي كان يقف عليه قائماً لما ارتفع البناء عن قامته فوضع له ولده إسماعيل هذا الحجر المشهور ليرتفع عليه لما تعالى البناء ، وقد كان هذا الحجر ملصقاً بحائط الكعبة على ما كان عليه من قديم الزمان إلي أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فأخره عن البيت قليلاً لئلا يشغل المصلين عنده الطائفين بالبيت، وأتبع عمر بن الخطاب في هذا فإنه قد وافقه ربه في أشياء منها قوله لرسولهﷺ : « لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلـــى » فـــأنـزل الله تعـــالى :﴿ واتَّخِـذُوا مِنْ مَقَامِ إبْرَاهِيمَ مُصَلىً ﴾[1] وقد كانت آثار قدمي الخليل باقية في الصخرة إلي أول الإسلام ، وقوله تعالى : ﴿ وَإذْ يَرْفَعُ إبْرَاهِيمُ الْقوَاعِدَ مِنَ الْبَيْت وإسْمَاعِيلُ ﴾[2] أي في حال قولهما : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ، إنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[2] فهما في غاية الإخلاص والطاعة لله تعالى ، وهما يسألان من الله عز وجل أن يتقبل منهما ما هما عليه من الطاعة العظيمة والسعي المشكور : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لكَ وأرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ، إنَّكَ أنْتَ التَّوابُ الرَّحِيمُ ﴾[3] .

والمقصود أن الخليل بني أشرف المساجد في أشرف البقاع في واد غير ذي زرع ، ودعا لأهلها بالبركة وأن يُرزقوا من الثمرات مع قلة المياه وعدم الأشجار والزروع والثمار ، وأن يجعله حرماً محرّماً وآمناً فاستجاب الله وله الحمد له مسألته ولبي دعوته وآتاه طلبته فقال : ﴿ أَوَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِنًا يُجْبَي إلَيْه ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيء رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا ﴾[4] ، وسأل الله تعالى أن يبعث فيهم رسولاً منهم – أي من جنسهم وعلى لغتهم الفصيحة البليغة – لتتم عليهم النعمتان الدنيوية والدينية ، أي سعادة الأولى والآخرة .

(١) البقرة : ١٢٥
(٢) البقرة : ١٢٧
(٣) البقرة : ١٢٨
(٤) القصص : ٥٧

وقد استجاب الله له فبعث فيهم رسولاً - وأى رسول - ختم به أنبياءه ورسله وأكمل له من الدين ما لم يؤتِ أحداً قبله ، وعَمَّ بدعوته أهل الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم فى سائر الأقطار والأمصار والأعصار إلى يوم القيامة ، وكان هذا من خصائصه من بين جميع الأنبياء لشرفه فى نفسه وكمال ما أرسل به وشرف بقعته وفصاحة لغته وكمال شفقته ولطفه ورحمته وعظيم محتده وكريم مولده وطيب مصدره ومورده .

* * *

• كيف كان بناء البيت :

وقد اختلف العلماء فى كيفية البناء ، قال السدى : إن الله عز وجل أمر إبراهيم أن يبنى هو وإسماعيل قائلاً لهما : ابنيا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود ، فانطلق إبراهيم عليه السلام حتى أتى مكة فقام هو وإسماعيل وأخذا المعاول لا يدريان أين البيت ، فبعث الله ريحاً يقال لها« ريح الخجوج » لها جناحان ورأس فى صورة حيــــة فكشفت لهما ما حول الكعبة عن أساس البيت الأول وأتبعاها بالمعاول يحفران حتى وضعــا الأساس فــذلك يرشد إليه قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ﴾ ، فلما بنيا القواعد فبلغا مكان الركن قال إبراهيم لإسماعيل : يابنى ، اطلب لى حجراً حسناً أضعه ههنا . قال : يا أبت إنى كسلان لغب [1] . قال : عليَّ بذلك . فانطلق فطلب له حجراً فجاءه بحجر فلم يرضه فقال : ائتنى بحجر أحسن من هذا . فانطلق يطلب له حجراً فأتاه به فوجده قد ركَّبَ الحجر الأسود مكانه فقال : يا أبه ، من أتاك

(١) اللغب : التعب والإعياء .

بهذا الحجر ؟ فقال : أتانى به من لم يتكل على بنائك ، جاء به جبريل عليه السلام . وكان ياقوتة من يواقيت الجنة فبنيا وهما يدعوان : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

ثم قال ابن جرير : حدثنا هناد بن السرى ، حدثنا أبو الأحوص عن سمال ، عن خالد بن عرعرة : أن رجلا قام إلى عليٍّ رضى الله عنه فقال : ألا تخبرنى عن البيت أهو أول بيت وُضِعَ فى الأرض ؟ قال : لا ، ولكنه أول بيت وُضِعَ فيه البركة ﴿ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ﴾[1] وإن شئت أنبأتك كيف بُنى .. إن الله أوحى إلى إبراهيم أن ابن لي بيتاً فى الأرض ، قال : فضاق إبراهيم بذلك ذرعاً فأرسل الله السكينة وهى ريح خجوج [2] ولها جناحان ورأس ، فأتبع أحدهما صاحبه حتى انتهت إلى مكة فتطوَّت على موضع البيت كطى الحجفة [3] وأمر إبراهيم أن يبنى حيث تستقر السكينة ، فبنى إبراهيم وبقى حجر فذهب الغلام يبغى شيئاً فقال إبراهيم : أبغى حجراً كما آمرك . قال: فانطلق الغلام يلتمس حجراً فأتاه به فوجده قد ركَّب الحجر الأسود في مكانه الذى به الآن فقال : يا أبه ، من أتاك بهذا الحجر ؟ فقال : جاء به جبريل من السماء . فأتاه .

وذكر ابن أبى حاتم أنه بناه من خمسة أجبل وأن ذا القرنين – وقد كان ملك الأرض إذ ذاك – مَرَّ بهما وهما يبنيانه فقال : من أمركما بهذا ؟ فقال إبراهيم: الله أمرنا به . فقال : وما يدرينى بما تقول ؟ . فشهدت خمسة أكبش أنه أمره بذلك فآمن وصدَّق . وذكر الأزرقى أنه طاف مع الخليل البيت .

وقد كانت السكينة على بناء الخليل مدة طويلة ثم بعد ذلك بنتها قريش فقصَّرت بها عن قواعد إبراهيم من جهة الشمال مما يلى الشام على ما هى عليه اليـــوم .

---

(١) آل عمران : ٩٧ (٢) شديدة المرور في غير استواء . (٣) الحجفة : الترس .

وفى الصحيحين من حديث مالك ، عن ابن شهاب ، عن سالم : أن عبد الله ابن محمد بن أبى بكر أخبر عن ابن عمر عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: « ألم ترى أن قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم » ؟ فقلت : يارسول الله ألا تردها على قواعد إبراهيم ؟ فقال : « لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت » ، وفى رواية : « لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية - أو قال بكفر - لأنفقت كنز الكعبة فى سبيل الله ولجعلت بابها بالأرض ولأدخلت فيها الحِجر » .

وقد بناها ابن الزبير رحمه الله فى أيامه على ما أشار إليه رسول الله ﷺ حسبما أخبرته به خالته عائشة أم المؤمنين عنه ، فلما قتله الحجاج فى سنة ثلاث وسبعين كتب إلى عبد الملك بن مروان الخليفة إذ ذاك ، فاعتقدوا أن ابن الزبير إنما صنع ذلك من تلقاء نفسه فأمر بردها إلى ما كانت عليه ، فنقضوا الحائط الشامى وأخرجوا منها الحجر ثم سدوا الحائط وردوا الأحجار فى جوف الكعبة فارتفع بابها الشرقى وسدوا الغربى بالكلية كما هو مشاهد اليوم .

ثم لما بلغهم أن ابن الزبير إنما فعل هذا لِما أخبرته عائشة أم المؤمنين ندموا على ما فعلوا وتأسفوا أن لو كانوا تركوه وما تولى من ذلك .

ثم لما كان فى زمن المهدى بن المنصور استشار الإمام مالك رضى الله عنه عن الصفة التي بناها ابن الزبير فقال له : إنى أخشى أن يتخذها الملوك لعبة . - يعنى كلما جاء ملك بناها على الصفة التى يريد - فاستقر الأمر على ما هى عليه اليوم .

* * *

قصة لوط عليه السلام ..
والأحداث التي وقعت في زمنه

هو لوط بن هاران بن تارح ، فهو ابن أخي إبراهيم عليه السلام ، فإبراهيم وهاران وناحور إخوة .. ومما وقع في حياة إبراهيم عليه السلام من الأمورالعظيمة ما جاء في قصة لوط عليه السلام وما حل بقومه من النقم الخطيرة ، وإنما سُمِيَ لوط بهذا الاسم لأن حبه لاط بقلب إبراهيم عليه السلام - أي تعلق ولصق به - ومنه حديث أبي بكر رضي الله عنه حين ذكر عمر : اللَّهم غفراً ، لولا ذاك ألوط - أي ألصق- بالقلب . وكان إبراهيم يحبه حباً شديداً ، وكان من أمر لوط فيما ذكر أهل العلم بأخبار الأنبياء :

فقد ذكر وهب في « المبتدأ » له : أنه شَخَصَ من أرض بابل مع عمه إبراهيم مؤمناً به متبعاً له علي دينه مهاجراً معه إلي الشام ، ومعهما سارة بنت ناحور، وشَخَصَ معه تارح أبو إبراهيم مخالفاً لإبراهيم في دينه ومقيماً علي كفره، إلي أن وصلوا إلي حرَّان وأقاموا بها ، فمات تارح أبو إبراهيم بـ«حرَّان» وبعد أن مات أبوه شَخَصَ إبراهيم ولوط وسارة إلي الشام ثم إلي مصر ، فوجدوا بها فرعوناً من فراعنتها يقال له « سنان بن عاران بن عبيد بن عوج بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام » فرجعوا عَوداً إلي أرض الشام فنزل إبراهيم فلسطين وأنزل لوط الأردن ، فبعثه الله إلى أرض « سَدوُم » من أرض غور « زغر » وما يليها ، وكان قد أمَّ تلك المحلة ولها أرض ومعتملات وقري مضافة إليها ، وكانواأهل كفر بالله ، فيها أهل من أفجر الناس وأكفرهم وأسوأهم طوية وأفظعهم سريرة وسيرة ، يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر وأقبح الفواحش فقد﴿ كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[1] فإنهم ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم كما أخبر الله عنهم بقوله : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أحدٍ مِنَ

---

(١) المائدة : ٧٩

العَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ، بَلْ أَنْتُمْ قَومٌ مُسْرِفُونَ ﴾[1] .

ولما كان أمرهم كذلك ووصل بهم فجورهم إلي حد هذه الفظاعة ، دعاهم لوط إلي عبادة الله تعالي وحده لا شريك له حيث كانت جوهر دعوتهم ومهمتهم التي جاءوا بها ، ونهاهم عن ارتكاب هذه المحرمات واقتراف هذه الفواحش المنكرة والأفاعيل المستقبحة ، لكنهم تمادوا في ضلالهم وتفانوا في ارتكاب فواحشهم ومنكراتهم واستمروا علي فجورهم وكفرانهم ، فأحل الله بهم من البأس الذي لا يُرَد ومن المحن التي لم تكن في حسبانهم ولم يتوقعوها في دنيا شهواتهم، فقد جعلهم مُثلةً في العالمين وعبرة لأولي الألباب من الغادين والرائحين .

ولذلك ذكر الله تعالي قصتهم في غير موضع من كتابه المبين فقال في سورة الأعراف:﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍمِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ، بَلْ أَنْتُمْ قَومٌ مُسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ ، إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وأَهْلَهُ إِلاَّ امرأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾[2] .

وقال في سورة هود:﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلاَماً، قَالَ سَلاَمٌ ، فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ، قَالُوا لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ * وامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَي أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ،

(١) الأعراف : ٨٠ - ٨١ (٢) الأعراف : ٨٠ - ٨٤

إنَّ هَذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [1] . . . إلى أن قال :﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِم ذَرْعاً وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ * وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَيئَات ، قَالَ يَا قَوم هَؤُلاَءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ، فَاتَّقُوا اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ، أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجلٌ رَشِيدٌ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وإنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ* قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ * قَالُوا يَالُوطُ إنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ، فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ ، إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَاأَصَابَهُمْ ، إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ، أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَها وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنضُودٍ * مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ، وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [2] ، ثم قال في سورة الحجر وفي سورة الشعراء وفي سورة النمل وفي سورة العنكبوت وفي سورة الصافات وفي سورة الذاريات وفي سورة القمر من قصة لوط وأحداثها الفظيعة التي تتحدث عن أشنع الفواحش وأقبحها ما لم يكن يتصور وقوعه بشر من أولي الألباب قبل قوم لوط الذين سَنُّوا هذه السنة الفاحشة وارتكبوها ولا تزال سيئة إلي يوم الدين.

* * *

• الأحداث التي تكلمت ، والفظائع التي تشـــمئز لها الأيام وتقشعر القلوب والجوارح الحية :

يهم التاريخ الآن إيراد ما كان من أمرهم وما قع منهم للعبر والاعتبار والذكر، والذكري تنفع الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه من الآيات ، ويعلمون بما توحي به وتهدي إليه ليكون علي الحق وعلى هدي رب العالمين.

---

(١) هود : ٦٩ - ٧٢ (٢) هود : ٧٧ - ٨٣

وذلك أن لوطًا عليه السلام لما دعاهم إلي الله تعالى ووجوب توحيده والإقرار بربوبيته والاعتراف بألوهيته وحده لا شريك له ، لم يستجيبوا له ولم يؤمنوا به حتي ولا رجل واحد منهم ، ولم يتركوا ما نهاهم عنه بل استمروا علي حالهم ولم يرعووا[1] عن غيهم ولم يرجعوا عن منكراتهم وضلالهم وهموا بإخراج رسولهم من بين ظهرانيهم وما كان حاصل جوابهم عن خطابه لهم - إذ كانوا لا يعقلون - إلا أنهم قالوا : ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ ، إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾[2] فجعلوا أسمى آيات المدح ذماً يقتضي الإخراج ، وما حملهم علي مقالتهم هذه ودفعهم إليها إلا منتهي العناد وغاية اللجاج. فطهره الله وأهله وأخرجهم منها أحسن إخراج إلا امرأته فقد بقيت مع قومه الذين نزل بهم من ألوان العقاب وأنواع المحن والبلايا ما لم يكن في حسبانهم ولم يدر بخلدهم، فتركهم في محلتهم مُثلةً وبحرةً منتنة ذات أمواج تتأجج نارها ويتوهج حرها ويشتد لظاها. وما كان هذا جوابهم ولا رداً عليهم إلا لأنهم لم يقلعوا عما نهاهم عنه وحذرهم سوء مغبتهم وعاقبة غيهم وفجورهم ، ليصيروا عبرة لهذه الحياة وذكري لمن كان له قلب فيها. ومع أنهم كانوا كذلك فقد عمدوا معه إلى أبعد مدى منه ، فكانوا يقطعون الطريق ويخونون الرفيق ويأتون في ناديهم - وهو مكان مجتمعهم ومحل حديثهم وسمرهم - من الأقوال والأفعال علي اختلاف أصنافه وشتي متنوعات جرائمه ومنكراته ، ولا يُجدي فيهم وعظ واعظ ولا تنفع فيهم نصيحة من عاقل ، بل كانوا دائماً في ضلال مبين ، فلم يندموا على ما سلف منهم من مخازي شائنة ولم يشأ لهم هواهم أن يقلعوا في مستقبل دهرهم عن فجورهم وقالوا له: ﴿ ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[3] ، فطلبوا منه وقوع ما حذرهم عنه من الهلاك والدمار الأليم وحلول البأس والخزي العظيم ، فما كان منه إلا أنه دعا عليهم وسأل ربه وقوع ما لم يحتسبوا بهم ، فغار الله لغيرته وغضب لغضبه ، وقد استجاب لدعوته وأجابه إلى طلبته فبعث

---

(١) أي : لم يرتدعوا . (٢) النمل : ٥٦ (٣) العنكبوت : ٢٩

إليه رسله وأرسل له ملائكته فمروا علي إبراهيم وبشروه بالغلام الحليم وأخبروه بما جاءوا له من هائل الأمور وجسامة الخطوب: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾(1) وقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ، إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ، قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا ، لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾(2) وقال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾(3). وذلك أنه كان يرجو أن يجيبوا أو ينيبوا إلي ربهم ويسلموا لخالقهم وموجدهم ويقلعوا ويرجعوا عما هم عليه من شتي المعاصي وألوان المنكرات ، فكان هذا منه نهاية الحلم ومنتهي الصبر ولذلك قال تعالي: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ * يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ، إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ، وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾(4) أي أعرض يا إبراهيم عن هذا وتكلم في أمر غير أمر هؤلاء ، فإنه قد حُتِمَ أمرهم ووجب عذابهم وتدميرهم وهلاكهم : ﴿ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ أي قد أمر به من لا يُرَدّ أمره ولا يُرَدّ بأسه ولا مُعَقبَ لحكمه: ﴿ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ .

وذكر سعيد بن جبير والسدي وقتادة ومحمد بن إسحاق : أن إبراهيم عليه السلام جعل يقول: أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قالوا : لا. قال : فمئتا مؤمن ؟ قالوا : لا. قال: فأربعون مؤمناً؟ قالوا : لا . قال : فأربعة عشر مؤمناً ؟ قالوا : لا . قال ابن إسحاق: إلي أن قال : أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد ؟ قالوا : لا . قال : إن فيها لوطاً . قالوا : نحن أعلم بمن فيها . . الآية.

قال المفسرون : لما فصلَت الملائكة من عند إبراهيم وهم « جبريل وميكائيل

---

(1) الذاريات : ٣١ - ٣٤
(2) العنكبوت : ٣١ - ٣٢
(3) هود : ٧٤
(4) هود : ٧٥ - ٧٦

وإسرافيل » رضوان الله عليهم ، أقبلوا حتي أتوا أرض سدوم في صورة شبان حسان اختباراً من الله تعالي لقوم لوط وإقامة للحجة عليهم ، فاستضافوا لوطاً عليه السلام وذلك عند غروب الشمس فخشي إن لم يضفهم أن يضيفهم غيره وحسبهم بشراً من الناس: ﴿ سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾[1] قال ابن عبـــاس ومجـاهــد وقتادة ومحـمـد بن إسحاق : شديد بلاؤه . وذكر قتادة : أنهم وردوا عليه وهو في أرض له يعمل فيها فتضيَّفُوا فاستحيا منهم وانطلق أمامهم وجعل يُعَرِّض لهم في الكلام لعلهم ينصرفون عن هذه القرية وينزلون في غيرها ، فقال لهم فيما قال : والله - يا هؤلاء - ما أعلم علي وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء . ثم مشي قليلا ثم أعاد ذلك عليهم حتي كرره أربع مرات . قال : وكانوا قد أمروا أن لا يهلكوهم حتي يشهد عليهم نبيهم بذلك .

وقال السدي: خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط ، فلما بلغوا نهر سدوم وكان ذلك وسط النهار لقوا ابنة لوط تستقي من الماء لأهلها - وكانت له ابنتان اسم الكبري « ريثا » والصغري « ذعرتا » فقالوا لها : يا جارية ، هل من منزل ؟ فقالت لهم : نعم مكانكم لا تدخلوا حتي آتيكم . شفقة عليهم من قومها فأتت أباها فقالت : يا أبتاه ، أرادك فتيان علي باب المدينة ما رأيت وجوه قوم قط هي أحسن منهم ، لا يأخذهم قومك فيفضحوهم . . وقد كان قومه نهوه أن يُضَيِّف رجلا فقالوا : خَلِّ عنا فلنُضف الرجال ، فرقت عليهم من قومها فجاء بهم فلم يعلم بهم أحد إلا أهل البيت ، فخرجت امرأته فأخبرت قومها فقالت: إن في دار لوط رجالاً ما رأيت مثل وجوههم قط . فجاءه قومُه يُهرعــون إليـه : ﴿ قَالَ يَاقَوم هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ

---

(1) هود : ٧٧

﴿ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ، أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾[1] يرشدهم إلي غشيان نسائهم وهن بناته شرعاً لأن النبي للأمة بمنزلة الوالد - كما ورد في حديث ، وكما قال تعالي : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِم ، وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾[2] ، وفي قول بعض الصحابة والسلف : « وهو أب لهم » وذلك لقوله : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾[3]. فقال قومه - لعنة الله عليهم - لنبيهم فيما أمرهم به : ﴿ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾[4] ، يقولون عليهم لعائن الله : لقد علمت يالوط أنه لا أرب لنا في نسائنا وإنك لتعلم مرادنا وغرضنا ، فواجهوا رسولهم بهذا الكلام القبيح ولم يخافوا سطوة الجبار ولم يخشوا عقابه الأليم وظلوا في غمرتهم ، ولذلك أقسم الله لنبيه محمد ﷺ قائلا له : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[5] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ * وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِه فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌ ﴾[6] . فلما ضاق به الأمر وعسر الحال قال : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾[7] لأحللت بكم النكال، قالت الملائكة : ﴿ يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾[8] . . . وذكروا أن جبريل عليه السلام خرج عليهم فضرب وجوههم بطرف جناحه فطمست أعينهم حتى قيل إنها غارت بالكلية فرجعوا يَتَحَسَّسُون مع الحيطان ويتوعدون رسولهم، قال تعالى في ذلك : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيفه فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌ ﴾[9] .

---

(1) هود : ٧٨ (2) الأحزاب : ٦ (3) الشعراء : ١٦٥ - ١٦٦
(4) هود : ٧٩ (5) الحجر : ٧٢ (6) القمر : ٣٦ - ٣٨
(7) هود : ٨٠. (8) هود : ٨١ (9) القمر : ٣٧ - ٣٨

فتقدمت الملائكة إلى لوط عليه السلام آمرينه بأن يسرى هو وأهله من آخر الليل : ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ ﴾[1]، يعنى عند سماع صوت العذاب إذا حل بقومه ، وأمروه أن يكون سيره فى آخرهم كالساقة لهم ، وقوله : ﴿ إِلَّا امْرَأَتَكَ ﴾ أى فإنها ستلتفت فيصيبها ما أصابهم ، فلما خرج لوط عليه السلام ومعه ابنتاه لم يتبعه منهم رجل واحد وقد حل بهم العذاب ولذلك قال: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ * مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ، وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾[2] ، قالوا : اقتلعهن جبريل بطرف جناحه من قرارهم وكُنّ سبع مدن بمن فيهن من الأمم ، فقالوا : إنهم كانوا أربعمائة - وقيل : كانوا أربعة آلاف - وما معهم من الحيوانات وما يتبع تلك المدن من الأراضى والأماكن والمعتملات ، فرفع الجميع حتى بلغ بهن عنان السماء حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهم ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها ، قال مجاهد : فكان أول ما سقط منها شرفاتها ، وقد جعل الله مكان تلك البلاد بَحْرَةً مَنتنةً لا يُنتفع بها ولا بمائها ولا بالأراضى المتاخمة لها ، فصارت عبرة ومُثلة وعظة وآية على قدرة الله وعظمته : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ ﴾[3] وفي ذلك لعبرة :﴿ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[4]

*   *   *

(١) هود : ٨١
(٢) هود : ٨٢ - ٨٣
(٣) الحجر : ٧٥ - ٧٦
(٤) سورة ق : ٣٧

قصة سيدنا شعيب عليه السلام ودعوته لقومه

أرسل الله تعالى إلى مَدْيَنَ أخاهم شعيباً يدعوهم إلى عبادة الله تعالى ويرشدهم إلى وجوب توحيده وتمحيص وحدته ، لأنه الذى لا إله غيره ولا معبود سواه ، وهذه الأخوة التى عبَّر عنها قوله: ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾[1] إنما كانت فى النسب لا فى الدين ، ومدين قيل : إنه اسم البلد ، وقيل : إنه اسم القبيلة بسبب أنهم أولاد مدين بن إبراهيم عليه السلام ، وهذا يتفق مع قولهم: إنما كانت الأخوة فى النسب ، ومدين هذا صار اسماً للقبيلة ، وشعيب قد اختُلف فى نسبه ، فقيل : هو شعيب بن ميكيل بن يشجن - ذكره ابن إسحاق ، وقيل : شعيب بن يشخر بن لاوى بن يعقوب ، وقيل : شعيب بن نويب بن عيفا ابن مدين بن إبراهيم ، وقيل : شعيب بن ضيفور بن عيفا بن ثابت بن مديـن ابن إبراهيم ، وقيل غير ذلك . قال ابن عساكر : ويقال : جدّته - ويقال أمه - بنت لوط عليه السلام.

وقد حكى الله تعالى عن شعيب أنه أمر قومه بعبادة الله تعالى ونهاهم عن عبادة غيره ، وهذاأصل معتبر فى جميع شرائع الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، إذ قال لهم: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾[2] ، وادعى النبوة إذ قال لهم :﴿ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾[3] ، والمراد بالبينة هنا المعجزة لأنه لا بد لمدعى النبوة منها ، وإلا لكان متنبئاً لا نبياً ، فهذه الآية قد دلت على أنه قد حصل له معجزة دالة على صدقه ، فأما إن هذه المعجزة من أى أنواع كانت ، فليس فى القرآن دلالة عليه ، كما لم يحصل فى القرآن الدلالة على كثير من معجزات رسولنا محمد ﷺ . قال في الكشاف: ومن معجزات شعيب عليه السلام أنه دفع لموسى عصاه ، وتلك العصا هى التى حاربت التنين ، وأيضـاً قال لموسى : إن هـــذه

(١) الأعراف : ٨٥ (٢) الأعراف : ٨٥ (٣) الأعراف : ٧٣

الأغنام تلد أولاداً فيها سواد وبياض وقد وهبتها منك فكان الأمر كما أخبر عنه وهذه الأحوال كانت معجزات لشعيب عليه السلام ، لأن موسى فى ذلك الوقت لم يكن قد ادعى الرسالة ، وقد كانت عادة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا رأوا قومهم مقبلين على نوع من أنواع المفاسد إقبالاً أكثر من إقبالهم على سائر أنواع المفاسد الأخرى بدأوا بمنعهم من ذلك النوع ، وقد كان قوم شعيب شغوفين بالبخس والتطفيف ، فلهذا السبب كان اتجاه شعيب واهتمامه بهذه المفسدة ، وقد كان عليه السلام ممن آمن بإبراهيم وهاجر ودخل معه دمشق وأرسله بعد ذلك إلى مَدْيَنَ ، فقال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ، قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ، قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنْتُم مُؤْمِنِينَ * وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ، وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُم قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ، وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ * وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُم آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ، قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ﴾[1] .

وقال فى سورة هود بعد قصة لوط : ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ، قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ، وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ

(١) الأعراف : ٨٥ - ٨٩

وَالْمِيزَانَ ﴾[1] .... إلى أن قالوا له منكرين دعوته لهم إلى عبادة الله :
﴿ قَالُوا يَاشُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ ؟ [2] .

وقد جاءت أحداث أخرى فى هذا الشأن فى سورة الحجر وفي سورة الشعراء .

وكان أهل مدين قوماً عرباً يسكنون مدينتهم « مدين » القريبة من أرض « مَعَان » من أطراف الشام مما يلى ناحية الحجاز قريباً من بحيرة قوم لوط ، وكانوا بعدهم بمدة قريبة ، ومدين قبيلة عُرفت بهم وهم من بنى مدين بن مديان بن إبراهيم كما قيل بذلك ، وكانوا كفاراً يقطعون السبيل ويخيفون المارة ويعبدون الأيكة - وهى شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها - وكانوا من أسوأ الناس معاملة ، يبخسون المكيال والميزان ويطففون فيها (يأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص) .

* * *

● بعثه عليه السلام إلى قومه :

فبعث الله فيهم رجلاً منهم ألا وهو رسول الله شعيب عليه السلام فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهاهم عن ارتكاب الأفاعيل القبيحة من بخس الناس أشياءهم . وإخافتهم لهم فى سُبُلهم وطرقهم ، فآمن به بعضهم وكفر أكثرهم حتى أحل الله بهم البأس الشديد وأنزل بهم الهوان والدمار ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾[3] . . . قال تعالى معبراً عن ذلك : ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ، قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾[4] : أى دلالة وحجة واضحة وبرهان قاطع على صدق ما

(1) هود : ٨٤ (2) هود : ٨٧
(3) الشورى : ٤٠ . (4) الأعراف : ٨٥

جئتكم به، وأنه أرسلنى - وهو ما أجرى الله على يديه من المعجزات التى لم تُنتقل إلينا تفصيلاً وإن كان هذا اللفظ قد دل عليها إجمالا : ﴿ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ﴾(١) . أمرهم بالعدل فى معاملاتهم ونهاهم عن الظلم فيها وتوعدهم على مخالفتهم لذلك فقال: ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَلاَ تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾(٢) : أى ولا تقعدوا بكل طريق تتوعدون الناس بأخذ أموالهم من مُكوس وغير ذلك.

قال السدى فى تفسيره عن الصحابة ﴿ وَلاَ تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾ : إنهم كانوا يأخذون العشور من أموال المارة . وقال إسحق بن بشر عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال : كانوا قوماً طغاة يجلسون على الطريق يبخسون الناس - يعنى يُعْشرونهم - وكانوا أول من سَنَّ ذلك.

وفى حديث أبى ذر الذي جاء فى صحيح ابن حبان فى ذكر الأنبياء والرسل قال : « أربعة من العرب : هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر » وكان بعض السلف يسمى شعيباً خطيب الأنبياء ، يعنى لفصاحته وعلو عبارته وبلاغته فى دعاية قومه إلى الإيمان برسالته.

ولما دعاهم إلى ربهم قالوا :﴿ يَا شُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ، إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾(٣) يقولون هذا على سبيل الاستهزاء والتنقيص والتهكم ، أصلاتك هذه الذى تصليها هى الآمرة لك بأن تحجر علينا فلا نعبد إلا إلهك ونترك ما يعبد آباؤنا الأقدمون وأسلافنا الأولون أو أن لا نتعامل إلا على الوجه الذى ترتضيه أنت ونترك المعاملات التى تأباها وإن كنا نحن نرضاها﴿ إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ يقولون ذلك أعداء الله على سبيل السخرية والاستهزاء.

(١) الأعراف : ٨٥
(٢) الأعراف : ٨٥ -٨٦
(٣) هـود : ٨٧

﴿ قَالَ يَاقَوم أَرَأَيْتُم إنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى﴾ ، يقول لهم: أرأيتم أيها المكذبون﴿ إنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾ أى على أمر بيّن من الله تعالى أنه أرسلنى إليكم : ﴿ وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً ﴾[1] ، يعنى النبوة والرسالة يعنى : وعمى عليكم معرفتها فأى حيلة لى فيكم ؟ وقوله : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ أى لست آمركم بأمر إلا وأنا أول فاعل له ﴿ وَمَاتَوْفِيقِى ﴾ فى جميع أحوالى ﴿ إلاَّ بِاللَّهِ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وإلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[2] أى عليه أتوكل فى سائر الأمور وإليه أنيب ، أى وإليه مرجعى ومصيرى فى كل أمرى وهذا مقام ترغيب . ثم مزج الترهيب بالترغيب فقال:
﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إلَيْهِ ، إنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾[3] ، أى أقلعوا عما أنتم فيه وتوبوا إلى ربكم الرحيم الودود ، فإنه من تاب إليه تاب عليه فإنه رحيم بعباده ، أرحم بهم من الوالدة بولدها . ﴿ قَالُواْ يَاشُعَيْبُ مَانَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلاَ رَهْطُكَ ﴾ أى قبيلتك وعشيرتك فينا ﴿ لَرَجَمْنَاكَ ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾[4] .

﴿ قَالَ يَاقَوْمِ أَرَهْطِى أَعَزُّ عَلَيكُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾[4] ، أى تخافون قبيلتى وعشيرتى وترعونى بسببهم ومدى جاههم ولاتخافون العذاب من الله ، ولا ترعونى لأنى رسول الله ؟ وإذا كنتم كذلك فقد صار رهطى أعز عليكم من الله واتخذتم جانب الله وراء ظهوركم ﴿ إنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾[5] ، أى إنه عليم بما تعملونه وتضعونه وتقومون به ، محيط بكل ذلك وسيجزيكم عليه يوم تُرجعون إليه ، ثم وجّه إلى قومه أمر تهديد شديد ووعيد عظيم فقال لهم:
﴿ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُم إنِّى عَامِلٌ ، سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يأْتِيه عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ، وارْتَقِبُوا إنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾[6] ، فوجّه

(١) هود : ٨٨ (٢) هود : ٨٨ (٣) هود : ٩٠
(٤) هود : ٩١ (٥) هود ٩٢ (٦) هود : ٩٣

إليهم ذلك التهديد الذى يجعلهم يستمرون على طريقتهم ومنهجهم وشاكلتهم فسوف تعلمون عاقبة الدار ، ومن يحل عليه الهلاك والبوار فى هذه الحياة ومن يلقى عذاباً دائماً فى الحياة الأخرى ، ثم هو يعلم من هو الكذاب منا فيما أخبر وبشر وحذر ، وقوله : ﴿ وَٱرْتَقِبُوا إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ . كقوله : ﴿ وَإِنْ كَانَ طَائِفَـةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾[1] .

وقد طلبوا بزعمهم أن يردوا من آمن منهم إلى ملتهم ويرجعونهم إلى دينهم الباطل الذى كانوا عليه ، فانتصب شعيب للمحاجة عن قومه وقال : ﴿ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ ؟ ، أى إن هؤلاء لا يعودون إليكم اختياراً ، وإنما يعودون إليكم إن عادوا اضطراراً مكرهين ، وذلك أن الإيمان إذا خالطت بشاشتة القلب لا يسخطه أحد ولا يرتد عنه ولا محيد لأحد منه ، وقد أخبر الله عن ذلك بقوله تعالى : ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَـوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ، قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَـدِ افْـتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَـذِباً إِنْ عُـدْنَا فِى مِلَّتِكُـمْ بَعْـدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ﴾[2] ثم استفتح على قومه واستنصر ربه عليهم فى تعجيل ما يستحقونه إليهم فقال : ﴿ رَبَّنَا افْتَـحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَـقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾[3] ، أى الحاكمين ، فدعا عليهم والله لا يرد دعاء رسله إذا استنصروه على الذين جحدوه وكفروه وخالفوا رسوله الذى أرسله إليهم ، ومع ذلك صمموا على ما هم عليه مشتملون وبه متلبسون ، وقد جاء فى سورة الأعراف أنهم رجفت بهم أرضهم وزُلزلت زلزالاً شديداً أزهق أرواحهم من أجسادها وصير حيوان أرضهم كجمادها ، وأصبحت جثثهم جاثية لا أرواح فيها ولا حركات بها ولا حواس لها .

---

(١) الأعراف : ٨٧ (٢) الأعراف : ٨٨ - ٨٩ (٣) الأعراف : ٨٩

وقد جمع الله عليهم أنواعاً من العقوبات وصنوفاً من المثلات وأشكالاً من البلايا ، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات وذميم المنكرات ، فسلط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات ، ووجه إليهم صيحة شديدة أخمدت أصواتهم ، وأرسل عليهم فى سائر الأرجاء والجهات ظُلّة من شرر النار التهمتهم وقضت عليهم.

وغير خاف أنه تعالى أخبر عنهم فى كل سورة بما يناسب سياقها ويوافق طباقها ، ففى قصة الأعراف أرجفوا نبى الله وأصحابه وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم أو ليعودن فى ملتهم راجعين إليها : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾[1] فقابل الإرجاف بالرجفة والإخافة بالخيفة ، وهذا ما يناسب السياق . وأما فى سورة هود فذكر أنهم أخذتهم الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . وذلك لأنهم قالوا لنبى الله على سبيل التهكم والاستهزاء والتنقص : ﴿ أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ، إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾[2] فناسب أن يذكر الصيحة التى هى كالزجر عن تعاطى هذا الكلام القبيح الذى واجهوا به هذا الرسول الكريم فجاءتهم صيحة أسكنتهم مع رجفة أسكنتهم كذلك ، وفى سورة الشعراء ذكر أنهم أخذهم عذاب يوم الظُلّة ، وكان ذلك إجابة لما طلبوا وتقريباً إلى ما إليه رغبوا فإنهم قالوا : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[3] ولتماديهم وتعنتهم وعنادهم قال تعالى وهو السميع العليم : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ، إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[4] .

* * *

---

(١) الأعراف : ٧٨ (٢) هود : ٨٧

(٣) الشعراء : ١٨٥ – ١٨٨ (٤) الشعراء : ١٨٩

• أصحاب الأيكة وهل هم أهل مدين ؟

ومن زعم من المفسرين - كقتادة وغيره - أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين فقوله ذلك ضعيف وإنما عُمْدتهم شيئان :

أحدهما : أنه قال : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ المُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيبٌ ﴾[1] ولم يقل أخوهم ، كما قال : ﴿ وإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً ﴾[2]

والثانى : أنه ذكر عذابهم بيوم الظُّلة وذكر فى أولئك الرجفة أو الصيحة .

والجواب عن الأول : أنه لم يذكر الأخوة بعد قوله : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ المُرْسَلِينَ ﴾ . لأنه وصفهم بعبادة الأيكة فلا يناسب ذكر الأخوة ههنا . ولما نسبهم إلى القبيلة ساغ ذكر شعيب بأنه أخوهم . وهذا الفرق من النفائس العظيمة ، وأما احتجاجهم بيوم الظُّلة فإن كان دليلاً بمجرده على أن هؤلاء أمة أخرى فليكن تعداد الانتقام بالرجفة والصيحة دليلاً على أنهما أمتان أخريان وهذا ما لا يقول به أحد يفهم من هذا الشأن شيئاً.

وفضلاً عن ذلك ، فإن الله تعالى قد ذكر عن أهل الأيكة من المذمة ما ذكره عن أهل مدين من التطفيف فى المكيال والميزان ، فدلّ على أنهم أمة واحدة أهلكوا بأنواع من العذاب ، وذكر فى كل موضع ما يناسبه من الخطاب .

وقوله : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّة ، إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[3] ذكروا أنهم أصابهم حر شديد وأسكن الله هبوب الهواء عنهم سبعةَ أيام ، فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء ولا ظل ، ولا دخولهم فى الأسراب ، وما أفادهم هربهم إلى البرية فقد أظلتهم سحابة ولما اجتمعوا تحتها ليستظلوا بها ألقت عليهم بشرر وشُهب لا طاقة لهم بها ، ورجفت بهم الأرض ، وجاءتهم

---

(١) الشعراء : ١٧٦ - ١٧٧ (٢) هود : ٨٤ (٣) الشعراء : ١٨٩

صيحة من السماء فأهلكوا جميعا حيث أزهقت أرواحهم وطارت أشباحهم ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ، الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾[1] ونجى اللهُ شعيباً ومن معه من المؤمنين كما قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾[2] ، ثم قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ، الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾[3] وهذا في مقابل قولهم : ﴿ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ .

ثم ذكر الله تعالى عن نبيهم أنه نعاهم إلى أنفسهم موبخاً ومؤنباً ومفزعاً فقال تعالى : ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ، فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾[4] أي أنه عليه السلام أعرض مولياً عن محلتهم بعد هلكتهم قائلاً لهم : ﴿ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ . أي قد أديت ما كان واجباً عليّ من البلاغ التام والنصح الكامل وحرصت على هدايتكم بكل الوسائل التي استطعت بها أن أقوم بهدايتكم ، ولكن لم ينفعكم ذلك لأن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين . فلست أتأسف بعد هذا عليكم لأنكم لم تكونوا تقبلون النصيحة ولا

(١) الأعراف : ٩١ - ٩٢
(٢) هود : ٩٤ - ٩٥
(٣) الأعراف : ٩٠ - ٩٢
(٤) الأعراف : ٩٣

تخافون يوماً يجعل الوِلدان شيباً ، ولهذا قال : ﴿ فَكَيفَ آسَىٰ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ .

وقد ذكر الحافظ في تاريخه عن ابن عباس أن شعيباً عليه السلام كان بعد يوسف عليه السلام ، وعن وهب بن منّبه أن شعيباً مات بمكة وكذلك من كان معه من المؤمنين وقبورهم غربي الكعبة بين دار الندوة ودار بني سَهم . وإلى هنا انتهت قصة سيدنا شعيب بأحداثها ووقائعها . . والله أعلم .

*   *   *

قصة سيدنا يوسف عليه السلام
والأحداث الرائعة التي صاحبته والتجليات العظيمة التي لازمته في مراحل حياته وتطوراتها

يجدر بنا أن نستعرض أحداث هذه القصة ونكشف النقاب عن مراحل تطوراتها وروائع أطوارها لخطورة أحداثها وعظم الشخصية التي صاحبتها الأحداث ودارت حولها الوقائع ، ولا عجب في ذلك ، فقد أنزل الله عز وجل في شأنه وما كان من عجائب أطواره وتقلبات الأحداث التي مرت به ، وتفاوت العبر التي مر بها ، وتنوع الوقائع التي انتابته في حياته وكانت عجباً سورة من القرآن العظيم ، ليتدبروا ما فيها ويفكروا في عبرها ويمعنوا النظر في آياتها وجلال عظاتها وجمال نهايتها ومصاحبة الأقدار في تحركها وسكونها وملازمة الرعاية الربانية في مسيرتها وسيرها فقال تعالى : ﴿ آلر ، تلكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرآنَاً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنَ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾[1].

يمدح الله تعالى كتابه العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم بلسان عربي فصيح بَيِّن واضح يفهمه العقلاء ويدركه الفقهاء ، فهو أشرف كتاب نزل من السماء بالحكم والآيات والأحكام ، على أشرف الخلق في أشرف زمان وأعظم مكان ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فهو كما قال تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا القُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾[2] أي بالنسبة لما أوحي إليك فيه ، وكما قال:

---

(١) يوسف : ١ - ٣ (٢) يوسف : ٣

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[1] . وَقَالَ : ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ، وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً * مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحمِلُ يَومَ القِيَامَةِ وِزْراً ﴾[2] .

وإنما وصف القرآن الكريم بكونه مبيناً لأنه معجزة قاهرة وآية بيّنة لمحمد ﷺ، وقد بيّن اللَّهُ فيه الهدى والرشد والحلال والحرام إلى غير ذلك من التكاليف والعظات والعبر والأحكام والحكَم . ولما كانت هذه الآيات التي أشار إليها بقوله : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ ﴾ قد بُينت فيه ، كان الكتاب مبيناً لها ، وفضلاً عن ذلك فقد بيِّن فيه قصص الأولين وشرحت فيه أحوال المتقدمين إذ يقول : ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾[3] . . رُوِيَ أن علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين : سلوا محمداً : لِمَ انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر وعن كيفية قصة يوسف ؟ فأنزل اللّه تعالى هذه الآية التي ذكر فيها أنه عبـّر عن هذه القصة بألفاظ عربية ليتمكنوا من فهمها ويقدروا على تحصيل المعرفة بها ، فعلى هذا يكون التقدير : « إنَّا أنزلنا هذا الكتاب الذي فيه قصة يوسف حال كونه قرآناً عربياً » وقد سمي بعض القرآن قرآناً لأن القرآن اسم جنس يصدق على الكل والبعض . وروى سعيد بن جبير : أنه تعالى لما أنزل القرآن على رسول الله ﷺ وأخذ يتلوه على قومه فقالوا: يارسول اللّه .. لو قصصت علينا . فنزلت هذه السورة فأملاها عليهم فقالوا : لو حدثتنا ؟ . فنزل قوله تعالى : ﴿ اللّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابَاً ﴾[4] فقالوا : لو ذكّرتنا فنزل قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ

---

(١) الشورى : ٥٢
(٢) طه : ٩٩ - ١٠٠
(٣) طه : ٩٩
(٤) الزمر : ٢٣

يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ ﴾[1] .
والقَصص في اللغة المتابعة ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾[2] .
أي اتبعي أثره ، وقال تعالى : ﴿ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً ﴾[3]
أي اتباعاً .

ونريد بعد ذلك أن نتحدث عن القصة لأنها المقصود بالذات في هذا المقام، وذلك أن يوسف عليه السلام رأى في المنام أن أحد عشر كوكباً والشمس والقمر سجدت له .

ففي الرؤيا الأولى دليل على أنه شاهد الكواكب والشمس والقمر ، وفي الرؤيا الثانية يستدل منها على كونها ساجدة له ، ولا مانع أن يرى في المنام أن الكواكب والشمس والقمر سجدت له . ولما وصفها الله تعالى بالسجود فقد جعلها كأنها تعقل ، وخص الشمس والقمر بالذكر لفضلهما على سائر الكواكب . . . وقد رأى هذه الرؤيا وهو ابن اثنتي عشرة سنة على ما قيل في ذلك ، وقد كان بين الرؤيا التي رآها وتحقق وقوعها وحصولها على ما قيل أربعون سنة . وما تلك الكواكب التي قال عنها سيدنا يوسف : ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً ﴾[4] ، روى صاحب الكشاف أن يهودياً جاء إلى النبي ﷺ فقال : يامحمد ، أخبرني عن النجوم التي رآهن يوسف . فسكت رسول الله ﷺ فنزل جبريل عليه السلام وأخبره بذلك فقال عليه الصلاة والسلام لليهودي : « إن أخبرتك هل تسلم » ؟ قال : نعم . فقال ﷺ : هي « جريان ، والطارق ، والديَّال ، وذو الكتفان ، وقابس، ووثاب ، وعمردان ، والفيلق ، والمصبح ، والضروح ، وذو الفرع ، والضياء ، والنور » . فقال اليهودي : إي والله إنها لأسماؤها وأعلم أن كثيراً من هذه الأسماء غير مذكور في الكتب المصنفة في صورة الكواكب .

---

(1) الحديد : ١٦
(2) القصص : ١١
(3) الكهف : ٦٤
(4) يوسف : ٤

وقد كان يعقوب عليه السلام شديد الحب ليوسف وأخيه فحسده إخوته لهذا السبب وأظهروا هذا المعنى لوالدهم يعقوب عليه السلام بالأمارات الكثيرة ، فلما ذكر يوسف عليه السلام هذه الرؤيا وكان تأويلها أن إخوته وأبويه يخضعون له فقال : لا تخبرهم برؤياك فإنهم يعرفون تأويلها فيكيدوا لك كيداً ، فقوله تعالى : ﴿ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ معناه : إن قصصتها عليهم كادوك ثم قال : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[1] أعني إنهم لو أقدموا على الكيد لكان ذلك مضافاً إلى الشيطان ، وقد قصد سيدنا يعقوب عليه السلام بهذه النصيحة التي وجهها ليوسف تعبيراً لتلك الرؤيا وقوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ أي وكما اجتباك بهذه الرؤيا العظيمة الشأن الدالة على العز والشرف والتقدير الكبير ، فكذلك يجتبيك ربك لأمور عظام ، ويستخلصك للنبوة والدرجات العلى والمراتب العظيمة ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ أي ويعلمك تعبير الرؤيا التي يراها الناس في منامهم والغرض منها والهدف الذي تستهدفه ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ أي ويجعلها تامة كاملة لا يلحقها نقص ، وإنما يتحقق ذلك في النبوة ، ويتم كذلك بمنحه إياها فإن جميع مناصب الخلق دون منصب الرسالة فالكمال المطلق والتمام المطلق في حق البشر لا يتحقق إلا بالنبوة ﴿ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ﴾[2] فإن النعمة التامة التي حصل بها إمتياز إبراهيم وإسحاق عن سائر البشر ليس إلا النبوة ، فوجب أن يكون إتمام النعمة هو النبوة ، ومتى كان المراد من إتمام النعمة هو النبوة ، فقوله : ﴿ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ ﴾[3] دال على النبوة ، ويدل على أنها النبوة دلالة واضحة قول يوسف عليه السلام : ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾[4] ولا شئ أضوأ من الكواكب التي بها يُهتدي ، وذلك يقتضي أن

---

(١) يوسف : ٥
(٢) يوسف : ٦
(٣) يوسف : ٦
(٤) يوسف : ٤

يكون جميع أولاد يعقوب أنبياء ولا يرد علينا أنهم كيف يكونون أنبياء وقد أقدموا على ما أقدموا عليه في حق يوسف عليه السلام ؟ فإنهم إنما أقدموا على ما أقدموا عليه ووقع منهم قبل النبوة ، والعصمة إنما تقوم وتعتبر في وقت النبوة وفي قوله : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ﴾[1] مما يجمل بالوقوف على أن نسجل أبناء سيدنا يعقوب عليه السلام الذين هم إخوة يوسف في هذا المقام إتماماً للفائدة .

وقد ذكرهم صاحب الكشاف فقال : هم يهوذا وروبيل وشمعون ولاوي وزايلون ويشجر ودينه ودان ونفتالي وحاد وأشير ، ثم قال : والسبعة الأولون من « ليا » بنت خالة يعقوب ، والأربعة الآخرون من سريتين « زلفة » و « بلهة » . فلما توفيت « ليا » تزوج بأختها « راحيل » فولدت له بنيامين ويوسف ، وقوله تعالى : ﴿ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ﴾ قال ابن عباس : دخل حَبْرٌ من اليهود على النبي ﷺ فسمع منه قصة يوسف فعاد إلى اليهود فأعلمهم أنه سمعها منه كما هي في التوراة ، فانطلق نفر منهم فسمعوا كما سمع فقالوا له : مَنْ علمك هذه القصة فقال :« الله علمني » فنزل : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ﴾ فالآيات في إخبار سيدنا محمد ﷺ عنها ، وعما وقع بخصوصها من غير تعلم ولا مطالعة كتب ولا قراءة أخبار ولا تواريخ عنها ، ففي هذه القصة آيات كثيرة لمن سأل عنها ولمن لم يسأل عنها ، فإنها من عجائب القصص وآيات الحوادث ، وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا ﴾[2] بيان السبب الذي من أجله قصدوا إيذاء يوسف ، وذلك أن يعقوب عليه السلام كان يُفَضِّل يوسف وأخاه على سائر أولاده في الحب ، وأنهم إنما تأذوا منه لأنهم كانوا أكبر سناً من يوسف وأخيه ، وأنهم كانوا أعظم قياماً بمنافع ومصالح الأب منهم . . . إلى غير ذلك من اشتغالهم بجلب المصالح ودفع المضار عن والدهم ، كذلك كان تأثرهم الذي دعاهم للإيذاء ولكنهم نسوا أن تفضيله عليه

(١) يوسف : ٧ (٢) يوسف : ٦

السلام إنما كان في المحبة ، والمحبة ليس في وسع البشر أن يتحكم فيها ، فإن القلوب بيد الله تعالى يُصَرِّفها كيف يشاء ، فكان معذوراً في حبهما ولا لوم عليه في ذلك الحب ، وفضلاً عن ذلك فإنه كان يراعي أن أمهما ماتت وهما صغيران ، وأنه كان يرى في يوسف من آثار الرشد والنجابة ما لا يراه في سائر إخوته ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾[1] يراد منه الضلال عن رعاية مصالحهم في الدنيا لا البعد عنه طريق الرشد والصواب . وقد تجسم الحسد فيهم من قولهم : ﴿ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا ﴾ وهو وإن كان الحسد من أمهات الكبائر ويترتب عليه الشئ الكبير ، كما يترتب عليه إيذائهم ليوسف وإلقائه في غيابة الجب إلا أن ذلك إنما وقع منهم قبل النبوة والعصمة إنما تكون بعدها .

ولما قوى الحسد فيهم وتمكن منهم قالوا : لا بد من تبعيد يوسف عن أبيه وذلك لا يحصل إلا بأحد طريقتين : القتل أو التعذيب إلى أرض يتولد اليأس لبعدها عن إجتماعه مع أبيه ، ولا وجه للشر يبلغه الحاسد أعظم من هذا . وقد عللوا ما استقر عليه حسدهم وتولّد منه قولهم : ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ والمعنى أن يوسف قد شغل أباه عنا وصرفه إليه ووجّهه له ، فإذا فقده أقبل علينا بميله ومحبته ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾[2] فقوله : ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ دليل على أنهم علموا أن ما اعتزموا القيام به إنما هو من الكبائر ، فإذا قمنا به تبنا إلى الله تعالى من ذلك الذنب العظيم ونصير بهذه التوبة من الصالحين ، وقد قيل : إن بعض إخوته هو الذي أشار عليهم بالقتل ، وقيل : إنهم استشاروا أجنبياً فأشار عليهم بذلك . . فمن قال بالأول وهب : قال : إنه شمعون ، وقال مقاتل : إنه روبيل . وقال قائل منهم : ﴿ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ﴾[3] قيل إن هذا القائل هو روبيل لأنه كان ابن خالة يوسف وكان أحنهم رأياً فيه ، فمنعهم عن القتل ، وقيل : إنه يهوذا ، وكان أقدمهم في الرأي والفضل والسن ثم قال :

---

(١) يوسف : ٨ (٢) يوسف : ٩ (٣) يوسف : ١٠

﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ [1] يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾[2] وذلك لأن تلك البئر كانت معروفة لأن قوله « الجب » بالألف واللام المقصود لهم ، واختلفوا في ذلك الجب فقال قتادة : هو بئر بيت المقدس . وقال وهب : هو بأرض الأردن وقال مقاتل : هو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب . قال ابن عباس : يريد المارة ، وقوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾[3] إشارة إلى أن الأولى أن لا تفعلوا شيئاً من ذلك ، وأما إن كان ولا بد فاقتصروا على هذا القدر .

* * *

● **خوف يعقوب على يوسف - عليهما السلام - من إخوته :**

يحكى سبحانه وتعالى عن إخوة يوسف قولهم : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَالَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ ﴾[4] وهو يدل على أن يعقوب عليه السلام كان يخافهم على يوسف ولولا ذلك ما قالوا هذا القول ، ولا يخفى أنهم لما أحكموا خطتهم وأوثقوا عزمهم ذكروا هذا الكلام وأظهروا عند أبيهم أنهم على جانب كبير من المحبة ليوسف وعلى قدر عظيم من الشغف به ، وقد كانت عادتهم أن يغيبوا عنه مدة إلى الرعي فسألوه أن يرسله معهم وكان يحب تطييب قلب يوسف فوافقهم على رغبتهم وأرسله معهم ، والمعنى : لِمَ تخاف عليه ونحن نحبه ونريد الخير به ، وقد أوهموا أنهم سألوه ليرتع ويلعب ، أي يباشر رعي الإبل والمواشي ، فالإرتعاء : للإبل والمواشي ، وقد أضافوه إلى أنفسهم لأن المعنى يرتع إبلنا ، ثم أسندوه إلى أنفسهم على اعتبار أنهم السبب في ذلك الرعي ، فهم بهذه الإضافة قد جعلوا الإرتعاء وحفظ المال إلى أنفسهم لبلوغهم،

---

(١) غيابة الجب : غوره وما غاب منه عن عين الناظر وأظلم من أسفله ، و الجب : البئر التي ليست بمطوية .

(٢) الإلتقاط : تناول الشئ من الطريق ، والسيارة : الجماعة الذين يسيرون في الطريق للسفر.

(٣) يوسف : ١٠ (٤) يوسف : ١١

واللعب ليوسـف لصغره ، وإنا لمسـنولون عن حفظه وقادرون على ذلك قال : ﴿ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾[1] ولما طلبوا من يعقوب أن يرسل معهم يوسف اعتذر إليهم بشيئين، أحدهما : أن ذهابهم به ومفارقتهم إياه كان مما يحزنه ومما لا يصبر عنه ساعة ، والثاني : خوفه عليه من الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم أو لعبهم لقلة إهتمامهم به وانشغالهم عنه بالرعي واللعب ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ﴾ إشارة إلى أنه يقول لهم ذلك كأنه لقنهم الحجة ، وقيل : إن الذئاب كانت في أرضهم كثيرة فخشى منها عليه فنبههم إلى ذلك ، فلما ذكر لهم يعقوب ذلك التوجيه أجابوا بقولهم : ﴿ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ ﴾[2] أي : إن وقع ما تقول .

قال السدي : إن يوسف لما برز مع إخوته أظهروا له العداوة الشديدة ، وجعل هذا الأخ يضربه فيستغيث بالآخر فيضربه ولا يرى فيهم رحيماً ، فضربوه حتى كادوا يقتلونه ، وهو يقول : يايعقوب لو تعلم ما يُصنع بابنك . قال يهوذا : أليس قد أعطيتموني موثقاً أن لا تقتلوه ؟ ! فانطلقوا به إلى الجب يُدلونه فيه وهو متعلق بشفير البئر ، فنزعوا قميصه وكان غرضهم أن يلطخوه بالدم ويعرضوه على يعقوب . فقال لهم : ردوا عليَّ قميصي لأتوارى به . فقالوا له : ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً لتؤنسك . ثم دلوه في البئر حتى إذا بلغ نصفه ألقوه في البئر ليموت ، وكان في البئر ماء فسقط فيه ، ثم آوى إلى صخرة فقام بها وهو يبكي ، فنادوه فظن أنه رحمة أدركتهم فأجابهم . فأرادوا أن يرضخوه بصخرة فقام يهوذا فمنعهم ، وكان يهوذا يأتيه بالطعام .

ورُوِيَ أنه عليه السلام لما ألقي في الجب قال : ياشـاهـداً غير غائب ، ويا قريباً غير بعيد ، ويا غالباً غير مغلوب اجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً وقوله :

---

(١) يوسف : ١٣ (٢) يوسف : ١٤

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا ﴾[1] ، أي وأوحينا إلى يوسف لتخبرن إخوتك بصنيعهم معك بعد هذه المحنة ويصير متولياً عليهم ويصيرون تحت قهره وسلطانه ، فيكون المراد من قوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَا ﴾ الوحي والنبوة والرسالة ، ويكون فائدة تقديم الوحي قبل الوقت الذي يبلغ فيه رسالته إلى قومه تأنيسه وتسكين قلبه وإزالة الهم عن نفسه في محنته وشدته التي يعانيها وتعانيه ، فأخبره الله وهو في البئر : بأنك تنبئ إخوتك بهذه الأعمال وهم ما كانوا يشعرون بنزول الوحي عليه ، والفائدة التي تنطلق من وراء إخفاء الوحي عنهم ونزوله على يوسف أنهم لو عرفوا ذلك ربما ازدادوا حقداً عليه وتضاعف حسدهم له فيترتب على ذلك قتله إذ كانوا يقصدونه . ولما طرحوه في الجب رجعوا إلى أبيهم وقت العشاء باكين ، فعند ذلك فزع يعقوب . وقال : هل أصابكم في غنمكم شئ ؟ . قالوا : لا . قال : فما فعل يوسف ؟ . قالوا: ﴿ ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا ﴾[2] أى ثيابنا ﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾[2] أى في غيبتنا عنه في استباقنا فبكى وصاح . وقال : أين القميص ؟ فطرحه على وجهه حتى تخضب وجهه من دم القميص .

واختلفوا في معنى الاستباق . فقال الزجاج : يسابق بعضهم بعضاً ، وقال السدي ومقاتل : نشتد ونعدو لنبين أينا أسرع عدواً من الآخر ، ثم قالوا : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾[3] ، والمعنى إنّا وإن كنا صادقين فيما نقول ، فإنك لا تزال تتهمنا في يوسف لشدة محبتك له لأنه لم تظهر عليك أمارات وعلامات تصديقنا ، فليس هناك ما يدل على ذلك الصدق ، ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾[4] ، وإنما جاءوا بهذا القميص الملطخ بالدم ليوهم كونهم صادقين فيما جاءوا به ، ولعل السر في نزع قميصه عند إلقائه في غيابة الجب أنهم إنما فعلوا ذلك توكيداً لصدقهم ، لأنه يبعد أنهم فعلوا ذلك طمعاً في القميص نفسه ، فلما شاهد يعقوب القميص

---

(1) يوسف : ١٥
(2) يوسف : ١٧
(3) يوسف : ١٧
(4) يوسف : ١٨

صحيحاً أيقن كذبهم ، وقد قيل : إن الدم الذي تلطخ به القميص دم جَدْيٍ ذبحوه لذلك . وقوله ﴿ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ أي مكذوب فيه ، وقد وصف الدم نفسه بالكذب مبالغة .

* * *

● قصة يوسف كلها في قميصه :

قال الشعبي : قصة يوسف كلها في قميصه ، وذلك أنه لما ألقوه في الجب نزعوا قميصه ولطخوه بالدم وعرضوه على أبيه ، ولما شهد الشاهد قال : ﴿ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[(١)] ، ولما أتى بقميصه إلى يعقوب وعليه الدم ألقاه على وجهه ارتد بصيراً ، ثم ذكر الله تعالى أن إخوة يوسف لما ذكروا ذلك الكلام وبرهنوا على صدقهم بالقميص الملطخ بالدم قال يعقوب عليه السلام : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً ، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾[(٢)] . قال ابن عباس : معناه بل زينت لكم أنفسكم أمراً [(٣)] قال صاحب الكشاف : سولت سهلت من السول وهو الإسترخاء ، إذا عرفت ذلك فنقول : قوله ﴿ بَلْ ﴾ لقولهم : ﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ كأنه قال : ليس كما تقولون : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ ﴾ في شأنه ﴿ أَمْراً ﴾ ، أي زينت لكم أنفسكم أمراً غير ما تصفون وقوله : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ سئل النبي ﷺ عن قوله : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ فقال : « صبر لا شكوى فيه » ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾[(٤)] وقال مجاهد : قوله فصبر جميل أي من غير جزع .

---

(١) يوسف : ٢٦ - ٢٧ (٢) يوسف : ١٨
(٣) التسويل: تقدير معنى في النفس مع الطمع في إتمامه .
(٤) يوسف : ٨٦

أما الصبر غير الجميل فهو أن يكون الصبر لا للرضا بقضاء الله تعالى بل كان لسائر الأعراض ، والضابط في جميع الأفعال والأقوال والاعتقادات أنه كلما كان الطلب عبودية للّـه تعالى كان حسناً وإلا فـــلا ، فقـــوله تعـــالى : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾(1) يجري مجرى قوله تعالى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾(2) ، وقولـــه تعالى : ﴿ واللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾(3) يجري مجرى قولـــه تعالى : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾(4) .

* * *

• كيف يسر الله الخلاص لسيدنا يوسف من المحنة ، وعجائب القدر في ذلك :

اعلم أنه تعالى بيَّن كيف سهَّل الخلاص ليوسف من المحنة التي وقع فيها ولحقت به وانتابته في حياته فقال تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ ﴾(5) أي رفقة وإخوان تسير في طريقها للسفر ، قال ابن عباس : وجاءت سيارة – أي قوم يسيرون – من مدين إلى مصر فأخطأوا الطريق فانطلقوا يهيمون على غير طريق فهبطوا على أرض فيها جب يوسف عليه السلام ، وكان الجب في أرض قفرة بعيدة عن العمران لم يقصدها إلا الرعاة ، وقيل : كان مأوه ملحاً فعذب حين ألقى فيه يوسف عليه السلام . فأرسلوا رجلاً منهم يقال له « مالك بن زعر الخزاعي » ليطلب الماء ليستقي للقوم فأدلى دلوه في البئر وكان يوسف من ناحية الدلو في قعر البئر فتعلق بالحبل ، فنظر الوارد إليه ونظر ذلك الحسن الباهر والجمال النادر فقال : ﴿ يَابُشْرَى هَذَا غُلَامٌ ﴾(6) وسبب إعلانه البشارة أنهم وجدا غلاماً في غاية الحسن وروعة

---

(1) يوسف : ١٨ (2) الفاتحة : ٥ (3) يوسف : ١٨
(4) الفاتحة : ٥ (5) يوسف : ١٩ (7) يوسف ١٩

الجمال : ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ﴾[1] يقصد إخوة يوسف ، والمعنى أنهم أخفوا كونه أخاً لهم واعتبروه بضاعة يُباع ويُشترى ، ولذلك كان أهل الماء أولى بأن يباع باسمهم لأنهم أحق به من سواهم على هذا الاعتبار ، وقد كان في بئرهم ومائهم فبايعوه من أجل ذلك للسيارة ، والمراد من قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾[2] أن يوسف عليه السلام لما رأى الكواكب والشمس والقمر في النوم سجدت له وقص تلك الرؤيا حسده إخوته عليها .

وقد وصف الله تعالى الثمن بثلاثة صفات كونه ﴿ بَخْسٍ ﴾[3] قال ابن عباس : يريد بذلك كونه حراماً لأنه حر ، وبيع الحر حرام فيكون الثمن حراماً . . لهذا فهذه هي الصفة الأولى .

الصفة الثانية ، قوله : ﴿ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾[4] أي تُعد عداً .

الصفة الثالثة ، قوله : ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾[5] أي أنهم كانوا قليلي الرغبة في مشتراه ، وقد ثبت أن الذي اشتراه ذهب إلى مصر وباعه بها ، وقيل إن الذي اشتراه « قطفير » - أو إطفير - وهو العزيز الذي كان يقوم على خزائن مصر حينذاك .

وكان الملك في ذلك الوقت « الريان بن الوليد » وقد كان من العماليق وآمن بيوسف ومات في حياته عليه السلام ، فملك بعده « قابوس بن مصعب » فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى ، وكان شراء العزيز له وهو ابن سبع عشرة سنة، وقام في منزله ثلاث عشرة سنة ، واستوزر « ريان بن الوليد » يوسف عليه السلام وهو ابن ثلاثين سنة ، وآتاه الله الملك والحكمة وهو ابن ثلاثة وثلاثين سنة ، وقد توفى وهو ابن مائة وعشرين سنة . . . وقيل غير ذلك .

ولا أريد أن أستعرض الروايات التي جاءت في هذا الشأن فإنها لم تستند

---

(١) يوسف : ١٩ (٢) يوسف : ١٩ (٣) يوسف : ٢٠
(٤) يوسف : ٢٠ (٥) يوسف : ٢٠

على قرآن ، ولا على أخبار صحيحة : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾(١) ، أي أكرمي منزله ومقامه عندك فإنه ينبغي أن يُكرم ولا يُهان ، وقد كان هذا الأمــر من العزيز لامرأته التي قالوا : إن اسمها « زليخا » ، وهو المشهور ، والمعنى : اجعلي منزله عندك كريماً حسناً مرضياً بدليل قوله : ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْـوَايَ ﴾(٢) ، ولما أمرها بإكرام مثواه علّلَ ذلك بقوله : ﴿ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَخِذَهُ وَلَداً ﴾(٣) ، أي يقوم بإصلاح مهماتنا أوْ نتخذه ولداً ، لأنه كان لا يُولد له ولد وكان حصوراً ، ثم قال تعالى : ﴿ وكذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ ﴾(٤) أي كما أنعمنا عليه بالسلامة من الجب مكنّاه بأن عطفنـا عليه قلب العزيز حتى توصل بذلك إلى أن صار متمكناً من الأمر والنهي في أرض مصر ، وهكذا تكون ثمرات الصبر وعاقبته ، ثم قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴾(٥) لأنه تعالى فعّال لما يُـريــد .

ولما بيّن سبحانه وتعالى أن إخوته لما أساءوا إليه وصبر على تلك الإساءة وهذه الشدائد والمحن التي نزلـت بــه ، مكّنــه الله في الأرض بتقديـره وتدبيره ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾(٦) أن الأمر بيد الله وتصريفه .

ثم لما بلغ أشده آتاه الله الحكمة والعلم ، والمقصود أن جميع ما فاز به من النعم كان كالجزاء على صبره على تلك المحن والأهوال التي لقيها ، فقوله تعالى : ﴿ ولَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾(٧) إشارة إلى إعتدال الآلات البدنية، وقوله : ﴿ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً ﴾(٨) إشارة إلى استكمال النفس في قوتها العملية والنظرية .

* * *

(١) يوسف : ٢١ (٢) يوسف : ٢٣ (٣) يوسف : ٢١
(٤) يوسف : ٢١ (٥) يوسف : ٢١ (٦) يوسف : ٢١
(٧) يوسف : ٢٢ (٨) يوسف : ٢٢

• سيدنا يوسف ومراودة امرأة العزيز له ، وشهادتها، وشهادة الآيات بنزاهته عليه السلام :

يذكر تعالى ما كان من مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام عن نفسه وطلبها منه ما لا يليق بحاله ومقامه وهي في غاية الجمال وسعة المال وجلال المنصب وريعان الشباب ، وكيف غلّقت الأبواب عليها وعليه ، وكيف تهيأت وتجملت له ولبست أحسن ثيابها وأفخر لباسها ، مما يجعل الوجدانات والمشاعر تهتز لها وتصبو بها وتشغف بذلك الجمال الفاتن ، وهي مع هذا كله امرأة العزيز وبنت أخت الملك « الريان بن الوليد » صاحب مصر وعظيمها ، آيات مغرية وفاتنة تأخذ بالقلوب والأفكار ، ويوسف عليه السلام وقتئذ كان رائع الجمال عظيم الحسن ، يصور الجمال كله ويجمع البهاء في أسمى معانيه ، شاباً يافعاً جليل القدر عظيم الشأن ، يحمل طابع الكمال حينما حل وأينما صار ، وهو مع هذا من سلالة الأنبياء أكرمه الله بالعصمة واختصه بوافر الحفظ من الوقوع في الفحشاء ومصايد النساء ومكرهن ، وقد كانت فرصة بيعه للعزيز ووجوده تحت إشراف امرأته وفرض سلطانها عليه ووقوعه في دائرة تصرفها وتصريفها باعثاً لذلك الولع الذي ملكها والوله والشغف الذي تملك عواطفها كلياً وجزئياً فشغفها حباً وسقاها هياماً ووجداً . لذلك راودته عن نفسه فأبى إباءً كريماً وامتنع إمتناعاً عظيماً ، فعصمة النبوة تصاحبه ، وحفظ الرسالة يلازمه ، وعناية الله لا تفارقه ، ورعايته لا تتركه ولا تدعه فما كان جوابه ورده على مراودتها له إلا قوله : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ﴾[1] يعني بذلك زوجها الذي هو صاحب المنزل ومالكه ﴿ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ﴾ أي أحسن معاملتي وأكرمني أيما إكرام فلا يمكن أن تتسرب إليّ خيانته أو أقوم بإهانته ، لأن ذلك ليس من شأن من يُكرمون ولا من عادة من يُعززون ويُحسن إليهم ، وإن ذلك

(١) يوسف : ٢٣

إنما يعتبر خيانه وظلماً ﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾[1] . وذلك بالرغم من وسائل الترغيب التى أعدتـها وعجائب المغـريات التى هيأتها ثم قـالـت لـه : ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾[2] فقـال : ﴿ مَعَاذَ اللَّه ﴾[2] .. وقد أجرى سيدنا يوسف عليه السلام قوله : ﴿ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ﴾ بحسب الظاهر وعلى وفق ما كانوا يعتقدون فيه من كونه عبداً للعزيـــز ، وجعل العزيز رباً له – أى جعله مربيًا له – إنما ذلك من باب المعاريض الحسنة إذ أنه عليه السلام لم يجعل له رباً إلا رب كل شىء ، ينطق بذلك ويشهـــد بـه قوله عليه الســـلام : ﴿ مَعَاذَ اللَّه ﴾ فإنه يطلب من اللهِ تعالى أن يُعيذه من ارتكاب ذلك العمل الشائن والفعل القبيح .

ولما كانت الآية الآتية من أروع الآيات ، بل هى أروعها ، لأنها تتحدث عن نزاهة رسول أمين ومداها فى هذه الحياة ، وتتكلم عن شخصية لها شأنها وجلالها فى هذا الوجود الذى يحكم لها بالبراءة ويقضى بعظم النزاهة وكمالها .

فتقديراً لهذه النزاهة وكشفاً للبصائر والأبصار عنها واهتماماً بموضوع البراءة التى تستهدفها أسرار هذه الآية وتنطق بها الشواهد ويعلنها الحال والمقام ، رأينا أن نشق الطريق السوي الذى يوصلنا لذلك ويهدينا إليه ، وأن نسير على هدى المقصود الذى توحى به وتعنيه القصة وآياتها ، ولا نخرج عن هذه الغاية ولا نحيد عن هذا الهدف ، فإن من يقف بجانب عصمة الأنبياء ولا يبعد عن آفاق حفظ اللّه لرسله لا بد وأن يتمنى فى تعبيره وأن يجرى فى تفسيره لقوله : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ به ، وَهَمَّ بهَا ﴾[3] على وفق ذلك الهدف وسر المراد من الآية والقصة ، إذ أنها وإن أرادت منه تحصيل لذتها والتمتع بوافر جماله

---

(١) يوسف : ٢٣ (٢) يوسف : ٢٣ (٣) يوسف : ٢٤

والتنعم بما وهبه الله من حسن وبهاء والحصول على ما تشتهيه من آمال وملاذ ، إلا أنه عليه السلام لم يمكنها من أغراضها ولم يدعها تطمع فيه ، فهناك العصمة لا تفارقه ، ويستحيل أن تفارقه ، وهناك الحصانة الربانية والحفظ الإلهى الذى يوحى به قوله : ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ . فإن المعنى الذى لا ينصرف الهمُّ إلا إليه هو دفعها عنه وإقامة سور من الإيمان بينه وبينها حتى لا تطمع فى مأرب بعد ذلك ، وقوله : ﴿ لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾[1] أى لولا أن رأى برهان ربه - وهو آية من آيات الحفظ والعصمة - لكان دفعه لها قاضياً عليها وعلى آمالها فى هذه الحياة .

وقد حملنا الهمّ منها ومنه على ما ينبغى أن يُحمل عليه مراد كلٍّ ، لأن الأليق بكلٍّ أن يُحمل بحسب قصده ونيته ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى غير ذلك فهجرته إلى ما هاجر إليه ، وليس المراد أنه همّ بجذبها إليه فإن ذلك يخرج عن دائرة العصمة ونطاق الحفظ الإلهى ، ويتحدث بهذا ويشهد به قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾[2] وهذا هو الذى يجب أن يُعتقد ، فإن الله حماه وصانه كما دلت عليه هذه الآية ، ولا يخفى أن كل من له تعلق بهذا الحدث واتصال بهذه الواقعة قد شهد ببراءة يوسف عليه السلام وكمال نزاهته . . . قال : ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾ أى هرب طالبًا الخروج فراراً منها فاتبعه فى إثره ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ﴾ ، وعند الخروج ﴿ أَلْفَيَا ﴾ أى وجدا ﴿ سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ﴾ أى لقيا زوجها فبادرته بالكلام وحرضته عليه إذ أنها اتهمته وهى المتهمة ، وبرأت عرضها ونزهت ساحتها وهو البرىء ﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[3] ، فلما واجهته بهذا الاتهام أمام زوجها قال عليه السلام :

(١) يوسف : ٢٤ (٢) يوسف : ٢٤ (٣) يوسف : ٢٥

﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ﴾ ، فاحتاج إلى أن يعلن هذا لأن الحاجة تدعو إليه ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا ﴾(١) ، قيل كان صغيراً فى المهد قاله ابن عباس ، وروى عن أبى هريرة وهلال بن يسَاف والحسن البصرى وسعيد بن جبير والضحاك ، واختاره ابن جرير وروى فيه حديثاً مرفوعاً عن ابن عباس ووقفه غيره عنه ، وقيل كان رجلاً قريباً إلى « قطفير » بعلها ، وقيل كان قريباً إليها ، وممن قال إنه كان رجلاً : ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وقتادة والسدى ومحمد بن إسحاق وزيد بن أسلم فقال : ﴿ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾(٢) ، أى لأنه يكون قد راودها فدافعته حتى قدّت مقدم قميصه ، ﴿ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾(٣) ، أى لأنه يكون قد هرب منها فاتبعته وتعلقت فيه فانشق قميصه لذلك ، وكذلك كان ، ولهذا قال تعـــالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ ، إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾(٤)، أى هذا الذى جرى من مكركن ، أنت التى راودتيه عن نفسه ثم اتهمتيه اتهاماً باطلا ، ثم أضرب بعـلـها عن هذا صفـحـاً فقال : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾(٥) ، أى لا تذكـره لأحـد ، لأن كتمان مثل هذه الأمور هو الأليق والأحسن فى هذا المجال ، وأمرها بالاستغفار لذنبها الذى صدر منها والتوبة إلى ربها ، فإن العبد إذا تاب تاب الله عليه .

وأهل مصر وإن كانوا يعبدون الأصنام إلا أنهم يعلمون أن الذى يغفر الذنوب ويؤاخذ بها هو الله تعالى ، ولهذا قال لها بعلها إذ عذرها من بعض الوجوه لأنها رأت مالا صبر لها على مثله ، وشهدت منه أنه عفيف نزيه العـرض . فقال : ﴿ واسْتَغْفِرِى لِذَنْبِكِ ، إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾(٦) .

---

(١) يوسف : ٢٦ (٢) يوسف : ٢٦ (٣) يوسف : ٢٧
(٤) يوسف : ٢٨ (٥) يوسف : ٢٩ (٦) يوسف : ٢٩

فجميع الذين لهم تعلق بالحادث وصلة بهذا الأمر الخطير يعترفون بنزاهته وكمال براءته ، ويشهدون بصدق عصمته وهم : يوسف عليه السلام ، وامرأة العزيز ، وزوجها ، والنسوة ، والشهود . . . وكفى بالله شهيداً .

أما بيان ذلك : فإن يوسف عليه السلام قد ادعى البراءة وأقام الدليل عليها وذلك بقوله : ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ﴾(١) وقوله : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾(٢) ، وأما بيان أن امرأة العزيز قد اعترفت بذلك فلأنها قالت للنسوة : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾(٣) . وقالت أيضاً : ﴿ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾(٤) . وأما بيان أن زوج المرأة قد اعترف بذلك أيضاً فيدل عليه قوله : ﴿ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ ، إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ، وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ ، إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾(٥) ، وأما شهادة الله له بالبراءة فيقطع بها قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾(٦) . فقد شهد الله تعالى على طهارته أربع مرات ، أولها قوله : ﴿ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ ﴾ ، والثاني قوله : ﴿ وَالْفَحْشَاءَ ﴾ ، والثالث قوله : ﴿ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ - وقد قال : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً ﴾(٧) - والرابع قوله : ﴿ الْمُخْلَصِينَ ﴾ ، وقد شهد ببراءته إبليس لأنه قال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾(٨) ، فكان ذلك إقراراً منه بأنه لا يمكنه إغواء المخلصين ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ .

---

(١) يوسف : ٢٦
(٢) يوسف : ٣٣
(٣) يوسف : ٣٢
(٤) يوسف : ٥١
(٥) يوسف : ٢٨ - ٢٩
(٦) يوسف : ٢٤
(٧) الفرقان : ٦٣
(٨) سورة ص : ٨٢ - ٨٣

وما من شك فى أنه تعالى طهّر نفوس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن الأخلاق الذميمة ، وأن المراد بالرؤية فى قوله تعالى : ﴿ لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾[1] ، هو حصول تلك الأخلاق فى النفس وتقوية قلبه بها وتذكيره الأحوال الرادعة له عن الإقدام على المنكرات ، وقيل : إنه النبوة المانعة له من ارتكاب الفواحش ، والدليل على ذلك أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إنما بُعثوا لمنع الخلق عن الوقوع فى محيط القبائح وتوجيههم إلى الكمالات الدينية ودعوتهم إلى تزكية نفوسهم وتطهير قلوبهم من الأمراض النفسانية والشهوات الدنيوية .

* * *

• نســاء المدينة يوجهن لومهن إلى امرأة العزيز لشغفها بيوسف عليه السلام :

لما انتشر حب « زليخا » ليوسف عليه السلام فى مصر ، تحدث نساء المدينة بذلك الحب الذى سلبها عقلها واستولى على مشاعرها ووجداناتها ، وقد قيل : إن النسوة اللاتى تعرض حديثهن لهذا الشأن هن امرأة ساقى العزيز وامرأة خبازه وامرأة صاحب دوابه وامرأة صاحب سجنه وقيل : امرأة الحاجب – عن ابن عباس وغيره – ﴿ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِه ، قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ أى قد دخل حبه فى شغاف[2] قلبها وباطنه ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾[3] لقيامها بهذا الحب ، ويقال : إن نساء المدينة اللاتي قمن بالطعن عليها وتوجيه العيب إليها والتشنيع عليها في مراودتها فتاها ، هن نساء الأمراء وبنات الكبراء ، لأنه مولى من الموالي فهو ليس أهلاً لذلك ، ولهذا قلن : ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أى وضعها الشىء في غير محله ، ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾[4] أي بتشنيعهن عليها وذكرها بالتنقص وتعييرها بحب

---

(١) يوسف : ٢٤
(٢) الشغاف ، باطن القلب ، وشغفها : أحرق قلبها .
(٣) يوسف : ٣٠
(٤) يوسف : ٣١

مولاها وعشق فتاها ، أحبت أن تبسط عذرها عندهن وتبين لهن أن هذا الفتى ليس كما حَسِبْن ، فأرسلت إليهن فجمعتهن فى منزلها وأعتدت لهن ضيافة مثـلهن ، وأحضرت في جمـلـة ذلك شيئاً مما يُقطـع بالسكاكـين كالأُترُجّ ونحوه ﴿ وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً ﴾[1] ، وكانت قد هيأت يوسف عليه السلام وألبسته أحسَن الثِّياب وكان وقتئذ في غاية طرازة الشباب ، وأمرته بالخروج عليهن وهو في هذه الحالة فخرج عليهن وهو أحسـن من البدر ليلة تمامه ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ ﴾[2] ، أي أعظمنه وأجللنه وهبنه ، وما خطر ببالهن أن يكون مثل هذا في بني آدم فبهرهن حسنه حتى شغلهن ذلك عن أنفسهن وجعلن يحززن فى أيديهن بتلك السكاكين ولا يشعرن بالجراح ﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾[3] .

وقد جاء في حديث الإسراء : « فمررت بيوسف وإذا هو قد أعطى شطر الْحسن » ، أى على النصف من حسن آدم قال ابن مسعود : وكان وجه يوسف مثل البَرق ، وكان إذا أتته امرأة لحاجة غطى وجهه ﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فيه ﴾ ثم مدحته بالعفة التامة فقالت : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِه فَاسْتَعْصَمَ ﴾ أي امتنع ، ﴿ ولـَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾[4] فعاودته المراودة بمحضر منهن وكشفت برقع الحياء وتوعدته بالسجن إن لم يفعل ، وإنما فعلت هذا حين لم تخش لوماً ولا مقالاً خلاف ما حصل أول أمرها إذ كان ذلك بينه وبينها وذلك لفرط حبها وشدة شغفها وولهها به ﴿ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ أي الأذلاء قال : رب إن دخول السجن أحب وأهون وأيسر علَى نفسي من الوقوع في هذه الفاحشة ومما يدعونني إليه من المعصية المستنكرة ، ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ﴾[5] أي النسوة اللاتي رأينه فإنهن أمرنه بمطاوعة امرأة العزيز واستجابة طلبها وقلن له :

(١) يوسف : ٣١ (٢) يوسف : ٣١ (٣) يوسف : ٣١
(٤) يوسف : ٣٢ (٥) يوسف : ٣٣

هي مظلومة وقد ظلمتها .﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾[1] أي أميل إليهن ، أي إن لم تلطف بي في اجتناب الفاحشة وتصرف عني ذلك المنكر وقعت فيه وأكن ممن يعمل عمل الجاهلين ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ ﴾ لما تعرض له بدعائه فكأنه قال: اللّهم اصرف عني كيدهن ، فاستجاب الله دعاءه ولطف به وعصمه من الوقوع في الفاحشة وفي شرك هؤلاء النسوة جميعاً ﴿ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ ﴾[2] والعلامات التي تقطع ببراءته وتنطق بها من قَدِّ القَميص من دُبُرٍ وشهادة الشاهد وقطع الأيدي وقلة صبرهن على لقاء يوسف أن يسجنوه كتماناً للقصة أن لا تشيع وينتشر أمرها بين العامة ، وللحيلولة بينه وبينها إلى أمد غير معلوم . قال وهب : أقام في السجن اثنتي عشرة سنة لكنه سبحانه وتعالى قال : ﴿ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾[3] والمتداول بين العرب أن البِضع من ثلاث إلى سبع .

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾[4] قيل : كان أحدهما ساقي الملك واسمه كما قيل « بنو » ، والآخر خبازه - يعني الذي يلي طعامه - واسمه فيما قيل « مجلث » وكان الملك قد اتهمهما في بعض الأمور فسجنهما ، فلما رأيا يوسف في السجن أعجبهما سمته وهديه وطريقته وقوله وفعله وكثرة عبادته ربه وإحسانه إلى خلقه ، فرأى كل منهما رؤيا تناسبه وذلك في ليلة واحدة .

أما الساقي فرأى كأن ثلاث قضبان من حُبْلة [5] قد أورقت وأينعت عناقيد العنب فأخذها فاعتصرها في كأس الملك وسقاه ، ورأى الخباز على رأسه ثلاث سِلال من خبز وضواري الطيور تأكل من السَّلّ الأعلى . . فقصّاها عليه وطلبا منه أن يعبِّرها لهما وقالا له : ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[6] فأخبرهما أنه عليم بتعبيرها خبير بأمرها ﴿ قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ

---

(1) يوسف : ٣٣ (2) يوسف : ٣٤ - ٣٥ (3) يوسف : ٤٢
(4) يوسف : ٣٦ (5) الحبلة : الكرمة (6) يوسف : ٣٦

إلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾[1] قيل معناه : مهما رأيتما من حُلم فإني أعبِّره لكما قبل وقوعه فيكون كما أقول. وقيل معناه : إني أخبركما بما يأتيكما من الطعام قبل مجيئه حلواً وحامضاً كما قال عيسى : ﴿ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾[2] وهذا من تعليم الله إياي لأني مؤمن به موحِّد له متبع ملة آبائي الكرام إبراهيم واسحاق ويعقوب ﴿ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا ﴾ بأن هدانـا لهذا ﴿ وَعَلَى النَّاسِ ﴾ أي بأن أمرنا أن ندعوهم إليه ونرشدهم وندلهم عليه ، وهو في فطرتهم مركوز وفي جبلتهم مغروز ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ ﴾[3].

ثم دعاهم إلى التوحيد ، وذمَّ لهم ما سوى الله عز وجل ، وصغَّر أمر الأوثان وحقَّرها وضعَّف أمرها فقال : ﴿ يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ ﴾[4] أي المتصرف في خلقه الفعَّـال لما يـريد ، الـذي يهـدي من يشاء ويُضل من يشـاء ﴿ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ أي وحده لا شريك له ،﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ أي المستقيـــم والصراط القويم ،﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾[5] أي فهم لا يهتدون إليه مع وضوحه وظهوره ، فكانت دعوته لهما في هذه الحال في غاية الكمال لأن نفوسهما معظِّمة له منبعثة على تلقي ما يقول بالقبول، فناسب أن يدعوهما إلى ماهو الأنفع لهما مما سألا عنه وطلبا منه ، ولما قام بما وجب عليه من دعوتهما إلى التوحيد وعبادة الله تعالى وأرشدهما إلى ما أرشدهما إليه قال : ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾

---

(١) يوسف : ٣٧ (٢) آل عمران : ٤٩ (٣) يوسف : ٣٨
(٤) يوسف : ٣٩ - ٤٠ (٥) يوسف : ٤٠

قالوا : وهو الساقي ، ﴿ وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِه ﴾[1] ﴿ ذَلِكُمَا مِمَا عَلَمَنِي رَبِّي ﴾[2] أي ما أخبرتكما عن طريق الكهانة والنجوم ، وإنما أخبرتكما بوحي من الله تعالى وعلم حصل بتعليمه جل شأنه . . قال ابن عباس ومجاهد : كانت رؤيا صدق رأياها وسألاه عنها ولذلك صدق تأويلها . وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : « أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً » . . وقد بيّن أن الله تعالى خصه بعلم الغيب لأنه ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله - يعني بذلك دين الملك - ولم يبين لهما تأويل رؤياهما حتى دعاهما إلى الإسلام ، وربما كان هذا هو السر في عدم إخبار الخباز بالصلب لأنه أحب أن يموت على الإسلام ولذلك قال : ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أأرْبَابٌ مُتَفَرِقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ القَهَّارُ ﴾ [3] . . ولا ينبغي أن يجول بخاطر أي عاقل أن قوله : ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَ يُؤمِنُونَ بِاللَّه ﴾[4] . أنه كان عليها ثم تركها ، بل المراد أنه عليه السلام كان عبداً لهم بحسب زعمهم الفاسد واعتقادهم الباطل ، ولعله كان قبل ذلك لا يظهر التوحيد والإيمان خوفاً منهم على سبيل التقية ، ثم إنه عليه السلام أظهره في هذا الوقت ، وقوله: ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَ يُؤمِنُونَ بِاللَّه ﴾ إشارة إلى علم المبدأ وقوله : ﴿ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرونَ ﴾[4] إشارة إلى علم المعاد .

ولما ادعى النبوة وتحدى المعجزة وهي علم الغيب بقوله : ﴿ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرزَقَانِه إلاَّ نَبَأْتُكُمَا بِتَأْويله قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾ [4] قرن ذلك بأنه من أهل بيت النبوة وأن أباه وجدّه وجدّ أبيه كانوا أنبياء الله ورسله ، فهو على سننهم في الدعوة إلى التوحيد وكان على شريعة إبراهيم عليه السلام ، والمراد

---

(1) يوسف : ٤١ (2) يوسف : ٣٧ (3) يوسف : ٣٩
(4) يوسف : ٣٧

من قوله : ﴿ مَاكَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [1] أنه طهر أبـــاه من الكفر ، وقوله : ﴿ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا ﴾ [1] إشارة إلى ما تقدم من عدم الإشراك بالله تعالى .

* * *

• رؤيا الملك وعرضها على يوسف عليه السلام :

لما دنا الفرج من يوسف عليه السلام رأى الملك رؤياه فنزل جبريل على يوسف وبشره بالفرج وقال له : إن الله مخرجك من سجنك وممكن لك في الأرض، يـذل لك ملوكها ويطيعك جبابرتها ، ومعطيك الكلمة العليا على إخوتك ، وذلك بسبب رؤيا رآها الملك وهي كيت وكيت وتأويلها كذا وكذا . . فما لبث في السجن أكثر مما رأى الملك الرؤيا حتى خرج فجعل الله الرؤيا أولا ليوسف بلاءً وشدة وجعلها ثانياً بُشرى ورحمة .

وذلك أن الملك الأكبر « الريان بن الوليد » رأى في نومه سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس في إثرهن سبع عِجاف [2] ، وقد أقبلت العجاف على السمان فأخذن بأذانهن فأكلنهن إلا القرنين ، ورأى سبع سنبلات خضر قد أقبل عليهن سبع يابسات فأكلنهن حتى أتين عليهن فلم يبق منهن شئ وهن يابسات، وكذلك البقر كن عِجافاً فلم يزد منهن شئ من أكلهن السمان . . فهالته الرؤيا وأرسل إلى الناس وأهل العلم منهم والبصر بالكهانة والنجامة والعرافة والسحر وأشراف قومه فقال : ﴿ يَاأَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ ﴾[3] فقص عليهم فقال القوم : ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلامٍ ﴾[4] .

قال ابن جريج : قال لي عطاء : إن أضغاث الأحلام الكاذبة المخطئة من الرؤيا ، وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس : إن الرؤيا منها حق ومنها

---

(١) يوسف : ٣٨ (٢) أي مهازيل (٣) يوسف : ٤٣ (٤) يوسف : ٤٤

أضغاث أحلام : يعني بها الكاذبة ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ ﴾ المختلطة ﴿ بِعَالِمِينَ ﴾(١) ، فنفوا عن أنفسهم علم ما لا تأويل له فقط لا أنهم نفوا عن أنفسهم علم التأويل .

وفي هذه الآية دليل على بطلان قول من يقول إن الرؤيا على ما تُعَبَّر به ، لأن القوم ﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ ﴾ ، ولم يقع كذلك فإن يوسف فسرها على سنى الجدب والخصب ، فكان كما عبَّر ، وفيها دليل على فساد من يقولون إن الرؤيا على رجل طائر فإذا عُبِّرَت وقعت كما عُبِّرت ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا ﴾ أي ساقى الملك ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾(٢) أي بعد حين - عن ابن عباس وغيره ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ : أي تذكر حاجة يوسف وهي قوله : ﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾(٣) على قول من قال إن قوله تعالى : ﴿ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾(٣) الضمير راجع ليوسف عليه السلام وقوله : ﴿ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ ﴾(٤) أي أنا أخبركم بتأويله - وهذا من كلام يوسف - فأرسل الملك رسوله إلى يوسف فلما جاءه قال : ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾(٥) ، فأجابهم يوسف إلى ما سألوا وعبَّر لهم ما كان من منام الملك الدال على وقوع سبع سنين من الخصب ويعقبها سبع جَدْب ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ ﴾ يعني يأتيهم الغيث والخصب والرفاهية ، ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾(٦) يعني ما كانوا يعصرونه من الأقصاب والأعناب والزيتون والسمسم وغيرها ، فعبَّر لهم وعلى الخير دلهم ، وأرشدهم إلى ما يعتمدونه في حالىْ خصبهم وجدبهم ، وما يفعلونه من ادخار حبوب سنى الخصب في السبع الأول في سنبله إلا ما يُرصَدْ بسبب الأكل ، ومن تقليل البذر في سنى الجدب

---

(١) يوسف : ٤٤ (٢) يوسف : ٤٥ (٣) يوسف : ٤٢
(٤) يوسف : ٤٥ (٥) يوسف : ٤٦ (٦) يوسف : ٤٩

في السبع الثانية إذ الغالب على الظن أنه لا يرد البذر من الحقل ، وهذا يدل على كمال العلم وكمال الفهم .

ولما عبر الرؤيا بذلك ذهب الرسول إلى الملك فأخبره بتعبيــــر الرؤيا وتأويلها ، ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ﴾[1] ، فلما ذهب الرسول إلى يوسف عليه السلام يأمره بالخروج لمقابلة الملك . قال عليه السلام : ﴿ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾[1] ، فلم يرد عليه السلام أن يخرج من السجن حتى تظهر براءته عند الملك وبراءته مما قُذفَ به ، وأنه إنما سُجِنَ بلا جُرم ارتكبه ولا جناية وقعت منه . وقد رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال : « يرحم الله أخي يوسف لقد كان صابراً حليمًا ، ولو لبثت في السجن ما لبثه أجبت الداعي ولم ألتمس العذر » . قال ابن عباس : فأرسل الملك إلى النسوة وإلى امرأة العزيز فقال : ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ ﴾ ، أي ما شأنكن ﴿ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ ، وذلك أن كل واحدة منهن كلمت يوسف في حق نفسه ودعته إلى نفسها ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ أي معاذ الله ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ أي زنا ، ﴿ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾ ، لما رأت إقرارهن ببراءة يوسف ، وخافت أن يشهدن عليها إن هي أنكرت ، ولذلك فإنها أقرت واعترفت أيضاً ببراءته وكان ذلك لطفاً من الله برسوله يوسف عليه السلام وقوله : ﴿ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾ أي وضح وظهر : ﴿ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[2] ، وهذا القول منها وإن لم يكن سأل عنه يعتبر إظهاراً لتوبتها وتحقيقاً لصدق يوسف وبراءته مما أُريد أن يُنسب إليه عليه السلام ، لأن المقر على نفسه أقوى من الشهادة عليه . ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾[3] فهذا من قول امرأة العزيز وهو متصل بقولها : ﴿ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾ أي أقررت

---

(١) يوسف : ٥٠ . (٢) يوسف : ٥١ (٣) يوسف : ٥٢

بالصدق ليعلم أني لم أخنه بالغيب ، أي ليعلم أني لم أكذب عليه ولم أذكره بسوء وهو غائب ، ففي ذلك كله إظهار براءة يوسف عليه السلام وإعلانها على رؤوس الأشهاد في آفاق المدينة .

* * *

• إظهار آيات أخرى ببراءته عليه السلام :

وإنه ليقطع ببراءة يوسف عليه السلام فضلاً عما تقدم الاستدلال به قولها: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ، إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾[1] ، بل قولها : ﴿ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[2] من أروع الأدلة أيضاً على عظم براءته وروائع نزاهته ، ومن جعل قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ، إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ من كلام يوسف عليه السلام فقد أخطأ الصواب، واتجه اتجاهاً بعيداً عما يجب أن يكون عليه التقدير الصحيح والتأويل السليم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لأنه التفسير الذي يتفق مع سلامة العصمة وحفظ الأنبياء والمرسلين من السوء والفحشاء - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - ويشهد بصحة هذا التأويل وصدق التفسير قولها : ﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[3] ، فهذا منها اعتراف بالغ التقدير عظيم الأهمية قاطع بكمال براءته وسمو نزاهته عليه السلام .

ولما تحققت هذه البراءة وأيقن صدقها وظهرت أمانته عند الملك عظمت لديه منزلته وكبر في نظره ، فقربه منه وأواه إليه يوحي بذلك قوله : ﴿ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾[4] ، فلما دخل ونظر إليه الملك نزل عن سريره وخر ساجداً له ، ثم أقعده معه على سريره وقال : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ

---

(١) يوسف : ٥٣
(٢) يوسف : ٥١
(٣) يوسف : ٥٣
(٤) يوسف : ٥٤

لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾[1] ، فقال له يوسف : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ ، إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾[2] ، أي حفيظ للخزائن عليم بوجوه ما ينبغي أن تُصرف فيه ، ويشهد بأنه حضر لديه وسأله عن الرؤيا قوله : ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾[3] ، أي متمكن مما سنسنده إليك ، نافذ القول فيه أمين لا تخاف منا غدراً ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ، يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴾[4] ، فكان استخلاف الملك « الريان بن الوليد » يوسفَ عليه السلام آية كبرى من آيات نزاهته وتحقق براءته عليه السلام ، وفي هذا دليل على جواز طلب الولاية لمن عهد في نفسه الأمانة والكفاءة .

* * *

• تفويض الملك أمر مصر ليوسف عليه السلام ، ودعوة الناس إلى الإسلام :

ولما فوّض الملك أمر مصر إلى يوسف عليه السلام تلطف بالناس وجعل يدعوهم إلى الإسلام حتى آمنوا به ، وأقام فيهم العدل حتى أحبه الرجال والنساء، قال وهب والسدي وابن عباس وغيرهم : ثم دخلت السنون فأمر يوسف بإصلاح المزارع وأن يتوسعوا في الزراعة ، فلما أدركت الغلّة أمر بها فجُمعَت ، ثم بنى لها المخازن فجمع فيها غلة تلك السنة فضاقت بها لكثرتها ، ثم جمع فيها غلة كل سنة كذلك ، حتى إذا انقضت السبع المخصبة جاءت السنون المجدبة فسلط الله على أهل مصر الجوع سبع سنين ، وجاءت السنون بهول عظيم لا يوصف ، فالكل كان ينادي : الجوع . . الجوع . وكانوا يأكلون ولا يشبعون . قال ابن عباس : لما كان ابتداء القحط بينما الملك في جوف الليل أصابه الجوع في منتصف الليل فهتف الملك : يا يوسف ، الجوع ..

(1) يوسف : ٥٤ (2) يوسف : ٥٥
(3) يوسف : ٥٤ (4) يوسف : ٥٦

الجوع . فقال يوسف : هذا أول القحط . فلما دخلت أول سنة من سنى القحط هلك فيها كل شئ أعدوه في السنين المخصبة فجعل أهل مصر يتبايعون الطعام من يوسف فباعهم أول سنة بالنقود حتى لم يبق بمصر دينار ولا درهم إلا قبضه ، وباعهم في السنة الثانية بالحُليِّ والجواهر حتى لم يبق في أيدي الناس منها شئ ، وباعهم في السنة الثالثة بالمواشي والدواب حتى احتوى عليه أجمع، وباعهم في السنة الرابعة بالعبيد والإماء حتى احتوى على الكل ، وباعهم في السنة الخامسة بالضياع والعقار حتى ملكها كلها ، وملكهم في السنة السادسة بأولادهم ونسائهم فاسترقهم جميعاً ، وباعهم في السنة السابعة برقابهم حتى لم يبق في السنة السابعة حر ولا عبد إلا صار عبداً له . فقال الناس : والله ما رأينا ملكاً أجَلّ ولا أعظم من هذا . فقال يوسف لملك مصر : كيف ترى صُنْعَ ربي فيما خوّلني ، والآن كل هذا لك فما ترى فيه ؟ . فقال : فوضنا إليك الأمر فافعل ما شئت ، وإنما نحن لك تبع وما أنا بالذي يستنكف عن عبادتك وطاعتك ، وما أنا إلا من بعض مماليكك . فقال يوسف عليه السلام : أنا لم أغثهم من الجوع لأستعبدهم ، ولم أجرهم من البلاء لأكون عليهم بلاءاً ، وإني أشهد الله وأشهدك أني أعتقت أهل مصر عن آخرهم ، ورددت عليهم أموالهم وأملاكهم ، ورددت عليك ملكك بشرط أن تَسْتَسنَّ بسُنَتي ، وهكذا ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ﴾[1] ، أي بإحساننا . ﴿ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[1] ، أي ثوابهم . وقال ابن عباس : ﴿ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ : أي الصابرين لصبره في الجب وفي الرق وفي السجن ، وصبره عن محارم الله مما دعته إليه امرأة العزيز ، فثواب ذلك مدخر له فضلاً عما تفضل به عليه من تمكين الأرض له وتصريف الملك فيها كيف يشاء ، ﴿ وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيرٌ للَّذِينَ آمَنُوا وكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾[2] ، وظاهر الآية العموم فتتضمن كلَ مؤمن ، ولا مانع من ذلك فإن أجر الآخرة دائم وأجر الدنيا ينقطع .

* * *

---

(١) يوسف : ٥٦ (٢) يوسف : ٥٧

- **حاجة إخوة يوسف إليه بعد القحط الشديد الذي نزل بالبلاد :**

قال ابن عباس وغيره : لما أصاب الناس القحط والشدة ونزل ذلك بأرض كنعان التي يقيم بها يعقوب عليه السلام ، بعث بولده للميرة ، وكان قد ذاع أمر يوسف عليه السلام في الآفاق للينه ورحمته ورأفته وعدله بين الناس وحسن سيره فيهم ، وقد كان يجلس للناس عند البيع بنفسه حين نزلت الشدة بهم فيعطيهم من الطعام على عدد الرؤوس لكل رأس وسقاً ، فقال يعقوب لبنيه : اذهبوا إلى مصر فإن بها رجلاً صالحاً يمير للناس فاذهبوا إليه بدراهمكم .. وكانوا عشرة، فجاءوا إلى مصر من كنعان ودخلوا على يوسف ﴿ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾[1] لأنهم تركوه صبياً ولم يدر بخلدهم أنه بعد العبودية التي لزمته أعواماً يبلغ ما بلغ من السلطان ويصل إلى ما وصل إليه من جلال الملك والاستئثار بالسلطان ، وقد رآهم على عهده بهم في الملبس والخلقة والصفات التي تركهم عليها ، وكانت هذه الواقعة كالسبب في اجتماع يوسف عليه السلام مع إخوته وتحقق صدق ما أخبر الله تعالى به في قوله ليوسف عليه السلام حينما ألقوه في غيابة الجب ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾[2] وأخبر أن يوسف عليه السلام عرفهم وهم ما عرفوه البتة لأنه ظهر من تفحصه لهم أنهم إخوته ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجِهَازِهِمْ ﴾[3] حمّل لكل رجل منهم بعيراً وأكرمهم أيضاً بالنزول وأعطاهم ما احتاجوا إليه في السفر فذلك قوله : ﴿ جَهَّزَهُمْ بِجِهَازِهِمْ ﴾ ثم بيّن سبحانه وتعالى أنه لما جهزهم بجهازهم ﴿ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ ﴾[3] وقد كانت عادة يوسف مع الكل أن يعطيه حمل بعير لا يزيد عليه ولا ينقص . وإخوة يوسف الذين دخلوا عليه كانوا عشرة كما قلنا فأعطاهم عشرة أحمال ، فقالوا : إن لنا أباً شيخاً كبيراً وأخاً آخر بقي معه، وذكروا أن أباهم لكبر سنه وشدة حزنه ، لم يحضر وأن أخاهم إنما بقي في خدمة أبيه ولا بد لهما من شئ مما تصرف من الطعام ، فجهز لهما أيضاً بعيرين آخرين

---

(١) يوسف : ٥٨ (٢) يوسف : ١٥ (٣) يوسف : ٥٩

من الطعام ، فلما ذكروا له ذلك قال لهم يوسف : فهذا يدل على أن حب أبيكم له أزيد من حبه لكم ، وهذا شئ عجيب لأنكم مع جمالكم وعقلكم وأدبكم إذا كانت محبة أبيكم لذلك الأخ أكثر من محبته لكم ، دل ذلك على أن هذا أعجوبة في العقل وفي الفضل وفي الأدب ، فجيئوني به حتى أراه .

* * *

• **يوسف يطلب من إخوته إحضار أخيه حباً في رؤيته :**

اعلم أن يوسف عليه السلام طلب إحضار أخيه من إخوته وقد جمع في طلبه منهم بين الترغيب والترهيب ، أما الترغيب فيدل عليه قوله : ﴿ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾[1] ، وأما الترهيب فينطق به قوله : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلاَ تَقْرَبُون ﴾[2] وذلك فإنهم كانوا في غاية الحاجة إلى تحصيل الطعام وما كانوا يستطيعون تحصيله إلا من عنده ، ولما سمعوا هذا من يوسف ﴿ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾[3] أي سنجتهد ونحتال على أن ننزعه من أبيه وإنا لقائمون بهذه المراودة وعاملون على مجيئه واحضاره معنا . والمقصود من تكرار الجملتين في قوله : ﴿ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ ﴾ وقوله : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي ﴾ ، الاهتمام والتأكيد . . ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِه اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ ﴾[4] فالفتية : الصبية الذين يقومون بالعمل ويؤدونه في مثل هذه الأحوال ، وقد أراد يوسف عليه السلام من وضع ما معهم في رحالهم أنهم متى عادوا وفتحوا متاعهم فوجدوا بضاعتهم فيها علموا أن ذلك كان كرماً من يوسف عليه السلام فيبعثهم ذلك على العود إليه والحرص على مقابلته ، كما أراد أيضاً التوسعة على أبيه وإخوته في هذا الزمن الذي أحاط به

(١) يوسف : ٥٩
(٢) يوسف : ٦٠
(٣) يوسف : ٦١
(٤) يوسف : ٦٢

القحط واستولى عليهم الجوع والمسغبة ، وأخذ الثمن من أبيه وإخوته في هذه الشدة لؤم لا يرضاه هذا الرسول الكريم ، فإحسانه إليهم في هذا الوقت واجب ، ويعرفون كذلك أنه لا يقصد من طلب هذا الأخ الإيذاء ولا طلب الزيادة في الثمن ، وقد أراد فضلاً عن ذلك كله أن يعرف أبوه أنه أكرمهم ، وطلبه الأخ إنما هو لمزيد الإكرام ، وإذا كان كذلك ، فلا يثقل عليه إرسال الأخ إليه ولا يقابل إساءتهم له إلا بمبالغته لهم في الإحسان إليهم .

ثم حكى الله تعالى عنهم : أنهم لما رجعوا إلى أبيهم ﴿ قَالُوا يَاأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾[1] ، لأنهم لما طلبوا الطعام لأبيهم والأخ الباقي الذي لم يحضر معهم وبقي مع أبيه ليتسلى به مُنعوا منه ، يشير لذلك قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي ﴾ والدليل على أن المراد ذلك قولهم : ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[2] ضامنون حفظه والسهر عليه ، فلما قالوا ذلك لأبيهم قال لهم أبوهم يعقوب عليه السلام : ﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ﴾[3] والمعنى: أنكم ذكرتم مثل هذا الكلام في يوسف وضمنتم حفظه حيث قلتم : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ثم أنتم في هذا الوقت ذكرتم هذا اللفظ بعينه ، فهل يكون هذا أماني كما كان هناك أيضاً ؟ ثم قال : ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾[3] يعني حفظ الله لبنيامين خير من حفظكم له ، واعتماداً على الله تعالى أرسل بنيامين معهم لأنهم كبروا عن ذي قبل وظهر ميلهم للخير، وليس بينهم وبين بنيامين ما يستوجب الحسد والحقد ، وضرورة القحط ألجأته إلى ذلك .

* * *

---

(١) يوسف : ٦٣ (٢) يوسف : ٦٣ (٣) يوسف : ٦٤

واعلم أن المتاع لا يصلح لأن يُستمتع به فإنه عام في كل شئ ، ويجوز أن يُراد بالمتاع في قوله : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ ﴾ أي فتحوا على الطعام الذي حملوه ﴿ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِم ﴾[1] ، وعلى أساس ما قلنا فيما تقدم أن المراد بالبضاعة هو ثمن الشراء لا سيما وقد وصفوا يوسف عليه السلام بالكرم واللطف وقالوا : إنا قدمنا على رجل أكرمنا إكراماً لو كان رجلا من آل يعقوب ما فعل أكثر مما قام به وفعله معنا فقولهم : ﴿ مَا نَبْغِي ﴾[1] أي بهذا الوصف الذي ذكرناه كذباً ولا ذكر شئ لم يكن ، فإذا ذهبنا إليه ورجعنا له فإننا ﴿ نَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾[2] بسبب حضور أخينا وذهابه معنا وقوله : ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ يعني بذلك أن يوسف عليه السلام كان يكفل لكل رجل حمل بعير فإذا حضر أخوه معهم فلا بد أن يزداد ذلك الحمل ، وأما قوله : ﴿ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾[3] أي سهل على ذلك الرجل المحسن الذي لا يعرف سوى السخاء والحرص على البذل ، قال يعقوب عليه السلام لأولاده : ﴿ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ ﴾[4] أي عهداً موثقاً به من الله ، بمعنى أنكم تحلفون بالله تعالى أنكم تعيدونه وترجعونه لي ﴿ إِلاَّ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ﴾[4] أي : إلا أن ينزل بكم هلاك فيقضي عليكم فيكون ذلك عذراً يقوم عندي ، فلما حلفوا له أنهم سيكونون عند ظنه بهم أشـهد عليهم ربهم وقال : ﴿ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾[4] .

* * *

(1) يوسف : ٦٥

(٢) يوسف : ٦٥ – بلفظ : ﴿ ونمير ..... ﴾ .

(٣) يوسف : ٦٥

(٤) يوسف : ٦٦

• خوف يعقوب على أولاده من الحسد ونصحه لهم في هذا الشأن :

لما عزم أولاد يعقوب عليه السلام الخروج إلى مصر وكانوا موصوفين بالكمال والجمال لا سيما وأنهم أبناء رجل واحد ، قال لهم أبوهم : ﴿ لاَ تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴾(١) لأنه خاف العين عليهم فإن أولاد يعقوب عليه السلام اشتهروا وتحدث الناس بهم وبحسنهم وكمالهم ، ولذلك قال لهم : ﴿ لاَ تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴾ أي لا تدخلوا المدينة من باب واحد على ما أنتم عليه من العدد والهيئة ، فلم يأمن عليهم حسد الناس – وكان بمصر وقتئذ أربعة أبواب للدخول منها إليها ﴿ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، إِنِ الْحُكْمُ إلاَّ لِلَّهِ ﴾ يتصرف في ملكه بقضائه وقدره كيف يشاء فالأمر له ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾(٢) وقد ثبت بالبرهان أنه لا حكم إلا له .

ولما قال يعقوب عليه السلام لأبنائه : ﴿ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أصدقه الله تعالى في ذلك فقال : وما كان ذلك التفرق يغني من الله من شيء ، وذلك بقوله :﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم ﴾ دخولهم من أبواب شتى ﴿ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، إلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴾(٣) . قال ابن عباس رضى الله عنهما : ذلك التفرق ما كان يرد قضاء ، وقال الزجاج : إن العين لو قُدِّرَ أن تصيبهم لأصابتهم وهم متفرقون كما تصيبهم وهم مجتمعون ، والحاجة التي يشير إليها قوله : ﴿ إلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴾ خوفه عليهم من إصابة العين ومن حسد أهل مصر .

ولما دخلوا على يوسف وأتوه بأخيه بنيامين أكرمهم وأضافهم ، فأجلس كل اثنين

---

(١) يوسف : ٦٧ (٢) يوسف : ٦٧ (٣) يوسف : ٦٨

منهم على مائدة ، ثم بقي بنيامين وحده فبكى وقال : لو كان أخي يوسف حياً لأجلسني معه . فقال يوسف : بقي أخوكم وحيداً . فأجلسه على مائدته ثم أمر أن ينزل كل اثنين منهم بيتاً وقال : هذا لا ثاني له فاتركوه معي ، فأواه وضَمَّهُ إليه ، ولما رأى يوسف تأسفه له قال : أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك ؟ قال : من يجد أخاً مثلك ، ولكنك لم يجدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف عليه السلام وقام إليه وعانقه وقال : ﴿ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[1] ، وقوله : ﴿ فَلاَ تَبْتَئِسْ ﴾ أي فلا تحزن على ما كانوا يعملون من إقامتهم على حسدنا والحرص على انصراف وجه أبينا عنا ولا تلتفت إلى ما صنعوه بنا ، ثم قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجِهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ [2] وهي مشربة يُسقي بها وهو عبارة عن صاع يكيلون به الماء وكان له قيمة كبيرة ، وقد وضع هذا الصاع في رحل أخيه : أي حمل أخيه ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ ﴾ أي نادى مناد ﴿ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾[2] ، والمراد بالعير كل ما سير عليه من إبل وحمير ، وقيل : المراد بالعير الإبل التي عليها الأحمال ، وسميت العير بهذا الاسم لأنها تعير أي تذهب وتجيء ، وليس المراد العير نفسها بل المراد أصحابها ، وقد حصل هذا النداء من القوم الذين كانوا يقومون على حراسة الأمتعة ، ثم إن إخوة يوسف ﴿ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَاذَا تَفْقِدُونَ * قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ من الطعام ﴿ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾ [3] ، أي وأنا كفيل بتحقيق ذلك : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾[4] فهنا قد حلفوا على أمرين : (الأول) أنهم ما جاءوا لأجل الفساد في الأرض ، (الثاني) أنهم ما كانوا سارقين ، وقد حصل لهم فيه شاهد قاطع وهو أنهم لما وجدوا بضاعتهم في رحالهم حملوها من بلادهم إلى مصر ولم يستحلوا أخذها

---

(١) يوسف : ٦٩
(٢) يوسف : ٧٠
(٣) يوسف : ٧١ - ٧٢ ، والزعيم : الرئيس .
(٤) يوسف : ٧٣

والسارق لا يعمل ذلك ألبتة ، ثم إنهم لما تبينوا براءتهم من تلك التهمة . قالوا: فما جزاؤه ؟ قال ابن عباس : كانوا في ذلك الزمان يستعبدون كل سارق بسرقته وكان استعباد السارق في شرعهم ، فجرى ذلك مجرى وجوب القطع في شرعنا . والمعنى : جزاء هذا الجرم من وُجِدَ المسروق في رحله - أى رحل ذلك الشخص - هو جزاء ذلك الجرم ﴿ وكَذَلكَ نَجْزِي الظَّالمينَ ﴾ (١) ، أى مثل ذلك الجزاء جزاء الظالمين ، يريد بذلك : أنه إذا سرق استُرِقَ .

* * *

• رد إخوة يوسف على من أسندوا إليهم تهمة السرقة :

واعلم أن إخوة يوسف لما أقروا بأن من وُجِدَ المسروق في رحله فجزاؤه أن يُسْتَرق ، قال لهم المؤذن : لا بد من تفتيش أمتعتكم . فانصرف بهم إلى يوسف عليه السلام ، ﴿ فَبَدَأَ بأَوْعيَتـهمْ قَبْلَ وعَاء أَخيه ﴾ لإزالة التهمة ، ﴿ ثُمَّ استَخْرَجَهَا منْ وعَاءِ أَخيهِ ﴾(٢) ، أى استخرج السقاية من وعاء أخيه ، وقـوله :﴿ كَذَلكَ كدنَا ليُوسُفَ ﴾ (٢) إشارة إلى الحكم باسترقاق السارق ، أى مثل هذا الحكم الذى ذكره إخوة يوسف حكمنا ليوسف ، والمراد من هذا الكيد هو أنه تعالى ألقى في قلوب إخوة يوسف أن جزاء السارق هو أن يُسترق لا جَرَمَ لما ظهر الصواع في رَحْلِ أخي يوسف حكموا عليه بالاسترقاق ، وكان ذلك سبباً لتمكين يوسف عليه السلام من إمساك أخيه عنده ، ثم قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ ليَأْخُذَ أَخَاهُ في دينِ المَلك ﴾ (٢) ، أى إنه كان حكم الملك في السارق أن يُضرب ويُغرم ضعفَي ما سَرَقَ ، ولولا اعترافهم بأن جزاء من وُجِدَ في رحله فهو جزاؤه لما كان يستطيع يوسف أن يأخذ أخاه منهم في سياسة ملك مصر ، وقوله : ﴿ إلاَّ أنْ يَشَاءَ اللَّهُ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ﴾(٢) ، المراد : أنه

(١) يوسف :٧٥
(٢) الأوعية : جمع وعاء ، والوعاء : ما إذا وضع فيه شيء أحاطه - يوسف : ٧٦

تعالى رفع درجات يوسف على إخوته في كل شيء ، وقوله : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [1] ، يريد أن إخوة يوسف كانوا علماء فضلاء إلا أن يوسف كان زائداً عليهم في العلم ، فكان هناك تفاوتاً كبيراً بينه وبينهم .

* * *

• توجيه التشبيه الباطل من إخوة يوسف عليه السلام إليه :

لما خرج صواع الملك من رحل أخي يوسف نكّس إخوة يوسف رؤوسهم وقالوا : إن هذه لحادثة عجيبة ، فإن راحيل أم يوسف وبنيامين ولدت ولدين لصّين ، ثم قالوا : يا بني راحيل ما أكثر البلاء علينا منكم . فرد عليهم بنيامين بقوله : ما أكثر البلاء علينا منكم ، ثم أخذ في بسط ذلك فقال : ذهبتم بأخي وضيعتموه في المفازة ثم تقولون لي هنا هذا الكلام وتوجهون لي هذا التوجيه . فقالوا له : فكيف خرج الصواع من رحلك ؟ فقال : وضعه في رحلي من وضع البضاعة في رحالكم . وظاهر الآية يقضي بأنهم قالوا للملك : إن هذا الأمر ليس بغريب منه ، فإن أخاه الذي هلك كان سارقاً أيضاً . وكان غرضهم من هذا التعبير أنهم ليسوا على طريقته ، أما هو وأخوه فهما مختصان بهذه الطريقة لأنهما من أم أخرى ، فهم قد أرادوا بذلك مجرد اتهامه لملء قلوبهم بالغضب على يوسف بعد تلك الوقائع وبعد انقضاء تلك المدة الطويلة . وهذه الواقعة تدل على أن قلب الحاسد لا يطهر من الغل والحقد ألبتة . ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ [2] ، أي أسرّ في نفسه قولهم له : ﴿ إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ [2] ، أي أسرّ يوسف إجابتهم له في نفسه تلك الإجابة في ذلك الوقت ولم يبدها لهم في تلك الحالة إلى الوقت الذي يصح إجابته لهم فيه ، أو أنه أسرّ في نفسه كيفية تلك السرقة التي اتهموا أخاه بها ولم يبد لهم أنها كيف

(١) يوسف : ٧٦ (٢) يوسف : ٧٧

وقعت وأنه ليس فيها ما يوجب الذم والطعن ، ثم حكي الله تعالى عن يوسف قوله لهم : ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً ﴾ [1] ، أى أنتم شر منزلة عند الله لما أقدمتم عليه من ظلم أخيكم وعقوق والدكم ، فأخذتم أخاكم وطرحتموه في الجب ، ثم قلتم لأبيكم إن الذئب أكله وأنتم كاذبون ، ثم بعتموه بعشرين درهماً ، ثم بعد المدة الطويلة والزمان الممتد ما زال الحقد والغضب في قلوبكم فرميتموه بالسرقة . قال تعالى : ﴿ واللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ [1] ، أى : الله أعلم بأن ما تصفون به يوسف ليس يخفي عليه فإنه تعالى لا يخفي عليه شيء في الأرض ولا في السماء إن صدقاً وإن كذباً . والمعني والله أعلم : أن هذا الاتهام باطل لا يقوم على أسس من التقوى ، ولما تبين لهم أنهم بقولهم : ﴿ إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ [1] قد خرجوا على أبسط القواعد الأدبية وآيات الذوق أحبوا موافقته والعدول عن مسلكهم إلى طريق الشفاعة لأنها هى التي تضمن لهم العفو فقالوا : ﴿ يَا أَيُّهَا العَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً ﴾ في السن عظيم القدر ، ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾ ، أى بدلاً منه على طريق الرهن ، ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المُحْسِنِينَ ﴾ [2] إلينا حيث أكرمتنا وأعطيتنا البدل الكثير ، يقصدون بذلك أن يصل بنيامين إلى أبيه فيقف منه على جلية الأمر وحقيقة الواقع ، فمنع يوسف من ذلك ورفض أن يأخذ منهم بدلاً ، فتضاعفت بذلك المحن وازداد البلاء واشتد الحزن على يعقوب ، وأشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، وكما أمره بذلك فقد نهاه عن العفو والصفح وأخذ البدل .

* * *

• استيلاء اليأس على إخوة يوسف بعد ظهور عدم جدوى التوسل إلى يوسف عليه السلام :

اعلم أنهم لما قالوا : ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾ [3] وهو نهاية ما يمكنهم

---

(1) يوسف : ٧٧ (2) يوسف : ٧٨ (3) يوسف : ٧٨

بذله ، فقال يوسف في جوابه لهم : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاَّ مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ ﴾ [١] فانقطع بذلك الجواب طمعهم من يوسف عليه السلام في رده ، فعند ذلك قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيّاً ﴾ [٢] وهو مبالغة في يأسهم من رده . و ﴿ خَلَصُوا نَجِيّاً ﴾ أى : تَفَرَدوا عن سائر الناس يتناجون ، ولا شبهة في أن المراد من ذلك أنهم يتشاورون فيما بينهم ويتحيلون الرأى فيما وقعوا فيه لأنهم إنما أخذوا بنيامين من أبيه بعد المواثيق المؤكدة التي أخذها عليهم ، وبعد أن كانوا متهمين في شأن يوسف والأحداث التي نزلت به ، فلو لم يقوموا ويعملوا على إعادته لأبيه ورده له تضاعفت أحزانه واشتدت محنه وآلامه ، وقال كبيرهم في العقل وهو يهوذا الذي نهاهم في أول الأمر عن قتل يوسف عليه السلام ، وقد حكى الله تعالى عن ذلك فقال : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ ﴾ [٢] ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : قال يوسف عليه السلام : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاَّ مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ ﴾ فغضب يهوذا وكان إذا غضب وصاح فلا تسمع حامل صوته إلا وضعت ويقوم شعره على جسده حتى يضع أحد آل يعقوب يده عليه ، وقال : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ ﴾ أى : فلن أفارق أرض مصر ﴿ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾ في الانصراف إليه ﴿ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ﴾ بالخروج منها أو بالانتصاف ممن أخذ أخي أو بخلاصه من يده بوجه من الوجوه أو سبب من الأسباب ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [٣] لأنه وحده الذي يحكم بالعدل والحق ، والمراد من ذلك كله ظهور عذر يزول معه حياؤه وخجله من أبيه أو غيره .

* * *

---

(١) يوسف : ٧٩ (٢) يوسف : ٨٠ (٣) يوسف : ٨٠

• الرجوع إلى يعقوب ليحيطـونه علماً بما أحـدثته هذه الرحلة :

بعد تفكير عميق منهم رأوا أن الأصوب الرجوع إلى أبيهم وأن يذكروا له كيفية ما حدث على الوجه الذي يدعو إلى الصدق ويدعو الصدق إليه من غير أن يتجنوا على الحقائق ، ويبدو جلياً أن هذا الرأى هو رأى كبيرهم الذي أعلن بأنه لن يبرح الأرض ... إلخ ، ولذلك فإنه قد بقى بمصر وأرسل لأبيه باقي إخوته لإيقافه على ما شاهدوه بأنفسهم ﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا ﴾ وإن كان ذلك لا ظل له من الحقيقة في الواقع ونفس الأمر ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾[1] : أى إنما نحن قد رأينا أنهم أخرجوا الصواع من رحله ، وأما حقيقة الحال فغير معلومة لنا فإن الغيب لا يعلمه إلا الله وحده . قال مجاهـــد والحسن وقتادة : ما كنا نعلم أن ابنك يسرق ولو كنا نعلم ذلك ما ذهبنا إلى الملك به وما أعطيناك موثقاً من الله في رده إليك ، ولما كانوا متهمين بسبب حادث يوسف عليه السلام فقد بالغوا في دفع التهمة عنهم إذ قالوا : ﴿ واسْأَلِ القَرْيَةَ التَّي كُنَّا فيهَا والعيرَ التَّي أَقْبَلْنَا فيهَا ﴾[2] القرية هى مصر ، والمراد أهل مصر والعير والجدار والحيطان فإنها تجيبك وتذكر لك صحة ما جئنا به وذكرناه لك ﴿ وإنَّا لَصَادِقُونَ ﴾[3] فيما أخبرناك عنه وأتينا به ، فلما سمع يعقوب من أبنائه ما حدثوه به لم يصدقهم فيه كما سبق أن نسجوا له واقعة لم تمت إلى الحقيقة بصلة وهى واقعة يوسف عليه السلام ولذلك قال لهم : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾[4] أى : بل زينت وهيأت لكم أنفسكم أن ابني سرق ، وما سرق ، وإنما ذلك لأمر يريده الله فصبر جميل على ما نزل بي وليس لي إلا الصبر الجميل عســى بهذا الصبر أن يأتيني الله بهم جميعاً ، فإنه

---

(١) يوسف : ٨١
(٢) يوسف : ٨٢
(٣) يوسف : ٨٢
(٤) يوسف : ٨٣

كان على اعتقاد أن يوسف لم يمت والأمل يقويه واليقين يشده ، وهو العليم بحالي ، الحليم فيما يقضي به لعباده .

ولما بلغ يعقوب خبر بنيامين تضاعف همه وتوالت عليه المصائب التي جددّت عنده الأحـزان وحـركت السـاكن من آلامه وبلاياه ، فأعرض عنهم ونسى بنيامين ﴿ وقَالَ يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ ﴾ (١) ، قال قتادة والحسن : المعنى يا حسرتاه. وقال مجاهد والضحاك : المعنى واجزعاه ﴿ وابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ ﴾ (١) من كثرة البكاء حزناً على يوسف .. قيل : لم يبصر بهما ست سنين وإنه عمى لهذا الحدث وشدة الحزن ليس بمحظور ، وإنما المحظور الولولة وشق الثياب والكـلام بما لا ينبغي ، وقوله : ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (١) أى : مملوء بالحزن ممسك عليه فلا ينفك عنه . قال له أولاده : ما زلتَ تذكر يوسف ولا تزال تذكره حتى يفسد جسمك ويضعف عقلك عليه أو تهلك بسبب حزنك ومواصلتك عليه .

ثم حـكى الله عن يعـقـــوب أنه قال : ﴿ إِنَّمَا أَشْـكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾(٢) : يعني إن الذي أذكره لا أذكره معكم وإنما أذكره في حضرة الله تعالى، والإنسان إذا بث شكواه إلى الله تعالى كان في زمرة المحققين كما قال عليه الصلاة والسلام : « أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بعفوك من غضبك ، وأعوذ بك منك » ، ﴿ وأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تُعْلَمُونَ ﴾ (٣) أى : أعلم من رحمته وإحسانه ما لا تعلمون فإنه سبحانه وتعالى هو الذي يأتيني بالفرج من حيث لا أحتسب ، وفي ذلك إشارة إلى أنه كان يتوقع عودة يوسف إليه . ويرجع السبب في توقعه ذلك إلى حسن ظنه بالله تعالى ، ولذلك قال فيما يأتي : ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا من يُوسُفَ وَأَخِيهِ ولاَ تَيْأَسُوا منْ رَوْحِ اللَّهِ ، إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ منْ رَوْحِ اللَّهِ إلاَّ القَوْمُ الكَافِرُونَ ﴾ (٤) ، فقولهَ عليه السلامَ : « فَتَحَسَّسُوا » يدل على أنه متيقن حياته عليه السلام إما بالرؤيا وإما بإنطاق

(١) يوسف : ٨٤
(٢) يوسف : ٨٦ – والبث هو الهم ، أى أشكي همومي
(٣) يوسف : ٨٦
(٤) يوسف : ٨٧

الله تعالى الذنب الذي اتهموه في أول القصة بأنه أكل يوسف ، وقد قيل : إن التيقن بالحياة أظهر هذه الأقوال ، وقوله : ﴿ لاَ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ﴾ أي لا تقنطوا من فـــرج الله فإنه لا ييأس مـــن فرج الله ورحمـــته ﴿ إِلاَّ الــقَوْمُ الكَافِرُونَ ﴾ ، فلما خرجوا إلى مصر ودخلوا على يوسف عـــليه السلام قالوا :
﴿ يَا أَيُّهَا العَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ ﴾ [(١)]
. . أي : أصابنا وأهلنا الجوع وأعوذتنا الحاجة ، وفي هذا دليل على جواز الشكوى عند الضر بل واجب عليه إذا خاف على نفسه الضر – أي الفقر وغيره – أن يبدي حالته إلى ما يرجو منه النفع ، كما يجب عليه أن يشكو ما به من المرض للطبيب ليعالجه بمقتضى ذلك المرض وعلى ضوئه ، ولا يكون ذلك قدحاً في التوكل ،﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ ﴾ أي : بدراهم رديئة ثمناً للطعام الذي نريده من وراء مجيئنا إليك، ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الكَيْلَ ﴾ [(٢)] أي : تفضل بقبول الرديء مكان الجيد ، والمراد من ذلك أن يُسَـــهِّل لهم أمورهم وييســـر لهم الحصول على طلبهم ، وقولهـــم له : ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ [(٢)] يريدون المسامحة بما بين الثمنين والفرق بين البضاعتين وأن يُسَعِّر لهم بالرديء كما يُسَعِّر لهم بالجيد . وروى أنهم لما قالوا : ﴿ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ﴾[(٢)] وتضرعوا إليه اغرورقت عـــيناه بالدموع وعند ذلك قال لهم : ﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾[(٣)] وقيل : إنهم دفعوا إليه كتاب يعقوب عليه السلام .

* * *

• كتاب يعقوب إلى عزيز مصر يوسف عليهما السلام :

وفيه : « من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق (ذبيح الله) – وهذا غير المعتمد والمحقق[(٤)] – ابن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر : أما بعد . . فإنَّا أهل

---

(١) يوسف : ٨٨ (٢) يوسف : ٨٨ (٣) يوسف : ٨٩

(٤) واضح في هذا الخبر : الدس الإسرائيلي على الأنبياء عليهم السلام ، فإن الذبيح كان إسماعيل وليس إسحاق – عليهما السلام – ولهذا نرى المؤلف – رحمه الله – يتحفظ على هذه المزاعم بقوله : « وهذا غير المعتمد والمحقق » ، ثم قوله : « كذا » .. لينبه إلى هذا الزعـم الباطل (المراجع) .

بيت موكل بنا البلاء ، أما جَدّي فَشُدَّت يداه ورجلاه ورُمِيَ به في النار ليُحرق فنجّاه الله وجعلها برداً وسلاماً عليه ، وأما أبي فوُضِعَ السكين على قفاه ليُذبح ففداه الله (كذا) ، وأما أنا فكان لـــي ابن وكان أحب أولادي إليّ فذهب به إخوته إلى البرية ثم أتوني بقميص ملطخاً بالدم وقالوا : قد أكله الذئب ، فذهبت عيناى من البكاء عليه ، ثم كان لي ابن أخاه من أمه وكنت أتسلىّ به فذهبوا به إليك ثم رجعوا وقالوا : إنه قد سرق وقد حبسته عندك . وإنّا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقاً ، فإن رددته عليّ وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك » فلما قرأه يوسف عليه السلام لم يتمالك نفسه وعيل صبره وعرّفهم أنه يوسف .

ثم حكى الله تعالى عن يوسف عليه السلام في هذا المقام أنه قال :﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ (١) وقد قيل : إنه لما قرأ كتاب أبيه ارتعدت مفاصله واقشعر بدنه ورق قلبه وكثر بكاؤه وصرح حينئذ بأنه يوسف ، وقيل : إنه لما رأى إخوته تضرعوا إليه ووصفوا ما هم عليه من شدة البؤس وقلة الحيلة أدركته الرحمة فصرّح وقتئذ بأنه يوسف ، وقوله : ﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ ﴾ استفهام مراد به تعظيم الحدث ، ومعناه : ما أعظم ما ارتكبتم وأقبح ما أقدمتم عليه .

واعلم أن هذه الآية تصديق لقوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ (٢) وقوله : ﴿ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ يريد بقوله « وأخيه » : ما فعلوه به من تعريضه للحزن والغم بسبب إفراده عن أخيه لأبيه وأمه . وأما قوله : ﴿ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ فقد أجرى قوله هذا مجرى العذر كأنه قال لهم : أنتم إنما أقدمتم على هذا الفعل الذي يستقبحه العقل السليم وتستنكره الطبيعة القويمة في حال جهالة أيضاً أو في جهالة الغرور، يعني : والآن لستم كذلك . ثم قال إخوته :﴿ أَئِنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ ،

(١) يوسف : ٨٩ (٢) يوسف : ١٥

قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي ، قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾[1] . . وقد رُوِيَ عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن إخوة يوسف لم يعرفوه حتى وضع التاج عن رأسه وكان في فرقه علامة ، وكان ليعقوب وإسحاق مثلها شبه الشامة ، فلما رفع التاج عرفوه بتلك العلامة فقالوا : ﴿ أَئِنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ ﴾ ، ويدل على صحة الاستفهام قوله : « أنا يوسف ». وصرح لهم باسمه تعظيماً لما نزل به من ظلم إخوته وما عوّضه الله من الظفر والنصر ، ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ ﴾ معاصي الله ، ﴿ ويَصْبِرْ ﴾ على أذى الناس ، ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[2] ، ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾[3] أى قالوا : تالله لقد فضّلك الله علينا بالعلم والحلم والعقل والفضل والحسن والملك ، يعني فضلك الله علينا بهذه الأوصاف العظيمة الشأن . والذي اعتذروا منه في قولهم : ﴿ وإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ هو إقدامهم على إلقائه في الجب وبيعه وتبعيده عن البيت وعن أبيه .

واعلم أنهم لما اعترفوا بفضله وأقرُّوا بخطئهم قال يوسف عليه السلام : ﴿ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ أى لا تعيير ولا توبيخ ولا لوم عليكم اليوم ، ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ . دعاء منه عليه السلام بالمغفرة والستر والرحمة لهم ، ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ وهكذا شأن الأنبياء وأخلاق النبوة .

ولما عرّفهم يوسف سألهم عن أبيه . فقالوا : ذهبت عيناه ، فأعطاهم قميصه لإلقائه على وجه أبيه فيرتد بصره إليه بإذن الله تعالى ، أى عرف يوسف أن إلقاء القميص على وجهه يوجب رد قوة البصر إليه ، وذلك بوحى من الله تعالى ، ولولا الوحي ما عرف ذلك لأن العقل لا يدل عليه ، وقوله : ﴿ يَأْت

(١) يوسف : ٩٠.
(٢) يوسف : ٩٠.
(٣) يوسف : ٩١
(٤) يوسف : ٩٢

بَصيراً ﴾[1] أي : يأتيني بصيراً ، وإنما أفرده بالذكر تعظيماً له ، وقوله : ﴿ وائْتُوني بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [1] . قال الكلبي : كان أهله نحواً من سبعين إنساناً . قال مسروقٍ : دخل قوم يوسف عليه السلام مصر وكانوا ثلاثة وتسعين ما بين رجل وامرأة .

* * *

• خروج العير من مصر إلى كنعان تحمل قميص يوسف إلى أبيه يعقوب عليهما السلام :

لما خرجت العير من مصر قاصدة كنعان . قال يعقوب عليه السلام لمن حضر عنده من أهله وقرابته : ﴿ إِنِّي لأجِدُ رِيْحَ يُوسُفَ ، لَوْلاَ أنْ تُفَنِّدُون ﴾ [2] ولم يكن هذا القول مع أولاده لأنهم كانوا غائبين عن محله بدليل قوله : ﴿ اذْهَبُوا فَتَحسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيه ﴾ [3] ، وقد كان بين مصر وكنعان مسيرة ثمانية أيام أو عشرة ، وقيل : ثمانون فرسخاً ، وقد أوصل الله تلك الرائحة إليه على سبيل إظهار المعجزات ، لأن وصول الرائحة إليه من هذه المسافة أمر مخالف لما جرت به العادة ، فإذن يكون معجزة ولا بد من كونها معجزة لأحدهما ، والأقرب أنها تكون معجزة ليعقوب لأنه الذي أخبر عنها الحاضرين عنده حينئذ ، وقوله : ﴿ لَوْلاَ أنْ تُفَنِّدُون ﴾ أي : لولا أن تنسبوني إلى المعجزة ، ولما ذكر يعقوب ذلك قال الحاضرون عنده : ﴿ تَاللَّه إنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ القَدِيم ﴾[4] أي : تالله إنك لفي شقائك القديم لا تنساه ولا تذهل عنه ، ﴿ فَلَمَّا أنْ جَاءَ البَشِيرُ ﴾ [5] الذي هو أخوه يهوذا . قال : أنا ذهبت بالقميص الملطخ بالدم وقلت إن يوسف أكله الذئب فأذهب اليوم بالقميص فأفرحه كما أحزنته ، ﴿ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِه ﴾ [5] أي : طرح البشير القميص على وجه

---

(1) يوسف : ٩٣ (2) يوسف : ٩٤ (3) يوسف : ٨٧
(4) يوسف : ٩٥ (5) يوسف : ٩٦

يعقوب ، ﴿ فَارْتَدَّ بَصِيراً ﴾ (١) أي : صيّره الله بصيراً ، وانشرح صدره لذلك ، وعند هذا قال : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾(١) ، والمراد أعلمه بحياة يوسف عليه السلام ، ثم إن أولاد يعقوب أخذوا يعتذرون إليه إذ قالوا : ﴿ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾(٢) ، وظاهر الآية يدل على أنه لم يستغفر لهم في الحال ، بل وعدهم بأنه يستغفر لهم بعد ذلك ، وقد قال ابن عباس في سبب تأخير استغفاره لهم في وقت سؤالهم له: إنه أراد أن يستغفر لهم في السَحَر لأنه أرجى الأوقات للاستجابة ، ورُوِيَ أن يوسف عليه السلام وجَّه إلى أبيه جهازاً ومائتي راحلة ليحضر بمن معه ، وخرج يوسف عليه السلام والملك في أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر لاستقبال أبيه يعقوب عليه السلام ، وهو يمشي متوكئاً على يهوذا ، فلما نظر إلى هؤلاء المستقبلين وأبصر ذلك الموكب العظيم . قال : يا يهوذا .. أهذا فرعون مصر ؟ . قال : لا . هذا ولدك يوسف . وقد كان خروج يعقوب في اثنين وسبعين ما بين رجل وامرأة فـ ﴿ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ (٣) ، والمراد بأبويه : أبيه وأمه حقيقة ، وأن أمه كانت لا تزال على قيد الحياة في ذلك الوقت ، ولا يكون تأويلاً في كتاب الله وكلامه ، بل يؤخذ بظاهر الآية ، ولا نُحَمِّل الآية تأويلاً لا داعي له وهذا رأينا في هذا الشأن : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾(٤) ، ومعنى « آوى إليه أبويه » : ضمهما إليه واعتنقهما كما جرت وتجري به العادة إذا حضر غائب من غيبته هبوا لاستقباله بمثل هذا الاستقبال . وقال لهم : ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ، وهذا القول يؤيد الرواية التي تقول: إنه والملك والجند والعظماء استقبلهم – أي خارج مصر– ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ أي : أجلسهما على سريره الذي كان يجلس عليه ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً ﴾(٥)

---

(١) يوسف :٩٦ (٢) يوسف : ٩٧ – ٩٨ (٣) يوسف : ٩٩
(٤) البقرة : ١٤٨ (٥) يوسف : ١٠٠

أى خَرُّوا لأجل وجدانه بينهم سُجَّداً للّه تعالى ، وهو قول ابن عباس في رواية عطاء : فسجودهم ذلك إنما كان سجود شكر . وهو الذي ينبغي أن يُقَرر ، وهذا التأويل يطابق قوله : ﴿ والشَّمْسَ والقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾[1] أى : لأجلي لا لي ، وقد يكون الأليق في التأويل أن يقال : إن هذا السجود إنما كان سجود تحية وتكريم ، فقد كانت تحيتهم التي كانوا يؤدونها للغائب بعد حضوره ووجدانه بينهم ذلك السجود الذي يحمل معنى التحية والتكريم فقط ، ويستحيل أن يحمل معنى العبادة ، لأن الذي يجب أن يُعبد هو اللّه تعالى وحده لا شريك له ، وقد كان ذلك سنتهم التي كانوا يعملون بها وكان ذلك جائزاً في شريعتهم ولذلك قال سعيد بن جبيرعن قتادة عن الحسن : وقوله : ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً ﴾، قال : لم يكن سجوداً ولكنه سنة كانت فيهم . ﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً ، وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾[2] لأنه لما خرج من السجن صيروه ملكاً فكان هذا الإخراج من أجَلّ النعم عليه لا سيما وأن خروجه منه أوصله إلى أبويه ، ووصله بإخوته ، أما خروجه من الجب فقد لقيه الاتهام الباطل وقوله : ﴿ وَجَاءَ بِكُم مِنَ الْبَدْوِ ﴾ أى : من البادية ، فقد كان يعقوب يسكن البادية بأرض كنعان ، وكانوا أهل مواش وبرية ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ ﴾ أى : أفسد الشيطان ﴿ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ، إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ ﴾[2] بعباده رفيق بهم من حيث إنهم لا ينتظرون أنه هو العليم بأحوال عباده الحكيم في تصرفاته وأفعاله . قال قتادة : لطيف بيوسف بإخراجه من السجن وجاءه بأهله من البدو ونزع عن قلبه نزغ الشيطان .

* * *

(١) يوسف : ٤

(٢) يوسف : ١٠٠

• وصية يعقوب لابنه يوســـف ومدة إقامته معه ووفاته ووفاة ابنه يوسف عليهما السلام :

رُوِيَ أن يعقوب عليه السلام أقام مع ابنه يوسف عليه السلام أربعاً وعشرين سنة ولما قربت وفاته أوصى إلى يوسف أن يدفنه في الشام إلى جنب أبيه إسحاق ، فمضى بنفسه ودفنه هناك ثم عاد إلى مصر وعاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة فعند ذلك تمنى ملك الآخرة فتمنى الموت ، وقيل : ما تمناه نبي قبله ولا بعده، فتوفاه الله طيباً طاهراً ، فتخاصم أهل مصر في دفنه ، كل أحد يحب أن يدفنه في محلتهم حتى هموا بالقتال فرأوا أن يعملوا له صندوقاً من المرمر ويجعلوه فيه ويدفنوه في النيل بمكان يمر الماء عليه لتصل بركته إلى كل أحد ، وَوُلِدَ له من « زليخا » التي كانت تحت العزيز : افرايم ، ومنشا ، ورحمة التي تزوجها أيوب عليه السلام ، فإنه عليه السلام تزوجها بعد وفاة العزيز ، ثم ولد من افرايم نون وولد لنون يوشع فتى موسى عليه السلام ، وكان بين يوسف وموسى عليهما السلام أربعمائة عام ، ثم دُفِنَ يوسف هناك إلى أن بعث الله موسى فأخرج عظامه من مصر ودفنها عند قبور آبائه بالشام . . . صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

* * *

• تمنى الموت ومتى يجوز ذلك :

قال قتادة : لم يتمن الموت أحدٌ - نبي ولا غيره - إلا يوسف عليه السلام ، فإنه حين تكاملت عليه النعَم وجمع له الشمل اشتاق إلى ربه عز وجل ، وقيل : إن يوسف لم يتمن الموت وإنما تمنى الوفاة على الإسلام ، أى إذا جاء أجلي توفني مسلماً ، وهذا قول الجمهور ، وقال سهل بن عبد الله التستري : لا يتمنى الموت إلا ثلاثة : رجل جاهل بما بعد الموت ، أو رجل يغتر من أقدار الله تعالى عليه ، أو مشتاق محب للقاء الله عز وجل ، وقد ثبت في الصحيح عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يتمنَّين أحدكم الموت لضر نزل به فإن كان

لا بد متمنياً فليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي » (رواه مسلم) . وإنما تمناه يوسف لأنه ربما كان ذلك جائزاً في شرعه، أما تمنيه عند ظهور الفتن وغلبتها وخوف ذهاب الدين فذلك جائز فقوله: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ (١) لما أسبغ الله عليه نعمه ظاهرة وباطنة قال : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ﴾ ، وقد رُوِيَ أن يوسف عليه السلام أخذ بيد يعقوب وطاف به على خزائن الملك التي جعلَ الله له السيطرة عليها والتصرف فيها ، وليس له بعد ذلك غاية ولا هدف في هذه الحياة أبعد من ذلك ، أخذ يتمنى على الله لقاءه شوقاً إليه وحباً فيه ، ونادى كذلك : يا فاطر السموات والأرض ، خالقها ومبدعهـا ومغنيها ﴿ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ أي : ناصرى ومتولى أمورى فى الدنيا والآخرة ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (١) ولذلك لما مات بمصر وجاء زمن موسى عليه السلام وعلم المكان الذي دُفِنَ فيه أخذ عظامه ودفنها عند قبور آبائه : يعقوب وإسحاق وإبراهيم بالشام كما أشرنا إلى ذلك . . عليهم الصلاة والسلام ، وكان عمره مائة عام وسبعة أعوام ، وقيل : عاش مائة وعشرين عاماً .

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ يعني الذي قصصنا عليك يا محمد من أخبار يوسف وأمره هو من الغيب نوحيه إليك ، أى نُعْلِمُكَ بوحى هذا إليك ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ ﴾ أى : وما كنت مع إخوة يوسف ﴿ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ ﴾ في إلقاء يوسف في الجب ﴿ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ (٢) أى : بيوسف في إلقائه بالجب ، وقيل : يمكرون بيعقوب حين جاءوه بالقميص ملطخاً بالدم ، أي : ما شاهدت تلك الأحوال ولكن الله أطلعك عليها ، وقوله : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾(٣) وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن كفار قريش وجماعة من اليهود طلبوا هذه القصة من رسول الله ﷺ على سبيل التعنت ، واعتقد رسول الله ﷺ أنه إذا ذكرها فربما آمنوا ، فلما ذكرها أصروا

---

(١) يوسف : ١٠١ . (٢) يوسف : ١٠٢ (٣) يوسف : ١٠٣

على كفرهم فنزلت هذه الآية إشارة إلى ما ذكره الله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ (١). وقوله : ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ معناه ظاهر ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٢) أي : ما هو إلا تذكرة لهم في دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد والقصص والتكاليف والعبادات ، ومعناه أن هذا القرآن يشتمل على هذه المنافع العظيمة ، ثم لا تطلب عنه مالاً ولا جُعلاً فلو كانوا عقلاء لقبلوا ولم يتمردوا ، وقوله : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (٣) يعني أنه لا عجب إذا لم يتأملوا في الدلائل الدالة على نبوتك فإن العالم مملوء بدلائل التوحيد والقدرة والحكمة ، ثم إنهم يمرون عليها ولا يلتفتون إليها ، وهذه الدلائل والآيات إما من الأجرام الفلكية كالكواكب ، وإما من الأجرام العنصرية كعجائب البر والبحر ، وقوله : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ (٤) إشارة إلى أن هذه الآية نزلت في قوم أقروا بالله خالقهم وخالق الأشياء كلها وهم يعبدون غيره ، قاله الحسن ومجاهد والشعبي وأكثر المفسرين ، ويدل على كونهم مقرين بالله قوله : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ (٥) ، وقوله ﴿ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ﴾ أي : عقوبة تغشاهم وتنبسط عليهم وتغمرهم ﴿ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾ أي : فجأة ، وقوله : ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ (٦) أي : من حيث لا يتوقعون ذلك ، وقوله : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ ، عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ (٧) .. قال المفسرون : قل يا محمد : هذه الدعوة التي أدعو إليها والطريقة التي أنا عليها سبيلي وسنتي ومنهاجي ، وسمى الدين سبيلا لأنه الطريق الذي يوصل إلى الثواب ، ومثله قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ (٨) . وشبهوا المعتقدات بها كما أن الإنسان يمر عليها إلى الجنة ﴿ أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ ، عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ أي : حجة وبرهان ﴿ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾

---

(١) القصص : ٥٦ — (٢) يوسف : ١٠٤ — (٣) يوسف : ١٠٥
(٤) يوسف : ١٠٦ — (٥) لقمان : ٢٥ — (٦) يوسف : ١٠٧
(٧) يوسف : ١٠٨ — (٨) النحل : ١٢٥

إلى سيرتي وطريقتي وسيرة اتباعي الدعوة إلى الله ، لأن كل من ذكر الحجة وأجاب عن الشبهة فقد دعا بمقدار وسعه إلى الله ، وقال عليه الصلاة والسلام : « العلماء أمناء الرسل على عبادة الله من حيث يحفظون لما يدعونهم إليه » ، ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّه ﴾ (١) معطوف على قوله : ﴿ قُلْ هَذه سَبيلي ﴾ . وقل : سبحان الله تنزيهاً لله عما يشركون ، وقوله : ﴿ وَمَا أَنَا مَنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١) الذين اتخذوا مع الله ضداً ونداً وكفؤاً وولداً ، وهذه تدل على أن اللَّه ما بعثهم إلى الخلق إلا لأجلهم وإرشادهم إلى مصالحهم وتوجيههم إلى ما يكفل سعادتهم دنيا وأخرى .

وقد وصف الله تعالى هذه القصة بصفات :

الصفة الأولى - قوله : ﴿ لَعبْرَةً لأُولِي الأَبْصَار ﴾ (٢) .

الصفة الثانية - قوله عنها : ﴿ مَا كَانَ حَديثاً يُفْتَرَى ﴾ (٣) ، وفيه قولان :

الأول : أن المراد الذي جاء به سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام لا يصح أن يُفترى ، لأنه ﷺ لم يقرأ الكتب ولم يتتلمذ ولم يخالط العلماء ، فمن المحال أن يفتري هذه القصة بحيث تكون مطابقة لما جاء في التوراة ومن غير تفاوت .

والثاني : أن المراد أنه ليس بكذب في نفسه لأنه لا يصلح الكذب معه ، ثم إنه تعالى أكد كونه غير مفتري بقوله : ﴿ وَلَكنْ تَصْديقَ الَّذي بَيْنَ يَدَيْه ﴾ (٤) وهو إشارة إلى أن هذه القصة وردت على الوجه الموافق لما جاء في التوراة وسائر الكتب الأربعة .

الصفة الثالثة - قوله : ﴿ وَتَفْصيلَ كُلِّ شَيْء ﴾ (٤) يتصل بالأحداث التي اشتعلت واتصلت بيوسف مع أبيه وإخوته .

الصفة الرابعة - كونها هُدى في الدنيا .

---

(١) يوسف : ١٠٨
(٢) آل عمران : ١٣
(٣) يوسف : ١١١
(٤) يوسف : ١١١

الصفة الخامسة - كونها سبباً لحصول الرحمة في يوم القيامة : ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [1] ، وقد خصهم بالذكر لأنهم هم الذين انتفعوا بها .

إلى هنا انتهت هذه القصة الرائعة التي تحدثت آياتها وأحداثها عن المثل العليا التي اتصف بها الأنبياء وتحلت السير والتواريخ بهذه القصة العظيمة التي اختُبِرَ فيها بشتى الاختبارات وأروع الامتحانات ، فكان صبراً جميلاً وبراءة عظيمة الشأن ، يظل الزمن والأيام تتحدث بها حتى تقوم الساعة ، وكأنه عليه السلام تمثل بقول الشاعر :

سأصبر حتى يعلم الصبر أنني   صبرت على شيء أمر من الصبر

« صلوات الله وسلامه عليه » .

* * *

---

(١) يوسف : ١١١

قصة أيوب والمحن التي ابتلاه الله بها

هو أيوب بن موص بن رزاح بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام ، فهو من ذرية إبراهيم . قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ ﴾ (١) ، وهو من الأنبياء المنصوص على الإيحاء إليهم في سورة النساء في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ، وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً ﴾ (٢) ، فالصحيح أنه من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم .

وقد اختلفوا في امرأته فقيل اسمها « ليا » بنت يعقوب عليه السلام ، وقيل « ليا » بنت منشا بن يوسف ، والذي قرأته في غير كتاب من كتب السير أنها « رحمة » بنت يوسف عليه السلام وأمها زليخا رضى الله عنها ، وقد أنجبت زليخا من يوسف : افرايم ، ومنشا ، ورحمة - التي تزوجها أيوب وتحملت الكثير في مراحل مرضه .

كان أيوب رجل كثير المال من سائر صنوفه وجميع أنواعه من الأنعام والعبيد والمواشي والأراضي المتسعة بأرض التيه من أرض حوران ، وحكى ابن عساكر أنها كلها كانت له وكان له أولاد وأهلون كثير ، فَسُلِبَ ذلك منه جميعه وابْتُلِيَ في جسده بشتى أنواع البلاء . ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه ليذكر بهما الله عز وجل في ليله ونهاره ، وصباحه ومسائه ، وقد طال مرضه حتى عافه الجليس وأوحش منه الأنيس ، وأخرج من بلده وألقى خارجها وانقطع عنه الناس ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته ، فكانت ترعى له حقه وتعرف قديم إحسانه إليها وشفقته عليها فقد كانت تتردد عليه فتُصلح من شأنه وتُعينه على قضاء حاجته وتقوم على مصلحته ، وقد ضعف حالها وقَلَّ مالها ، ووصل بها الحال إلى

(١) الأنعام : ٨٤ (٢) النساء : ١٦٣

أنها كانت تقوم بخدمة الناس بالأجر لتطعمه وتقوم بأوده - رضى الله عنها - وهى صابرة معه على ما حَلّ بها من فراق المال ، وكذلك الولد لهما ، وعِظَم المحنة التي نزلت بالزوج وضيق ذات اليد وخدمة الناس بعد السعادة والنعم التي كانوا عليها وتمتعوا بها .

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل » وقال : « يُبتلي الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة ، زِيدَ في بلائه » ، ولم يزد هذا كله أيوب عليه السلام إلا صبراً وحمداً وشكراً .

وقد اختلفوا في مدة بلواه ، فزعم وهب أنه ابتُلى ثلاث سنين ، وقال أنس : ابتُلي سبع سنين وأشهراً ، وقال حميد : مكث في بلواه ثمانية عشرة سنة ، وقال السدي : تساقط لحمه حتى لم يبق إلا العظم والعصب ، فكانت امرأته تأتيه بالرماد وتفرشه تحته ، فلما طال عليها ذلك قالت : يا أيوب ، لو دعوت ربك لفَرَّج عنك ، فقال : قد عشت سبعين سنة صحيحاً أفلا أصبر على ما اختبرني به ربي سنين ؟ . فلم يرق في نظرها ذلك الكلام لأنها جزعت من كثرة قيامها بخدمة الناس بالأجر وتطعم أيوب عليه السلام ، وأصبح الناس يرفضون خدمتها لهم لأنهم يعرفرن أنها امرأة أيوب ويخشون العدوى من وراء ذلك ، فلما لم تجد أحداً يستخدمها عمدت فباعت لبعض بنات الأشراف إحدى ضفيرتيها بطعام طيب كثير فأتت به أيوب فقال لها : من أين لك هذا ؟ وأنكره ، فقالت : خدمت به أناساً ، فلما كان الغد لم تجد أحداً فباعت الضفيرة الأخرى بطعام فأتت به فأنكره أيضاً وحلف لا يأكله حتى تخبره من أين لها هذا الطعام ، فكشفت عن رأسها خمارها ، فلما رأى رأسها محلوقاً اتجه إلى ربه بهذا الدعاء فقال : رب ﴿ أنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وأنْتَ أرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [1] . قال ابن أبي حاتم : حدثنا

(١) الأنبياء : ٨٣

أبي ، حدثنا أبو مسلمة ، حدثنا جرير بن حازم عن عبدالله بن عبيد بن عمير قال : كان لأيوب أخوان فجاءا يوماً فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه ، فقاما من بعيد فقال أحدهما لصاحبه : لوكان الله علم من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا ، فجزع أيوب من قولهما جزعاً لم يجزع مثله من شيء قط ، فقال : اللهم إن كنتَ تعلم أني لم أبت ليلة قط شبعاناً وأنا أعلم مكان جائع فصدِّقني ، فصُدِّق من السماء وهما يسمعان ، ثم قال : اللهم إن كنت تعلم أني لم يكن لي قميصان قط ، وأنا أعلم مكان عار فصدِّقني ، فصُدِّق من السماء وهما يسمعان ، ثم خرَّ ساجداً فقال : اللهم بعزتك لا أرفع رأسي أبداً حتى تكشف عني . فما رفع رأسه حتى كشف عنه .

وقال ابن أبي حاتم وابن جرير جميعاً : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، أنبأنا ابن وهب ، أخبرني نافع بن يزيد عن عقيل عن الزهري عن أنس بن مالك : أن النبي ﷺ قال : « إن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه له ، كانا يغدوان له ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه : نعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين . قال له صاحبه : وما ذاك ؟ قال : منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه ربه فيكشف ما به . فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر له ذلك ، فقال أيوب : لا أدري ما تقول غير أن الله عز وجل يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله فأرجع إلى بيتي فأكفِّر عنهما كراهية أن يذكر الله إلاَّ في حق ، قال : وكان يخرج في حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يرجع ، فلما كان ذات يوم أبطأت عليه فأوحى الله إلى أيوب في مكانه أن : ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ، هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [1] فاستبطأته فتلقته تنظر ، وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء وهو على أحسن ما كان ، فلما رأته قالت :

(١) سورة ص : ٤٢

بارك الله فيك ، هل رأيت نبي الله هذا المبتلى ، فوالله القدير على ذلك ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً . قال : فإني أنا هو ، قال : وكان له أندران أندر للقمح وأندر للشعير ، فبعث الله سحابتين ، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض ، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير الوَرِق حتى فاض » هذا لفظ ابن جرير ، وهكذا رواه بتمامه ابن حبان في صحيحه عن محمد بن الحسن بن قتيبة عن حرملة عن ابن وهب به ، وهذا غريب رفعه جداً ، والأشبه أن يكون موقوفاً .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا حماد ، أنبأنا علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال : « وألبسه الله حُلّة من الجنة فتَنَحَّي أيوب وجلس في ناحية فجاءت امرأته فلم تعرفه فقالت : يا عبد الله ، أين ذهب هذا المُبتلى الذي كان ههنا لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب . وجعلت تكلمه ساعة فقال : ويحك . . أنا أيوب . قالت : أتَسْخَرُ مني يا عبد الله ؟ فقال : ويحك ، أنا أيوب قد رَدَّ الله عليَّ جسدي » .

قال ابن عباس : « ورَدَّ الله عليه ماله وولده بأعيانهم ومثلهم معهم » .

وقال وهب بن منبه : أوحى الله إليه : « قد رددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم ، فاغتسل بهذا الماء فإن فيه شفاءك ، وقَرِّب عن صحابتك قرباناً واستغفر لهم فإنهم قد عصوني فيك » (رواه ابن أبي حاتم) ، وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما أيوب يغتسل عرياناً خرَّ عليه رِجْلٌ [1] جراد من ذهب فجعل أيوب يحثي [2] في ثوبه فناداه ربه عز وجل : « يا أيوب ، ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال : بلى يارب ، ولكن لا غِنَى لي عن بركتك » ، (رواه البخاري من حديث عبد الرزاق به) .

---

(١) الرجل : الجماعة العظيمة . (٢) يحثى : يجمع .

وقوله : ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ أي : اضرب الأرض برجلك ، فامتثل ما أمرَ به ، فأنبع الله له عيناً باردةَ الماء وأمرَ أن يغتسل فيها ، ويشرب منها ، فأذهب الله عنه ما كان يجده من الآلام والأذى والسقم والمرض الذي كان في جسده ظاهراً وباطناً ، وأبدله الله بعد ذلك كله صحة ظاهرة وباطنة وجمالاً تاماً ومالاً كثيراً حتى صبّ له من المال صباً مطراً عظيماً جراداً من ذهب .

وأخلفَ الله له أهله كما قال تعالى : ﴿ وآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَعَهُمْ ﴾ فقيل : أحياهم إن بأعيانهم ، وقيل آجَرَه فيمن سلف وعوَّضه عنهم في الدنيا بدلَهم وجمع له شمله بكلهم في الدار الآخرة ، وقوله : ﴿ رَحْمَةً مِنْ عِندنَا ﴾[1] أي : رفعنا عنه شدته وكشفنا ما به من ضرر رحمة منا به ورأفة وإحساناً ، ﴿ وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴾ [1] أي : تذكرة لمن ابتلى في جسده أو ماله أو ولده فله أُسوة بنبي اللهَ أيوب حيث ابتلاه الله بما هو أعظم من ذلك فصبر واحتسب حتى فرَّجَ الله عنه .

وقد عاش أيوب بعد ذلك سبعين سنة بأرض الروم على دين الحنيفية ، ثم غيروا بعده دين إبراهيم . وقوله : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ به وَلاَ تَحْنَثْ ، إنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً ، نِعْمَ العَبْدُ ، إنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [2] هذه رخصَة من الله تعالى لعبده ورسوله أيوب عليه السلام فيما كان من حلفه : ليضربن امرأته مائة سوط . فقيل : حلفه ذلك لبيعها ضفائرها .

فلما عافاه الله تعالى أفتاه الله عز وجل أن يأخذ ضِغثاً وهو كالعثكال الذي يجمع الشماريخ فيجمعها كلها ويضربها به ضربة واحدة ويكون هذا منزّلا منزلة الضرب بمائة سوط ولا يبرُّ ولا يحنث .

وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه ، ولا سيما في حق امرأته الصابرة المحتسبة المكابِدة الصدِّيقة البارة الراشدة رضى الله عنها ، ولهذا عقّب الله

---

(١) الأنبياء : ٨٤ (٢) سورة ص : ٤٤

الرُخصة وعللّها بقوله : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً ، نِعْمَ العَبْدُ ، إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ وقد استعمل كثير من الفقهاء هذه الرُخصة في بابَ الأيمان والنذور ، وتوسع آخرون فيها حتى وضعوا كتاب الحِيَل في الخلاص من الأيمان وصدّروه بهذه الآية الكريمة وأتوا فيه بأشياء من العجائب رالغرائب .

وقد ذكر ابن جرير وغيره من علماء التاريخ : أن أيوب عليه السلام لما توفي كان عمره ثلاثاً وتسعين سنة ، وقيل : إنه عاش أكثر من ذلك ، وقد أوصى إلى ولده « حومل » ، وقام بالأمر بعده ولده « بشر » ابن أيوب وهو الذي يزعم كثير من الناس أنه ذو الكفل .

* * *

قصة ذي الكفل وأخباره

قال مجاهد : لما كبر اليسع قال : لو أني استخلفت رجلاً على الناس يعمل عليهم في حياتي حتى أنظر كيف يعمل . فجمع الناس ثم قال : من يكفل لي بثلاث أستخلفه : يصوم النهار ، ويقوم الليل ، ولا يغضب . فقام إليه رجل شاب فقال : أنا . فرده ذلك اليوم . وقال مثلها في اليوم الثاني ، فسكت الناس فقام ذلك الرجل وقال : أنا أعمل ذلك فاستخلفه ، ويظهر أنه سُمى « ذا الكفل » لتكفله بما أمره به اليسع وقيامه به .

والظاهر من ذكره في القرآن العظيم بالثناء عليه مقروناً مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه نبي عليه من ربه الصلاة والسلام . قال تعالى بعد قصة أيوب في سورة الأنبياء : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ، كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ * وأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحمتَنا ، إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالحينَ ﴾ [١] . وقال تعالى بعد قصة أيوب أيضاً في سورة (ص) : ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي والأَبْصَار * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَة ذِكْرَى الدَّارِ * وإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ * واذكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَ اليَسَعَ وَذَا الكِفْلِ ، وَكُلٌّ مِنَ الأَخْيَارِ ﴾ [٢] . وفي وجه تسميته بـ « ذي الكفل » رأى آخر نسجله أيضاً ، فقد قيل : إنه تكفل لبنى قومه أن يكفيهم أمرهم ويقضي بينهم بالعدل فقام بذلك خير قيام فسمى ذا الكفل لذلك . قال مجاهد : ولما استخلف ذو الكفل جعل إبليس يقول للشياطين : عليكم بفلان ، فأعياهم ذلك . فقال : دعوني وإياه . . فأتاه في صورة شيخ كبير فقير ، وأتاه حين أخذ مضجعه للقائلة ، وقد كان لا ينام الليل والنهار إلا تلك النومة فدّق الباب فقال : من هذا ؟

---

(١) الأنبياء : ٨٥ - ٨٦ (٢) سورة ص : ٤٥ - ٤٨

قال : شيخ كبير مظلوم . قال : فقام ففتح الباب فجعل يقص عليه . فقال : إن بيني وبين قومي خصومة وإنهم ظلموني وفعلوا بي وفعلوا ، وجعل يطّول عليه حتى حضر الرواح وذهبت القائلة ، فقال : إذا رُحْتُ فإني آخذ لك بحقك منهم .

فانطلق وراح فكان في مجلسه فجعل ينظر هل يرى الشيخ ، فلم يره ، فقام يتبعه فلما كان الغد جعل يقضي بين الناس وينتظره فلا يراه ، فلما رجع إلى القائلة فأخذ مضجعه أتاه فدق الباب فقال : من هذا ؟ فقال : الشيخ الكبير المظلوم . ففتح له فقال : ألم أقل لك إذا قعدت فأتني . قال : إنهم أخبث قوم إذا عرفوا أنك قاعد قالوا : نحن نعطيك حقك ، وإذا قمت جحدوني . قال : فانطلقْ فإذا رُحْتُ فأتني ، وقد أخذ ينتظره ومع أن القائلة فاتته فإنه لم يره وقد شق عليه النعاس ، ولما غلبه قال لبعض أهله : لا تدعن أحداً يقرب هذا الباب حتى أنام فإني قد شق عليّ النوم ، فلما كان تلك الساعة جاء فقال له الرجل : وراءك وراءك ؟ فقال : قد أتيته أمس وذكرت له أمري ، فقال : لا واللّه ، لقد أمرنا أن لا ندع أحداً يقربه ، فلما أعياه نظر فرأى كوة في البيت فتسَوَّر منها فإذا هو في البيت ، وإذا هو يدق الباب من داخل قال : فاستيقظ الرجل فقال : يا فلان ، ألم آمرك ؟ قال : أما من قِبَلي واللّه فلم تُؤتَ فانظر من أين أُتيتَ . قال : فقام إلى الباب ، فإذا هو مغلق كما أغلقه وإذا الرجل معه في البيت فعرفه . فقال : أعدو اللّه ؟ . قال : نعم ، أعييتني في كل شيء ففعلت كل ما ترى لأغضبك ولكني لم أستطع ذلك ، وكيف يستطيع أن يغضب نبياً يشهد القرآن بنبوته ؟ ! ، ومن قال : إنه رجل صالح ، فإنه لم يستند على برهان يدعو إلى التصديق به . . . واللّه الهادي إلى سواء السبيل .

* * *

قصة رسل عيسى عليه السلام
إلى أصحاب القرية التي جاء ذكرهم في سورة يس

اشتهر عن كثير من السَلَف والخَلَف أن القرية التي أرسل عيسى إليها رسله هي أنطاكية ، رواه ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب الأحبار ووهب ابن منبه ، وكذا رُوى عن بُريدة بن الخصيب وعِكرمة وقتادة والزهري وغيرهم ، وكان لها ملك اسمه أنطيخس بن أنطيخس يعبد الأصنام ، فبعث إليها عيسى عليه السلام رسولين من الحواريين أحدهما يُدعى صادق ، والآخر يدعى صدوق على اختلاف في ذلك – فلما قربا من المدينة أتيا شيخاً يرعى غنماً له يُدعى حبيب النجار فسلّما عليه فقال : من أنتما ؟ قالا : رسولا عيسى عليه السلام يدعوكم إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له . قال : أمعكما آية ؟ قالا : نعم ، نحن نبرىء المريض ، ونشفي الأكمه والأبرص بإذن الله ، فقال الشيخ : إن لي ابناً مريضاً صاحب فراش منذ سنين . قالا : فانطلِق بنا إلى منزلك ، فأتي بهما إلى منزله ، فلما نظرا إلى ولده وهو في تلك الحالة قرّبا إليه ودعيا له ومسحاه بيديهما ، فقام في الوقت بإذن الله تعالى صحيحاً ، ففشا الخبر وانتشر في المدينة ، وشفى الله على يديهما في المدينة كثيراً من المرضى ، وقد كان في هذه المدينة فرعون من الفراعنة يعبد الأصنام يقال له « سلاحين » ، فلما انتهى خبرهما إلى الملك دعاهما إليه . وقال لهما : من أنتما ؟ قالا : رسولا عيسى . قال : وما آيتكما ؟ قالا : نبرىء الأكمه والأبرص ، ونشفي المريض بإذن الله تعالى . قال : وفيم جئتما ؟ قالا : جئناك ندعوك من عبادة من لا يسمع ولا يبصر ، إلى عبادة من يسمع ويبصر ، قال الملك : أوَ لنا إله سوى آلهتنا ؟ قالا : نعم . قال : من ؟ قالا : من أوجدك بعد عدمك وآلهتك . قال : قوما حتى

أنظر في أمركما ، ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ [1] أي : أنهم لم يصدقوهما فيما جاءا به وألحقوا بهما الإهانة وأنواع الأذى ، ثم قال تعالى : ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ [1] أي : قويناهما بثالث ، قيل اسمه « شمعون الصفا » رأس الحواريين لنصرهما فعاشر حاشـــية الملك حتى تمكن منهم واستأنسوا ورفعوا حديثه إلى الملك فأنــس به وأظهر موافقته في دينه فرضــى الملك طريقته ، ثم قال يوماً للملك : بلغني أنك حبست رجلين دعواك إلى الله ، فلو سألت عنهما ما وراءهما . فقال : إن الغضب حال بيني وبين سؤالهما . قال : فلو أحضرتهما . فأمر بذلك ، فقال لهما شمعون : ما برهانكما على ما تدعيان ؟ فقالا : نبرىء الأكمه والأبرص . فجىء بغلام ممسوح العينين - أي موضع عينيه كالجبهة - فدعوا الله ربهما فانشق موضع البصر فأخذا بندقتين طيناً فوضعاهما في خديه فصارتا مُقلتين يبصر بهما ، فعجب الملك وقال : إن ههنا غلاماً مات منذ سبعة أيام ولم أدفنه حتى يجىء أبوه ، فهل يحييه ربكما ؟ فدعوا الله علانية ودعاه شمعون سراً فقام الميت حياً بإذن الله تعالى . فقال الميت للناس : إني مت منذ سبعة أيام فَوجدْتُ مشركاً فأُدخلت في سبعة أودية من النار فأحذركم ما أنتم فيه . فآمنوا بالله ، ثم فتحت أبواب السماء فرأيت شاباً حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة - شمعون وصاحبيه - حتى أحياني الله تعالى، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن عيسى روح الله وكلمته ، وأن هؤلاء هم رسل الله . فقالوا له : وهذا شمعون أيضاً معهم ؟ فقال : نعم ، وهو أفضلهم . فأعلمهم شمعون أنه رسول المسيح إليهم فأثر قوله في الملك ودعاه إلى الله فآمن الملك في قوم كثير وكفر آخرون . وحكى القشيرى : أن الملك آمن ولم يؤمن قومه وصاح جبريل عليه السلام صيحة مات بعدها كل ما بقى منهم من الكفار .

ولما قوّاهما الله وأيدهما بثالث جعلوا يخاطبون أصحاب القرية فقالوا : ﴿ إِنَّا

---

(1) يس : ١٤

إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ * قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ [1] تأكلون الطعام وتمشون في الأسواق ، فبيّن الله بذلك ما جرى منهم وعليهم مثل ما جرى من سيدنا محمد ﷺ إذ قالوا : ﴿ إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ﴾ ، كما قال : ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾[2]، ثم بيّن تعالى ما قال القوم لهم بقوله : ﴿ مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ جعلوا كونهم بشراً مثلهم دليلاً على عدم الإرسال ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ ﴾ [3] أي : ما أنتم إلا كاذبين ﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ [4] وفي هذا إشارة إلى أنهم بمجرد التكذيب لم يسأموا ولم يتركوا، بل أعادوا ذلك لهم وكرروا القول عليهم وأكدوا باليمين وقالوا : ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ وأكدوه باللام لأن « يعلم الله » يجري مجرى القسم ، وفي قوله : « الله يعلم » إشارة إلى الرد عليهم حيث قالوا : ﴿ مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ وذلك لأن الله تعالى إذا كان يعلم أنهم لمرسلون يكون كقوله : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [5] ، يعني هو عالم بالأمور قادر على كل شيء فاختارنا بعلمه لرسالته ، وإن كذبتمونا فما علينا إلا البلاغ المبين ، أي : إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم والله هو الذي يَهْدِي من يشاء ويُضِلّ من يشاء ﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ أي : تشاءمنا بما جئتمونا به ﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾ أي : لئن لم تنتهوا عن إنذارنا ﴿ لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾ أي : لنشتمنكم من الرجم بالقول ، والظاهر أن المراد الرجم بالحجارة ولا داعي للتأويل ويكون قوله : ﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [6] بيان للرجم ، فأجابهم المرسلون بقولهم : ﴿ طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ ﴾ [7] أي : شؤمكم معكم ، أي حظكم من الخير والشر معكم ولازم في أعناقكم وليس هو من شؤمنا ، قال معناه الضحاك : فهو مردود عليكم أئن ذكرتم : أي بسبب إنا ذكرناكم بالهدى ودعوناكم إليه توعدتمونا بالقتل والإهانة

---

(1) يس : ١٤ - ١٥ (2) يس : ٣ (3) يس : ١٥
(4) يس : ١٦ (5) الأنعام : ١٢٤ (6) يس : ١٨
(7) يس : ١٩

﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾ [1] أى : تجاوزون الحد بحيث يبلغ الضد فهم لا يقبلون الحق ولا يريدونه ، ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ﴾ [2] : يعني لنصرة الرسل وإظهار الإيمان بهم ، وهو حبيب النجار ، ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [3] أى : اتَّبِعُوا ما يدعونكم إلى الحق المحض بلا أجرة ولا جعالة ، ثم دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونهاهم عن عبادة ما سواه مما لا ينفع شيئاً ، لا في الدنيا ولا في الآخرة . ﴿ إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ ﴾ [4] أى : إن تركت عبادة الله تعالى وعبدت معه ما سواه .

ثم قال مخاطباً للرسل : ﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ [5] . قيل معناه : فاستمعوا مقالتي واشهدوا لي بها عند ربكم ، وقيل : فاستمعوا يا قومي إيماني برسل الله جهرة ، وربما يكون ذلك هو المراد من الآية ومن حبيب النجار فعند ذلك قتلوه ، قيل : رجماً ، وقيل : عطشاً ، وقيل : وثبوا إليه وثبة رجل واحد فقتلوه رضى الله عنه .

وحكى ابن إسحاق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود . قال : وطأوه بأرجلهم حتى أخرجوا قصبته . وقد روى آخرون عن عاصم الأحول عن أبى مِجْلَز : كان اسم هذا الرجل « حبيب بن مرى » ، ثم قيل كان نجاراً ، وقيل حياكاً ، وقيل إسكافاً ، وقيل قَصاراً ، وقيل كان يتعبد في غار هناك . وعن ابن عباس : كان حبيب النجار قد أسرع فيه الجزام ، وكان كثير الصدقة فقتله قومه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾ [6] ، يعني لما قتله قومه أدخله الله الجنة ، فلما رأى فيها النضرة والسرور وما لا عين رأت ولا خطر على قلب بشر قال : ﴿ يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ [7] يعني ليؤمنوا بما آمنت به فيحصل لهم ما حصل لي .

---

(1) يس : ١٩ (2) يس : ٢٠ (3) يس : ٢٠ ، ٢١
(4) يس : ٢٤ (5) يس : ٢٥ (6) يس : ٢٦
(7) يس : ٢٦ ، ٢٧

قال ابن عباس : نصح قومه في حياته بقوله : ﴿ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ ، وبعد مماته في قوله : ﴿ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ (رواه ابن أبي حاتم) ، وكذلك قال قتادة : لا يُلقي المؤمن إلا ناصحاً ، لا يُلقي غاشاً لما عايَن ما عاين من كرامة الله قال : ﴿ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ تمنى والله أن يعلم قومه بما عاين من كرامة الله وما هو عليه . قال قتادة : فلا والله ما عاتب الله قومه : ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ [١] . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ [٢] أي : وما احتجنا في الانتقام منهم إلى إنزال جند من السماء عليهم ، أي : وما كنا محتاجين في الانتقام إلى هذا حين كذّبوا رسلنا وقتلوا ولينا ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾

قال المفسرون : بعث الله إليهم جبريل عليه السلام ، فأخذ بعضادتي الباب الذي لبلدهم ثم صاح بهم ﴿ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ أي : قد أخمدت أصواتهم وسكنت حركاتهم ولم تبق منهم عين تطرف ، وهذا كله مما يدل على أن هذه القرية ليست أنطاكية ، لأن هؤلاء أهلكوا بتكذيبهم رسل الله إليهم ، وأهل أنطاكية آمنوا واتبعوا رسل المسيح من الحواريين إليهم ، ولهذا قيل : إن أنطاكية أول مدينة آمنت بالمسيح ، فأما الحديث الذي رواه الطبراني من حديث حسين الأصفر عن سفيان بن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « السُّبق ثلاثة : فالسابق إلى موسى يوشع ابن نون ، والسابق إلى عيسى صاحب يس ، والسابق إلى محمد عليّ بن أبي طالب » فإنه حديث لا يثبت لأن حسيناً هذا متروك شيعي من الغلاة ، وتفرده بهذا يدل على صنعه بالكلية ، وقد قال تعالى في ذلك : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ [٣] .

* * *

---

(١) يس : ٢٩ (٢) يس : ٢٨ (٣) يس : ١٣

قصة يونس بن متى عليه السلام
مع قومه ، والتقام الحوت له

كان يونس رجلاً صالحاً يتعبد في جبل ، وكان في قرية من قرى الموصل يقال لها « نينوي » ، وكان قومه يعبدون الأصنام فبعث الله إليهم يونس بن متى عليه السلام بالنهي عن الكفر والأمر بالتوحيد ، وقد كان حسن القراءة يستمع لقراءته الوحش كما كان ذلك لداوود عليه السلام في زمانه ، فانطلق إلى أهل نينوى فأنذرهم أن العذاب قد حضرهم إن لم يتوبوا ، وكان قد سأل ربه أن ينظره ليتأهب للشخوص إليهم . فقال له : الأمر أسرع من هذا . فذهب إليهم مغاضباً.

قال ابن عباس وابن مسعود وغيرهما : لما أيس من إيمان قومه دعا عليهم فقيل له : ما أسرع ما دعوت على قومك ، ارجع إليهم فادعهم أربعين ليلة أخرى ، فإن أجابوك وإلا فإني مرسل عليهم العذاب ، فرجع ودعاهم سبعاً وثلاثين ليلة فلم يجيبوه ، فقام خطيباً فيهم وقال : إني محذركم العذاب إلى ثلاثة أيام إن لم تؤمنوا . ثم قال لهم : إن آية ذلك أن تتغير ألوانكم . فلما أصبحوا تغيرت ألوانهم فقالوا لبعضهم : قد نزل بكم ما قال يونس وإنّا لم نجرب عليه كذباً فانظروا فإن بات فيكم الليلة فأمنوا من العذاب ، وإن لم يبت فيكم فاعلموا أن العذاب مصبحكم ، فلما كانت ليلة الأربعين ورأى يونس تغير ألوانهم علم أن العذاب نازل بهم فخرج من بين أظهرهم ، فلما أصبحوا تغشاهم العذاب ، قال سعيد بن جبير : كما يغشى التراب القبر إذا دخل فيه صاحبه ، وقال مقاتل : كان العذاب فوق رؤوسهم قدر ميل ، وقال ابن عباس : قدر ثلثي ميل ، وقال وهب : أغامت السماء غيماً أسود هائلاً تدخن دخاناً شديداً فهبط حتى غشى مدينتهم واسودت أسطحتهم ، فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك

والعذاب فطلبوا نبيهم يونس فلم يجدوه ، فقذف الله في قلوبهم التوبة وألهمهم الرجوع إليه فخرجوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم ، ولبسوا المسوح وأظهروا الإيمان والتوبة ، وأخلصوا النيه لله تعالى ، وفرّقوا بين كل والدة وولدها من الناس والدواب والأنعام فحن بعضها إلى بعض ، وعلت أصواتهم واختلط حنينهم وعجُّوا وتضرّعوا إلى الله وقالوا : آمنا بما جاء به يونس . فرحمهم ربهم واستجاب دعواتهم وقبل توبتهم وكشف عنهم العذاب بعد ما أظلهم ، وكان ذلك يوم عاشوراء ، وقيل : كان يوم الأربعاء للنصف من شوّال . قال ابن مسعود : وبلغ من توبة أهل نينوي أن ترادوا المظالم بينهم حتى إن الرجل ليأتي إلى الحجر وقد وضع عليه أساس بنائه فيقلعه ويرده .

قال تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾[1] . وقال: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ ، وَكَذَلِكَ نُنْجِي المُؤْمِنِينَ ﴾[2] . وقال: ﴿ وإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الفُلْكِ المَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ المُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ المُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَنَبَذْنَاهُ بِالعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾[3]

* * *

---

(١) يونس : ٩٨ (٢) الأنبياء : ٨٧ - ٨٨ (٣) الصافات : ١٣٩ - ١٤٨

• هل ينفعهم إيمانهم بما جاء به يونس وقد قال : « ومتعناهم إلى حين » :

لقد اختلف المفسرون في هذا الشأن وهو أن هذا الإيمان هل ينفعهم في الدار الآخرة فينقذهم من عذابها كما أنقذهم من العذاب في هذه الحياة ؟ قال بعضهم : الأظهر من السياق أنه ينفعهم كما قال تعالى : ﴿ لَمَّا آمَنُوا ﴾. وقال : ﴿ وأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾[1] وهذا المتاع إلى حين لا ينبغي أن يكون معه غيره من رفع العذاب الأخروي وقد كانوا مائة ألف لا محالة ، واختلفوا في الزيادة ، فعن مكحول : عشرة آلاف . وروى الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم من حديث زهير عمن سمع أبا العالية : حدثني أُبَيّ بن كعب أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ قال : « يزيدون عشرين ألفاً » ، فلولا هذا الرجل المبهم لكان هذا الحديث فاصلاً في هذا الباب .

وعن ابن عباس : كانوا مائة ألف وثلاثين ألفاً ، وعنه : وبضعة وثلاثين ألفاً ، وعنه : وبضعة وأربعين ألفاً . وقال سعيد بن جبير : كانوا مائة ألف وسبعين ألفاً . فهذه الآراء سجلناها في كتابنا هذا للوقوف عليها .

وقد اختلفوا : هل كان إرساله إليهم قبل الحوت أو بعده ؟ قال ابن عباس : إنها كانت رسالة يونس بعد أن نبذه الحوت ، ودليل ذلك القول : أن الله تعالى ذكر قصة يونس في سورة الصافات ثم عقّبها بقوله : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [2] . وقال آخرون : إن قصة الحوت ، بعد دعائه قومه وتبليغه الرسالة وإنما ذهب عن قومه مغاضباً لربه إذ كشف عنهم العذاب بعد ما أوعدهم به .

والمقصود : أنه عليه السلام لما ذهب مغاضباً بسبب قومه ركب سفينة في البحر

(١) الصافات : ١٤٧ - ١٤٨ (٢) الصافات : ١٤٧

فلجّتْ بهم واضطربت وماجت وثقلت بما فيها وكادوا يغرقون ، فاشتوروا فيما بينهم على أن يقترعوا فمن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة ليتخففوا منه .

فلما اقترعوا وقعت القُرعة على نبي الله يونس فلم يسمحوا به ، فأعادوها ثانياً فوقعت عليه أيضاً ، فتشمر ليخلع ثيابه ويلقي بنفسه فأبوا عليه ذلك ، ثم أعادوا القُرعة ثالثة فوقعت عليه أيضاً لما يريده الله به من الأمر العظيم ، قال الله تعالى : ﴿ وإنَّ يُونُسَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ * إذْ أبَقَ إلَى الفُلْكِ المَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ المُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ (١) . وذلك أنه لما وقعت عليه القُرعة أُلقى في البحر وبعث الله عز وجل حوتاً عظيماً من البحر الأخضر فالتقمه ، وأمره الله تعالى أن لا يأكل له لحماً ولا يهشم له عظماً فليس لك برزق ، فأخذه فطاف به البحار كلها ، وقيل : إنه ابتلع ذلك الحوت حوت أكبر منه .

ولما استقر في جوف الحوت حسب أنه قد مات فحرك جوارحه فتحركت ، فإذا هو حيّ فخرّ لله ساجداً وقال : يارب ، اتخذتُ لك المسجد في موضع لم يعبدك أحد في مثله .

وقد اختلفوا في مقدار لبثه في بطنه . فقال مقاتل : ثلاثة أيام ، وقال عطاء: سبعة أيام ، وقال الضحّاك : عشرين يوماً ، وقال السدي والكلبي : أربعين يوماً . فلما أخرجه الله من بطن الحوت أنبت الله له شجرة من يقطين (وهو القرع) فجعل يستظل بها ، ووكّل اللهُ وعْلة تختلف إليه فيشرب منها لبناً ، فذلك قوله : ﴿ وأنْبَتْنَا عَلَيْه شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴾ (٢) أي : أنبتنا عنده شجرة من يقطين ، علماً بأنه عندما كان يطوف به الحوت في البحار اللُّجّيةً ويقتحم به لجج البحر الأجَاجِيّ (٣) إذ كان يسمع تسبيح الحيتان للرب العظيم وحتى سمع تسبيح الحصى لفالق الحب والنوى ، فعند ذلك وهنالك قال بلسان الحال والمقال كما

(١) الصافات : ١٣٩ - ١٤٢ (٢) الصافات : ١٤٦ (٣) الأجاجي : الملح .

أخبر عنه ذو العزة والجلال بقوله : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ ، وَكَذَلِكَ نُنْجِي المُؤْمِنِينَ ﴾[1] ، وقوله : ﴿ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ أي : نضيق عليه ﴿ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس وعمرو بن ميمون وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والحسن وقتادة والضحاك : ظلمة الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ المُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[2] قيل معناه : فلولا أنه سبّح الله هنالك وقال ما قال من التهليل والتسبيح والاعتراف لله بالخضوع والتوبة والرجوع إليه للبث هنالك إلى يوم القيامة ولبُعثَ من ذلك الحوت . وقيل معناه : فلولا أنه كان من المسبحين من قبل أخذ الحوت له : أي المطيعين المصلين الذاكرين الله كثيراً ، قاله الضحاك بن قيس وابن عباس وأبو العالية ووهب بن منبه وسعيد بن جبير والضحاك والسدي وعطاء بن السائب والحسن البصري وقتادة وغير واحد ، واختاره ابن جرير.

ويشهد لذلك ما رواه الإمام أحمد وبعض أهل السنن عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال له : « يا غلام ، إني معلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة » وروى ابن جرير في تفسيره والبزار في مسنده من حديث محمد بن إسحاق عمن حدثه عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة قال : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « لما أراد الله حبس يونس في بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخدش له لحماً ولا تكسر له عظماً ، فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حساً فقال في نفسه : ما هذا ؟ فأوحى الله إليه وهو في بطن الحوت : إن هذا تسبيح دواب البحر ، قال : فسبّح وهو في بطن الحوت فسمعت

(١) الأنبياء : ٨٧ - ٨٨ (٢) الصافات : ١٤٣ - ١٤٤

الملائكة تسبيحه فقالوا : يا ربنا إنّا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة . قال : ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر . قالوا : العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه كل يوم ولية عمل صالح ؟ قال : نعم . قال : فشفعوا له عند ذلك فأمر الحوت فقذفه في الساحل كما قال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ (١) . هذا النظر ابن جرير إسناداً ومتناً ثم قال البزار : لا نعلمه يُروي عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد ، كذا قال .

وقد قال ابن أبي حاتم في تفسيره : حدثنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الرحمن ابن أخي وهب ، حدثنا عمي ، حدثني أبو صخر أن يزيد الرقاشي قال : سمعت أنس بن مالك – ولا أعلم إلا أن أنساً يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ يقول : « إن يونس النبي عليه السلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت قال : « اللّهم ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فأقبلت هذه الدعوة تحت العرش فقالت الملائكة : يارب ، صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة فقال : أما تعرفون ذاك ؟ ، قالوا : لا ، يارب ومن هو ؟ قال : عبدي يونس . قالوا : عبدك يونس الذي لم نزل نرفع له عملاً متقبلا ودعوة مجابة ؟ قالوا : يارِبنا ، أوَ لا ترحم ما كان يضعه في الرخاء فتنجيه من البلاء ؟ قال : بلى . فأمر الحوت فطرحه في العراء » .

ورواه ابن جرير عن يونس عن ابن وهب به . زاد ابن أبي حاتم : قال أبو صخر حُميد بن زياد : فأخبرني ابن قسيط وأنا أحدثه هذا الحديث أنه سمع أبا هريرة يقول : طُرِحَ بالعراء وأنبت الله عليه اليقطينة . قلنا : يا أبا هريرة ، وما اليقطينة ؟ قال : شَجرة الدبّاء قال أبو هريرة : وهيأ الله له أرويّة (٢) وحشية تأكل من خشاش الأرض – أو قال هشاش الأرض – قال : فتفسخ عليه فترويه من لبنها كل عشية وبكرة حتى نبت .

(١) الصافات : ١٤٥ (٢) الأروية : أنثى الوعل .

وقال أُمية بن أبي الصلت في ذلك بيتاً من شعره :

فأنبـت يقطــيناً عليه برحــمة من الله لولا الله أصبح ضاويا[1]

وهذا غريب من هذا الوجه ، ويـزيد الرقاشـي ضعيـف ، ولكن يتقوَّى بحـديث أبي هريرة المتقدم كما يتقوَّى ذاك بهذا .

وقد قال الله تعالى : ﴿ فَنَبَذْنَاهُ ﴾ أي ألقيناه ﴿ بِالْعَرَاءِ ﴾ وهو المكان القفر الذي ليس فيه شيء من الأشجار بل هو عار منها ، ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ أي : ضعيف البدن . قال ابن مسعود : كهيئة الفرخ ليس عليه شيء ، وقال ابن عباس والسدي وابن زيد : كهيئة الصبي حين يولد وهو المنفوس ليـس عليه شـيء : ﴿ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس وعكرمة ومجاهد وسعيد ابن جبير ووهب بن منبه وهلال بن يوساف وعبدالله بن طاوس والسدي وقتادة والضحاك وعطاء الخراساني وغير واحد : هو القرع . قال بعض العلماء : في إنبات القرع عليه حِكَمٌ جمة ، منها أن ورقه في غاية النعومة ، ولا يقربه الذباب ، ويؤكل ثمره من أول طلوعه إلى آخره نياً ومطبوخاً وبقشره وببذره أيضاً ، وفيه نفع كثير وتقوية للدماغ وغير ذلك ، وقد سخَّرَ الله له الأروِّية التي كانت ترضعه لبنها وترعى في البرية وتأتيه بَكرة وعشية ، وهذا من رحمة الله به ونعمته عليه وإحسانه إليه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ﴾ أي : الكرب والـضيق الذي كان فـيه ﴿ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : وهذا صنيعنا بكل من دعانا واستجار بنا . قال ابن جرير : حدثني عمران بن بكار الكيلاعي ، حدثنا يحيى بن صالح ، حدثنا أبو يحيى بن عبد الرحمن ، حدثني بشر بن منصور عن عليّ بن زيد عن سعيد بن المسيب قال : سمعت سعد بن مالك – وهو ابن أبي وقاص – يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اسم الله الذي إذا دُعيَ به أجاب ، وإذا سُئِلَ به أعطى : دعوة يونس ابن متَّى .قال : فقلت : يارسولَ الله ، هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين ؟

(١) أي : ألقي ضاحياً .

قال : هي ليونس خاصة وللمؤمنين عامة إذا دعوا بها ، ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِ ، وكَذَلِكَ نُنْجِي المُؤْمِنِينَ ﴾ فهو شرط من الله فيمن دعاه به » .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد الأحمر عن كثير ابن زيد عن المطلب بن حُنْطب . قال أبو خالد : أحسبه عن مصعب (يعني ابن سعد) قال : قال رسول الله ﷺ : « من دعا بدعاء يونس استجيب له » قال أبو سعيد الأشج : يريد به : ﴿ وكَذَلِكَ نُنْجِي المُؤْمِنِينَ ﴾ .. وهذان طريقان عن سعد .

وثالث أحسن منهما : قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل بن عمير ، حدثنا يونس بن أبي إسحاق التمداني ، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سعد ، حدثني والدي محمد عن أبيه سعد - وهو ابن أبي وقاص رضى الله عنه - قال : مررت بعثمان بن عفان في المسجد فسلمت عليه ، فملأ عينيه مني ثم لم يرد عليّ السلام ، فأتيت عمر بن الخطاب . فقلت : يا أمير المؤمنين ، هل حدث في الإسلام شيء ؟ . قال : لا ، وماذاك ؟ قلت : لا ، إلا أني مررت بعثمان آنفاً في المسجد فسلمت عليه فملأ عينيه مني ثم لم يرد عليّ السلام . قال : فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه فقال : ما منعك أن لا تكون رددت على أخيك السلام ؟ قال : ما فعلت . قال سعد : قلت : بلى . حتى حلف وحلفت ، قال : ثم إن عثمان ذكر فقال : بلى ، وأستغفر الله وأتوب إليه ، إنك مررت بي آنفاً وأنا أُحَدِّثْ نفسي بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ ، والله ما ذكرتها قط إلا تغشى بصري وقلبي غشاوة . قال سعد : فأنا أنبئك بها ، إن رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة ، ثم جاء أعرابي فشغله حتى قام رسول الله ﷺ فاتبعته فلما أشفقت أن يسبقني إلى منزله ضربت بقدمي الأرض فالتفتُ إليّ رسول الله ﷺ . فقال : « من هذا ؟ أبو إسحاق » ؟ ، قال : قلت : نعم يا رسول اللهّ . قال : « هه » قلت : لا والله إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة ثم جاء هذا

الأعرابي فشغلك . قال : « نعم ، دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت : ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فإنه لم يدع به مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له » . (ورواه الترمذي والنسائي من حديث إبراهيم بن محمد بن سعد به)

* * *

● فضل يونس عليه السلام والآيات الناطقة بذلك :

قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١) ، وقد ذكره الله تعالى في جملة من ذكره من الأنبياء الكرام في سورة النساء والأنعام ، فقال عز من قائل في سورة النساء : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ، وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً * وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ، وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً ﴾ (٢) . وجاء في سورة الأنعام قوله : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، كُلاًّ هَدَيْنَا ، وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ ، كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً ، وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (٣) . صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لا ينبغي لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى » .

---

(١) الصافات : ١٣٩
(٢) النساء : ١٦٣ - ١٦٤
(٣) الأنعام : ٨٣ - ٨٦

ورواه البخاري من حديث سفيان الثوري به . وقال البخاري أيضاً : حدثنا حفص بن عمرو ، حدثنا شعبة عن قتادة عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « لا ينبغي لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى » . ونسبه إلى أبيه ، ورواه أحمد ومسلم وأبو داوود من حديث شعبة به ، قال شعبة فيما حكاه أبو داوود عنه : لم يسمع قتادة من أبي العالية سوى أربعة أحاديث هذا أحدها . وقد رواه الإمام أحمد عن عفان عن حماد بن سلمة عن عليّ بن زيد عن يونس بن مهران عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « ما ينبغي لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى » (تفرد به أحمد) .

وفي البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن الفضل عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج عن أبي هريرة في قصة المسلم الذي لطم وجه اليهودي حين قال : « لا والذي اصطفى موسى على العالمين » .

قال البخاري في آخره : « ولا أقول إن أحداً خير من يونس بن متى » ، وهذا اللفظ يُقوّي أحد القولين من المعنى : « لا ينبغي لأحد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى » أى ليس لأحد أن يُفَضِّل نفسه على يونس ، والقول الآخر : « لا ينبغي لأحد أن يفضلني على يونس بن متى » كما قد ورد في بعض الأحاديث : « لا تفضلوني على الأنبياء ، ولا على يونس بن متى » ، وهذا منه ﷺ من آيات تواضعه وبيِّنات أخلاقه الكريمة ، وقد صدق حقاً فيه قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [1] .

وإلى هنا انتهى الحديث عن قصة سيدنا يونس عليه وعلى نبينا وعلى سائر الأنبياء أفضل الصلوات وأكمل التسليمات .

* * *

---

(١) القلم : ٤

قصة موسى عليه السلام وأحداثها وتطوراتها وما يتصل بها من عبر وآيات

هذه القصة يجمل بنا أن نستعرض حوادثها وأحداثها وجميع أطوارها وتطوراتها بقدر المستطاع ، لأنها على جانب كبير من الخطورة ، وعلى قدر عظيم من التقدير ، للظروف التي لابستها والأحوال التي أنشأتها وكوّنتها ، وجعلت منها عبراً وآيات تتحدث بها الأيام ، وتعتبر الأجيال تلو الأجيال ، وتتعظ الدهور ، وتستيقظ الأعصار والأزمنة .

فأعمال الجبابرة في ذلك العصر وأفعال الفراعنة في ذلك الزمن من أعظم الأمور خطراً وأروعها ظلماً وأشنعها استبداداً وأبشعها طغياناً وعتواً ، لأن فرعون ذلك الوقت كان أعتى الفراعنة وأكبرهم عناداً وأفظعهم كفراً وقساوة واستكباراً وفساداً وإفساداً .

* * *

● نسب سيدنا موسى عليه السلام :

أما نسبه عليه السلام فهو : موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، وقد قال أهل العلم بأخبار الأولين وسير الماضين : وُلِدَ ليعقوب عليه السلام لاوي وقد مضى من عمره تسع وثمانون سنة ، ثم إن لاوي تزوج بابنة بنت ماوي بن يشجب فولدت له عرسون ومرزي ومردي وقاهث ، ثم إن قاهث بعد أن مضى له من عمره ست وأربعون سنة تزوج فاهي بنت مبين بن تنويل بن إلياس فولدت له يصهر بن قاهث ، فنكح يصهر بن قاهث سميت بنت يتادم بن بركيا بن يشعان بن إبراهيم فولدت له عمران وقد مضى له من عمره ستون سنة ، وكان عمر يصهر وقتئذ مائة وسبعاً وأربعين سنة ، فنكح عمران بن يصهر نحيب بنت شمويل بن بركيا بن

يشعان بن إبراهيم فولدت له هارون وموسى عليها السلام ، واختُلفَ في اسم أمهما فقال ابن اسحاق : نجيب - وقيل ناجية ، وقيل بوخابيل - وهو المشهور، وهو ما قاله الثعلبي في كتابه قصص الأنبياء المسمى بعرائس المجالس ، وهو الذي جاء باسم يصهر في نسب سيدنا موسى ولم يذكره ابن كثير في كتابه المسمى قصص الأنبياء ، وقد كان عمر عمران حينما وُلدَ له موسى سبعون سنة . قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ في الكتَاب مُوسَى ، إنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وكَانَ رَسُولاً نَبيّاً * وَنَادَيْنَاهُ منْ جَانب الطُّور الأيْمَن وَقَرَّبْنَاهُ نَجيّاً * وَوَهَبْنَا لَهُ منْ رَحْمَتنَا أخَاهُ هَارُونَ نَبيّاً ﴾ [1] . جاء ذلك في سورة مريم ، وقد ذكره الله تعالى في مواضع كثيرة متفرقة من القرآن الكريم ، وذكر قصته في مواضع متعددة توحي بأعظم الآيات قدراً وأجلها عبراً وتأثيراً وأثراً ، وسنتكلم على ذلك بما يشفي صدور قوم مؤمنين .

* * *

• عرض القصة من القرآن مطولة ومفصلة :

وقد جاء في سورة القصص ذلك التفصيل قال تعالى : ﴿ طسم * تِلْكَ آيَاتُ الكتَاب المُبين * نَتْلُوا عَلَيْكَ من نَبَأ مُوسَى وَفرعَوْنَ بالحَقّ لقَوم يُؤمنُونَ* إنَّ فرْعَوْنَ عَلاَ في الأرْض وَجَعَلَ أهْلَهَا شيَعاً يَسْتَضْعفُ طَائفَةً منْهُمْ يُذَبّحُ أبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيي نسَاءَهُمْ ، إنَّهُ كَانَ منَ المُفْسدينَ * وَنُريدُ أنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذينَ اسْتُضْعفُوا في الأرْض وَنَجْعَلَهُمْ أئمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوَارثينَ * وَنُمَكّنَ لَهُمْ في الأرْض وَنُرِيَ فرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا منْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ [2] .. يذكر تعالى ملخص القصة ، ثم يبسطها بعد هذا إذ قال تعالى : إنه يتلو على نبيه خبر موسى وفرعون بالحق ، أي بالصدق الذي كأن سامعه مشاهد للأمر معاين له فقال معبراً عن ذلك : ﴿ إنَّ فرْعَوْنَ عَلاَ في الأرْض ﴾ أي : تجبر وعتا وطغى وبغى وآثر الحياة الدنياوأعرض عن

(١) مريم ٥١ - ٥٣ (٢) القصص : ١ - ٦

الرب العظيم وطاعته ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً ﴾ أي : قَسَّمَ رعيته إلى طوائف وفرق وأنواع ، يستضعف طائفة منهم - وهم شعب بني إسرائيل الذين هم من سُلالة نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض ، وقد سُلِّط عليهم هذا الطاغية الملك الظالم الكافر الفاجر يستعبدهم ويستخدمهم في أخسِّ الصنائع والحِرَف وأردأها وأدناها ، ومع هذا فكان ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ، وقد كان الباعث على هذا الصنيع القَبيح أن بني إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأثرونه عن إبراهيم عليه السلام من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه ، وكانت هذه البشارة مشهورة في بني إسرائيل ، فتحدث بها القبط فيما بينهم ووصلت إلى فرعون فذكرها له بعض أمرائه وخاصته وهم يسمرون عنده ، فأمر عند ذلك بقتل أبناء بني إسرائيل حذراً من وجود هذا الغلام وبقائه ، ولن يغني حذر من قدر .

وذكر السدِّي عن أبي صالح وأبي مالك عن ابن عباس وعن مُرَّة عن ابن مسعود وعن أناس من الصحابة : أن فرعون رأى في منامه كأن ناراً قد أقبلت من نحو بيت المقدس فأحرقت دور مصر وجميع القبط ولم تضر بني إسرائيل ، فلما استيقظ هاله ذلك المنام وأزعجه ، فجمع الكهنة والحذقة والسحرة وسألهم عن ذلك فقالوا : هذا غلام يُولد من هؤلاء يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه ، فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك البنات ، لكن الله تعالى لم يترك بني إسرائيل ولم يدعهم ينتقم منهم ذلك الكافر ويستعبدهم ويقتل أبناءهم، ولهذا أعرب عن هذا المعنى بقوله : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ ﴾[1] أي نمن على بني إسرائيل فنملكهم مصر ويؤول أمر بلادها إليهم ، فنجعل الضعيف قوياً

(١) القصص : ٥

والمقهور قاهراً والذليل عزيزاً ، وقد تحقق هذا كله لبني إسرائيل يوحى بذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾[2] . وسيأتي الكلام عن هذا مفصلاً في موضعه إن شاء الله تعالى .

وغير خاف أن المقصود من عمل فرعون الظالم واستبداده الغاشم الاحتياط من وجود ذلك الغلام على قيد الحياة والتخلص منه قبل أن تقوم له قائمة (ولكن الحذر لا يمنع قدراً) ، فإنه أقام رجالاً وقوابل يدورون على الحبالي ليعلموا ميقات وضعهن ، فلا تلد امرأة ذكراً إلا وذبحه أولئك الذبّاحون لوقته وساعته .

وهذا الأمر بالقتل لا لتضعف شوكة بني إسرائيل كما قالته الإسرائيليات فإنه باطل ، بل كان أمر قتل الغلمان لهلاك ذلك الغلام الذي رأى في منامه أن هلاك ملك مصر سيكون على يديه ، وذلك بعد بعثه إلى فرعون وقومه ، يدل لهذا قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ﴾[3] ، وأعربت بنو إسرائيل لموسى بذلك فقالوا : ﴿ أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾[4] .

والقدر يقول بلسان الحال : « يا أيها الملك الجبار المغرور بكثرة جنوده وقوة بأسه ومدى سلطانه ، قد حكم العظيم الذي لا يُغالَب في سابق علمه أن هذا المولود الذي تحتاط وتحذر منه ، وقد قتلت بسببه من النفوس ما لا يُعد ولا يُحصى ، لا يكون مَرْباه إلا في دارك وعلى فراشك ، ولا يُغَذّى إلا بطعامك وشرابك في منزلك ، وأنت الذي تتبناه وتربيه ، ولا تتفداه ولا تطلع على سر معناه ، ثم يكون هلاكك في دنياك وأخراك على يده لمخالفتك ما جاء به من

---

(1) الأعراف : ١٣٧
(2) الشعراء : ٥٧ – ٥٩
(3) غافر : ٢٥
(4) الأعراف : ١٢٩

الحق المبين ، وتكذيبك ما أوحى إليه لتعلم أنت وجميع الخلق أن رب السموات والأرض هو الفعّال لما يريد » .

وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن القبط شكوا إلى فرعون أن قتل أبنائهم الذكور بهذه الصورة يُخشى منه نقصاً كبيراً في الكبار ، فأمر فرعون بقتل الأبناء عاماً وأن يتركوا عاماً ، فذكروا أن هارون وُلدَ في عام المسامحة عن قتل الأبناء ، وأن موسى عليه السلام إنما وُلدَ في العام الذي أمرهم فيه بقتل أبناء بني إسرائيل ، فضاقت أمه بذلك الخبر المرّوع ذرعاً واحترزت من أول ما حملت به مع أنها لم يظهر بها مخايل ذلك الحمل طوال مدة حملها به ، فلما وضعت ألهمت أن تتخذ له تابوتاً وتجعله فيه ، فربطته في حبل - وقد كانت دارها متاخمة للنيل - فكانت تُرضعه وإذا أحسَّت بأحد وضعته في ذلك التابوت وأرسلته في النهر وأمسكت طرف الحبل عندها - فإذا ذهبوا استرجعته إليها وأرضعته ... وهكذا ، يرشد إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ، فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي ، إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ، إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ * وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ، لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾[1] .

وهذا الوحي الذي جاء ذكره في هذه الآية إنما هو وحي إلهام كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً ﴾[2] .. وليس هو وحي نبوة كما زعمه ابن حزم وغير واحد من المتكلمين ، بل الصحيح أنه وحي إلهام كما حكاه أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة والجماعة .

* * *

(١) القصص : ٧ - ٩ (٢) النحل : ٦٨ - ٦٩

• موسى وما حباه الله به من العناية وما رعاه بموفور الرعاية من بدء ولادته وما اسم أمه :

قال السهيلي : واسم أم موسى « أيا رخا » وقيل « أيا ذخت » ، والمقصود أنها أرشدت إلى ما ذكرناه ، ألقى في خلدها وروعها أن : ﴿ لاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي ﴾ فإنه إن ذهب بعيداً عنك وغاب عن نظرك ، فإن الله سيرده إليك ، وفضلاً عن ذلك فإن الله سيجعله نبياً مُرسلاً يُعلى كلمته في الدنيا والآخرة ، وعلى هدى ما ألقى في روعها من الاطمئنان عليه كانت تصنع كل ما أمرت به، فأرسلته ذات يوم إلى النهر وذهلت عن أن تربط طوق الحبل عندها كما اعتادت ذلك . فحملته أمواج النيل ، وبينما تدفع به الأمواج إذ مرت على دار فرعون ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُواً وَحَزَناً ﴾ قال بعضهم : إن اللام في قوله : ﴿ لِيَكُونَ ﴾ لام العاقبة وهو ظاهر إن كان متعلقاً بقوله : ﴿ فَالْتَقَطَهُ ﴾ ، وأما إن جُعِلَ متعلقاً بمضمون الكلام وهو أن آل فرعون قُيِّضُوا لالتقاطه ليكون لهم عدواً وحزناً ، صارت اللام مُعَلِّلة كغيرها ، ويقوي هذا التقدير قوله : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ﴾ وهو الوزير السوء ﴿ وَجُنُودَهُمَا ﴾ التابعين لهما ﴿ كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ أي : كانوا على خلاف الصواب وعلى غير هدى ، فاستحقوا لذلك ما حل بهم ولاقوه من العقوبة والحسرة .

وقد ذكر المفسرون أن الجواري التقطنه من النهر في تابوت مغلق عليه فلم يتجاسرن على فتحه حتى وضعنه بين يدي امرأة فرعون المؤمنة الجليلة « آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد »الذي كان فرعون مصر في زمن يوسف عليه السلام ، وقيل : إنها كانت من بني إسرائيل من سبط موسى ، وقيل : بل كانت عمته .

فلما فتحت الباب وكشفت الحجاب رأت وجهه يتلألأ بتلك الأنوار النبوية والجلالة الموسوية والإشراقات الربانية ، فما رأته ووقع نظرها عليه حتى أحبته

حباً شديداً ، وتمكن ذلك من قلبها ، ولما جاء فرعون ورآه عندها قال : ما هذا ؟ وأمر بذبحه ، فاستوهبته منه ودفعت عنه وقالت : ﴿ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ﴾ فقال لها فرعون : أما لك فنعم ، وأما لي فلا .. أي : فلا حاجة لي به .والبلاء موكل بالمنطق .

ولصدق نيتها وتحقق نور العاطفة المؤمنة منها قالت : ﴿ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا ﴾ وقد أنالها الله ما رجت من النفع . أما في الدنيا فقد هداها الله به ، وأما في الآخرة فأسكنها الله جنته بسببه ، ورضى عنها بدفعها السوء عنه ، وقد جعلها الله زوجاً له في دار النعيم المقيم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . ولم تقف عند قولها لفرعون : ﴿ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا ﴾ بل عمدت إلى أبعد من هذا إذ قالت : ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾ كل ذلك منها جلباً لعاطفة فرعون على هذا الوليد العظيم . إن كانت به عاطفة ، وقد حقق الله لها ما أرادت من أمل فقد تبنياه لأنه لم يكن يُولد له ولد ، قال تعالى : ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ أي : لا يدرون ماذا يريد الله بهم أن يُقَيِّضهم لالتقاطه من النقمة العظيمة بفرعون وجنوده .

* * *

• رد موسى إلى أمه بعد إلقائه في البحر والتقاط آل فرعون له :

ولما صار أمر موسى ليس في قبضة يدها ، فقد شغلها ذلك شديداً واشتد لهفها عليه وحركها بُعْدُه عنها ، وما وصل إليه أمره ، وانتهى إليه مصيره ولذلك قال تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً ، إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلاَ أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ *

فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [1] .

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو عبيدة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم : ﴿ وأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً ﴾ أى من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى ﴿ إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ والمعنى - والله أعلم - وقد كادت تظهر أمره من شدة قلقها عليه وتُبدي ذلك السر العظيم وتسأل عنه جهرة، ولولا أن الله تعالى ثبتها بالصبر وقوّى قلبها بنوره لتكون من المؤمنين لكشفت ذلك المستور ، وفضحت ذلك المكنون ، فوجهها توجيهاً عظيماً وأرشدها إرشاداً كريماً إذ قالت لأخته - وهى ابنتها الكبيرة : ﴿ قُصِّيهِ ﴾ أى: اقتفى أثره وتتبعيه واطلبي لي خبره ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ ﴾ أى : عن بعد . وقال قتادة : جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده ، ولذلك قال تعـالى : ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ وذلك لأن موسى عليه السلام لما استقر بدار فرعون تحت رعاية الله وعنايته أرادوا أن يغذُّوه برضاعة فلم يقبل ثدياً يرضع منه ولم يرد طعاماً يأكله، فحاروا في أمره وتاهوا في شأنه وحاولوا بكل الطرق أن يمكنوه من ذلك فلم يقبل ، يرشد إلى هذا قوله تعالى : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ المَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ ﴾ فأرسلوه مع القوابل والنساء إلى السوق لعلهم يجدون من يوافق على إرضاعه ، فبينما هم وقوف به ، والناس عكوف عليه ، إذ بصرت به أخته فلم تظهر لهم أنها تعرفه ، بل قالت : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ قال ابن عباس : لما قالت ذلك قالوا لها : ما يدريك بنصحهم وشفقتهم عليه ؟ فقالت : رغبة في سرور الملك ورجاء منفعته . فأطلقوها وذهبوا معهـا إلى منزلها ، فأخذته أمه ، فلما أرضعته التقم ثديها وأخذ يمتصه ويرتضعه ، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً وذهب البشير إلى « آسية » يعلمها بذلك، فاستدعتها إلى منزلها وعرضت عليها أن تكون عندها وأن تحسن إليها، فأبت ذلك وقالت:

(1) القصص : ٩ - ١٣

إن لي بعلاً وأولاداً ولست أقدر على هذا ، وإنما السبيل إليه أن تُرسليه معي لأقوم بمهمة إرضاعه ، فأرسلته معها ، ورتبت لها رواتب ، وأجرت عليها النفقات والكساوي والهبات ، فرجعت به تحوزه إلى دخلها ، وقد جمع الله شمله بشملها وقد أوحى الله إلى ذلك بقوله : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أى : كما وعدناها برده ورسالته ، فهذا رده ، وهو دليل صدق البشارة برسالته ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾

* * *

● موسى وامتنان الله عليه بهذه التطورات العظيمة الشأن :

وقد امتن الله على موسى بذلك ليلة كلَّمه فقد قال له فيما قال : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى * إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ، وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ﴾ [1] وذلك أنه كان لا يراه أحد إلا أحبه ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ [1] ، قال قتادة وغير واحد من السلف : أى تُطعَم وتُرفَّه وتُغذَّي بأطيب المآكل وتلبس أحسن الملابس بمرأى مني ، وذلك كله بحفظي وكلاءتي لك فيما صنعت بك ولك ، وقدَّرته من الأمور التي لا يقدر عليها غيري ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ ، فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ ، وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً ﴾ [2] .

* * *

---

(١) طه : ٣٧ - ٣٩

(٢) طه : ٤٠

• تفضله سبحانه عليه بالنبوة والرسالة والسبب الذي استدعى خروجه من مصر :

لما ذكر الله تعالى أنه أنعم برده لها وإحسانه إليها وامتنانه عليها بذلك ، أخذ يتحدث عنه من ناحية تفضله عليه بالنبوة والرسالة ، فذكر أنه لما بلغ أشده واستوى . وهو احتكام الخَلْق والخُلُق وذلك في سن الأربعين كما ذهب إليه الأكثرون ﴿ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً ﴾ وهو الرسالة التي كان قد بشر بها أمه إذ قال تعالى : ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾[1] وفي هذا قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾[2] ثم شرع سبحانه وتعالى في ذكر خروجه من مصر والباعث له على ذلك كما شرع يتحدث عن ذهابه إلى مَدْيَن وإقامته هنالك حتى قضى الأجل المضروب وانتهى الأمد المقصود ، وقد تحدَّث تعالى عن الباعث على الخروج من مصر بقوله : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا ﴾[3] ، والمدينة التي دخلها يقال لها « منف » قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة والسدي : وذلك نصف النهار ، وعن ابن عباس : بين العشاءين ، ﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ﴾[4] أي : يتضاربان ﴿ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ ﴾[5] أي : من شيعة موسى فهو إسرائيلي ﴿ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾[6] أي : قبطي من جنود فرعون وأنصاره ، ﴿ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ﴾[7] ، وذلك أن موسى عليه السلام كانت له بديار مصر صَوْلة بسبب نسبته إلى تبني فرعون له وتربيته في بيته وكانت بنو إسرائيل قد عَزُّوا وصارت لهم بذلك وجاهة وسلطان وارتفعت رؤوسهم بسبب أنهم أرضعوه وهم أخواله من الرضاعة . فلما استغاث ذلك الإسرائيلي موسى عليه السلام على ذلك القبطي أقبل إليه موسى ﴿ فَوَكَزَهُ ﴾[8] ، قال مجاهد : أي طعنه بجُمع كفه . وقال قتادة : بعصا كانت معه ﴿ فَقَضَى عَلَيْهِ ﴾[9] أي : فمات منها

---

(١) القصص : ٧ — (٢) القصص : ١٤ — (٣) القصص : ١٥
(٤) القصص : ١٥ — (٥) القصص : ١٥ — (٦) القصص : ١٥
(٧) القصص : ١٥ — (٨) القصص : ١٥ — (٩) القصص : ١٥

وقد كان كافراً مشركاً بالله تعالى ، على أن موسى ما كان يقصد قتله وإنما كان يريد زجره وردعه ، فجاء الأمر على عكس ما أراد وعلى خلاف ما يقصد ، ومع هذا قال موسى : ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ، إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ أي : من العز والجاه ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ * فَأَصْبَحَ فِي المَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ، قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ * فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ المُصْلِحِينَ * وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا المَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ المَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ ، قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[1] .

يخبر جل شأنه أن موسى أصبح بمدينة مصر خائفاً - أي من فرعون وملئه - أن يعلموا أن هذا القتيل الذي رُفِعَ إليه أمره إنما قتله موسى في نصرة رجل من بني إسرائيل فتقوى ظنونهم أن موسى منهم .

وبينما هو يسير في صبيحة ذلك اليوم بالمدينة ﴿ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ ﴾ أي : يتلفت ، إذا بذلك الرجل الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس يستصرخه : أي يصرخ به ويستغيثه على آخر قد قاتله فعنّفه موسى ولامه على كثرة شره ومخاصمته ولهذا قال له : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ .

ثم أراد أن يبطش بذلك القبطي الذي هو عدو له وللإسرائيلي فيردعه عنه ويخلصه منه ، فلما عزم على ذلك وأقبل على القبطي ﴿ قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ

---

(١) القصص : ١٥ - ٢١

أنْ تَقْتُلَني كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بالأمْسِ إنْ تُرِيدُ إلاَّ أنْ تَكُونَ جَبَاراً فِي الأرْضِ وَمَا تُرِيدُ أنْ تَكُونَ مِنَ المُصْلحِينَ ﴾ .

قال بعضهم : إنما قال الإسرائيلي هذا الكلام لموسى لأنه هو الذي اطلع على ما كان صنع موسى بالأمس فكأنه لما رأى موسى مقبلا إلى القبطي اعتقد أنه إنما جاء إليه لتعنيفه إياه قبل ذلك بقوله :﴿ إنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ فقال ما قال لموسى ﴿ أتُرِيدُ أنْ تَقْتُلَني كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بالأمْسِ ﴾ فأظهر بذلك الأمر الذي كان قد وقع من موسى على ذلك القبطي الذي قُتِلَ قبل ذلك ، فذهب القبطي الآخر فاستعدى فرعون على موسى ، وهذا الذي لم يذكر كثير من الناس سواه .

ويحتمل أن يكون قائل هذا ، أي قوله : ﴿ أتُرِيدُ أنْ تَقْتُلَني كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بالأمْسِ ﴾ . . هو القبطي الآخر ، وأنه لما رآه مقبلا إليه ورأى من حاله انتصاراً جديداً للإسرائيلي قال ما قال من باب الظن والفراسة : إن هذا لعله هو قاتل القتيل بالأمس ، أو لعله فهم من كلام الإسرائيلي حين استصرخه عليه ما وجهه إلى هذا ، والله أعلم بمراده .

وعلى كل حال ، فقد وصل إلى علم فرعون أن موسى هو قاتل ذلك المقتول بالأمس فأرسل في طلبه ، وسبقهم رجل صالح من طريق آخر أقرب إلى موسى من الطريق الذي سار فيه رُسُل فرعون إلى موسى ببذل النصح إليه ، ينطق بهذا قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أقْصَا المَدِينَة يَسْعَى ﴾ أي : ساعياً إليه مشفقاً عليه ﴿ قَالَ يَا مُوسَى إنَّ المَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ أي : فاخرج من هذا البلد فإني لك ناصح أمين فيما أقوله لك ، وتحقيقاً لذلك قال تعالى : ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ ﴾ أي : فخرج من مدينة مصر من فوره لا يهتدي إلى طريق ولا يعرفه قائلا : ﴿ رَبِّ نَجِّني مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

* * *

• خروجه إلى مَدْيَن وسيره إليها :

ما علم موسى أن فرعون يطلبه ليقتص منه حتى سارع بالخروج من مصر خائفاً يترقب ، أي يتلفت خشية أن يدركه أحد من قوم فرعون ، وهو لا يدري أين يتوجه ، ولا أين يذهب ، وذلك لأنه لم يخرج من مصر قبل ذلك : ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ ﴾[1] أي : اتجه له طريق يذهب فيه ، ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾[2] ، أي : عسى أن تكون هذه الطريق موصلة إلى المقصود ، وقد تم له ذلكَ فعلا ، فقد أوصلته إلى مقصود وأي مقصود .

إذ أنه لما انتهى إلى أرض مَدْيَن في ثمان ليال نزل في أصل شجرة ، وكان تحتها بئر وهي التي قال الله تعالى فيها :﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾[3] أي : تمنعان وتجلسان أغنامهما عن أن تختلط بأغنام الناس فقال لهما :﴿ مَا خَطْبُكُمَا ، قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ﴾[4] لأننا امرأتان ضعيفتان لا نقدر على مزاحمة الرعاء ، فإذا سقوا مواشيهم سقينا أغنامنا من فضول حاجتهم وما يبقى من حياضهم ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾[5] أي : وسبب عدم مباشرتنا ذلك أيضاً ضعف والدنا وكبره ، قال اللّه تعالى : ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾[6] فالرعاء كانوا إذا فرغوا من وِردهم وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة فتجيء هاتان المرأتان فَيُشْرِعان غنمهما في فضل أغنام الناس ، فلما كان ذلك اليوم جاء موسى فرفع تلك الصخرة وحده ، ثم استسقى لهما وسقى غنمهما ثم رد الحجر كما كان . قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : وكان لا يرفعه إلا عشرة ، وإنما استسقى ذَنوباً واحداً فكفاهما ، فرجعتا إلى أبيهما قبل الناس ، وتولى موسى إلى الظل قالوا : وكان ظل من السَّمُر ، وروى جرير عن ابن مسعود أنه رآها خضراء تَرِف

(١) القصص : ٢٢ (٢) القصص : ٢٢ (٣) القصص : ٢٣
(٤) القصص : ٢٣ (٥) القصص : ٢٣ (٦) القصص : ٢٤

فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾[1] ، ومَدْيَن هذه هى المدينة التي أهلك الله فيها أصحاب الأيكة ، وهم قوم شعيب عليه السلام ، وقد كان هلاكهم قبل زمن موسى عليه السلام في أحد قولي العلماء .

قال ابن عباس : سار من مصر إلى مَدْيَن لم يأكل إلا البُقل وورق الشجر ، وقد كان حافياً فسقطت نعلا قدميه من الحفاء وجلس إلى الظل وهو صفوة الله من خلقه ، وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع ، وإن خضرة البُقل لتُرى من داخل جوفه ، وإنه لمحتاج إلى شقِّ تمرة .

قال عطاء بن السائب : لما قال :﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ أسمع المرأة ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ، فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لاَ تَخَفْ ، نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ، إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ * قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ، فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ، سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ، أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ ، وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾[2] .

نعم . . إنه لما جلس عليه السلام في الظل وقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ سمعته المرأتان – فيما قيل – فذهبتا إلى أبيهما ، فيقال إنه استنكر عودتهما بسرعة فأخبرتاه بما كان من أمر موسى عليه السلام فأمر إحداهما أن تذهب إليه فتدعوه : ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴾ أى : إنها تمشي مشى الحرائر . ﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِي

(١) القصص : ٢٤ (٢) القصص : ٢٥ – ٢٨

يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ صرحت له بهذا لئلا يوهم كلامها ريبة ، وهذا من تمام حيائها وكمال صيانتها ، ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ القَصَصَ ﴾ أى : أخبره الخبر ، وما كان من أمره في خروجه من بلاد مصر فراراً من فرعونها ، قال ذلك الشيخ : ﴿ لاَ تَخَفْ ، نَجَوْتَ مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ، أى خرجت من سلطانهم فلست في دولتهم .

وقد اختلفوا في هذا الشيخ من هو ؟ فقيل : هو شعيب عليه السلام ، وهذا هو المشهور عند كثيرين ، نص عليه الحسن البصري ومالك بن أنس ، وهذا هو الذي ينبغي أن تتجه إليه القلوب ، بل وهى متجهة إليه فعلاً ، وأن يتوجه إليه ظاهر الآيات . وصرَّح طائفة بأن شعيباً عليه السلام عاش عمراً طويلاً بعد هلاك قومه حتى أدركه موسى عليه السلام وتزوج بابنته ، ولما أضاف موسى شعيباً وأكرم مثواه وقَصَّ عليه من أمره كما قلنا آنفاً بشَّره بأنه قد نجا فعند ذلك قالت إحدى البنتين لأبيها : ﴿ يَا أبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ﴾ أى : لرعى غنمك ، ثم أخذت تمدحه بأنه قوي أمين .

قال عمر وابن عباس وشريح القاضي وأبو مالك وقتادة ومحمد بن إسحاق وغير واحد : لما قالت ذلك ، قال لها أبوها : وما علمك بهذا ؟ . فقالت : إنه رفع صخرة لا يطيق رفعها إلا عشرة ، وأنه لما جئت معه تقدمت أمامه فقال : كوني من ورائي ، فإذا اختلف الطريق فاجْذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق .

قال ابن مسعود : أفرس الناس ثلاثة : صاحب يوسف حين قال لامرأته : ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾[1] ، وصاحبة موسى حين قالت : ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ، إنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ القَوِيُّ الأمِينُ ﴾ [2] وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب .

---

(١) يوسف : ٢١ (٢) القصص : ٢٦

ولما قالت ابنة شعيب لأبيها شعيب : ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ﴾ . . قال : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ، فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ، سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١) .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا يحيى بن عبدالله بن بكر ، حدثني ابن لهيعة . وحدثني أبو زرعة ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد حدثنا عبدالله بن لهيعة عن الحارث بن يزيد الحضرمي عن عليّ ابن رباح اللخمي قال : سمعت عتبة بن المنذر السُّلمي صاحب رسول الله ﷺ يُحَدِّث أنّ رسول الله ﷺ قال : « إن موسى عليه السلام آجر نفسه بعفة فرجه وطُعمة نفسه » ، ثم قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ، أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ ، وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾(٢) . يقول : إن موسى قال لصهره : الأمر على ما قلتُ فأيهما قضيتُ فلا عدوان عليّ والله على مقالتنا سامع وشاهد ووكيل عليّ وعليك ، ومع هذا فلم يقض موسى إلا أكمل الأجلين وقد أتمهما وهو عشر سنين كاملة تامة .

قال البخاري : حدثنا محمد بن عبد الرحيم ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا مروان بن شجاع عن سالم بن الأفطس عن سعيد بن جبير قال : سألنى يهودى من أهل الحيرة : أى الأجلين قضى موسى ؟ فقلت : لا أدرى حتى أقدم على حَبْر العرب فأسأله ، فقدمت فسألت ابن عباس فقال : « قضى أكثرهما وأطيبهما ، إن رسول الله إذا قال فعل » ، تفرد به البخاري من هذا الوجه ، وقد رواه البخاري في حديث الفتون كما سيأتي من طريق القاسم بن أبي أيوب عن سعيد بن جبير به ، وقد رواه ابن جرير عن أحمد بن محمد الطوسي وابن أبي حاتم عن أبيه وكلاهما عن الحميدي عن سفيان بن عيينة : حدثني

(١) القصص : ٢٧ (٢) القصص : ٢٨

إبراهيم بن يحيى بن أبي يعقوب عن الحكم بن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « سألت جبريل : أي الأجلين قضى موسى ؟ قال : أتمهما وأكملهما » . وإبراهيم بن يحيى بن يعقوب هذا غير معروف إلا بهذا الحديث ، وقد رُوِيَ من عدة طرق أخرى ، ورواه البزّار وابن أبي حاتم من طريق عبدالله بن لَهيعةَ بن الحارث بن يزيد الحضرمي عن عليّ بن رباح عن عتبة بن النُّذُر أن رسولَ الله ﷺ قال : « إن موسى آجر نفسه بعفة فرجه وطعام نفسه فلما وفي الأجل » قيل : يارسول الله أي الأجلين ؟ قال : « أبرهما وأوفاهما » .

* * *

● موسى بعد قضاء الأجل :

لما تزوج موسى بابنة شعيب وكانت الصغرى ، وأراد فراق شعيب أمرها أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به ، فأعطاها ما ولدت غنمه من قالب لون . وقالب لون : على غير لون أمها من ولد ذلك العام ، وكانت غنمه سوداء حساناً فانطلق موسى عليه السلام إلى عصا قَسَمهَا من طرفها ثم وضعها في أدنى الحوض ، ثم أوردها فسقاها ، ووقف موسى عليه السلام بإزاء الحوض فلم يصدر منها شاة إلا ضرب جنبها شاة شاة قال : فأتأمت وألبنت [1] ووضعت كلها قوالب ألبان ، إلا شاة أو شاتين فيها ليس فيها فشوش ولا ضبوب ولا عزوز ولا ثعول ولا كموش تفوت الكف قال النبي ﷺ : « لو افتتحتم الشام لوجدتم بقايا تلك الغنم وهى السامرية » قال ابن لَهِيعة : الفشوش واسعة الشُّخْب[2] ، والضَّبُوب طويلة الضرع تجره ، والعَزُوز ضعيفة الشُّخْب ، والثَّعُول الصغيرة الضرع كالحلمتين ، والكَموش التي لا تُحكم الكف على ضرعها لصغره .

وفي صحة رفع هذا الحديث نظر ، وقد يكون موقوفاً كما قال ابن جرير : حدثنا محمد بن المثني ، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثنا أبي عن قتادة ، حدثنا أنس بن

---

(١) أي فأغنت وأنثت .　　(٢) الشخب : ما يخرج من الضرع من اللبن .

مالك قال : « لما دعا نبي الله موسى صاحبه إلى الأجل الذي كان بينهما قال له صاحبه : كل شاة ولدت على غير لونها فلك ولدها ، فعمد موسى فوضع خيالاً على الماء ، فلما رأت الخيال فزعت فجالت جولة ، فوضعت كلهن بُلْقاً إلا شاة واحدة ، فذهب بأولادهن كلهن ذلك العام » ، وهذا إسناد جيد . رجاله ثقات ،

ولما أتم موسى الأجل الذي تعهد القيام به أخذ في الرحيل عن مَدْيَن ، يدل على هذا قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً ، قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَامُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ، فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ ، يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ ، إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ * اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ، فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلاَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾[1].

* * *

● خروجه من مدين وسفره بأهله إلى بلاد مصر والآيات التي تجلت له في الطريق إليها :

وقد أشرنا فى كلامنا إلى أن موسى قضى أتم الأجلين وأكملهما وأوفاهما ، وقد يؤخذ هذا من قوله : ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ ﴾ ، وعن مجاهد : أنه أكمل عشراً وعشراً بعدها . وقوله تعالى : ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ أى : خرج بهم من عند صهره زاعماً فيما ذكره غير واحد من المفسرين وغيرهم أنه اشتاق إلى أهله قاصداً زيارتهم ببلاد مصر في صورة مختف حتى لا يشعر به أهل القتيل الذي خرج خائفاً منهم ، فلما سار بأهله ومعه وِلْدَان منهم وغنم قد حصل عليها واستقاها

(١) القصص : ٢٩ - ٣٢

مدة مقامه بينهم ، وقد اتفق عند خروجه والسير بأهله أنه كان في ليلة مظلمة باردة وضلوا الطريق فلم يهتدوا إليها وتاهوا في الدرب المألوف والسلوك إليه ، وجعل يُورى زناده فلم يُورِ شيئاً واشتد الظلام وتضاعف البرد ، وبينما هو كذلك إذ أبصر عن بُعْد ناراً تأجَّجَ في جانب الطور وهو الجبل الغربي منه عن يمينه ﴿ قَالَ لأَهْلِه امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً ﴾ وكأنه والله أعلم رآها دونهم لأن هذه النار ليست ناراً على الحقيقة ، وإنما هي نور ولا يراها كل أحد ، ولا تصلح لأن يراها إلا الذين كُشِفَتْ عنهم الحُجُب كالأنبياء والمرسلين ومن سار على هداهم ، واهتدى بهديهم ، ونهج نهجهم ، وقد أمرها بالانتظار قائلا : ﴿ لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ أي : لعلي أقف من عندها وأهتدى إلى الطريق ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ أي : تجدون الدفء منها فتطرد ما تجدون من شدة البرد ووقعه ، وهذا يدل على أنهم كانوا قد تاهوا عن الطريق وضلوا السبيل ، وذلك في ليلة باردة ومظلمة ، يشهد لذلك قوله في الآية الأخرى في سورة طه : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لأَهْلِه امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدَىً ﴾[1] ، فدلت هذه الآية على وجود الظلام وعلى كونهم تاهوا عن الطريق ، وقد جمع الكل في سورة النمل في قوله : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لأهله إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾[2] ، وقد آتاهم منها بخبر وأي خبر ، ووجد عندها هدى وأي هدى ، واقتبس منها نوراً وأي نور ، يهدي إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الوَادِ الأَيْمَنِ فِي البُقْعَةِ المُبَارَكَةِ مِنَ الشَجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ ﴾[3] . وقال في سورة النمل : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾[4] أي : سبحان الله الذي يفعل ما يشاء

(١) طـه : ٩ - ١٠ .
(٢) النمل : ٧
(٣) القصص : ٣٠ .
(٤) النمل : ٨

ويُحكم ما يريد ، ﴿ يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ [١] ، وقال في سورة طه : ﴿ فَلَمَّا آتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ، إِنكَ بِالوَادِ المُقَدَّسِ طُوىً * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَي * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِى * إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَي كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى * فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَي ﴾ [٢] .

قال غير واحد من المفسرين من السَلَف والخَلَف : لما قصد موسى إلى تلك النار التي رآها فانتهى إليها وجدها تأجّج في شجرة خضراء من العوسج [٣] وكل ما لتلك النار في اضطرام ، وكل ما لخضرة تلك الشجرة في ازدياد فوقف متعجباً وكانت الشجرة في لَحفَ جبل غربي منه عن يمينه كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [٤] . وقد كان موسى في ذلك الوقت في واد اسمه « طوى » ، فكان موسى مستقبل القبلة وتلك الشجرة عن يمينه من ناحية الغرب فناداه ربه بالوادي المقدس « طُوىً » ، فأمر أولا بخلع نعليه تعظيماً وتقديراً وتوقيراً لتلك البقعة المباركة ولا سيما في تلك الليلة المباركة التي سمع فيها مناجاة ربه له ، ثم خاطبه تعالى كما يشاء قائلا له : ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ ﴾ [٥] أى : إنني أنا رب العالمين الذي لا إله إلاّ هو الذي لا تصلح العبادة وإقامة الصلاة إلاّ له ، ثم أخبره جل ذكره أن هذه الدنيا ليست بدار قرار ، وإنما الدار الباقية التي لا بد من كونها ووجودها ولا ريب في تحققها هو يوم القيامة ، يوم تُجزي كل نفس بما تسعى ، أى من خير أو شر ، وقد وجهّهُ وحثّهُ على العمل لذلك اليوم المشهود ومجانبة من لا يؤمن

---

(١) النمل : ٩ (٢) طه : ١١ - ١٦ (٣) العوسج : الشوك .
(٤) القصص : ٤٤ (٥) القصص : ٣٠

بها ممن اتبع هواه وعصى مولاه . ثم قال له مخاطباً ومؤانساً ومبيناً له أنه القادر على كل شيء ، الذي يقول للشيء كن فيكون : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾[1] أي : أما هذه عصاك التي تعرفها منذ صحبتها ؟ ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴾[2] ، أي : بل هذه عصاى التي أعرفها وأتحققها ، ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾[3] وما من شك في أن هذا أمر خارق للعادة وبرهان عظيم قاطع ودليل ساطع على أن الذي يكلمه هو الذي ﴿ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[4] ، وأنه الفعّال لما يُريد ، وعند أهل الكتاب : أنه سأل ربه برهاناً صادقاً على صدقه عند من يكذبه من أهل مصر . فقال له الرب عز وجل : ما هذه التي في يدك ؟ قال : هى عصاى . قال : ألقها إلى الأرض ﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾ ، فهرب موسى من منظرها ، فأمره الرب عز وجل أن يبسط يده ويأخذها بذنبها ، فلما استمكن منها انقلبت في يده عصا كما كانت .

وقد قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ، فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّي مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾[5] . أى : قد صارت حية عظيمة لها ضخامة هائلة وأنياب تُصَلُّ وهى مع ذلك في سرعة الجان - وهو نوع من الحيات يقال له « الجان والجنان » وهو لطيف ولكن سريع الاضطراب والحركة جداً - فلما شاهدها موسى بتلك الصورة وعاينها على تلك الضخامة والسرعة ﴿ وَلَّي مُدْبِراً ﴾ أى : هارباً منها ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أى : ولم يلتفت إليها . فناداه ربه قائلا له : ﴿ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ ، إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ ﴾[6] فلما رجع أمره اللهُ أن يمسكها وأن يطمئن إليها ، إذ يوجه إليه هذا الأمر فيعبر عنه بهذا :

---

(١) طـه : ١٧ (٢) طـه : ١٨ (٣) طـه : ١٩ - ٢٠.
(٤) يـس : ٨٢ (٥) القصص : ٣١ (٦) القصص : ٣١

﴿ قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ ، سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُوْلَى ﴾[1] . فيقال إنه هابها شديداً ، ثم أمره جل شأنه بإدخال يده في جيبه ، ثم أمره بنزعها ، فإذا هي تتلألأ كالقمر بياضاً من غير سوء ، أي من غير بَرَصٍ ولا بَهَقٍ ولهذا قال : ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ﴾[2] قيل : معناه إذا خِفْتَ فضع يدك على فؤادك يسكن جأشك . وهذا وإن كان خاصاً به إلاّ أن بركة الإيمان به ينفع من استعمل ذلك على وجه الاقتداء بالأنبياء . وكذلك قال في سورة النمل : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ، فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾[3] . أي : وهاتان الآيتان اللتان هما العصا واليد هما البرهانان المشار إليهما في قوله تعالى : ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾[4] . وهناك سبع آيات أخرى غير هاتين الآيتين ، وهي : الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والسنين والبحر ونقص من الثمرات ، فهذه تسع آيات بينات لا تدع مجالاً للشك ، وقد أرشد إليها قوله تعالى في آخر سورة الإسراء بقوله :﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ، فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَامُوسَى مَسْحُوراً * قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَافِرْعَوْنَ مَثْبُوراً ﴾[5] . وهي المبسوطة في سورة الأعراف في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُم يَذَّكَّرُونَ * فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ، أَلاَ إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا

(1) طـه : 21 (2) القصص : 32 (3) النمل : 12
(4) القصص : 32 (5) الإسراء : 101 - 102

بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴾[1]
وسيأتي التحدث عن ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى .

فهذه الآيات التسع غير الكلمات العشر ، فإن التسع الآيات من كلمات الله القدرية ، والعشر من كلماته الشرعية ، وقد أشرنا إلى التسع الآيات ونشير هنا إلى العشر الكلمات التي هي : « أن لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلاّ بالحق ، ولا تسرقوا ، ولا تسحروا ، ولا تمشوا ببريء إلى سلطان فيقتله ، ولا تأكلوا الربا ، ولا تقتلوا محصنة ، ولا تفروا من الزحف » ، وقد نبهنا إلى ذلك لكي يتضح الفرق بينهم ولا يختلط على الناس أمرهم .

والمقصود من ذلك : أن الله سبحانه لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون قال : ﴿ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُون * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونَ * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ، بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾[2] يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى عليه السلام في جوابه إليه حين أمره بالذهاب إلى عدوه وعدو رسوله الذي اضطره إلى الخروج من مصر فراراً من ظلمه وطغيانه ، حين كان من أمره ما كان من قتله ذلك القبطي إذ يقول : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُون * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ ، أي : اجعله معي معيناً ورداءً ووزيراً يساعدني ويعينني على أداء رسالتك إليهم وتبليغها لهم ، فإنه أفصح مني لساناً وأبلغ بياناً . فقال الله تعالى مجيباً إلى سؤاله عليه

(١) الأعراف : ١٣٠ - ١٣٣ (٢) القصص : ٣٣ - ٣٥

السلام : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً ﴾ : أي برهاناً ، ﴿ فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ : أي فلا ينالون منكما مكروهاً بسبب قيامكما ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ وتبليغ رسالتنا إليهم ﴿ أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الغَالِبُونَ ﴾ (١).

وقال في سورة طه : ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾(٢) ، قيل : إنه أصابه في لسانه لثغة بسبب تلك الجمرة التي وضعها على لسانه حين أراد فرعون اختبار عقله ، لما أخذ بلحيته وهو صغير فَهَمَّ بقتله واعترضه « آسية » في ذلك خوفاً عليه ، إذ قالت لفرعون : إنه طفل فاختبره بوضع تمرة وجمرة بين يديه حتى يتبين لك مدى عقله ، فلما هَمَّ بأخذ التمرة صرفه الملك إلى الجمرة فقام بأخذها فوضعها على لسانه فأصابته تلك اللثغة بسبب ذلك ، فسأل ربه زوال بعضها بمقدار ما يفهمون قوله . قال الحسن البصري : والرسل إنما يسألون بحسب الحاجة ولهذا بقيت في لسانه بقية .

يعيب عليه فرعون - لعنه الله - فيما زعم بقوله تعالى حاكياً عنه : ﴿ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ ﴾(٣) : أي لا يكاد يفصح عن مراده ويعبِّر عما في ضميره وفؤاده .

ثم جعل موسى عليه السلام يسأل ربه فيقول : ﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً * وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾(٤) فاستجاب الله له سؤله بقوله : ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾ وقد جاء ذلك في سورة طه ، والمعنى الذي تدل عليه هذه الآية : قد أجبناك إلى جميع ما سألت وأعطيناك الذي طلبت ، وهذا يدل

(١) القصص : ٣٥
(٢) طه : ٢٤ - ٢٨
(٣) الزخرف : ٥٢
(٤) طه : ٢٩ - ٣٦

على ما له من وجاهة عند ربه وتقدير عند مولاه ، كما يدل على مدى تقديره وعظم وجاهته ما كان من شفاعته وعلو قدره حين شفع أن يُوحى الله إلى أخيه ، فأوحى الله إليه وفي ذلك التقدير والإجلال له عليه السلام وذلك قوله تعالى : ﴿ وكَانَ عِنْدَ اللَّه وَجِيهاً ﴾[1] ، وقال في سورة مريم : ﴿ ووَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيَّاً ﴾[2] .

وقد سمعت عائشة أم المؤمنين رجلا يقول لأناس وهم سائرون في طريق الحج : أيُّ أخ أمَنُّ على أخيه ؟ فسكت القوم . فقالت عائشة لمن حول هودجها : هو موسى بن عمران حين شفع في أخيه هارون فأوحى إليه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً ﴾ .

وكما أمره في سورة طه بقوله : ﴿ اذْهَبْ إلَى فِرْعَوْنَ إنَّهُ طَغَى * قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ . . فكذلك وجَّه إليه سبحانه نداء يأمره بالقيام إلي قوم فرعون وظلمتهم ليدعوهم إلى ربهم وتوحيد خالقهم إذ يقول تعالى في سورة الشعراء : ﴿ وإذْ نَادَي رَبُّكَ مُوسَى أن ائْت القَوْمَ الظَّالمينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ ألاَ يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إنِّي أخَافُ أنْ يُكَذِّبون * وَيَضيقُ صَدْرِي وَلاَ يَنْطَلِقُ لسَاني فَأَرْسِلْ إلَى هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأخَافُ أنْ يَقْتُلُون * قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بآيَاتِنَا ، إنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ * فَأْتِيَا فِرْعَوْن فَقُولاَ إنَّا رَسُولُ رَبِّ العَالَمينَ * أنْ أرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إسْرَائِيلَ * قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعلتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأنْتَ مِنَ الكَافِرِينَ ﴾[3] .

وتقدير الكلام : فأتياه فقالا له ذلك وبلغاه ما أرسلا به من دعوته إلى الله تعالى وعبادته وحده لا شريك له ، وأن يَفُكَّ أساري بني إسرائيل من قبضته وقهره واستعباده لهم ، وأن يتركهم يعبدون ربهم حيث شاءوا ويتفرغون لتوحيده ودعائه والتضرع إليه . فتكبَّر فرعون في نفسه وعتـا عتواً كبيراً وطغى طغياناً

---

(١) الأحزاب : ٦٩ (٢) مريم : ٥٣ (٣) الشعراء : ١٠ - ١٩

مبيناً ، وقد نظر إلى موسى بعين الازدراء والتنقص قائلا له : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ أى : أما أنت الذي ربيناه في منزلنا وأحسنا إليه مدة من الدهر ؟ ، وهذا يدل على أن فرعون الذي بُعث إليه هو الذي فرَّ منه ، خلافاً لما زعمه أهل الكتاب من أن فرعون الذي فرَّ منه مات في مدة مقامه بمَدْيَن ، وأن فرعون الذي بُعثَ إليه فرعون آخر ، وهذا بعيد عن الصواب والواقع ، وقول فرعون لموسى : ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الكَافِرِينَ ﴾ يريد : وقتلت الرجل القبطي وفررت منا وجحدت نعمتنا عليك ، ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾[1] أى : فعلت تلك الفعلة التي فعلتها قبل أن يُوحَي إليَّ وينزل الوحي عليَّ ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حُكماً وجعلني من المرسلين .

وقد رد موسى على فرعون فيما يتصل بامتنانه عليه من التربية والإحسان إليه مدة نزوله فيهم وإقامته بينهم بقوله : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾[2] يقول موسى لفرعون : وهذه النعمة التي ذكرت من أنك أحسنتَ إليَّ وأنا رجل واحد من بني إسرائيل تقابل ما استخدمت هذا الشعب العظيم واستعملتهم في مآربك واستعبدتهم في أعمالك وما تهوى نفسك وما تدعو إليه أشغالك ، فتسترق من شئت ، وتقتل من شئت ، وتنتزع منهم أبناءهم .

* * *

● المناظرة والمحاجة التي دارت بين موسى وفرعون :

قامت المناظرة بين موسى عليه السلام وبين فرعون - قبحه الله - واحتدم الجدل واشتدت المحاجة والتهب الصراع بين الحق والباطل ، ولكن الله ينصر رسله ويؤيدهم بروح منه على أعدائه وأعدائهم ، ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى البَاطِلِ

---

(١) الشعراء : ٢٠ . (٢) الشعراء : ٢٢

فَيَدْمَغُهُ فإذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾[1] .. ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ العَالَمِينَ ﴾؟[2] لأن موسى وهارون قالا له : ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾[3] فوجّه إليه هذا السؤال . ﴿ قَالَ رَبُّ السَّمٰوات والأرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، إنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾[4] قال فرعون لمن حوله من ملئه : ﴿ ألاَ تَسْتَمِعُونَ ﴾ [5] إنكاراً لما قالَ موسى : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأوَّلِينَ ﴾ [6] . قال فرعون : ﴿ إنَّ رَسُولَكُمُ الَّذي أُرْسِلَ إلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [7] يعني : ما هذا بكلام يصدر من رجل صحيح العقل إذ يزعم أن لكم إلهاً غيري ، قال موسى : ﴿ رَبُّ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، إنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [8] .

يذكر تعالى بهذا ما كان بين موسى وفرعون من المقاولة والمحاجة والمناظرة وما أقامه الكليم على فرعون اللئيم من الحجة العقلية المعنوية ثم الحسية .

وذلك أن فرعون – لعنه الله – أظهر جحد الصانع تبارك وتعالى وأعلن إنكار الرب جل شأنه وزعم أنه الإله ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أنَا رَبُّكُمُ الأعْلَى ﴾ [9] ، ثم أعلن وقال : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إلٰهٍ غَيْرِي ﴾ [10] وهو في هذه المقالة معاند إذ هو يعلم أنه عبد مربوب ، وأن الله هو الخالق البارىء المصور الإله الحق كما قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُفْسِدِينَ ﴾ [11] .

ولهذا قال لموسى عليه السلام على سبيل الإنكار لرسالته والإظهار لنفسه أنه ما ثَمّ ربٌّ أرسله : ﴿ وَمَا رَبُّ العَالَمِينَ ﴾ ؟[12] لأنهما قالا له كما قلنا : ﴿ إنَّا رَسُولُ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ فكأنه يقول لهما : ومن رب العالمين ، الذي تزعمان

---

(1) الأنبياء : ١٨ | (2) الشعراء : ٢٣ | (3) الشعراء : ١٦
(4) الشعراء : ٢٤ | (5) الشعراء : ٢٥ | (6) الشعراء : ٢٦
(7) الشعراء : ٢٧ | (8) الشعراء : ٢٨ | (9) النازعات : ٢٣ – ٢٤
(10) القصص : ٣٨ | (11) النمل : ١٤ | (12) الشعراء : ٢٣

أنه أرسلكما وابتعثكما ؟ فأجابه موسى قائلا : ﴿ رَبُّ السَّمَوات وَالأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا ، إنْ كُنتُمْ مُوقنِينَ ﴾ يعني رب العالمين خالق هذه السموات والأرض المشاهدة وما بينهما من المخلوقات المتعددة من السحاب والرياح والمطر والنبات والحيوانات التي يعلم كل موقن أنها لم تحدث بأنفسها بل لا بد لها من مُوجد ومُحدث وخالق ، وهو الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين ، قال – أي فرعون – لمن حوله من أمرائه ووزرائه وسواهم على سبيل التهكم والتنقص لما قرره موسى عليه السلام :﴿ ألاَ تَسْتَمِعُونَ ﴾ ؟ يقصد ألا تستمعون كلامه هذا . قال موسى مخاطباً له ولهم : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الأوَّلِينَ ﴾ أي : هو الذي خلقكم والذين من قبلكم من الآباء والأجداد والقرون التي سبقتكم ، فإن كل أحد يعلم أنه لم يخلق نفسه ولا أبوه وأمه ولا يحدُث من غير محدث ، وإنما أوجده وخلقه رب العالمين ، وهذان المقامان هما المذكوران في قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ ﴾ [1] . ومع قيام هذه الأدلة والبراهين القاطعة فإن اللعين فرعون لم يستفق من رقدته ولم يستيقظ من غفلته ولم ينزع عن ضلالته ، بل استمر على طغيانه وظل في عتوه وعناده وكفرانه ..﴿ قَالَ إنَّ رَسُولَكُمُ الَّذي أُرْسِلَ إلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، إنْ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [2] أي : هو المُسَخِّر لهذه الكواكب الزاهرة المُسَيِّر للأفلاك الدائرة ، خالق الظلام والضياء ورب الأرض والسماء ، رب الأولين والآخرين ، خالق الشمس والقمر والكواكب السائرة والثوابت الحائرة ، خالق الليل بظلامه ، والنهار بضيائه والكل تحت قهره وتسخيره ، وفي فلك يسبحون ، يتعاقبون في سائر الأوقات ويدورون في جميع الأزمان والساعات ، فهو القاهر فوق عباده ، المالك المتصرف في خلقه بما يشاء، وهو على كل شيء قدير .

* * *

(١) فصلت : ٥٣

(٢) الشعراء : ٢٧ – ٢٨

● معجزات النبوة وبراهينها :

فلما قامت الحجج على فرعون وملئه ومَنْ حولهم ، وانقطعت شبهه التي يزعمها ولم تبق له حجة سوى العناد ، عدل إلى استعمال سلطانه ، وفرض ظلمه وقساوته ﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ (١).

فهذان هما البرهانان اللذان أيده الله بهما وهما العصا واليد ، وذلك مقام أظهر فيه الخارق العظيم الذي بهر به العقول والأبصار ، ولِمَ لَمْ تندهش العقول وتحار الأفكار وقد ألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين أي : عظيم الشكل ، رائع الضخامة والهول والمنظر الفظيع الباهر ، حتى قيل إن فرعون لما شاهد ذلك وعاينه أخذه رهب شديد وذعر عظيم أحدث عنده أمراً غير طبيعي خشي منه على نفسه وخاف عاقبته إذ صار يتبرز في اليوم أربعين مرة بعد أن كان لا يتبرز في الأربعين يوماً إلا مرة واحدة ، ولم يقف البرهان عند هذه الآية ، فقد أظهر آية أخرى رائعة التقدير ، تلك الآية هي أنه أدخل يده في جيبه ولما استخرجها أخرجها كفلقة القمر ، تتلألأ نوراً يبهرَ الأبصار ويأخذ بالألباب ، فإذا أعادها في جيبه رجعت إلى حالتها الأولى وإلى ما كانت عليه .

ومع ذلك فلم ينتفع بما قدّمه له موسى من آيات ، ولم يتأثر بهذه المعجزات بل استمر في إنكاره وبقي على عناده وطغيانه ، وأظهر أن هذا سحر ولا بد من معارضته بسحر مثله . فعمد إلى جمع سحرة مملكته ، وعمل على إحضارهم من شرق البلاد وغربها ممن هم تحت قهره وفي محيط سلطانه ودائرة استبداده واستعباده - كما سيأتي في بسط ذلك في موضعه من إظهار الله الحق وإقامة الحجة القاطعة على فرعون وملئه ، وأهل ملته ودولته ، ممن اتبعوه واستولى عليهم ضلاله وإضلاله .

---

(١) الشعراء : ٢٩ - ٣٣

وقد ذكّر الله موسى بما له عليه من فضل مدة مقامه بمَدْيَن ومصاحبته عنايته به ، ورعايته له حين عودته إلى مصر ووجّهَهُ إلى وجوب الأخذ بما كلّمه به ليلة أوحى إليه وأكرمه بجلال النبوة من أخذ فرعون بالقول اللين وعدم استعمال الجدل العنيف معه لعله يتعظ ويعود إلى الحق المبين . وذلك كله لتوجيه الناس وتربيتهم على التعامل اللين واتخاذ المسلك السياسي في جميع التصرفات والمعاملات الدينية والدنيوية ، وإن كان خاصاً في الأصل بتذكير فرعون وملئه بآيات ربه وسلوك هَديه وهُداه ، قال تعالى في سورة طه : ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى * وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي * اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي * اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى * قَالاَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لاَ تَخَافَا ، إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾[1] .

نعم .. إنه تعالى يخاطب نبيه موسى عليه السلام فيما كلّمه حين أوحى إليه وأنعم بالنبوة عليه ويوجّهه له من العناية بشأن والاهتمام بأمره : قد كنت مشاهداً لك وأنت في دار فرعون فقد كنت تحت كنفي وحفظي ولطفي ، ثم أخرجتك من أرض مصر إلى أرض مَدْيَن بمشيئتي وقدرتي وتدبيري ، فلبثت فيها سنين ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ ﴾ أي : مني لذلك فوافق ذلك تقديري وتسييري ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ أي : واصطفيتك لرسالتي وكلامي﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ يعني ولا تفترا في ذكرى إذا قدمتما عليه فإن ذلك عون لكما على مخاطبته ومجاوبته وأداء النصيحة إليه وإقامة الحجة عليه ، يقول تعالى في ذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [2] ثم يرسم لهما الطريق الذي يجب أن يُسلك وكما ينبغي أن يكون إذا وفدا إلى هذا الطاغية ،

(١) طــه : ٤٠ - ٤٦ (٢) الأنفال : ٤٥

فيقول تعالى : ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ (١) وهذا من حلمه وكرمه ، ويدل كذلك على مدى رأفته بخلقه وعباده مع علمه بكفر فرعون واستمراره على عتوه وعناده وهو مع هذا أرْدَي خلقه وأخسرهم لديه ، وقد بعث الله إليه صفوة من خلقه في تلك القرون وذلك الزمن ، يقول لهما ويأمرهما أن يدعواه إليه بالتي هي أحسن برفق ولين ، ويعاملاه بلطف معاملة من يرجو أن يتذكر أو يخشى كما قال لرسوله ﷺ : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (٢) ، وقال تعالى في ذلك أيضاً : ﴿ وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ (٣) وقد جاءت هذه الآية في سورة العنكبوت ، وقوله تعالى : ﴿ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً ﴾ قال الحسن البصري : أعذرا إليه وقولا له : إن لك رباً ولنا معاداً وإن بين يديك جنة وناراً . وقال وهب بن منبه : قولا له إني إلى العفو والمغفرة أقرب مني إلى الغضب والعقوبة . قال يزيد الرقاشي عند هذه الآية : يا من يتحبب إلى من يعاديه فكيف بمن يتولاه ويناديه .

ولما قال الله لهما : ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولاَ لَهُ ﴾ ... إلخ ، قالا : ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴾ وذلك أن فرعون كان جباراً عنيداً وشيطاناً مريداً له سطوة وسلطان في بلاد مصر وكذلك له جنود وعساكر فهاباه من حيث البشرية وخشيا أن يسطو عليهما في بادىء الأمر فثبتهما تعالى وهو العلي الأعلى إذ يقول : ﴿ لاَ تَخَافَا ، إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ (٤) ومن كان الله معه خافه كل شيء وخشيه كل جبار عنيد ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ ، قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ ، وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى * إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ (٥) .

---

(١) طه : ٤٣ - ٤٤ (٢) النحل : ١٢٥ (٣) العنكبوت : ٤٦
(٤) طـــه : ٤٦ (٥) طـــه : ٤٧ - ٤٨

يذكر تعالى أنه أمرهما أن يذهبا إلى فرعون يدعواه إلى الله تعالى أن يعبده وحده لا شريك له ، وأن يرسل معهما بني اسرائيل ويطلقهم من أسره واستعباده لهم ولا يعذبهم ، ويوجهانه إلى أنهما ما جاءا من غير برهان بل قالا : ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ ﴾ وتلك الآية التي يبرهنان بها هي العصا واليد ، ﴿ وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى ﴾ ، وما من شك في أن قوله : ﴿ وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى ﴾ تقييد مفيد بليغ الأسلوب عظيم الشأن ، ثم تهدداه وتوعداه على التكذيب حيث قالا له : ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ العَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ (١) أي : كذّب بالحق بقلبه وتولى عن العمل بقالبه .

وقد ذكر السدي وغيره : أنه لما قدم من بلاد مَدْيَن دخل على أمه وأخيه هارون وهما يتناولان طعام العَشاء وفيه الطفشيل (٢) فأكل معهما ، ثم قال : يا هارون ، إن الله أمرني وأمرك أن ندعو فرعون إلى عبادته فقم معي ، فقاما يقصدان باب فرعون فإذا هو مُغْلَق ، فقال موسى للبوّابين والحجبة : أعْلِموه أن رسول الله بالباب ، فجعلوا يسخرون منه ويستهزئون به ، وقد قال الله تعالى مخبراً عن فرعون بعد أن لقياه واتصلا به إذ واجههم لعنه الله بقوله : ﴿ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى * قَالَ فَمَا بَالُ القُرُونِ الأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي في كِتَابٍ ، لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنْسَى * الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوا أَنْعَامَكُمْ ، إِنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَى * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ (٣) .

* * *

---

(١) طـه : ٤٧ – ٤٨ (٢) الطفشيل : اللفت . (٣) طـه : ٤٩ – ٥٥

• إنكار فرعون الصانع وإقامة الأدلة على وجوده جل شأنه :

لقد أخبر الله تعالى أن فرعون أنكر الصانع قائلا : ﴿ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ أى : هو الذي خلق الخلق وقدَّر لهم أعمالاً وأرزاقاً وآجالاً ، وكتب ذلك عنده في اللوح المحفوظ ، ثم هدى كل مخلوق إلى ما قدَّره له فطابق عمله فيه على الوجه الذي قدَّره وعَلِمه وقدرتَه وقدْره لكمال علمه ، وهذه الآية كقوله : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ [1] أى : قَدَّرَ قَدراً وهدى الخلائق إليه .

ولما ذكر له موسى ذلك قال : ﴿ فَمَا بَالُ القُرُونِ الأُولَى ﴾ يقول فرعون لموسى : فإذا كان ربك هو الخالق المقدر الهادي الخلائق لما قدَّره ، وهو بهذه المثابة من العظمة والقوة والجلال بحيث لا يستحق العبادة سواه ، فلمَ عَبَدَ الأولون غيره وأشركوا به من الكواكب والأنداد ما قد علمت ، فهلّا اهتدى إلى ما ذكرته القرون الأولى : ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ، لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنْسَى ﴾ أى : وإن هم عبدوا غيره ، فليس ذلك بحجة لك ولا يدل على خلاف ما أقول لك ، لأن الله طمس قلوبهم واستولى الجهل عليهم وغلبت عليه الشقاوة مثلك ، وكل شيء فعلوه مسطر ومكتوب عنده في اللوح المحفوظ ، فما من كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها وسيجدون ما عملوا حاضراً ولا يظلم بك أحداً ، ثم ذكر له عظمة الرب وقدرته على خلق الأشياء وجعله الأرض مهاداً والسماء سقفاً محفوظاً وتسخيره السحاب والأمطار لرزق العباد ودوابهم وأنعامهم ، كما قال تعالى : ﴿ كُلُوا وَارْعَوا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَى ﴾ أى : لذوي العقول الصحيحة المستقيمة والفطر القويمة غير التي استولى عليها المرض النفساني واستحوذ عليها الهوى ، فهو تعالى الخالق الرازق الذي لا يستحق العبادة غيره ،

---

(١) الأعلى : ١ - ٣

ولا ينبغي أن يُطاع ويُوحد سواه ، وكما يدل على ذلك قوله : ﴿ الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ ، وقوله : ﴿ كُلُوا وارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ﴾ .. فكذلك يشهد له قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ ، فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

ولما ذكر تعالى إحياء الأرض بالمطر واهتزازها بإخراج نباتها فيه ، نبّه به على المعاد ومدى قدرته عليه فقال : ﴿ مِنْهَا ﴾ أي : من الأرض ﴿ خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ (٢) ، وذلك كما قال تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ (٣) ، وكما قال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ، وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ، وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ (٤) .

ثم يخبر تعالى عن شقاء فرعون ومدى جهله وقلة عقله في تكذيبه بآيات الله واستكباره عن اتباعها وقوله لموسى : إن هذا الذي جئت به سحر ونحن نعارضك بمثله ، ثم طلب من موسى أن يواعده إلى وقت معلوم ومكان معلوم كذلك ، فقال جل شأنه : ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى * قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لاَ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلاَ أَنْتَ مَكَاناً سُوىً * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحىً ﴾ (٥) .

وقد كان من أكبر مقاصد موسى عليه السلام أن يُظهر آيات الله وحججه

(١) البقرة : ٢١ - ٢٢ (٢) طـــه : ٥٠ (٣) الأعراف : ٢٩
(٤) الروم : ٢٧ (٥) طـــه : ٥٦ - ٥٩

وبراهينه جهرة أمام الناس وفي مشهد منهم ، ولهذا قال لهم موسى : ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ ﴾ وهو يوم عيد لهم ومجتمع عظيم من مجتمعاتهم ، فيهُ يحشر الناس جميعاً ولذلك قال : ﴿ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحىً ﴾ أي : وأن يجتمع الناس من أول النهار في وقت اشتداد الشمس بضيائها وإشراقها بنورها ، فيكون الحق في ذلك الوقت أظهر وأجلى ، وإنما طلب أن يكون ذلك في هذا الوقت بالذات نهاراً وجهرة لأنه على يقين من أن ربه سيظهر دينه ويُعلي كلمته وإن رغمت أنوف المعاندين والمكابرين .

ولذلك قال : ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى * قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لاَ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلاَ أَنتَ مَكَاناً سُوىً * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحىً ﴾ (١) .

* * *

• إظهار الله كلمته ودينه وإبطال السحر وإيمان السحرة والتنكيل بهم :

لقد أخذ فرعون يعد العدة لذلك اليوم المشهود والموعد المحدود ويجمع سحرة بلاده وأهل دولته وأشرافهم والملأ الأعلى منهم ، حتى يشهدوا ما يتجلى عنه ذلك الاجتماع والنتائج التي يسفر عنها وما يجري في ذلك اليوم الموعود بين الحق والباطل يوم عيدهم وحشر بلادهم ، قال تعالى : ﴿ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى * قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ، وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى * فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى * قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى * فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا

---

(١) طه : ٥٦ - ٥٩

صَفاً ، وَقَدْ أَفْلَحَ اليَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴾ (١) . يخبر الله تعالى بذلك عن فرعون أنه ذهب فجمع من كان ببلاده من السحرة ، وكانت بلاد مصر في ذلك الزمان مملوءة بسحرة مهرة على جانب كبير من هذا الصنيع ، فجمعوا له من كل بلد ومن كل مكان ، فاجتمع منهم خلق كثير وحضر عدد عظيم ، قال محمد بن كعب : إنهم كانوا ثمانين ألفاً ، وقال القاسم بن أبي بُرْدة : كانوا سبعين ألفاً ، وقال السدي : كانوا بضعة وثلاثين ألفاً ، وعن أبي أمُامة : تسعة عشر ألفاً ، وقال محمد بن إسحاق : كانوا خمسة عشر ألفاً ، وقال كعب الأحبار : كانوا اثنى عشر ألفاً .. وعلى كل حال فإن عددهم كان كثيراً .

* * *

● موسى وفرعون والسحرة :

وحضر فرعون وأمراؤه وأهل دولته وأهل بلده عن بَكرة أبيهم ، فإن فرعون نادى فيهم أن يحضروا هذا الموقف العظيم وقد حضروا وهم يرددون ذلك القول : ﴿ لعَلّنَا نَتّبِعُ السَّحَرَةَ إنْ كَانُوا هُمُ الغَالِبِينَ ﴾ (٢) .

وتقدّم موسى سلام الله عليه إلى السحرة فوعظهم وزجرهم عن تعاطي السحر الباطل الذي يعارضون به آيات الله وحججه ، إذ يوجه إليهم ذلك الإنذار فيقول لهم : ﴿ وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُوا عَلَى اللّه كَذِباً فَيَسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ، وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى * فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ﴾ (٣) .

قيل : معناه أنهم اختلفوا فيما بينهم فقائل يقول : هذا كلام نبي وليس بسحر ولا ساحر ، وقائل منهم يقول : إنه ساحر ، والله أعلم بما قالوا على وجه الضبط وبما كان تنازعهم ، ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى ﴾ أي : أسروا التناجي بهذا وغيره ..﴿ قَالُوا إنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا ﴾ يقولون

---
(١) طـــه : ٦٠ - ٦٤ (٢) الشعراء : ٤٠ (٣) طه : ٦١ - ٦٢

إن موسى وأخاه هارون ساحران عليمان متقنان لهذه الصناعة ومرادهما أن يجتمع الناس عليهما وحولهما ويخرجا على الملك وحاشيته ويستأصلاكم عن آخركم ﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفاً ، وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴾ وإنما قالوا الكلام الأول ليتدبروا ويتواصوا ويأتوا بجميع ما عندهم من المكيدة والمكر وأنواع الخديعة والسحر والبهتان .

وهيهات هيهات . . فقد كذبت والله الظنون ، وخابت الآراء فأنّي يعارض البهتان والسحر خوارق العادات التي أجراها الديّان على يدي عبده الكليم ورسوله الكريم المؤيد بالبرهان الذي يبهر الأبصار وتحار فيه العقول والأفكار ، وقولهم : ﴿ فأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ﴾ أى : جميع ما عندكم ﴿ ثُمَّ ائْتُوا صَفاً ﴾ أي : جملة واحدة ، فجاءوا وقد حَضَّ بعضهم بعضاً على التقدم في هذا المقام لأن فرعون كان وعدهم ومنّاهم وما يَعِدُهم الشيطان إلا غُروراً .

ولما حضروا وكان المجتمع العظيم ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا ، فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ، إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ، وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ [1] .

فلما اصطف السحرة وأخذوا مكانهم ووقف موسى وهارون عليهما السلام تجاههم قالوا له : إما أن تُلقي قبلنا ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ﴾ أنتم ، وكانوا قد عمدوا إلى حبال وعصى فأودعوها الزئبق وغيره من الآلات التي تضطرب بسببها تلك الحبال والعصى اضطراباً يخيل للرائي أنها تسعى باختيارها ، وفي الواقع أنها إنما تتحرك بسبب ذلك ، نعم إنهم عندما ألقوا حبالهم وعصيهم سحروا أعين الناس

(١) طـــه : ٦٥ - ٦٩

واسترهبوهم وكانوا يقولون عند إلقاء الحبال والعصى : ﴿ بعزَّة فرْعَوْنَ إنَّا لَنَحْنُ الغَالِبُونَ ﴾ (١) ، ومصداقاً لذلك قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وعصيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴾ أى : فإنه خاف على الناس أن يفتتنوا بسحرهم قبل أن يلقي ما في يده فإنه لا يصنع شيئاً قبل أن يُؤمر ، فأوحى الله إليه في الساعة الراهنة : ﴿ لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ، إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ، وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ فعند ذلك ألقى موسى عصاه وقال : ﴿ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ ، إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ اللَّهُ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾(٣) ، وقال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ، فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ * وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ العَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ (٤) .

* * *

● موسى ومعجزة العصا :

فلما ألقى موسى عصاه صارت حية عظيمة ذات قوائم وعنق عظيم وشكل هائل مزعج بحيث أن الناس انحازوا منها وهربوا سراعاً وتأخروا عن مكانها خشية من منظرها وعظمها ، وقد أقبلت على ما ألقوه من الحبال والعصى فجعلت تلقفه واحداً واحداً في أسرع ما يكون من الحركة ، والناس ينظرون إليها

(١) الشعراء : ٤٤
(٢) الأعراف : ١١٦
(٣) يونس : ٨١ - ٨٢
(٤) الأعراف : ١١٧ - ١٢٢

ويتعجبون منها، وأما السحرة فإنهم رأوا ما هالهم وحيَّرهم في أمرهم واطلعوا على أمر لم يدر بخلدهم ولم يكن في حسبانهم ولا يدخل تحت صناعاتهم ، فعند ذلك وهنالك تحققوا بما عندهم من العلم أن هذا ليس بسحر ولا شعوذة ولا محال ولا خيال ولا بهتان ، بل هو حق ولا يقدر عليه إلا الحق الذي ابتعث هذا المؤيَد بالحق ، وكشف اللّه عن قلوبهم غشاوة الغفلة فأنابوا إلى ربهم ورجعوا إلى مُسَيِّر الكون ومُدَبِّر الكائنات ومُصَرِّفها وخرُّوا له ساجدين ، ولم يخشوا عقوبة ولا نكالاً وأعلنوا للحاضرين رأيهم وقالوا جهرة وعلى مشهد منهم : ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ ، وذلك كما قال تعالى :﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى * قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ، إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ، فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى * قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ، إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ، وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى * إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَا * وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴾[1].

قال سعيد بن جبير وعكرمة والقاسم بن أبي بردة والأوزاعي وغيرهم : لما سجد السحرة رأوا منازلهم وقصورهم في الجنة تُهيأ لهم وتزخرف لقدومهم . ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون وتهديده ووعيده .

وذلك لأن فرعون لما رأى هؤلاء السحرة قد أسلموا وأشهروا ذكر موسى وهارون في الناس على هذه الصفة الجميلة والصورة العظيمة أفزعه ذلك وألحق به

(١) طـــه : ٧٠ - ٧٦

الرعب ورأى أمر أبهره وأعمى بصيرته وبصره فقال مخاطباً للسحرة بحضرة الناس : ﴿ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ أي : هلا شاورتموني فيما صنعتم من الأمر الفظيع بحضرة رعيتي ، ثم تهدّد وتوعّد وكذّب فأبعد قائلا : ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ ، وقال في الآية الأخرى :﴿ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [1] .

ولا يخفى أن قول فرعون للسحرة : ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾، وقوله : ﴿ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ . . محض تضليل وكذب وبهتان لا ينطلي إلا على مثله ولا يتصوره إلا جهله وعناده واستكباره ، فإن موسى عليه السلام لم ير هؤلاء السحرة مطلقاً قبل ذلك الموقف الذي وقفوه في يومهم المشهود ، فكيف يكون كبيرهم الذي علمهم السحر ؟! وفوق ذلك : فإنه لم يجمعهم ولا علم باجتماعهم حتى واجههم وواجهوه ، فإن فرعون هو الذي استدعاهم وأمر بجمعهم من كل فج عميق وواد سحيق ، ومن حواضر مصر وأطرافها ومدنها وقراها ، ليشهدوا ما يجري بين الحق والباطل والمعجزات والسحر .

وكما قال ذلك في سورة الشعراء ، فقد أتى بأحداث جديدة بالغة الأهمية عظيمة التقدير تستلفت العقول والتفكير إذ يتحدث جل شأنه عن تلك الوقائع في سورة الأعراف فيقول : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَظَلَمُوا بِهَا ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ * وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ، قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ * قَالَ الْمَلَأُ مِنْ

(١) الأعراف : ١٢٣

قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ ، فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ * وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُوا ، فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ، فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ * وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ * قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ، إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ، رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾[1] .

وقال في سورة يونس : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ * قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ ، أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴾[2] ... إلى آخر ما جاء بالقصة في هذه السورة .

ثم وجّه الطاغية – قبحه الله – إنذاراً شديداً إلى موسى عليه السلام ، وقد جاء ذلك في سورة الشعراء حيث يقول : ﴿ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ

---

(١) الأعراف : ١٠٣ – ١٢٦ (٢) يونس : ٧٥ – ٨٠

مِنَ المَسْجُونِينَ * قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (١) ... إلى آخر ما جاء بهذه القصة وقد تحدثنا عنها فيما سبق .

والمقصود من توالي القصص بهذا الشأن ومختلف أحداثها وتنوع وقائعها أن فرعون كذّب وافترى وبلغ النهاية في الكفر وذلك بقوله : ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ ، وأتي ببهتان افتراه يعلمه العالمون بل العالمون ، يرشد إلى ذلك قوله : ﴿ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي المَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ، وقوله : ﴿ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلاَفٍ ﴾ يعني بقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى وعكسه ﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي : ليجعلنهم مُثلة ونكالاً لئلا يقتدي بهم أحد من رعيته ورجال دولته ومملكته وأهل ملته ، ولهذا قال : ﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ أي : على جذوع النخل لأنها أعلى وأشهر ، ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى ﴾ يعني في الدنيا .

فكان ردهم عليه معبراً عن مدى إيمانهم بما جاء به موسى وعدم اهتمامهم بتهديده ووعيده حيث جاء فيه : ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ البَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ﴾ أي : لن نطيعك ونترك ما وقر في قلوبنا من البينات والدلائل القاطعات ﴿ وَالَّذِي فَطَرَنَا ﴾ أي : ونقسم بالذي خلقنا فافعل ما استطعت فعله بالنسبة إلينا ، وهو معنى قوله : ﴿ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ، إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أي : إنما حكمك علينا يسري في هذه الحياة الدنيا فإذا انتقلنا منها إلى الدار الآخرة صرنا إلى حكم الذي أسلمنا له واتبعنا رسله ، ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ، وَاللَّهُ خَيْرٌ ﴾ أي : ثوابه خير لنا مما وعدتنا به من الترهيب والترغيب ﴿ وَأَبْقَى ﴾ أي : وأدوم من هـذه الدار الفانية .

---

(١) الشعراء : ٢٩ - ٣١

وقد جاء في الآية الأخرى رداً عظيماً على تهديداته : ﴿ قَالُوا لاَ ضَيْرَ ، إنَّا إلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * إنَّا نَطْمَعُ أنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا ﴾ (١) أى : ما اقترفناه من المآثم وارتكبناه من الجرائم وشـــتى الخطايا ﴿ أنْ كُنَّا أوَّلَ المُؤْمنِينَ ﴾(٢) من القبط بموسى وهارون عليهما السلام .

وكما قالوا لفرعون ذلك قالوا له أيضاً : ﴿ وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إلاَّ أنْ آمَنَّا بآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ﴾ أى : ليس لنا عندك ذنب إلا في إيماننا بما جاءنا به رسولنا واتباعنا آيات ربنا لما جاءتنا ، ﴿ رَبَّنَا أفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً ﴾ أى : ثبتنا على ما ابتلينا به من عقوبة هذا الجبار العنيد والشيطان المريد والطاغية الفاسد ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ ، أخذوا يعظونه ويخوفونه بأس ربه العظيم إذ يقولون له : ﴿ إنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فيهَا وَلاَ يَحْيَا ﴾(٣) يقولون له : إياك أن تكون فكان منهم ﴿ وَمَنْ يأته مُؤْمناً قَدْ عَمِلَ الصَّالحَاتِ فَأُولَئكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ العُلَي ﴾ (٤) أى : المنازل العالية ﴿ جنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ خَالدينَ فيهَا ، وَذَلكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴾ (٥) فاحرص أن تكون منهم ، فلم يكن منهم لأن الأقدار حالت بينه وبينها وهى لا تُغالَب ولا تُمانع ، وقد حكم العلي العظيم بأن فرعون من أهل جهنم جزاءً وفاقاً ، ويقال له على وجه التقريع والتوبيخ : ﴿ ذُقْ إنَّكَ أنْتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ ﴾ (٦) .

والظاهر من هذه السياقات أن فرعون - لعنه الله - صلبهم وعذبهم رضى الله عنهم ، وقد قال عبدالله بن عباس وعبيد بن عُمير : كانوا من أول النهار سحرة فصاروا من آخره شهداء بررة ، ويؤيد هذا قولهم : ﴿ رَبَّنَا أفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ (٧) .

* * *

(١) الشعراء : ٥٠ - ٥١ (٢) الشعراء : ٥١ (٣) طـه : ٧٤
(٤) طـه : ٧٥ (٥) طـه : ٧٩ (٦) الدخان : ٤٩
(٧) الأعراف : ١٢٦

• تحريض فرعون من ملئه وأمرائه وكبراء قومه على موسى عليه السلام :

ولما وقع ما وقع من هائل الأمر وعظيم الخَطْب وهو الغَلَب الذي غُلبه القبط في ذلك الموقف وأسلم السحرة الذين استنصروا بهم في ذلك اليوم المشهود لم يزدهم ذلك إلا كفراً وعناداً وبُعداً عن الحق وأهله ، كما جاء معبراً بعد ذلك القصص الذي تقدّم في سورة الأعراف في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ، قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ * قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ، قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

فأخبر سبحانه وتعالى بهذه الآيات عن الملأ من قوم فرعون - وهم الأمراء والكبراء - أنهم حرّضوا ملكهم فرعون على إيذاء نبي الله موسى عليه السلام ومقابلته بالكفر والرد والأذى بدل التصديق بما جاء به من عند ربه إذ قالوا : ﴿ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾ يعنون - قبحهم الله - أن دعوته إلى عبادة الله وحده لا شريك له والنهي عن عبادة سواه فساد بالنسبة إلى اعتقادهم ، ﴿ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾ أي : سنقتل أبناءهم لئلا يكثر مقاتلتهم ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ أي : غالبون . فخشى قوم موسى ذلك التهديد ، وخافوا ذلك الوعيد فوجههم إلى الاستعانة بالله والصبر على ما يلقون من بلاء واختبار في سبيل الله :

(١) الأعراف : ١٢٧ - ١٢٩

﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ﴾ أى : إذا همُّوا هم بأذاكم والفتك بكم فاستعينوا أنتم بربكم واطلبوا العون منه واصبروا على بليتكم ﴿ إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أى : فكونوا أنتم المتقين لتكون لكم العاقبة والدرجات العلى ، وقولهم : ﴿ أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ أى : قد كانت الأبناء تُقتَل قبل مجيئك وبعد مجيئك إلينا .. ﴿ قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ .

وكما جاء ذكر ذلك الحدث العظيم فقد تحدَّث عنه في سورة غافر مع أحداث خطيرة الشأن تقوم بها أشخاص لهم خطرهم في تلك الأحداث واشتراكهم في تلك الوقائع ، يوحي بذلك قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾[1] .

وكان فرعون الملك وهامان الوزير ، وكان قارون إسرائيلياً من قوم موسى إلا أنه غلبت عليه الشقاوة فكان على دين فرعون وملته ، وكان ذامال كثير جداً كما يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ، وَآتَيْنَاهُ مِنَ الكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالعُصْبَةِ أُولِي القُوَّةِ ﴾[2] . ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ، وَمَا كَيْدُ الكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ ﴾[3] ، وكان هذا القتل للغلمان من بعد بعثة موسى إنما يقصد منه الإهانة والإذلال والتقتيل لبني إسرائيل لئلا يكون لهم شوكة يمتنعون بها ويحملون على القبط بسببها ، وقد كان القبط منهم يحذرون ، فلم ينفعهم ذلك ولم يَرُدُّ عنهم قدر الذي يقول للشيء كن فيكون .

* * *

(١) غافر : ٢٣ – ٢٤ (٢) القصص : ٧٦ (٣) غافر : ٢٥

- **اتجاه فرعون إلى قتل موسى عليه السلام وإرادة ذلك منه:**

ولما رأى فرعون أن قتل الغلمان لا يجعل منه سبيلا إلى الخلاص من موسى، عمد إلى اتجاه آخر يضمن له اطمئناناً على حياته ويكفل البقاء لهؤلاء الطغاة والكفرة المفسدين فانصرف إلى قتل موسى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الفَسَادَ ﴾ [1] .

يزعم فرعون أن بقاء موسى في هذه الحياة يُخشى منه ويُخاف أن يضل الناس ويوجههم إلى دين آخر، ﴿ وقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحِسَابِ ﴾ [2] أي: عُذْتُ بالله ولجأتُ إليه واستجرت به وبجانبه من أن يقصدني فرعون وغيره بسوء، وقوله: ﴿ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ﴾ أي: من كل جبار عنيد لا يرعوى ولا ينتهي ولا يخاف عذاب الله وعقابه لأنه لا يعتقد معاداً ولا يؤمن بأن فيه جزاءً ولهذا قال: ﴿ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحِسَابِ ﴾ .

ويظهر أن انصراف فرعون إلى قتل موسى عليه السلام أضحى شائعاً في مملكته وأهل دولته فأبدى رجل يكتم إيمانه النصح إليهم ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ، وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ * يَا قَوْمِ لَكُمُ المُلْكُ اليَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا، قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ [3] .

وهذا الرجل الذي وجَّه النصح إليهم هو ابن عم فرعون واسمه «حزقيل» وقد

---

(١) غافر: ٢٦ (٢) غافر: ٢٧ (٣) غافر: ٢٨ - ٢٩

قيل : إنه كان نجاراً وهو الذي صنع التابوت لأم موسى حين ولدته وألقته في البحر ، وقيل : إنه كان خازناً لفرعون مائة سنة وكان مؤمناً مخلصاً صادقاً وظل يكتم إيمانه حتى ظهر موسى على السحرة فأظهر أمره فأُخذَ يومئذ وقُتل مع السحرة صلباً وهو الذي قال الله فيه : ﴿ وَقالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ قال ابن جريـح : قال ابن عباس : لم يؤمن من القبط بموسى إلا هذا الذي جاء من أقصى المدينة ، وامرأة فرعون .(رواه ابن أبي حاتم) . وقيل : إن اسم ذلك الرجل المؤمن « شمعان » قال الدارقطني : لا يعرف مَنْ اسـمه شمعان - بالشـين المعجمة - إلا مؤمـن آل فرعون (حكاه السهيلي) ، وفي تاريخ الطبري أن اسمه « خير » والله أعلم .

والمقصود أن هذا الرجل كان يكتم إيمانه فلما هَمَّ فرعون - لعنه الله - بقتل موسى عليه السلام وعزم على ذلك وشاور ملئه فيه خاف هذا المؤمن على موسى فتلطف في رد فرعون بكلام جمع فيه بين الترغيب والترهيب ، فقال ما قال على وجه المشورة والرأى .

وقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ قوله : « أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » وهذا من أعلى مراتب هذا المقام ، فإن فرعون لا أشد جوراً منه وهذا الكلام الذي صدر عن ذلك الرجل المؤمن لا أعدل منه لأن فيه عصمة نبي قال : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ أى : من أجل أنه قال ربي الله ؟ . فمثل هذا لا يُقابل بهذا بل كان يُقابل بالإكرام والاحترام أو الموادعة وترك الانتقام ، يعني لأنه ﴿ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أي : بالخوارق التي دلت على صدقه فيما جاء به عمن أرسله . فهذا إن وادعتموه كنتم في سلامة لأنه ﴿ وإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ﴾ ولا يضركم ذلك ، ﴿ وإِنْ يَكُ صَادِقاً ﴾ وقد تعرضتم له فيما جاء به ﴿ يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ أى : وأنتم تشفقون أن ينالكم أيسر جزاء مما يتوعدكم به ، فكيف بكم إن حل جميعه عليكم ؟؟ وهذا الكلام في هذا المقام من أعلى مقامات التلطف وآياته والاحتراز والعقل التام ، وقد وجَّه ذلك الرجل المؤمن إلى قوم فرعون نداء

يحذرهم فيه أن يظلوا على تعرضهم لموسى وقيامهم في وجه دعوته ، فإنه ما تعرضت دولة من الدول للدين إلا سُلبوا عزهم وذهب ملكهم ، يوحى بذلك قوله : ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ ﴾ ، وكذلك وقع لآل فرعون فإنهم كانوا وما زالوا في شك وريب مما جاءهم به موسى ولما يدخل الإيمان في قلوبهم حتى أخرجهم اللّهَ مما كانوا فيه من الملك والأملاك والدور والقصور والنعَم والحبور ، ثم حُوّلوا إلى البحر مهانين فأغرقوا فيه ، وبعد أن كانت أرواحهم في ذلك العز والرفعة انتقلت إلى نار الجحيم صاغرين ملعونين .

ولهذا قال ذلك الرجل المؤمن المصدّق : ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ ﴾ أي : عالين على الناس حاكمين عليهم ، ﴿ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ﴾ أي : لو كنتم أضعاف ما أنتم فيه من العدد والعدة والقوة ما نفعنا ذلك ولا رد عنا بأس ملك الملوك ومالك المماليك ، ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ في الإجابة عن ذلك كله : ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى ﴾ أي : ما أقول لكم إلا ما عندي وما أراه محققاً لآمالكم ، ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ .

وقد كذب فرعون في هذين القولين وجانب الصواب والحق في كل من هاتين المقدمتين ، فإنه قد كان يتحقق في باطنه وفي قرارة نفسه أن هذا الذي جاء به موسى من عند الله ، وإنما كان يُظهر خلافه بغياً وعُتواً وكفراناً ، قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُواً ﴾ [1] .

قال تعالى إخباراً عن موسى : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً * فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً * وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً ﴾ [2] ،

---

(١) النمل : ١٤ (٢) الإسراء : ١٠٢ - ١٠٤

وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُواً ، فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (١) .

وأما قوله : ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ فقد كذب فيه أيضاً ، أى : كما كذب في قوله : ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى ﴾ ، فإنه لم يكن على رشاد من الأمر ، بل كان على سفه وضلال وخبل وخبال ، إذ كان أولاً ممن يعبد الأصنام والأوثان ، ثم دعا قومه الجهلة الضُّلاَّل إلى أن اتبعوه وأطاعوه وصدَّقوه فيما زعم أنه على حق في دعواه أنه « رب » ، تعالى الله ذو الجلال .

وقد أراد أن يظهر لقومه أنه عظيم وأنه يملك شيئاً عظيماً في هذه الحياة ولذلك قال تعالى : ﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ، أَفَلاَ تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ * فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ * فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ * فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَى * فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلاَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ، وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ * يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ، وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ * وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ، بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾ (٤) .

---

(١) النمل : ١٣ - ١٤
(٢) الزخرف : ٥١ -٥٦
(٣) النازعات : ٢٠ - ٢٦
(٤) هود : ٩٦ - ٩٩

ولقد أعربت هذه الآيات وعبّرت أصدق تعبير عن مدى كذب فرعـون في قوله : ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى ﴾ ، وفي قوله : ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ .

ولم يقف نصح مؤمن آل فرعون عند الحد الذي قام به من بالغ نُصحه في قوله تعالى : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ . . بلى تعدي نصحه أبعد من ذلك المدى وبلغ غاية ما فوقها غاية وأيقظهم أيما إيقاظ ، يشهد بذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ * وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً ، كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ * الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ، كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا ، كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ (١) .

يُحذرهم ولي الله إن كذّبوا برسول الله موسى عليه السلام أن يحل بهم ما حل بالأمم قبلهم من النقم والمثلات مما تواتر عندهم وعند غيرهم مما حل بقوم نوح وعاد وثمود ، ومن بعدهم إلى زمانهم ذلك من العبر والآيات . مما أقام به الحجج على أهل الأرض قاطبة في صدق ما جاءت به الأنبياء وما نزل من النقم بمكذّبهم من الأعداء وما أنجى الله من اتبعهم من الأولياء وخوّفهم أهوال يوم القيامة يوم

(١) غافر : ٣٠ - ٣٥

﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ (١) من شدة أهوالها ، وهو ﴿ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾(٢) أى : حين ينادي الناس بعضهم بعضاً ويريدون أن يولوا إن قدروا على ذلك راستطاعوا إلى ذلك سبيلاً ﴿ يَقُولُ الإنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ * كَلاَّ لاَ وَزَرَ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا ، لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنْتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (٤) .

ثم أخبرهم عن نبوة يوسف في بلاد مصر وما كان يصدر منه من الإحسان إلى الخلق في دينهم ودنياهم وهذا من سلالته وذريته ، ويدعو الناس إلى توحيد الله وعبادته وأن لا يُشركوا به أحداً ، وأخبر كذلك عن أهل الديار المصرية في ذلك الزمان وأن من سجيتهم التكذيب بالحق ومخالفة الرسل ، ولهذا قال : ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً ﴾ أى : وكذبتم في هذا ، يدل على ذلك قوله :﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ * الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ﴾ أى : يردون حجج الله وبراهينه ودلائل توحيده بلا حجة ولا دليل عندهم من الله تعالى ، ولا شك في أن ردهم حجج الله وأدلته أمر يمقته الله ، أى أنه يبغض من تلبس به من الناس واستقر عليه ومن اتصف به منهم ، ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ .

أى هكذا إذا خالفت القلوب الحق ولا تخالفه إلا بلا برهان ، فإن الله يطبع عليها ، أى يختم عليها بما فيها . وقد كان من جهل فرعون ومدى غفلته إنكار ألوهية سواه ، يدل على ذلك أن موسى لما دعاه إلى عبادة الله تعالى وتوحيده

---

(١) الحج : ٢ (٢) غافر : ٣٢
(٣) القيامة : ١٠ - ١٢ (٤) الرحمن : ٣٣ - ٣٦

وجّه إلى وزيره أكبر دليل على مدى جهله وقدّم أعظم برهان على غبائه وطغيانه ، يرشد إلى ذلك قوله : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمٰوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلٰهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً ، وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ، وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ ﴾ (١) .

فبقوله هذا كذّب فرعون موسى عليه السلام في دعواه أن الله أرسله ، وزعم فرعون لقومه ما كذّبه وافتراه في قوله لهم : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلٰهِ مُوسَى ﴾ (٢) ، ﴿ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً ، وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ، وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ ﴾ ، وقال ههنا : ﴿ لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمٰوَاتِ ﴾ يريد طرقها بذلك ومسالكها ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلٰهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً ﴾ ، ويحتمل هذا معنيين : أحدهما : وإني لأظنه كاذباً في قوله إن للعالم رباً غيري، والثاني : في دعواه أن الله أرسله . والأول أشبه بظاهر حال فرعون فإنه كان ينكر ظاهراً إثبات الصانع ، والثاني أقرب إلى اللفظ حيث قال : ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلٰهِ مُوسَى ﴾ أي : فأسأله هل أرسله أم لا ؟ ﴿ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً ﴾ أي : في دعواه ذلك ، وقد كان مقصود فرعون أن يصد الناس عن تصديق موسى عليه السلام ويحول بينهم وبينه في هذه الدعوة وأن يحثهم على تكذيبه، ولذا قال الله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ، وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ ﴾ .

قال ابن عباس ومجاهد : يقول : إلا في خسار – أي باطل – لا يحصل له شيء من مقصوده الذي أراده وجعله أمله ، فإنه لا سبيل للبشر أن يتوصلوا بقواهم إلى

---

(١) غافر : ٣٦ – ٣٧

(٢) القصص : ٣٨

نيل السماء وبلوغها أبداً ، أعني السماء الدنيا ، فكيف بما بعدها من السموات العلا وما فوق ذلك من الارتفاع الذي لا يعلمه إلا الله عز وجل .

وذكر غير واحد من المفسرين أن هذا الصرح – وهو القصر الذي بناه وزيره هامان له – لم يُر بناء أعلى منه وأنه كان مبنياً من الآجُرِّ المشوي بالنار ولذا قال : ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً ﴾ .

ومع عتّوه وظلمه وجوره واستكباره هذا ، فلم يزل مؤمن آل فرعون يوجّه إليهم مواعظه وتذكيراته وآيات من العبر والنُصح والإرشاد ، يوحي بذلك قوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١) .

يدعوهم – رضي الله عنه – بذلك إلى طريق الرشاد ، ويوجههم إلى وجوب متابعة نبي الله موسى وتصديقه فيما جاء به من عند ربه ، ثم أخذ كذلك يُزهّدهم في الدنيا ، وأنها ظل زائل ومتاع لا بقاء له ، ورغّبهم في طلب الثواب وسلوك الطريق الذي يهدي إليه ويدل عليه ، والله لا يضيع ﴿ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ﴾ (٢) ويعطي على القليل كثيراً . ومن عدله وعظيم فضله أنه لا يجازي على السيئة إلا مثلها ، وأخبرهم أن الآخرة هي دار القرار التي من وافاها مؤمناً قد عمل الصالحات فله الدرجات العاليات ، والغرف الكثيرة ، والأرزاق الوفيرة التي لا تبيد ولا تفني ، والخير الذي لهم في مزيد ، ثم شرع في إبطال ما هم عليه وأخذ يُخوّفهم مغبة أمرهم وعاقبة مصيرهم فقال : ﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ

(١) غافر : ٣٨ – ٤٠ .

(٢) آل عمران : ١٩٥

وَأنا أدْعُوكُمْ إلى الْعَزيزِ الْغَفَّارِ * لاَ جَرَمَ أنَّمَا تَدْعُونَني إلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ في الدُّنْيَا وَلاَ في الآخِرَةِ وأنَّ مَرَدَّنَا إلى اللهِ وَأنَّ المُسْرِفينَ هُمْ أصْحَابُ النَّارِ * فَسَتَذْكُرُونَ مَا أقُولُ لَكُمْ ، وَأُفَوِّضُ أمْري إلَى اللهِ ، إنَّ اللهَ بَصيرٌ بِالعِبَادِ * فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ، وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ العَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُواً وَعَشِياً ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أشَدَّ العَذَابِ ﴾ (١) .

نعم .. كان يدعوهم إلى عبادة رب السموات والأرض الذي يقول للشيء كن فيكون ، وهم يدعونه إلى عبادة فرعون الجاهل الضال المضل اللّعين ، ولهذا قال لهم على سبيل الإنكار : ﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أدْعُوكُمْ إلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَني إلَى النَّارِ * تَدْعُونَني لأكْفُرَ باللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لي بِهِ عِلْمٌ وَأنَا أدْعُوكُمْ إلَى العَزيزِ الغَفَّارِ ﴾ .

ثم بَيَّن لهم بطلان ما هم عليه من عبادة ما سوى الله من الأنداد والأوثان وأنها لا تملك لأحد نفعاً ولا ضراً فقال : ﴿ لاَ جَرَمَ أنَّمَا تَدْعُونَني إلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ في الدُّنْيَا وَلاَ في الآخِرَةِ وأنَّ مَرَدَّنَا إلى اللهِ وَأنَّ المُسْرِفِينَ هُمْ أصْحَابُ النَّارِ ﴾ أي : لا تملك تصرفاً ولا حكماً في هذه الدار فكيف تملكه يوم القرار . وأما الله عز وجل فإنه الخالق الرازق للأبرار والفجار ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (٢) ، يوم : ﴿ لاَ يَنْفَعُ نَفْساً إيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أوْ كَسَبَتْ في إيمَانِهَا خَيْراً ﴾ (٣) ، وهوَ الذي أحيا العباد ويميتهم ويبعثهم ﴿ يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إلاَّ مَنْ أتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَليمٍ ﴾(٤)، فيدخل طائعهم الجنة وعاصيهم النار . ثم توعّدهم إن استمروا على العناد بقوله : ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أقُولُ لَكُمْ ، وَأُفَوِّضُ أمْري إلَى اللهِ ، إنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ ﴾ .

---

(١) غافر : ٤١ - ٤٦ (٢) الفاتحة : ٤
(٣) الأنعام : ١٥٨ (٤) الشعراء : ٨٨ - ٨٩

ومع أنه عليه السلام توعدهم ووقف في وجه دعوتهم وتماديهم في نشر كفرهم ، فقد حفظه الله منهم ورعاه بعين من رعايته ولهذا قال : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ﴾ أي : بإنكاره صدهم عن سبيل الله وما أظهروا من الخيالات والسحر التي أرادوا بها أن يُلبِّسوا على عوامهم ويضلوهم بها وأنها ليست من السحر والخيالات ، و﴿ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ﴾ أي : نزل بهم من العقوبات وحل من أنواع البلايا وألوان العذاب ، وقد عبَّر عن ذلك بقوله : ﴿ وَحَاقَ ﴾ أي : أحاط ﴿ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ دنيا وأخرى ، أما في الدنيا فبالآيات التي تقوم ويأتي ذكرها ، وأما في الأخرى فيعرب عنها قوله تعالى : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ أي : تُعرض أرواحهم في برازخهم صباحاً ومساء على النار ، وليس معنى هذا أنهم ينفكون عنا لحظة من اللحظات أو فترة من الفترات ، فإنها عليهم دائماً وهم في توقدها وحرها أبداً حتى تقوم القيامة ، وهنا يذوقون أشدها ويدخلون شرراً وجحيماً وألواناً شتى من العذاب ، ولذا قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ ، وغير خاف أن الله تعالى لم يهلكهم إلا بعد إقامة الحجج عليهم وإرسال الرسول إليهم وإزاحة الشُّبَه عنهم وأخذ الحُجة عليهم منهم ، بالترهيب تارة وبالترغيب أخرى ، يُعَبِّر عن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ، أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ ﴾ (١).. وهذه من الآيات التي ابتُلوا بها في دنياهم وأشرنا إلى أنَّا سنذكرها .

---

(١) الأعراف : ١٣٠ - ١٣٣

بهذه الآيات البينات يُخبر تعالى أنه ابتلى آل فرعون وهم من قومه من القبط ﴿ بِالسِّنِينَ ﴾ وهى أعوام الجدب التي لا يُستَغَلُّ فيها زرع ولا يُنتفع بضرع وقوله : ﴿ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ أى : أنه ابتلاهم كذلك بقلة الثمرات من الأشجار ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أى : لعلهم ينتفعوا بهذه العبر ويتعظوا بهذه الآيات ، ولكنهم لم يستفيدوا من ذلك ولم تردعهم هذه الآيات بل ظلوا في تمردهم واستمروا في كفرهم وعنادهم ، ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ ﴾ أى : نزل بهم الخصب ونحوه ﴿ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ﴾ أى : هذا الذي نستحقه وهذا ما يليق بنا ، فنحن أحق بها وأهلها ، ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ﴾ أى : يقولون : هذا إنما أصابنا بشئومهم ، والعجيب أنهم إذا أصابتهم الحسنة لا يقولون إنها ببركتهم وحسن مجاورتهم لهم ، فإن قلوبهم منكرة للحق مستكبرة عن الاعتراف والإقرار به ، وأما السيئة فإنهم يسندونها إليهم شأن العناد والعتو والاستكبار ، ولذلك قال تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى : الله يجزيهم على هذا أوفر الجزاء ، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

ثم انظر بعد ذلك في مدى عنادهم واستكبارهم وغلوهم في كفرهم إذ يقولون: ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : مهما جئتنا من آيات وأتيت من براهين وحجج وخوارق العادات ، فلن نؤمن بك ولا نتبعك ولا نطيعك ولو جئتنا بكل آية .

وهكذا أخبر الله في قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ (١) .

ولما كان هذا حالهم ومدى عتوهم أرسل الله عليهم من آياته تذكيراً لهم ، ولذلك قال : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ

(١) يونس : ٩٦ - ٩٧

مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ ﴾ (١) ، أما الطوفان فعن ابن عباس : هو كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزرع والثمار ، وبه قال سعيد بن جبير وقتادة والسدي وعطاء ، وعن ابن عباس وعطاء قول آخر : وهو كثرة الموت . وقال مجاهد : الطوفان الماء والطاعون على كل حال . وعن ابن عباس : أمر طاف بهم .

وإني مع تقديري لأقوال ابن عباس فإني أميل إلى القول الأول ، لا سيما وأن ذلك هو المتعارف والمشهور بين الناس وخصوصاً قال به سعيد بن جبير وقتادة والسدي وعطاء .

وأما الجراد فمعروف ، وكذلك القُمَّل والضفادع .

والمقصود من ذلك أنه استاق خضراءهم فلم يترك لهم زرعاً ولا ثماراً ولا سبداً ولا لبداً (٢) .

وأما الدم فقد مزج ماؤهم كله به فلا يستقون من النيل شيئاً إلا وجدوه دماً عبيطاً (٣) ، وكذلك كانوا لا يستقون من نهر ولا بئر ولا شيء إلا وجدوه كذلك في الساعة الراهنة .

وقد ابتلاهم الله بهذه الآيات ، غير أن بني إسرائيل لم يصبهم شيء من ذلك بالكلية ، وهذا من تمام المعجزة الباهرة والحجة القاطعة ، وكل ذلك إنما كان يأتيهم عن طريق موسى وفعله عليه السلام ، فينالهم عن آخرهم ولا يدع منهم أحداً ، وينجي الله بني إسرائيل من كل ما ينزل بهم ويحل بأولهم وآخرهم .

قال محمد بن إسحاق : فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوباً مغلولاً ، ثم هو مع ذلك قد أبى الإقامة إلا على الكفر والتمادي في الشر والعناد ، فتابع الله عليه الآيات فأخذه بالسنين ، فأرسل الله عليه الطوفان ثم

---

(١) الأعراف : ١٣٣

(٢) السبد ، القليل ، واللبد : الكثير - أي لم يترك لهم قليلا ولا كثيراً .

(٣) الدم العبيط : الطري .

الجراد ثم القُمّل ثم الضفادع ثم الدم آيات مفصلات ، فأرسل الطوفان وهو الماء ففاض على وجه الأرض ثم ركد لا يقدرون على أن يحرثوا ولا أن يعملوا شيئاً حتى جهدوا جوعاً . فلما بلغهم ذلك وحل بهم قالوا : ﴿ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ، لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (١) . فدعا موسى ربه فكشفه عنهم ، فلما لم يفوا له بشيء مما قالوا أرسل الله عليهم الجراد فأكل كل الشجر - فيما بلغني - حتى إن كان ليأكل مسامير الأبواب حتى تقع دورهم ومساكنهم ، فقالوا مثل ما قالوا فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم القُمّل ، فذُكِرَ لي أن موسى عليه السلام أُمِرَ أن يمشي إلى كثيب حتى يضربه بعصاه فمشى إلى كثيب أهيل عظيم فضربه بها فانثال عليهم قَمْلاً حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والقرار ، فلما جهدهم قالوا له مثل ما قالوا فدعا ربه فكشف عنهم ، فلما لم يفوا له بشيء مما قالوا أرسل عليهم الضفادع فملأت البيوت والأطعمة والآنية فلا يكشف أحد ثوباً ولا طعاماً إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه ، فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياه آل فرعون كلها دماً لا يستقون من بئر ولا نهر ولا يغترفون من إناء إلا عاد دماً عبيطاً ، وقال زيد بن أسلم : المراد بالدم الرُّعاف . (رواه ابن أبي حاتم) .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ، لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ * فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ (٢) .

يخبر بذلك سبحانه وتعالى عن كفرهم وعنادهـــم واستمـــرارهم على الضلال

---

(١) الأعراف : ١٣٤

(٢) الأعراف : ١٣٤ - ١٣٦

والجهل والاستكبار عن اتباع آيات الله وتصديق رسوله مع ما أيده به من الآيات الجليلة الشأن الخطيرة التقدير ، وقيام الحجج الساطعة التي أراهم الله إياها عياناً وجعلها عليهم دليلا وبرهاناً تنطق بالحق وتهدي إليه وتدعو له ، وكلما شاهدوا آية وعاينوها وجهدهم وأضنكهم الجوع حلفوا وعاهدوا موسى لئن كشف عنهم هذه ليؤمنن به وليرسلن معه من هو من حزبه ، فكلما رُفعت عنهم هذه الآية عادوا إلى شر مما كانوا عليه وأعرضوا عما جاءهم به من الحق ولم يلتفتوا إلى تلك الآيات الباهرة التي تتحدث وحدها بصدق ما جاء به وتحقق نبوته عليه السلام ، فيرسل الله عليهم آية أخرى هي أشد مما كانت قبلها وأقوى منها فيقولون ويكذبون ويعدون ولا يفون : ﴿ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ فيكشف عنهم ما نزل بهم من البلاء وما حل من العَذاب ثم يعودون إلى غيهم وضلالهم وتخبطهم في حياتهم وغفلتهم عن الحق وعن الصراط المستقيم ، والحليم العظيم ينظرهم ولا يَعْجل عليهم ويؤخرهم ويتقدم بالوعيد إليهم ، ولما لم يعتبروا بهذه الآيات ولم يتأثروا بهذه العبَر ولم تؤمن قلوبهم بعد إقامة الأدلة والبراهين والإعذار إليهم ، أخذهم أخذ عزيز مقتدر فجعلهم عبرة ونكالاً واعتباراً وسَلَفاً ومثلاً للآخرين ممن يأتي بعدهم وتأخذهم العزة بالإثم ، كما قال تعالى وهو أصدق القائلين في سورة الزخرف : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ * وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ، وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ * وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [١] .... إلى قوله : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ ﴾ [٢] .

---

(١) الزخرف : ٤٦ - ٥١

(٢) الزخرف : ٥٦

يذكر جل شأنه إرساله عبده الكليم إلى فرعون اللئيم ، وأنه أيَّدَ رسوله بالآيات البينات وبعثه بحجج واضحات تستحق أن تُقَابَل بالتعظيم وتستوجب استقبالها بالتصديق الكريم ، وتستدعي أن يرتدعوا عما هم فيه من الكفر وأن يرجعوا إلى الحق ونور الهدى ﴿ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ وبها يستهزئون وعن سبيل الله يصدون ويُعرضون ، وعن طريق الحق ينصرفون ويُولون الأدبار .

فأرسل إليهم الآيات تترى يتبع بعضها بعضاً وكل آية أروع من أختها ومما سبقتها ﴿ وَأَخَذْنَاهُمْ بِالعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ ، لم يكن وصف الرسول عليه السلام بلفظ الساحر في زمنهم عيباً ولا نقصاً لأن عظماءهم في ذلك الوقت هم السحرة ، ولهذا خاطبوه به في حال احتياجهم إليه وضراعتهم لديه ، ولما لم يرتدعوا بآياته قال : ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ العَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ .

ثم أخبر سبحانه وتعالى عن مدى تبجح فرعون بملكه وعظمة بلدها وحسنها وجلال روعتها وتخرف الأنهار فيها ثم تبجحه بنفسه وانتقاصه رسول الله موسى عليه السلام بقوله : ﴿ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ ﴾ يعني : لا يكاد يظهر كلامه بسبب ما كان بلسانه من آثار تلك اللثغة التي هي شرف وجمال له وكمال فيه ، ولم تكن تحول بينه وبين أن كلَّمه الله تعالى وأوحى إليه وأنزل التـوراة بعد ذلك عليه ، وقد تنقَّصه فرعون كذلك بأنه لا أساور في يديه ولا زينة عليه ، وخفي على هذا اللعين أن من شيم النساء تحليهن بالأساور وتزينهن بألوان الزينة ، ولا يليق ذلك بالرجال فكيف بالرسل الذين هم أكمل عقلاً وأجل قدراً وأتم معرفة وأزهد في الدنيا وزينتها وأعلم بما أعد الله لأوليائه من النعيم المقيم في دار الإقامة الأبدية ؟ وليس هـــذا فحسب بل قال : ﴿ أَوْ جَاءَ مَعَهُ المَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ ، فقول فرعون : ﴿ أَوْ جَاءَ مَعَهُ المَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ . لا يحتاج الأمر إلى ذلك لأنه إن كان المراد من مجيئهم معه تعظيم الملائكة فالملائكة يعظمون ويتواضعون لمن هو دون موسى عليه السلام بكثير ، يوحي بذلك ويدل عليه ما جاء في الحديث : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما

يصنع » ، وإذا كان ذلك كذلك فكيف يكون تواضعهم لموسى الكليم عليه الصلاة والسلام ، وإن كان المراد شهادتهم له بالرسالة فقد أيّدَ بما يدل قطعاً لذوي الألباب ولمن قصد الحق واتجه إليه بقلبه من المعجزات والآيات الواضحة والحجج الباهرة القاهرة ، وأما مَنْ عَمِيَ عما جاء به صلوات الله وسلامه عليه من تلك البراهين والأدلة الساطعة فما من شك في أنه طُبِعَ على قلبه وخُتِمَ عليه وما له بعدئذ من هاد كما هو حال فرعون المسرف الكذّاب ، وما جعل قومه يَدّعونه رباً ويجعلونه إلهاً إلا لأنه استخف عقولهم كما قال تعالى : ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾ .

أي أن فرعون قد رأى في عقولهم خفة ونقصاً فما زال يستدرجهم من حال إلى حال إلى أن صدّقوه في دعواه الربوبية لعنه الله وقبحهم : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ * فَلَمَّا آسَفُونَا ﴾ أي : أغضبونا ﴿ انتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ بالغرق والإهانة وسَلْب العز والتبدل بالذل المريع وبالعذاب الأليم بعد النعمة العميمة ، والهوان بعد الرفاهية وطيب العيش ، فويلهم ما أشنع مصيرهم وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً ﴾ أي : لمن اتبعهم من الصفات ﴿ وَمَثَلاً ﴾ أي : لمن اتعظ بهم وخاف من وبيل مصرعهم وشناعة منقلبهم ممن بلغه جلية أمرهم وما كان من مدلهمات أمرهم ونهايتهم .

وقد جاء من سورة القصص آيات أُخرى وعبَر كبرى تتحدث كذلك عن عُقبى الذين حاربوا الله ورسوله وعصوه واتبعوا أمر فرعون ، فقال عز من قائل : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُفْتَرىً وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ * وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ، إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاأَيُّهَا المَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الكَاذِبِينَ * وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ

إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ، فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ، وَيَوْمَ القِيَامَةِ لاَ يُنْصَرُونَ * وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ، وَيَوْمَ القِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ (١) .

فأعلن بذلك جل شأنه أنهم لما استكبروا عن اتباع الحق وادعي ملكهم الربوبية ووافقوه على ذلك وأطاعوه اشتد غضب الرب القدير العزيز عليهم فانتقم منهم أشد الانتقام ، وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فأغرقه هو وجنوده في صبيحة واحدة فلم يفلت منهم أحد ولم يبق منهم على الأرض ديّار ، بل كُلٌّ قد غرق جزاءً وفاقاً فدخل جميعهم ناراً إذ اتبعوا أمر فرعون واتخذوه رباً لهم ، فأُتْبِعوا في هذه الدار لعنة ويوم القيامة بئس الورد المورود والرفد المرفود ، فهم يومئذ من المقبوحين . لعنة الله عليهم أجمعين .

* * *

● **هلاك فرعون وجنوده :**

لما تمادى قبط مصر يومئذ في كفرهم واستمروا في عُتوهم واستقروا على عنادهم متابعة لمُغْويهم ومُضلِّهم فرعون ، ومخالفة لنبي الله ورسوله وكليمه موسى عليه السلام ، أقام الله على أهل مصر الحجج المشرقة والأدلة الناطقة وأراهم من خوارق العادات وجلائل المعجزات ما بهر الأبصار وحيَّر العقول والأفكار ، وهم مع كل ذلك لم يؤمنوا بها ولم ينزعوا عن غيهم وضلالهم ولم يرجعوا عن استكبارهم وعتوهم وعنادهم ، بل ما ازدادوا بذلك إلا طغياناً وإصراراً فعموا وصموا وكان عاقبة أمرهم خُسراً ووبالاً عليهم فلم يؤمن منهم إلا القليل ، قيل إنهم ثلاثة : امرأة فرعون – ولا علم لأهل الكتاب بخبرها – ، ومؤمن آل فرعون الذي تقدم الحديث عن موعظته البالغة ومشورته المشرقة

(١) القصص : ٣٦ - ٤٢

وحجته الباهرة ، والرجل الناصح الذي جاء من أقصا المدينة يسعى فيقول لموسى عليه السلام : ﴿ يَا مُوسَى إِنَّ المَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾(١) . قاله ابن عباس فيما رواه ابن أبي حاتم عنه ، ومراده غير السحرة فإنهم آمنوا وصدّقوا وقد كانوا من القبط رضى الله عنهم ورضوا عنه .

وقيل : بل آمن به طائفة من القبط من آل فرعون وجميع السحره وسائر شعب بني إسرائيل ، ويشهد بصدق هذا قوله تعالى : ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِن فِرْعَوْنَ وَمَلإِيْهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ ، وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ المُسْرِفِينَ ﴾ (٢) . . جاء ذلك في سورة يونس عليه السلام ، وقد كان إيمانهم خفية لخشيتهم وخوفهم من فرعون وجبروته وطغيانه وشمول سطوته لبلاده وجميع مملكته وخيفة ملئه أن يَنمُّوا عليهم إليه فيفتنهم عن دينهم .

وقد قال الله تعالى مخبراً عن فرعون وشاهداً بكفره وعُتوه واستكباره وكفى بالله شهيداً : ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ ﴾ أى : جبار عنيد يسيطر عليه الباطل ويشتغل بغير الحق ﴿ وَإِنَّهُ لَمِنَ المُسْرِفِينَ ﴾ أى : في جميع أموره وسائر تصرفاته ومعاملاته وأحواله وإنه لجرثومة فساد قد حان اجحافها (٣) ووجب قطعها والقضاء على هذه الآفة الخبيثة والمرض السام والسرطان الفاتك حتى لا يمتد إلى أكثر من ذلك ولا إلى أبعد ممن خدعهم وأضلهم سواء السبيل .

ولما خشى من آمن بموسى وآياته من فرعون وطغيانه قال لهم موسى : ﴿ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ * فَقَالُوا عَلَى اللهِ

---

(١) القصص : ٢٠ .   (٢) يونس : ٨٣ .   (٣) الاجحاف : الاقتلاع والاستئصال .

تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) فأمرهم بالتوكل على الله ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (٢) ، كما وجههم إلى الاستعانة به والالتجاء إليه فأتمروا بما أمرهم به واعتمدوا على ربهم وتوكلوا على مولاهم ، فجعل لهم مما كانوا فيه فرجاً ومخرجاً .

ففي هذه اللحظة الرهيبة والوقت العصيب يوحى الله تعالى إلى موسى وأخيه هارون عليهما السلام بما يُعده لهم من فرج عظيم ومخرج كبير إذ يقول جل شأنه : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

نعم أوحى الله إليهما أن يتخذا لقومهما بيوتاً متميزة فيما بينهم عن بيوت القبط في ذلك الوقت ليكونوا على أهبة الرحيل والاستعداد الكامل إذا أمروا به في أى ساعة من ليل أو نهار ، وعلى أن يعرف بعضهم بيوت بعض ، قيل معناه : كثرة الصلاة فيها . قاله مجاهد وأبو مالك وإبراهيم النخعي والربيع والضحاك وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن وغيرهم . ومعناه على هذا : الاستعانة على ما هم فيه من الضُّر والشدة والضيق بكثرة الصلاة كما قال تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ ﴾(٤) ، « وكان رسول الله ﷺ

(١) يونس : ٨٤ - ٨٦

(٢) الطلاق : ٣

(٣) يونس : ٨٧

(٤) البقرة : ٤٥

إذا حَزَبَهُ أمْرٌ صَلّى » ، وقيل معناه : أنهم لم يكونوا حينئذ يقدرون على إظهار عبادتهم في مجتمعاتهم ومعابدهم فأُمروا أن يُصَلُّوا في بيوتهم وأن يقيموا شعائر دينهم فيها فإن حالهم يقتضي ذلك ويستدعيه ، وذلك خوفاً من فرعون وملئه وشنيع ظلمهم وبشاعة جرمهم وعنادهم وإلحاق الأذى بهم وتحويلهم عن دينهم ، ولهذا توجّه موسى بالدعوات عليهم والالتجاء إلى ربه بالتضرع والابتهال إليه : ﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأمْوالاً فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ، رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا العَذَابَ الأَلِيمَ * قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الذِّينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

فهذه الدعوة العظيمة التي دعا بها كليم الله موسى عليه السلام على عدو الله فرعون كانت غضباً لله عليه لتكبره عن اتباع الحق وصده عن سبيل الله ومعاندته وعتوه وتمرده واستمراره على الباطل ومكابرته الحق الواضح الجلي الحسي والمعنوي والبرهان القطعي وهذه الدعوة هى التي يرشد إليها قوله : ﴿ رَبَّنَا إنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَملأهُ ﴾ : أى قومه من القبط ومن كان على ملته ودان بدينه ﴿ زِينَةً وَأمْوالاً فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ﴾ . أي : هذا يغتر به من يُعَظِّم أمر الدنيا وتستهويه

---

(١) يونس : ٨٨ – ٨٩

أعراضها وتستحوذ عليه القناطير المقنطرة والخيل المسومة والأنعام والحرث التي تستعبد ضعاف القلوب فيها فيحسبهم الجاهل أنهم على شيء وما هم على شيء ، إن هي إلا متاع الغرور ، فإن هذه الأموال وتلك الزينة من اللباس والمراكب الحسنة الهنية والدور الأنيقة والقصور الشاهقة والمآكل الشهية والمناظر البهية والملك العزيز والجاه العريض إن هي إلا متاع زائل وعرض فان لا ينطلي ولا يأخذ إلا بألباب ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ (١) . وقوله : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : أي أهلكها ، وقال أبو العالية والربيع بن أنس والضحاك : اجعلها حجارة منقوشة كهيئة ما كانت ، وقال ذلك غيرهم .. وقوله : ﴿ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا العَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ قال ابن عباس : أي اطبع عليها . وهذه دعوة غضب لله تعالى ولبراهينه وآياته .

ولما كانت لله وغضباً لمولاه ، فقد استجاب لها الله وحققها وتقبلها كما استجاب لنوح في قومه حين دعا عليهم فقال : ﴿ رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ (٢) يدل على استجابته وقبول دعوته ما قال تعالى مخاطباً لموسى حين دعا على فرعون وملئه وأمَّن أخوه هارون على دعائه فنزل ذلك منزلة الداعي أيضاً :﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

* * *

• خروج بني إسرائيل فراراً من فرعون وملئه إلى بلاد الشام :

قال المفسرون وغيرهم من أهل الكتاب : استأذن بنو إسرائيل فرعون في

(١) الكهف : ١٠٤ (٢) نوح : ٢٦ - ٢٧ (٣) يونس : ٨٩

الخروج إلى عيد لهم فأذن وهو كاره لذلك ، ولكنهم تجهزوا للخروج وتأهبوا له ، وقد كان ذلك في نفس الأمر مكيدة بفرعون وجنوده ليتخلصوا منهم ويخرجوا عنهم . وأمرهم الله تعالى أن يستعبروا حلياً منهم فأعاروهم شيئاً كثيراً (١) فخرجوا بليل مسرعين ذاهبين من فورهم طالبين بلاد الشام . فلما علم ذلك فرعون حنق عليهم كل الحنق واشتد غضبه عليهم وشرع في استحثاث جيشه وجمع جنوده ليلحق بهم ويمحقهم ويبيدهم ظلماً وعدواناً .

والله لا يدع أولياءه لإهانتهم وفتنتهم بل سارع إليهم بفضله ورحمته بهم . قال تعالى في سورة الشعراء : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا ، إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ، فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ * وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢) .

وأي آية تعتبر بها الأجيال تلو الأجيال وتتعظ بها القرون تلو القرون ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (٣) ، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (٤) .

قال علماء التفسير : لما ركب فرعون في جنوده طالباً بني إسرائيل يقفو

---

(١) ليس لهذا الخبر في المصادر الإسلامية من سند - وحاشا لله أن يأمر أولياءه بسلب الناس أموالهم - ولعله من الإسرائيليات التي دسوها على قصص الأنبياء ليبرروا بعد ذلك نهبهم للشعوب والأمم التي يوقعها سوء الحظ في أيديهم (المراجع) .

(٢) الشعراء : ٥٢ - ٦٨ (٣) الزمر : ٢١ (٤) سورة ق : ٣٧

أثرهم ويتبع خطاهم كان في جيش كثيف عرمرم حتى قيل : كان في خيوله مائة ألف فحل أدهم ، وكانت عدة جنوده تزيد على ألف ألف وستمائة ألف - أى عبارة عن مليون وستمائة ألف - والله أعلم بحقيقة الواقع ومقدار العدد ، وقيل: إن بني إسرائيل كانوا نحواً من ستمائة ألف مقاتل غير الذرية ، وكان بين خروجهم من مصر صحبة موسى عليه السلام ودخولهم إليها صحبة أبيهم إسرائيل أربعمائة وستاً وعشرين سنة .

وقد لحق بهم فرعون وجنوده عند شروق الشمس وتراءى الجمعان ولم يبق ثَمَّ ريب ولا لبس في ذلك ، إذ عاين كل من الفريقين صاحبه وتحققه ورآه بعين البصر ، ولم يبق حينئذ إلا المقاتلة وشن الحرب بينهما وقيام المجادلة فيهما ، فعند ذلك قال أصحاب موسى وهم في شدة الخوف وخشية الفتك بهم : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾.

وذلك لأنهم اضطروا في طريقهم إلى البحر ، وليس لهم طريق ولا محيد إلا سلوكه وخوضه ، وهذا ما لا يستطيعه أحد ولا يقدر عليه ، والجبال عن ميسرتهم وعن أيمانهم ، وهى شاهقة منيعة ، وفرعون قد غالقهم وواجههم وعاينوه في جيوشه وجنوده وعُدده وعَدده ، وهم منه في دائرة الخوف وفي محيط الذعر ، فدعاهم هذا الحال إلى بث شكواهم وحزنهم إلى نبي الله ونبيهم موسى عليه السلام مما هم فيه وما شاهدوه وعاينوه ، فقال لهم الرسول الصادق مطمئناً: ﴿ كَلاَّ ، إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾وقد كان في الساقة فتقدم في الطليعة ونظر إلى البحر تتلاطم أمواجه ويتزايد زَبَدُ أجاجه وهو يقول : ههنا أمرت وفي صحبته أخوه هارون ويوشع بن نون وهو من سادات بني إسرائيل وعلمائهم يومئذ فضلا عن عبادهم ، وقد أوحى الله إليه وجعله نبياً بعد موسى وهارون عليهما السلام كما سيأتي الحديث عنه فيما بعد إن شاء الله تعالى ، وكذلك كان معهم مؤمن آل فرعون وهم وقوف .

وقد عكف عليهم بنو إسـرائيل يحرسونهم ويحمونهم من جبابرة فرعون وجنوده ، ويقال : إن مؤمن آل فرعون جعل يقتحم البحر بفرسه مراراً هل يمكن سلوكه فلم يمكن وهو يقول لموسى : يانبي الله ، ههنا أمرت ؟ فيقول : نعم ! !

فلما تفاقم الأمر واشتد الكرب وعظم الخطب واقترب فرعون وجنوده حتى صار قاب قوسين منهم ، وزاغت الأبصار وتحيرت الأفكار وبلغت القلوب الحناجر ، عندئذ أوحى العظيم القدير الذي لا يغلبه غالب إلى موسى عليه السلام ﴿ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾ فلما ضربه بعصاه يقال إنه قال له : انفلق بإذن الله ، فكان ما طلب . ولذا قال يُعَبِّر عن ذلك : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ، فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ ويقال : إنه انفلق اثنى عشر طريقاً لكل سبط طريق يسيرون فيه ، وعناية بهم ورحمة بهم وفضلاً عليهم ، أمر الله تعالى ريح الدَّبور ؟ فمحت حال [1] البحر فأذهبته حتى صار يابساً لا يعلق في سنابك الخيول والدواب ، فلا يقف في طريقهم شيء يعطلهم عن السير إلى الشاطيء ، ينطــق بهــذا ويتحدث به قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لاَ تَخَافُ دَرَكاً وَلاَ تَخْشَى * فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ * وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴾ [2] .

ولما صار أمر البحر – بإذن الله تعالى – على هذا الحال وتلك الصورة ، أمر موسى عليه السلام أن يجوزه ببني إسرائيل ، فانحدروا فيه مسرعين مستبشرين وقد شاهدوا من الأمر العظيم والتحوُّل المبين ما يُحير العقول ويستلفت الأبصار ويهدي قلوب المؤمنين إلى الإيمان بقدرة من يقول للشيء كن فيكون ، فلما جازوه وجاوزوه وخرج آخرهم منه وانفصلوا عنه ، كان ذلك باعثاً ودافعاً لفرعون على اجتيازه واللحاق بهم في ثورة جيشه وجنوده حتى يفتكوا بهم ويقضوا عليهم .

ولما أراد موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه ليعود كما كان عليه أمره الله تعالى أن يتركه على هذا الحال ليقضي قضاءه فيهم ويُجري حكمه عليهم يحدثنا عن ذلك ما جاء في سورة الدخان من قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَـــاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ ،

---

(١) الحال : الطين الأسود .

(٢) طه : ٧٧ – ٧٩

إنّي لكُمْ رَسُولٌ أمينٌ * وأنْ لاَ تعْلُوا علَى اللهِ ، إنّي آتيكُم بسُلْطانٍ مُبينٍ * وإنّي عُذْتُ بربّي وربّكُمْ أن ترْجُمُونِ * وإنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لي فَاعْتَزِلُونِ * فَدَعَا ربَّهُ أنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ * فَأَسْرِ بعِبَادي لَيْلاً إنّكُم مُتّبَعُونَ * واتْرُكِ البَحْرَ رَهْواً ، إنّهُمْ جُندٌ مُغْرَقُونَ * كَمْ تَرَكُوا مِن جَنّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلكَ وأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ * وَلَقَدْ نَجّيْنَا بَني إسْرَائيلَ مِنَ العَذَابِ المُهِينِ * مِنْ فِرْعَوْنَ ، إنّهُ كَانَ عَالياً مِنَ المُسْرِفِينَ * وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى العَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الآيَاتِ مَا فيه بَلاءٌ مُبِينٌ ﴾ (١) .

فقوله تعالى : ﴿ واتْرُكِ البَحْرَ رَهْواً ﴾ أي : ساكناً على هيئته لا تُغيّره عن هذه الصفة قاله عبدالله بن عباس ومجاهد وعكرمة والربيع والضحّاك وقتادة وكعب الأحبار وسمّاك بن حرب وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم .

فلما تركه على هيئته وحاله والصورة التي هو عليها وانتهى فرعون إلى هذا المنظر الخارق ورأى ما رأى وعاين ما عاين ، هاله ذلك المنظر العظيم والأمر الخطير وتحقق ما كان يتحققه من قبل من أن ذلك من فعل الرب القادر الفعّال لما يريد ، فأحجم عن السير في الطريق الذي شقته القدرة الإلهية في البحر ولم يتقدم لاجتيازه ، وندم في قرارة نفسه على خروجه في طلبهم والحالة هذه والأمر كما شاهد وعاين ولات حين مندم ، لكنه مع ذلك أظهر لجنوده تجلداً وحملته نفسه الشريرة وسجيته الخبيثة على أن أوهم من استخفهم من قومه واتبعوه منهم أن البحر إنما انحسر لي كما ترون لأدرك عبيدي الآبقين من يديّ الخارجين على طاعتي ، وجعل يوهمهم أنه ينزل خلفهم ويسير وراءهم ويرجو في نفسه أن ينجو ويمنيها بذلك وهيهات هيهات ، وقد كان يُقدم تارة ويُحجم تارات ، وبينما هو يتردد كذلك ويجول بخاطره ما يجول من الآمال ، إذ أرسل الله جبريل عليه السلام في صورة فارس راكب على رمكة حائل (٢) ، فَمَرَّ بين يدي فحل فرعون - لعنه الله -

(١) الدخان : ١٧ - ٣٣ .

(٢) الرمكة : الفرس ، والحائل : التي لم تلقح .

فَحَمْحَم إليها وأقبل عليها وأسرع جبريل بين يديه فاقتحم البحر واستبق الجواد وقد أجاد في ذلك وبادر مسرعاً وفرعون لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، فلما رأته الجنود وقد سلك البحر ونزل بجواده اقتحموا وراءه مسرعين ، فحُصروا في البحر أجمعين ، وقد همَّ أولهم بالخروج منه فلم يمكنهم كفرهم وعتوهم من ذلك إذ أمر الله تعالي كليمه فيما أوحاه إليه أن يضرب بعصاه البحر فضربه فانطبق عليهم ولم ينج أحد منهم ، وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) أي : في إنجائه أولياءه فلم يغرق منهم أحد ، وإغراقه أعداءه فلم ينج منهم أحد ، نعم .. إنها آية عظيمة وبرهان قاطع على قدرته العظيمة وصدق رسوله فيما جاء به عن ربه من الشريعة الغراء والطريقة البيضاء ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ، وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ (٢) .

وإيضاحاً لما تَحَدَّثت عنه الآيات السابقة وإتماماً للموضوع يقول تعالى : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ البَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً ، حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ المُسْلِمِينَ * ءَالآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ المُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ، وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ (٣) .

يخبر تعالى بهذه الآيات عن كيفية غرق فرعون مصدر الكفر ورأس الكفرة وزعيمهم في ذلك الحين ، وقد كانت ترفعه الأمواج تارة وتخفضه أخرى وبنو إسرائيل ينظرون إليه وإلى جنوده ماذا أحل الله به وبهم من البأس الشديد والخطب المريع ليكون ذلك أقر لأعين بني إسرائيل وأشفى لقلوبهم وصدورهم ، فلما عاين فرعون الهلكة ورأى أنه أحيط به وباشر سكرات الموت أناب حينئذ

---

(١) الشعراء : ٦٦ - ٦٨ (٢) الأنعام : ١٥٣ (٣) يونس : ٩٠ - ٩٢

وتاب ، وقد جاء هذا الإيمان وكانت التوبة حين ﴿ لاَ يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً ﴾ (١) ، كما يرشد إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ (٢) .. كانت هاتان الآيتان من بين آيات سورة يونس .

وقال تعالى مؤيداً لذلك : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ، سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٣) فعبَّرت هاتان الآيتان اللّتان أشرقتا من بين آيات سورة غافر عن أن الإيمان لم يُجده ولم ينفعه وقت حلول سكرات الموت وشدائده به .

وقد تحقق دعاء موسى بهم إذ دعا على فرعون وملئه بقوله : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ أي : حين لا ينفعهم ذلك ويكون حسرة عليهم ، وقد حقق الله لهما حين دعوا بذلك في قوله : ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا ﴾ عليهما السلام .

ومما يقطع بعدم إيمانه أيضاً ، الحديث الذي رواه الإمام أحمد وروايته هكذا : حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن سَلمَة عن عليّ بن زيد عن يوسف ابن مهران عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « لما قال فرعون ﴿ آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴾ قال لي جبريل : لو رأيتني وقد أخذت من حال البحر فدَسَسْتُهُ في فيه مخافة أن تناله الرحمة » .

ورواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم عند هذه الآية من رواية حماد بن سلمة ، وقال الترمذي : حديث حسن .

وقال أبو داوود الطيالسي : حدثنا شعبة عن عَديّ بن ثابت وعطاء بن السائب

---

(١) الأنعام : ١٥٨ (٢) يونس : ٩٦ - ٩٧ (٣) غافر : ٨٤ - ٨٥

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « قال لي جبريل: لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فم فرعون مخافة أن تناله (١) الرحمة » .

ورواه الترمذي وابن جرير من حديث شعبة ، وقال الترمذي : حسن غريب صحيح ، وأشار إليه ابن جرير في رواية أبي قفه .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد الأحمر ، عن عمر بن عبدالله بن يعلي الثقفي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : « لما أغرق الله فرعون أشار بأصبعه ورفع صوته ﴿ آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴾ ، قال : فخاف جبريل أن تسبق رحمة الله فيه غضبه ، فجعل يأخذ الحال بجناحيه فيضرب به وجهه فيرمسه »(٢) . ورواه ابن جرير من حديث أبي خالد به .

وعن أبي حازم ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال لي جبريل عليه السلام : لو رأيتني وأنا أغطه وأدس من الحال في فيه مخافة أن تدركه رحمة الله فيغفر له » .. يعني فرعون .

وقد أرسله غير واحد من السلف كإبراهيم التيمي وقتادة وميمون بن مهران، ويقال إن الضحاك بن قيس خطب به الناس ، وفي بعض الروايات أن جبريلُ قال: « ما بغضت أحداً بغضى لفرعون حين قال : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴾ (٣) ولقد جعلت أدس في فيه الطين حين قال ما قال » .

وقوله تعالى : ﴿ ءَ الآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ استفهام إنكار ، وقد نص على عدم قبوله تعالى الإيمان منه لأنه تعالى يعلم أنه لو رُدَّ إلى الدنيا كما كان لعاد إلى ما كان عليه قبل هلاكه ، كما أخبر تعالى عن

(١) أي : أن تدركه (٢) أي : يدفنه
(٣) النازعات : ٢٤

الكفار إذا عاينوا النار وشاهدوا لهيبها أنهم يقولون : ﴿ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) فكذبهم في قولتهم حيث قال : ﴿ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ ، وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (٢) .

ولما شك بعض بني إسرائيل في موت فرعون وهلاكه طرحه البحر إلى الشاطئ حتى تطمئن قلوبهم وتهدأ نفوسهم ، لذلك قال تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾ (٣) .

قال ابن عباس وغير واحد : شك بعض بني إسرائيل في موت فرعون ، حتى قال بعضهم : إنه لا يموت ، فأمر الله البحر فرفعه على مرتفع ، قيل : على وجه الماء ، وقيل : على نجوة من الأرض وعليه درعه التي يعرفونها من ملابسه ليطمئنوا على أنفسهم ويتحققوا من موته فيأمنوا على حياتهم ويعلموا مدى قدرة القادر ، وأنه إذا قال لشيء كن فيكون ، ولهذا قال : ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ أي : مع درعك المعروفة لهم ﴿ لِتَكُونَ ﴾ أنت ﴿ لِمَنْ خَلْفَكَ ﴾ : أي : من بني إسرائيل . ﴿ آيَةً ﴾ : أي عبرة لغيرك من الأمم والجبابرة بعدك ، ودليلا يتحدث عن مدى قدرة القادر ، وأخذه العتاة والمتكبرين أخذ عزيز مقتدر ، وقد كان هلاكه وجنوده يوم عاشوراء .

ويشهد بهلاكه في هذا اليوم ما قاله البخاري في صحيحه : حدثنا محمد ابن بَشَّار ، حدثنا غُنْدَرْ حدثنا شُعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قدم النبي ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء فقال : « ما هذا اليوم الذي تصومونه » ؟ فقالوا : هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون . قال النبي ﷺ لأصحابه : « أنتم أحق بموسى منهم .. فصوموا » . وأصل هذا الحديث في الصحيحين وغيرهما .

* * *

(١) الأنعام : ٢٧ (٢) الأنعام : ٢٨ (٣) يونس : ٩٢

• بنو إسرائيل بعد هلاك فرعون :

تتطور الأحداث تطوراً سريعاً وتسير في الطريق الذي رسمه الله لهذه الحياة ، وخططته يد القدرة الإلهية لهذا الوجود ، ولا تنتظم الممالك الربانية ولا يتحقق العمران إلا على هُدَى تلك الخطوط المرسومة ، وذلك الطريق القويم ، والأحداث وحدها تُوحي بذلك وتهدي إليه وتنطق العبر والآيات التي تتجدد بتجدد الوقائع في صحائف هذا العالم وأيامه ، ولا يخلو زمن منها . وأخطر الأحداث وأعظمها شأناً ، تلك الأحداث التي مرّت بموسى ومن آمن معه من بني إسرائيل، وما حل بفرعون وجنوده من آيات ربه الكبرى وجعلها الله موعظة وذكرى ﴿ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (١) . نعم .. إنها انتهت إلى ما كتبه قلم القدرة في اللوح المحفوظ مما في علمه القديم ، تتجلى هذه الأحداث ويحدثنا عنها ما جاء في سورة الأعراف من قوله تعالى : ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ * وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ، وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ * وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ، قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُم مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ، يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ، وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾(٢).

يذكر الله تعالى في هذه الآيات البينات ما كان من أمر فرعون وجنوده في غرقهم وكيف سلبهم عزهم ومالهم وأنفسهم وأورث بني إسرائيل جميع أموالهم وأملاكهم كما قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (٣) . وقال: ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ (٤) . وقال ههنا في سورة الأعراف التي تحدثنا عنها :

---

(١) سورة ق : ٣٧ .
(٢) الأعراف : ١٣٦ - ١٤١ .
(٣) الشعراء : ٥٩ .
(٤) القصص : ٥ .

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ، وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ . أي : أهلك الله ذلك جميعه وسلبهم عزهم الواسع في الدنيا وهلك ذلك الملك (فرعون) وحاشيته وأمراؤه وجنوده ، ولم يبق بمصر وقتئذ سوى العامة والرعايا الذين لم يسيروا وراءهم وظلوا بها لظروفهم التي لم تمكنهم من ذلك ، والحكمة يعلمها الله تعالى .

وقد ذكر ابن عبد الحكم في « تاريخ مصر » أنه من ذلك الزمان تسلط نساء مصر على رجالها بسبب أن نساء الأمراء والكبراء تزوجن بمن دونهن من العامة فكان لهن السلطان عليهم ، واستمرت هذه سنة نساء مصر إلى يومنا هذا .

ثم أخذ يقص سبحانه وتعالى قصة بني إسرائيل وما صادفهم في طريقهم فقال تعالى : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ، قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[1] قالوا هذا الجهل والضلال ، وقد عاينوا من آيات الله وقدرته ما دلّهم وبرهن لهم على صدق ما جاءهم به رسول ذي الجلال والإكرام ، وذلك أنهم مرُّوا على قوم يعبدون أصناماً - قيل كانت على صُور البقر - فكأنهم سألوهم لمَ يعبدونها ، فزعموا لهم أنها تنفعهم وتضرهم ويسترزقون بها عند الضرورات، فكأن بعض الجهّال منهم صدّقوهم في ذلك فسألوا نبيهم العظيم موسى عليه السلام أن يجعل لهم آلهة كما لأولئك آلهة ، فقال عليه السلام مبيناً أنهم لا يعقلون ولا يهتدون : ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

ثم ذكّرهم نعمة الله عليهم في تفضيله إياهم على عالمي زمانهم بالعلم والشرع

(١) الأعراف : ١٣٨ - ١٣٩

والرسول الذي بين أظهرهم ، وما أحسن به إليهم وما امتَنَّ به عليهم من إنجائهم من قبضة فرعون الجبار العنيد وفرض سلطانه وسطوته عليهم ، وإهلاكه إياه وهم ينظرون ، وتوريثه إياهم ما كان فرعون وملؤه يجمعونه من الأموال والعتاد ويحيط بهم من ألوان السعادة وأنواع العز والسلطان ، وما كانوا يعرشون من القصور والدور ، وبيّن لهم أنه لا تصلح العبادة إلا لله وحده لا شريك له لأنه الخالق الرازق القهّار ، وما صدر هذا السؤال من كل بني إسرائيل ، فالضمير إنما يعود على الجنس في قوله تعالى : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ، قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ [1] أي : قال بعضهم ذلك كما في قوله : ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً * وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً ﴾ [2] فالذين زعموا هذا بعض الناس لا كلهم ، وقد جاء قوله : ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴾ بين آيات سورة الكهف .

وقد قال الإمام أحمد : إن مثل ذلك السؤال جاء في عهد رسولنا ﷺ وإليك روايته : حدثنا معمر عن الزهري عن سنان بن أبي سنان الدّيلي عن أبي واقدْ الليثي قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين فمررنا بسدْرة فقلنا : يا رسول الله ، اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط – وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها – فقال النبي ﷺ : « الله أكبر .. هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ إنكم تركبون سنن الذين من قبلكم » .

ورواه النسائي عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق به ، ورواه الترمذي عن سعيد ابن عبد الرحمن المخزومي عن سفيان بن عيينة عن الزهري به ، ثم قال : حسن صحيح .

---

(١) الأعراف : ١٣٨ – ١٣٩ (٢) الكهف : ٤٧ – ٤٨

وقد روى ابن جرير من حديث محمد بن إسحاق ومعمر وعقيل عن الزهري عن سنان بن أبي سنان عن أبي واقد الليثي : أنهم خرجوا من قلة مع رسول الله ﷺ إلى حنين قال : وكان للكفار سدرة يعكفون عندها ويُعلّقون بها أسلحتهم يقال لها « ذات أنواط » قال : فمررنا بسدرة خضراء عظيمة ، قال : فقلنا : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . قال : « قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى : ﴿ اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلاَءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

ولما انفصل موسى عليه السلام من بلاد مصر وواجه بلد بيت المقدس وجد فيها قوماً من الجبارين الحيثانيين والفَزَاريين والكنعانيين وغيرهم . أمر موسى من معه بالدخول عليهم ومقاتلتهم وإجلائهم إياهم عن بيت المقدس فإن الله كتبه ووعدهم إياه على لسان إبراهيم الخليل عليه السلام وموسى الكليم عليه السلام ، فأبوا ونكلوا عن الجهاد فسلط الله عليهم الخوف وألقاهم في التيه يسيرون ويحلون ويرتحلون ويذهبون ويجيئون في مدة طويلة من السنين تقدر بأربعين عاماً كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ العَالَمِينَ * يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ * قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ البَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ، وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا ، فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي ، فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ القَوْمِ الفَاسِقِينَ * قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ ، فَلاَ تَأْسَ عَلَى القَوْمِ الفَاسِقِينَ ﴾ (٢) .

---

(١) الأعراف : ١٣٨ - ١٣٩

(٢) المائدة : ٢٠ - ٢٦

جاءت هذه الآيات القويمة بين آيات سورة المائدة وتجلت معبرة أصدق تعبير عن روائع وآيات من قصة موسى عليه السلام يذكرهم بها نعمة الله عليهم وإحسانه إليهم دنيا وديناً ، ويأمرهم بالجهاد في سبيل الله ومقاتلة أعدائه إذ يقول : ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ ﴾ أي : تنكصوا على أعقابكم وتنكلوا عن قتال أعدائكم ﴿ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ أي : فتخسروا بعد الربح وتنقصوا بعد الكمال .

فلما ذكرهم بنعم الله عليهم وأمرهم بدخول الأرض المقدسة التي جعلها الله لهم قالوا : ﴿ يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ ﴾ أي : عتاة كفرة متمردين ﴿ وإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾ خافوا من هؤلاء الجبارين وقد عاينوا هلاك فرعون وهو أجبر من هؤلاء ، وأشد بأساً وأعظم سطوة وسلطاناً ، وأكبر جمعاً وأكثر جنداً ، وهذا يدل على أنهم مَلومُون على مقالتهم هذه ومذمومون على هذه الحالة من الذلة والنكوص عن مُصاولة الأعداء ومقاومة ومقاتلة المردة الأشقياء .

ولما نكصوا عن الدخول كما ذكرنا ﴿ قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ أي : يخافون الله ويهابون سلطانه وقد ﴿ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ بالإسلام والإيمان والطاعة والشجاعة ﴿ ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ، وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ ﴾ أي : إنكم إذا توكلتم على الله واستعنتم به ولجأتم إليه نصركم نصراً عزيزاً على عدوكم وأيدكم عليهم وأظفركم بهم .

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا ، فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ فصمم ملؤهم بذلك على عدم الجهاد وأصروا على النكول عنه .

ويقال : إن يوشع وكالب لما سمعا هذا الكلام كان له وقع أليم في نفسيهما وأن موسى غضب لله عز وجل من مقالتهم هذه وشفقة عليهم من عقباها وأنهم بذلك قد شقوا عليه عصا الطاعة ولذلك قال عليه السلام يخاطب ربه ويناجيه :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الفَاسِقِينَ ﴾ قال ابن عباس : اقض بيني وبينهم ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ ، فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الفَاسِقِينَ ﴾ عوقبوا على نكولهم بالتيهان في الأرض يسيرون إلى غير مقصد ليلاً ونهاراً وصباحاً ومساءً ، ويقال : إنه لم يخرج أحد من التيه ممن دخله بل ماتوا جميعاً في مدة أربعين سنة ولم يبق إلا ذراريهم ، سوى يوشع وكالب عليهما السلام .

لكن أصحاب محمد ﷺ - يوم بدر - لم يقولوا له كما قال قوم موسى لموسى ، بل إنه ﷺ لما استشارهم في الذهاب إلى النفير والسير إلى مقاتلة الكفرة الألداء ، تكلم الصدّيق فأحسن ، وتكلم غيره من المهاجرين .

ثم جعل ﷺ يقول : « أشيروا على » حتى قال سعد بن معاذ : « كأنك تُعَرِّض بنا يا رسول الله ؟ ، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضْت بنا هذا البحر فَخُضْتَهُ لخُضْنَاهُ معك ما تَخَلَّف منا رجل واحد وما نُكْرَه أن تلقي بنا عدوّنا غداً، إنا لَصُبَرٌ في الحرب صُدُقٌ في اللقاء ، لعل الله أن يريك منا ما تَقَرُّ به عينك فسر بنا على بركة الله » . فَسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان عن مخارق بن عبدالله الأحمسى عن طارق - هو ابن شهاب - : أن المقداد قال لرسول الله ﷺ يوم بدر : « يا رسول الله ، إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنَّا معكما مقاتلون » .

وهذا إسناد جيد من هذا الوجه وله طرق أُخرى .

قال أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا إسرائيل عن مخارق عن طارق ابن شهاب قال : قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : لقد شهدت من المقداد مشهداً لأن أكون أنا صاحبه أحب إلىّ مما عدل به . أتى رسول الله ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال : والله يا رسول الله لا نقول لك كما قالت

بنو إسرائيل لموسى : ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ ولكننا نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك ، فرأيت وجه رسول الله ﷺ يُشرق لذلك ، وسُرَّ بذلك .(رواه البخاري في التفسير والمغازي من طرق ، عن مخارق به) .

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه : حدثنا عليّ بن الحسين بن عليّ : حدثنا أبو حاتم الرازي ، حدثنا محمد بن عبدالله الأنصاري ، حدثنا حميد عن أنس : أن رسول الله ﷺ لما صار إلى بدر استشار المسلمين فأشار عليه عمر ، ثم استشارهم فقالت الأنصار : يا معشر الأنصار ، إياكم يريد رسول الله ﷺ ، قالوا : إذن لا نقول له كما قال بنو إسرائيل لموسى : ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ والذي بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى برك الغماد[1] لاتبعناك . (رواه الإمام أحمد عن عبيدة بن حميد عن حميد الطويل عن أنس به ، ورواه النسائي عن محمد بن المثنى عن خالد بن الحارث عن حميد عن أنس به نحوه . وأخرجه ابن حبان في صحيحه عن أبي يعلي عن عبد الأعلى بن حماد عن معتمر[2] عن حميد عن أنس به نحوه) .

* * *

• عقاب بني إسرائيل بالتيه بعد أن أنكروا النعم التي أسبغها الله عليهم :

لما أمر موسى قومه بدخول الأرض المقدسة بقوله : ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ نكصوا على أعقابهم وأظهروا نكولهم وعصيانهم وأبوا القيام بقتال الجبابرة والعتاة فيها ، حيث كان ردهم على موسى وإجابتهم له

(١) برك الغماد : موضع باليمن أو وراء مكة بخمس ليال ، أو أقصى معمور الأرض .
(٢) عن معمر .

على هذا النحو : ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا ﴾ فعاقبهم الله بالتيه وقضى عليهم بأنهم لا يخرجون منه إلى أربعين سنة ، فكان لا يهدأ لهم بال ولا يستريح لهم قلب ولا تطمئن لهم راحة ، بل كانوا على حط وترحال دائماً يسيرون ويحلون ويرتحلون ، فهم في شقاء أليم وعناء استقر بهم واستمروا فيه لا يدرون للحياة طعماً ، ولا يعرفون للإقامة حيناً ووقتاً ، ولا كيف يفملون بحياتهم ولا كيف يتصرفون في أوقاتهم ومعايشهم .

قال أهل الكتاب : دخل بنو إسرائيل البرية عند سيناء في الشهر الثالث من خروجهم من مصر ، وكان خروجهم في أول السنة التي شُرِعت لهم وهي أول فصل الربيع ، فكأنهم دخلوا التيه في أول فصل الصيف ، وما استحقوا عقاب ربهم ذلك ولا استوجبوا غضبه عليهم إلا بعد أن أغدق عليهم نعمه وخالفوا أوامر رسولهم ولم يستجيبوا له ، ولذا قال تعالى في سورة طه : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ المَنَّ وَالسَّلْوَى * كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلاَ تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ، وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى * وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ (١) .

يذكر سبحانه وتعالى في هذه الآيات الرائعة مِنَّتَهُ وإحسانه إلى بني إسرائيل بما أنجاهم من أعدائهم وخلصّهم من الضيق والحرج الذي حل بهم ، وأنه وعدهم صحبة نبيهم إلى جانب الطور الأيمن - أي منهم - لينزل عليه أحكاماً عظيمة فيها مصلحة لهم في دنياهم وأخراهم ، وأنه تعالى أنزل عليهم في حال شدتهم وضرورتهم وسفرهم في الأرض التي ليس فيها زرع ولا ضرع مَنّاً من السماء فيجدونه خلال بيوتهم فيأخذون منه قدر حاجتهم في ذلك اليوم إلى مثله من الغد ، ومن ادّخر منه لأكثر من ذلك فسد ، ومن أخذ منه قليلاً كفاه ، أو كثيراً

---

(١) طه : ٨٠ - ٨٢

لم يفضل عنه ، فيصنعون منه مثل الخبز وهو في غاية البياض والحلاوة ، فإذا كان في آخر النهار غَشِيَهم طيْرُ السلوى فيقتنصون منه ما يحتاجون إليه حسب كفايتهم لعشائهم .

وإذا كان فصل الصيف ظلّل عليهم الغمام - وهو السحاب - الذي يحجب عنهم حر الشمس ويستر ضوءها الباهر ، كما قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ * وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ، وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونَ ﴾[١] إلى أن قال : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ * ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُم مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[٢] . إلى أن قال : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ، كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ، وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[٣] . ولم يقف في تعداد نعمه عليهم عند ذلك بل قال كذلك : ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ، فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً ، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ، كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ، قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ، اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾[٤] .

---

(١) البقرة : ٤٠ - ٤١
(٢) البقرة : ٤٩ - ٥٢
(٣) البقرة : ٥٧
(٤) البقرة : ٦٠ - ٦١

فذكر تعالى كذلك إنعامه عليهم بما يُسِّرَ لهم من المنّ والسلوى طعامين شهيين بلا كلفة ولا سعى لهم فيه ، بل يُنزل الله عليهم المنّ باكراً ويُنزل عليهم طير السلوى عشيًا ، وأنبع الماء لهم بضرب موسى عليه السلام حجراً بعصاه وقد كانوا يحملون ذلك الحجر معهم فتفجر منه اثنتا عشرة عيناً لكل سبط عين منه تنبجس ثم تنفجر ماءً زلالاً فيشربون منه ويسقون دوابهم ويدخرون منه كفايتهم، وفضلاً عن ذلك كله فقد ظلّل عليهم الغَمام خشية حر الشمس .

وهذه النعم العظيمة ما رعوها حق رعايتها ولا قاموا بشكرها بل ضجروا منها وتبرموا بها وسألوا أن يُستبدلوا منها ببدلها مما تُنبت الأرض وتخرجه من قثّائها وفومها وعدسها وبصلها .

فقرّعهم الكليم عليه السلام ووبّخهم وأنّبهم على طلبهم هذا وعنفّهم قائلاً ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ، اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ﴾ أى : إن هذا الذي تطلبونه وتريدونه بدل هذه النعَم التي تغمركم وأنتم فيها ، حاصل لأهل الأمصار الصغار والكبار موجود بها ، وإذا هبطتم إليها - أى ونزلتم عن هذه المرتبة التي لا تصلحون لمنصبها - تجدون بها ما تشتهون مما سألتم وطلبتم من المآكل الدنيَّة والأغذية الرديَّة ، ولكن لستُ أجيبكم إلى ما سألتم ولا أبلّغكم ما تعنّتم به من الأماني والمُنَى .

وكل هذه الصفات المذكورة عنهم الصادرة منهم تشهد عليهم بأنهم لم ينتهوا عما نُهوا عنه كما قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَطْغَوْا فيه فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ، وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَى ﴾ [1] ، أى : فقد هلك وحق له الهلاك والدمار ، وقد حل عليه غضب الملك الجبّار القهّار ، ولكنه مع هذا فقد مزج الوعيد الشديد الذي يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴾ بالرجاء

(١) طه : ٨١

والتكريم لمن تاب وأناب ولم يبق على سيئاته ولم يستمر على معاصيه إذ يقول: ﴿ وإنِّي لغفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ [(١)] .

* * *

• سؤال موسى ربه تعالى رؤيته :

ما من شك في أن هذا السؤال عظيم الخطر ، كبير الشأن ، بعيد المدى ، وليس من السهولة بحيث يطلبه كل أحد في هذه الحياة ، بل لا يسأله إلا الذين لهم عنده تعالى الدرجات العُلى والمقامات الوافرة السامية من الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ولذلك سأله موسى عليه السلام والتمسه من ربه ، يُوحى إلى ذلك قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وأتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّه أرْبَعِينَ لَيْلَةً ، وَقَالَ مُوسَى لأخِيه هَارُونَ اخْلُفْني فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ * وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ، قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ، فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ * قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [(٢)] ... إلى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [(٣)] .

قال جماعة من السَلَف منهم ابن عباس ومسروق ومجاهد : الثلاثون ليلة هي شهر ذي القعدة وأتمت أربعين ليلة بعشر من ذي الحجة ، فعلى هذا يكون كلامه له تعالى يوم عيد النحر ، وفي مثله أكمل الله تعالى لسيدنا محمد ﷺ دينه

---

(١) طه : ٨٢ (٢) الأعراف : ١٤٢ - ١٤٤ (٣) الأعراف : ١٤٧

وإقامة حجته وبراهينه ، وذلك بقوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾ (١) .

والمقصود من ذلك أن موسى عليه السلام لما استكمل الميقات وكان فيه صائماً ، يقال : إنه لم يستطعم الطعام وقد كمل الشهر أخذ لحاء شجرة فمضغه ليطيب بذلك ريح فيه ، فأمره اللهُ أن يُمسك عَشْراً أخرى ، فصارت أربعين ليلة ، ولهذا جاء قوله ﷺ : « لخَلُوف فم الصائم أطيبُ عند الله من ريح المسك » .

فلما عزم موسى على الذهاب حيث أمره ربه استخلف على شعب بني إسرائيل أخاه هارون وهو ابن أمه وأبيه ووزيره في الدعوى إلى مصطفيه - جل جلاله - فوصّاه عليه السلام وأمره ، وليس في هـذا لعـلو منزلته منافاة ، قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا ﴾ أى : في الوقت الـذي حـدّد له وأمرَ بالمـجيء فيه ﴿ وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ أى : كلمه من وراء حجاب إلاّ أنه أسمعه الخطاب فناداه وناجاه وقرّبه وأدناه ، وهذا مقام رفيع وشأن منيع ومنصب عظيم ، ومنزل خطير ، فصلوات الله وسلامه عليه في الدنيا والآخرة ، ولما أعطى هذه المنزلة ووصل إلى هذه الدرجة العالية ، وسمع ذلك الخطاب من الملك الوهاب سأل رفع الحجاب بقوله : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ فقال له الملكُ العظيم والرب الجليل : ﴿ لَن تَرَانِي ﴾ ثم بيّن له تعالى أنه لا يستطيعَ أن يثبت عند تجليه تبارك وتعالى ، لأن الجبل الذي هو أقوى وأكبر ذاتاً وأشد ثباتاً من الإنسان لا يمكن أن يثبت عند تجليه سبحانه وتعالى ، ولهذا قال : ﴿ وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ .

وقد جاء في الكتب المتقدمة أن الله تعالى قال له : « يا موسى ، إنه لا يراني حى إلا مات ولا يابس إلا تَدَهْدَه »(٢) .

وفي الصحيحين عن أبي موسى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « حجابه النور

(١) المائدة : ٣ (٢) أى : تدحرج .

– وفي رواية : النار – لو كشفه لأحرقت سُبُحات [1] وجهه ما انتهى إليه بَصَره من خلقه » .

وقد أرشد إلى أن الجبل يستحيل أن يثبت عند تجليه قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقد جاء في هذا الشأن ما رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه ابن جرير والحاكم من طريق حمّاد بن سلمة عن ثابت ، زاد ابن جرير ، وليث : « أن رسول الله ﷺ قرأ : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً ﴾ . قال : هكذا بإصبعه – ووضع النبي ﷺ الإبهام على المِفْصَل الأعلى من الخنصر – فساخ الجبل». (لفظ ابن جرير) .

قال السدّي عن عِكرمة عن ابن عباس : ما تجلى – يعني من العظمة منه – إلا قدر الخنصر فجعل الجبل دكاً قال : تراباً ، ﴿ وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً ﴾ أى: مغشياً عليه ، يؤيد هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ ﴾ فإن الإفاقة إنما تكون عن غَشْيٍ ، وقوله : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ تنزيه وتعظيم وإجلال أن يراه بعظمته وجلاله أحد ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ أى : فلست أسألك الرؤية بعد ذلك ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : أول من يؤمن بأنه لا يمكن أن يراك أحد حَيٌّ إلا مات ولا يابس إلا تَدَهْدَه .

وقد ثبت في الصحيحين من طريق عمرو بن يحيى بن عمارة بن أبي حسن المازني الأنصاري عن أبيه عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تُخَيِّروني من بين الأنبياء فإن الناس يُصْعَقُون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أو جوزي بصعقة الطور » . (لفظ البخاري) ، وفي أوله قصة اليهودي الذي لطم وجهه

---

(١) السبحات : الأنوار .

الأنصاري حين قال : لا والذي اصطفى موسى على البشر ، فقال رسول الله ﷺ: « لا تُخَيِّروني من بين الأنبياء » .

وهذا من كمال تواضعه ﷺ إذ لا شك أنه صلوات الله وسلامه عليه أنه أفضل البشر بل الخليقة . قال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾(1) ، وما كملوا ولا علوا إلا بشرف نبيهم وعظمة رسولهم . وقد ثبت بالتواتر عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر » ، وقوله ﷺ : « فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشاً بقوائم العرش - أى آخـــذاً بها - فلا أدري أفاق قبلي أم جُوزِيَ بصعقة الطور » ، دليل على أن هذا الصعق الذي يحصل للخلائق في عرصات القيامة حين يتجلى الرب لفصل القضاء بين عباده فيُصعقون من شدة الهيبة والعظمة والجلاء ، فيكون أولهم إفاقة محمد ﷺ ، خاتم الأنبياء ومصطفى رب العالمين على سائر الأنبياء ، فيجد موسى باطشاً بقائمة العرش . قال الصادق المصدوق : « فلا أدري أصَعِقَ فأفاق قبلي » - وكانت صعقته خفيفة لأنه قد ناله بهذا السبب في الدنيا صعق - « أو جوزي بصعقة الطور » - يعني فلم يُصعق بالكُلِّية ، وفي هذا شرف كبير لموسى عليه السلام ، ولا يلزم من ذلك تفضله بها مطلقاً من كل وجه ، ولذا نبَّه رسول الله ﷺ على شرفه بهذه الصفة لأن المسلم لما ضرب وجه اليهودي حين قال : والذي اصطفى موسى على البشر ، قد يحصل في نفوس المشاهدين لذلك هضم بجناب موسى عليه السلام ، فبيَّن النبي ﷺ فضله وشرفه .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي ﴾ أى : في ذلك الزمان لا فيما قبله ، لأن إبراهيم الخليل أفضل منه، ولا فيما بعده لأن سيدنا محمد ﷺ أفضل منهما ، كما ظهر شرفه ليلة الإسراء على جميع المرسلين والأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - وكما ثبت

---

(1) آل عمران : ١١٠

أنه قال : « سأقوم مقاماً يُرْغَب إليَّ الخلق حتى إبراهيم » وقوله تعالى : ﴿ فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ أي : فخذ ما أعطيتك من الرسالة والكلام ولا تسأل زيادة عليه وكن من الشاكرين على ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ (١) يُخبر تعالى أنه كتب في الألواح : ﴿ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ ، قيل : كانت تلك الألواح من جوهر ، وأن الله تعالى كتب له فيها مواعظ وأحكاماً مفصلة مبينة للحلال من الحرام ، وكانت هذه الألواح مشتملة على التوراة التي قال الله فيها : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ ﴾ (٢) ، وهذه الآية من سورة القصص ، وقيل إن هذه الألواح أعطيها موسى قبل التوراة ، وعلى كل تقدير كانت كالتعويض له عما سأل من الرؤية ومُنعَ منه والله أعلم بالحقيقة ، وقوله : ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ (٣) أي : بعزم ونية صادقة على الطاعة ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ (٣). قال سفيان بن عيينة : حدثنا أبو سعد عن عكرمة عن ابن عباس قال : أمرَ موسى عليه السلام أن يأخذ بأشد ما أُمِرَ قومه ، وقوله : ﴿ سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٣) أي : ستدرون عاقبة من خالف أمري وخرج من طاعتي كيف يصير إلى الهلاك والدمار والتباب ، قال ابن جرير : وإنما قال : ﴿ سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ أي : كان منه ذلك على سبيل التهديد والوعيد لمن عصاه واتبع غير السبيل الذي يدعو إلى سلوكه ، وقوله : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ (٤) أي : سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوب المتكبرين عن طاعتي ، ويتكبرون على الناس بغير حق ، أي كما استكبروا بغير حق أذلّهم الله بالجهل ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ أي: ولا شاهدوا مهما شاهدوا من الخوارق والمعجزات لا ينقادون لها ولا يتبعونها كما قال تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (٥) وقد جاء ذكر هذه

---

(١) الأعراف : ١٤٥ (٢) القصص : ٤٣ (٣) الأعراف : ١٤٥
(٤) الأعراف : ١٤٦ (٥) الأنعام : ١١٠.

الآية في سورة الأنعام ، وكما قال في سورة الصف : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ (١) .

وقال سفيان بن عيينة في قوله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ : أنزع عنهم فهم القرآن وأصرفهم عن آياتي ، وقوله : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ (١) أي : لا يسلكوه ولا يتبعوه ﴿ وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ (٢) أي : صرفناهم عن ذلك لتكذيبهم بآياتنا وتغافلهم عنها وإعراضهم عن التصديـق بها والتفكير في معناها وترك العمل بمقتضاها ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٣) .

* * *

● عبادة بني إسرائيل العجل في غيبة موسى عليه السلام عنهم :

لقد تغالى بنو إسرائيل في كفرهم وتمادوا في ضلالهم وإضلالهم ، فدفعهم ذلك إلى عبادة العجل الذي اتخذوه إلهاً لهم وجعلوه معبوداً يرجعون إليه ، وإنهم كمعبودهم وإلههم بل هم أضل سبيلا ، وإنّا ندع الرسالة السماوية تتحدث عن ذلك بآياتها التي تقول في سورة الأعراف :﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ ، أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ * وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي ، أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ، وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ، قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ

(١) الصف : ٥ (٢) الأعراف : ١٤٦ (٣) الأعراف : ١٤٧

وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ، وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ * وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ ، وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ (١) .

وقال في سورة طه : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى * قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ * فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً ، قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً ، أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي * قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَى فَنَسِيَ * أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً ﴾ (٢) ... إلى أن قال : ﴿ وَانْظُرْ إِلَى إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً ، لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً * إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ (٣) .

يعرض علينا في هذه الآيات صورة من الحياة التي كان يعيش عليها بنو إسرائيل في معتقداتهم وعباداتهم وما كان من أمرهم حين ذهب موسى عليه السلام إلى ميقات ربه وقد مكث على الطور يناجيه ويسأله عن أشياء كثيرة يجيبه عنها . فَعَمَدَ رجل منهم يقال له « هارون السامري » فأخذ ما كانوا استعاروه من حُلّي القبط فصاغ لهم منه عجلاً وصنعه من ذلك الذهب ثم ألقى فيه القبضة من التراب التي أخذها من أثر فرس جبريل عليه السلام وقد رآه يوم

(١) الأعراف : ١٤٨ - ١٥٤   (٢) طه : ٨٣ - ٨٩   (٣) طه : ٩٧ - ٩٨

أغرق الله فرعون وجنوده على يديه ، فلما ألقاها فيه صار عجلاً جسداً له خوار ، يخور كما يخور العجل الحقيقي ، وقد قال قتادة وغيره : إنه استحال عجلاً جسداً أي : لحماً ودماً حياً يخور . ﴿ فَقَالُوا هَذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴾ أي : فنسي موسى ربه عندنا وذهب يتطلبه وهو ههنا ، ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً ﴾ [1] قال تعالى مبيناً بطلان ما ذهبوا إليه وما عولوا عليه من إلهية ذلك الحيوان : ﴿ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً ﴾ ، وقال : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ [2] .

فذكر أن هذا الحيوان الذي اتخذوه إلهاً لم يتكلم ولم يرد جواباً ، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ، ولا يهدي إلى رشد ولا يدل على هُدىً ولا يدعو إليه فما اتخذوه إلهاً إلا وهم ظالمون لأنفسهم بهذا الاتخاذ الباطل عالمون في أعماق قلوبهم بطلان ما هم عليه من بعيد الجهل وفاضح الضلال . ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾ أي : ندموا على على ما صنعوا وعملوا ﴿ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [3] .

ولما رجع موسى عليه السلام إليهم وعاد من مناجاته ورأى ما هم عليه من عبادة العجل وسلوكهم مسلك الضلال ومعه الألواح المتضمنة لآيات التوارة . ألقاها ، فيقال : إنه كسرها . وهكذا هو عند أهل الكتاب وأن الله أبدله غيرها ، ولكن اللفظ القرآني لا يدل على ذلك إنما يدل على أنه ألقاها حين عاين ما عاين ، وعند أهل الكتاب : أنهما كانا لوحين ، إلا أن ظاهر القرآن يدل على أنها ألواح متعددة ، ولم يتأثر بمجرد الخبر من الله تعالى عن عبادة العجل فأمره بمعاينة ذلك . ولهذا جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن حبان عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس الخبر كالمعاينة » .

ثم أقبل عليهم فوجّه إليهم تعنيفاً شديداً وتوبيخاً مهيناً على صنيعهم القبيح

(1) الإسراء : 43 (2) الأعراف : 148 (3) الأعراف : 149

فاعتذروا إليه بأعذار لا يقبلها إلا مريض العقل لعدم صحتها ، قالوا : إنا ﴿ حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴾ (١) .

تحرَّجوا من تملك حُلّي آل فرعون وهم أهل حرب وقد أمرهم الله بأخذه وأباحه لهم ، ولم يتحرجوا بجهلهم وبعدهم عن العلم وقلة عقلهم من عبادة العجل واتخاذه إلهاً لهم دون الواحد الأحد الفرد الصمد الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .. ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ (٢) ، ثم أقبل على أخيه هارون عليهما السلام قائلا له : ﴿ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلاَّ تَتَّبِعَنِ ﴾ (٣) أي : هلاّ لما رأيت ما صنعوا وما فعلوا اتبعتني فأخبرتني وأعلمتني بما فعلوا ؟ فقال : ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (٤) أي : تركتهم وجئتني وأنت قد استخلفتني فيهم . ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ، وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٥) . وقد كان هارون عليه السلام وجه إليهم نهياً عن هذا الصنيع القبيح وصوَّب إليهم زجراً شديد الوقع عظيم التأثير : ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُم بِهِ ﴾ أي : إنما قدَّر الله أمر هذا العجل وجعله يخور فتنة واختباراً لكم ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ ﴾ أي : لا هذا الذي تعبدونه ﴿ فَاتَّبِعُونِي ﴾ فيما أقول لكم ﴿ وَأَطِيعُوا أَمْرِي * قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴾ (٦) فشهد الله لهارون عليه السلام أنه نهاهم عن عبادة العجل وزجرهم فلم يطيعوه ولم يتبعوه ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾ (٧) . ثم أقبل موسى على السامري ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴾ (٨) أي : ما حملك على ما صنعت ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾ أي : رأيت جبريل راكباً فرساً ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ ﴾ (٩) أي : من أثر فرس جبريل .

---

(١) طه : ٨٧ (٢) سورة ص : ٥ (٣) طه : ٩٢ - ٩٣
(٤) طه : ٩٤ (٥) الأعراف : ١٥١ (٦) طه : ٩٠ - ٩١
(٧) النساء : ٧٩ (٨) طه : ٩٥ (٩) طه : ٩٦

وقد ذكر بعضهم أنه رآه ، وكلما وطئت بحوافرها موضعاً اخضر وأعشب فأخذ من أثر حافرها ، فلما ألقاه في هذا العجل المصوغ من الذهب كان من أمره ما كان مما تقدم ذكره ولهذا قال : ﴿ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي * قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لاَ مِسَاسَ ﴾ (١) . وهذا دعاء عليه بأن لا يَمَسّ أحداً عقاباً له على مَسّه ما لم يكن له مسُّه وذلك في الدنيا ، ثم توعَّده في الآخرة فقال : ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ ، وَانظُرْ إِلَى إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً ، لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً ﴾ (٢) قالَ : فعَمِدَ موسى عليه السلام إلى هذا العجل فحرقه ، قيل : بالنار ، كما قاله قتادة وغيره ، وقيل : بالمبارد ، كما قاله عليّ وابن عباس وغيرهما ، وهو الذي نص عليه أهل الكتاب ثم ذرّاه في البحر وأمر بني إسرائيل فشربوا ، فمن كان من عابديه عَلِق على شفاههم من ذلك الرماد ما يدل عليه ، وقيل : من كان من عبّاد هذا العجل اصفرت ألوانهم ، ثم قال تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لهم : ﴿ إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ ، وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ (٣) . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾ (٤) وهكذا وقع . وقد قالَ بعض السلف : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾ مُسجَلَةٌ لكل صاحب بدعة إلى يوم القيامة .

ثم أخبر تعالى عن حلمه ورحمته بخلقه وإحسانه إلى عبيده في قبول توبة من تاب إليه بتوبته عليه فقال : ﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٥) لكنه سبحانه وتعالى لم يقبل توبة عابدي العجل إلا بالقتل كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا

---

(١) طه : ٩٦ - ٩٧ (٢) طه : ٩٧ (٣) طه : ٩٨
(٤) الأعراف : ١٥٢ (٥) الأعراف : ١٥٣

أنفُسَكُمْ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [١] ، وقد جاءت هذه الآية من بين الآيات التي جاءت في سورة البقرة . فيقال : إنهم أصبحوا يوماً وقد أخذ من لم يعبد العجل في أيديهم السيوف وألقى عليهم ضباباً حتى لا يعرف القريب قريبه ولا الأخ أخاه ، ثم مالوا على عابديه فقتلوهم وحصدوهم فيقال إنهم قتلوا في صبيحة واحدة سبعين ألفاً .

وقد كان أمراً طبيعياً أن يغضب موسى لهذه الأحداث ويتأثر لهذا الانحراف والميل عن الحق والهدى ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ ، وَفِي نُسْخَتِهَا هُدىً وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [٢] .

ومن المفيد أن نذكر أن عبادتهم العــجل لم تكن حينما دخلوا الأراضي المقدســة ، بل جاءت هذه العبادة منهم بعد خروجهم من البحر ، فقد ذكر ابن عباس أن عبادتهم العجل إنما كانت على إثر خروجهم من البحر ، وما هو ببعيد ؛ لأنهم حين خرجوا منه ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ [٣] . وهكذا عند أهل الكتاب ، فإن عبادتهم العجل كانت قبل مجيئهم بيت المقدس ، وذلك أنهم لما أمروا بقتل من عَبَدَ العجل منهم قتلوا في أول يوم ثلاثة آلاف ، ثم ذهب موسى يستغفر لهم فغُفِرَ لهم بشرط أن يدخلوا الأرض المقدسة ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا ، فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ ، أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ، إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ، أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ، وَأَنْتَ خَيْرُ الغَافِرِينَ * وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ، قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ، وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي الــتَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ

(١) البقرة : ٥٤ (٢) الأعراف : ١٥٤ (٣) الأعراف : ١٣٨

عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) . وقد جاء ذلك في سورة الأعراف ، ذكر السدي وابن عباس وغيرهما : أن هؤلاء السبعين كانوا علماء بني إسرائيل ومعهم موسى وهارون ويوشع وناداب وأبيهو ، ذهبوا مع موسى عليه السلام ليعتذروا عن بني إسرائيل في عبادة من عَبَدَ منهم العجل وكانوا قد أمروا أن يتطيبوا ويتطهروا ويغتسلوا ، فلما اقتربوا من الجبل وعليه الغمام وعمود النور ساطع وصعد موسى الجبل قيل : إن بني إسرائيل سمعوا كلام الله، وقد وافقهم على هذا طائفة من المفسرين وحملوا عليه قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾(٢) . وليس هذا بلازم ، فقد جاء في سورة التوبة ما يومىء إلى ذلك إذ يقول تعالى : ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ ﴾ (٣) أى : مُبَلَّغاً إليهم ، وهكذا هؤلاء سمعوه مبَلغاً إليهم من موسى عليه السلام ، وهذا هو الذي يرتاح إليه العقل ويطمئن له القلب .

وقد زعموا أبعد من ذلك إذ قالوا : إن السبعين رأوا الله ، وهذا غلط ظاهر، لأنهم لما سألوا الرؤية أخذتهم الرجفة ، يشهد بذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٤) ، وقال في هذا المقام : ﴿ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ ، أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ﴾ .

قال محمد بن إسحاق : اختار موسى من بني إسرائيل سبعين رجلا الخيّر فالخيّر ، فقال : انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم ، وسلوه التوبة على

(١) الأعراف : ١٥٥ - ١٥٧ (٢) البقرة : ٧٥ (٣) التوبة : ٦
(٤) البقرة : ٥٥ - ٥٦ (٥) الأعراف : ١٥٥

ما تركتم وراءكم من قومكم . صوموا وتطهروا وطهّروا ثيابكم . فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقّته له ربه وكان لا يأتيه إلا بإذن وعلم منه ، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشّى الجبل كله ، ودنا موسى فدخل في الغمام ، وقال للقوم : ادنوا ، وكان موسى إذا كلّمه الله وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه ، فضرب دونه الحجاب ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام ، وقعوا سُجّداً فسمعوه وهو يُكلم موسى يأمره وينهاه : افعل ولا تفعل . فلما فرغ الله من أمره وانكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم فقالوا : يا موسى ، لن نؤمن لك حتى نرى الله جَهْرة ، فأخذتهم الرجفة – وهى الصاعقة – فأتلفت أرواحهم فماتوا جميعاً ، فقام موسى يناشد ربه ويناجيه ويرغب إليه ويقول : ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ ، أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ﴾ أى : لَا تؤاخذنا بما فعل السفهاء الذين عبدوا العجل منا فإنا برآء مما عملوا .

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جريج : إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم يَنْهوا قومهم عن عبادة العجل ، وقوله : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ ﴾ أى : اختبارك وابتلاؤك وامتحانك ، قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وأبو العالية والربيع بن أنس وغير واحد من علماء السَلَف والخَلَف ، يعني : أنت الذي قدّرت هذا وخلقت ما كان من أمر العجل اختباراً تختبرهم به كما قال لهم هارون من قبل ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ ﴾ أى : اختبرتم به ، ولذلك قال موسى : ﴿ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ﴾ أى : من شئت أضللته باختبارك إياه ، ومن شئت هديته فأنت الفعال لما تريد ، ولا مانع ولا راد لما حكمتَ وقضيتَ ﴿ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ، وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ * وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ أى : تبنا ورجعنا إليك ، قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وأبو العالية وإبراهيم التيمي والضحّاك والسدي وقتادة وغير واحد ﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ، وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أى : أنا أعذب من شئت بما أشاء من الأمور التي

أخلقها وأقدرها ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ ، كما ثبت في الصحيحين عن رســـول الله ﷺ أنه قال : « إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض كتب كتاباً فهو موضوع عنده فوق العرش ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى : فسأوجبها فضلاً مني ﴿ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ ﴾ [1] ، وهذا فيه تنويه بذكر سيدنا محمد ﷺ وأمته من الله تعالي لموسى عليه السلام في جملة ما ناجاه به وأعلمه وأطلعه عليه .

وقال قتادة : قال موسى : يا رب ، إني أجد في الألواح أمة هى خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، رب اجعلهم أمتي . قال : تلك أمة أحمد .

وقد تحدَّث موسى عن أشياء في الألواح لا داعي لذكرها ، وكل ما ينبغي ذكره مما تفخر به أمة سيدنا محمد ﷺ من الإكرام والفضل العظيم قال قتادة : ذكر لنا أن موسى عليه السلام فبذ الألواح وقال : اللهم اجعلني من أمة أحمد .

وقد دلت الأحاديث والآثار على ما جاء من مناجاة موسى ربه من آيات بينات نذكر منها ما يتسع له إطار الحديث عن تلك المناجاة .

قال الحافظ أبو حاتم محمد بن حاتم بن حبَّان في صحيحه : « ذكر سؤال كليم الله ربه عز وجل عن أدنى أهل الجنة وأرفعهم منزلة » : أخبرنا عمر بن سعيد الطائي ببلخ ، حدثنا حامد بن يحيى البلخي ، حدثنا سفيان ، حدثنا مطرف بن طريف وعبد الملك بن أبحر – شيخان صالحان – قالا : سمعنا الشَّعبي يقول : سمعت المغيرة بن شعبة يقول على المنبر عن النبي ﷺ : « إن موسى عليه السلام سأل

(١) الأعراف : ١٥٦ – ١٥٧

ربه عز وجل : أى أهل الجنة أدنى منزلة ؟ فقال : رجل يجيىء بعد ما يدخل أهل الجنة الجنة فيقال له : ادخل الجنة ، فيقول : كيف أدخل الجنة وقد نزل الناس منازلهم ، وأخذوا إخاذاتهم ؟ فيقال له : أقرضي أن يكون لك من الجنة مثل ما كان لملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول : نعم أى رب . فيقال : لك هذا ومثله معه . فيقول : أى رب رضيت . فيقال له : لك مع هذا ما اشتهت نفسك ولذّت عينك. وسأل ربه أى أهل الجنة أرفع منزلة قال : سأحدثك عنهم : غرست كرامتهم بيدي وختمتُ عليها فلا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » .

ومصداق ذلك في كتاب الله عز وجل : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِىَ لَهُم مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

وهكذا رواه مسلم والترمذي - كلاهما عن ابن أبي عمر عن سفيان بن عيينة - به .

ولفظ مسلم : « فيقال له : أترضى أن يكون لك مثلُ مُلْك مَلِكٍ من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيت رب ، فيقال له : لك ذلك ومثله ومثله ومثله . فيقول في الخامسة : رضيت رب ، فيقال : هذا لك وعشرة أمثاله ، ولك ما اشتهت نفسك ولذّت عينك . فيقول : رضيت رب . قال : رب فأعلاهم منزلة قال : أولئك الذين أردتُ غرس كرامتهم بيدي وختمت عليها فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر » .

قال : ومصداقه من كتاب الله : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِىَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وقال الترمذي : حسن صحيح ، قال : ورواه بعضهم عن الشّعبي عن المغيرة فلم يرفعه ، والمرفوع أصح .

وقال ابن حبان : « ذكر سؤال الكليم ربه عن خصال سبع » حدثنا عبدالله بن محمد بن مسلم ببيت المقدس ، حدثنا حَرْمَلة بن يحيى ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني عمرو بن الحارث : أن أبا السمح حدثه عن ابن حُجَيْرَة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ

---

(١) السجدة : ١٧ .

أنه قال : « سأل موسى ربه عز وجل عن ست خصال كان يظن أنها له خاصة ، والسابعة لم يكن موسى يحبها ، قال : يا رب ، أى عبادك أتقي ؟ قال : الذي يَذْكَر ولاَ ينسى . قال : فأي عمادك أهدى ؟ . قال : الذي يَتَّبع الهُدى . قال : فأى عبادك أحكم ؟ قال : الذي يحكم للناس كما يحكم لنفسه . قال : فأى عبادك أعلم ؟ قال : عالم لا يشبع من العلم ، يجمع علم الناس إلى علمه . قال : فأى عبادك أعز ؟ قال : الذي إذا قَدرَ غفر . قال : فأى عبادك أغْنيَ ؟ قال : الذي يرضي بما يُؤتي . قال : فأى عبادك آفقر ؟ قال : صاحب منقوص .. قال ابن حبان : قوله « صاحب منقوص » أى : منقوص حالته يثقل ما أُوتي ويطلب الفضل . وقال رسول الله ﷺ : « ليس الغنَى عن ظَهرٍ [١] ، إنما الغنَىَ غنى النفس ، وإذا أراد الله بعبد خيراً جعل غِناه في نفسه وتُقاه في قلبه » .

وهناك حديث آخر ذكره الإمام أحمد بمعنى ما ذكره ابن حبان .

قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن إسحاق ، حدثنا ابن لهيعة ، عن درّاج ، عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي ﷺ أنه قال : « إن موسى قال : أى ربِّ ، عبدك المؤمن مُقَتّر عليه في الدنيا . قال : ففُتِحَ له باب من الجنة فنظر إليها قال : يا موسى هذا ما أعددت له ، فقال موسىٰ : يا رب ، وعزتك وجلالك لو كان مُقَطَّع اليدين والرجلين يُسْحب على وجهه منذ خلقتَه إلى يوم القيامة وكان هذا مصيره لم ير بؤساً قط . قال : ثم قال : أى رب ، عبدك الكافر موسَّعٌ عليه في الدنيا . قال : ففُتِحَ له باب إلى النار فيقول : يا موسى هذا ما أعددت له . فقال موسى : أى رب ، وعزتك وجلالك لو كانت له الدنيا منذ يوم خلقته إلى يوم القيامة وكان هذا مصيره لم ير خيراً قط » : تَفَرَّد به أحمد من هذا الوجه وفي صحته نظر ، والله أعلم .

وقال ابن حبان : « ذكر سؤال كليم الله ربه جل وعلا أن يعلمه شيئاً يذكره به » : حدثنا ابن سلمة ، حدثنا حَرْملة بن يحيى ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني عمرو بن

(١) الظهر : كثرة المال .

الحارث : أن دَرَّاجاً حدّثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: « قال موسى : يا رب علّمني شيئاً أذكرك به وأدعوك به . قال : يا موسى قل : لا إله إلا الله . قال : يا رب كل عبادك يقول هذا . قال : قل لا إله إلا الله . قال : إنما أريد شيئاً تخصني به . قال : يا موسى ، لو أن أهل السموات السبع والأرضين السبع في كفة ولا إله إلا الله في كفة مالت بهم : لا إله إلا الله » .

وأقرب شيء إلى معناه الحديث المروي في السنن عن النبي ﷺ أنه قال : « أفضل الدعاء دعاء عرفة ، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ». . . إلى آخر ما جاء في هذا الشأن من روائع المناجاة .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ، فَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُم مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ واذكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٢) .

قال ابن عباس وغير واحد من السّلف : لما جاءهم موسى بالألواح فيها التوراة أمرهم بقبولها والأخذ بها بقوة وعزم ، فقالوا : انشرها علينا فإن كانت أوامرها ونواهيها سهلة قبلناها . فقال : بل اقبلوها بما فيها ، فراجعوه مراراً فأمر الله الملائكة فرفعوا الجبل على رؤوسهم حتى صار كأنه ظُلّة (٣) على رؤوسهم ، وقيل لهم : إن لم تقبلوها بما فيها وإلا سقط هذا الجبل عليكم ، فقبلوا ذلك ، وأمروا بالسجود فسجدوا فجعلوا ينظرون إلى الجبل بشقّ وجوههم فصارت سُنّة لليهود إلى اليوم يقولون : لا سجدة أعظم من سجدة رفعت عنا العذاب ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ أي : ثم بعد مشاهدة هذا الميثاق العظيم والأمر

(١) البقرة : ٦٣ - ٦٤ (٢) الأعراف : ١٧١ (٣) أي : غمامة على رؤوسهم .

الجسيم نلتم عهودكم ومواثيقكم ، ﴿ فَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾ بأن تداركم بالإرسال إليكم وإنزال الكتب عليكم ﴿ لَكُنتُمْ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ .

* * *

• قصة بقرة بني إسرائيل :

ما من شك في أن قصة البقرة لها تقديرها ، وموضوعها له شأنه . ولذا فإنا ننظر إليها نظرة اهتمام ونتوجه إليها توجيهاً يكشف عن أسرارها ويزيح الستار عن جوانبها .

قال ابن عباس وأبو عبيدة السَلْمَاني وأبو العالية ومجاهد والسدّي وغير واحد من السَلَف : كان رجل في بني إسرائيل كثير المال وكان شيخاً كبيراً وله بنو أخ وكانوا يتمنون موته ليرثوه ، فعمد أحدهم فقتله في اللّيل وطرحه في مجمع الطرق ، ويقال إنه طُرِحَ على باب رجل منهم .

فلما أصبح الناس اختصموا فيه وجاء ابن أخيه فجعل يصرخ ويتظلم فقالوا : ما لكم تختصمون ولا تأتون نبي الله ؟ ، فجاء ابن أخيه فشكا أمره إلى رسول الله موسى عليه الصلاة والسلام ، فقال موسى عليه السلام : أنشُد الله رجلا عنده علم من أمر هذا القتيل إلا أعلمنا به . فلم يكن عند أحد منهم علم منه وسألوه أن يسأل في هذه القضية ربه عز وجل .

فسأل ربه في ذلك فأمره الله تعالى أن يأمرهم بذبح بقرة فقال : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ، قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً ﴾ (١) يعنون نحن نسألك عن أمر هذا القتيل وأنت تقول لنا هذا !! ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ ﴾ (١) أي : أعوذ بالله أن أقول عنه غير ما أوحى إليّ . وهذا هو الذي أجابني حين سألته عما سألتموني عنه أن أسأله فيه .

(١) البقرة : ٦٧

قال ابن عباس وعبيدة ومجاهد وعكرمة والسدّي وأبو العالية وغير واحد : فلو أنهم عمدوا إلى أى بقرة فذبحوها لحصل المقصود منها ولكنهم شدّدوا فشُدّد عليهم .

فسألوا عن صفتها ثم عن لونها ثم عن سنّها ، فأجيبوا بما عزّ وجوده عليهم . والمقصود أنهم أمروا بذبح بقرة عوان وهى الوسط النصف ، الفارض وهى الكبيرة ، ولا البكر وهى الصغيرة ، قاله ابن عباس ومجاهد وأبو العالية وعكرمة والحسن وقتادة ثم شدّدوا وضَيَّقوا على أنفسهم فسألوا عن لونها فأمروا بصفراء فاقع لونها أى : مُشْرَبٌ بحمرة تَسُرُّ الناظرين وهذا اللّون عزيز ، ثم شدّدوا أيضاً ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَنَا مَا هِيَ إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾[1].

ففي الحديث المرفوع الذي رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه : « لولا أن بني إسرائيل استثنوا لما أعطوا » ، وفي صحته نظر والله أعلم . ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَ شِيَةَ فِيهَا ، قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالحَقِّ ، فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾[2] .

وقد كانت هذه الصفات أضيق مما تقدم ذكرها من الصفات التي تحدثت عنها الآية في قوله : ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَنَا مَا لَوْنُهَا ، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَاظِرِينَ ﴾[3] . حيث أمروا بذبح بقرة ليست بالذلول ، وهى المذللة بالحراثة وسقى الأرض بآلة السقى ، مُسلّمة وهى الصحيحة التي لا عيب فيها قاله أبو العالية وقتادة ، وقوله : ﴿ لاَ شِيَةَ فِيهَا ﴾ أى : ليس فيها لون يخالف لونها ، بل هى مسلّمة خالية من العيوب ومن مخالطة سائر الألوان غير لونها ، فلما حددها بهذه الصفات وحصرها بهذه النعوت والأوصاف ﴿ قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالحَقِّ ﴾ .

وقد قيل : إنهم لم يجدوا هذه البقرة بالصورة التي حدّدها الشارع إلا عند رجل منهم كان باراً بأبيه فطلبوها منه وأرغبوه في

---

(١) البقرة : ٧٠ . (٢) البقرة : ٧١ (٣) البقرة : ٦٩

ثمنها حتى أعطوه فيا ذكره السدّي بوزنها ذهباً ، ولا زالوا به حتى باعها إياهم بوزنها عشر مرات ذهباً ، وحينئذ أمرهم نبي الله موسى بذبحها ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أي : وهم يترددون في أمرها . ثم أمرهم عن الله أن يضربوا ذلك القتيل ببعضها ، قيل : بلحم فخذها ، وقيل : بالعظم الذي في الغضروف ، فلما ضربوه ببعضها أحياه الله تعالى فقام وهو يشخُبُ [1] أوداجه فسأله نبي الله موسى : من قتلك ؟ قال : قتلني ابن أخي . ثم عاد ميتاً كما كان ، قال تعالى مُعَبِّراً عن ذلك : ﴿ كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [2] أي : كما شاهدتم إحياء هذا القتيل عن أمر الله له ، كذلك سائر الموتى إذا شاء أحياهم في ساعة واحدة يتقرر هذا ، ويقطع به قوله تعالى : ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [3] .

يُعَبِّر عن هذه المعاني ويُوحي بها قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ، قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً ، قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَنَا مَا هِيَ ، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ ، فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَنَا مَا لَوْنُهَا ، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا ، قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [4] .

وإلى هنا انتهت قصة البقرة التي شغلت بني إسرائيل ، وأطالوا سؤال موسى في صفتها حتى انتهت بهم إلى إحياء القتيل الذي اختلفوا في قاتله ، وقد أحياه الله تعالى واعترف بالقاتل ثم أماته الذي هو على كل شيء قدير .

* * *

(١) يشخب أوداجه : يسيل .
(٢) البقرة : ٧٣
(٣) لقمان : ٢٨
(٤) البقرة : ٦٧ - ٧١

• قصة موسى والخضر عليهما السلام :

يطيب لنا أن نتحدث عن هذه القصة الرائعة ، ونتكلم عن عجائب الحقيقة وبدائع الشريعة ، ونعرض على هذه الحياة صور ما دار في آفاق العلم والعمل من آيات بيِّنات ، وروائع عظيمة الأهمية بالغة التقدير ، وهذه القصة هى القصة الثالثة من القصص التي جاء ذكرها بسورة الكهف ، أما القصة الأولى فهى قصة أصحاب الكهف ، والثانية هى قصة كفار قريش الذين طلبوا من رسول الله ﷺ طرد من آمنوا به وبما جاء على لسان نبيه ﷺ من آيات الهدى وبينات الفرقان من الفقراء ، ولم نشأ عرض هذه القصة لأننا بصدد الحديث عن قصة موسى والخضر ، وقد ابتدأ الله ذكرها بقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً ﴾ [1] ... إلى آخر القصة . . وهى من عجائب الأحداث في تاريخ الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، فروى هارون بن عنترة عن أبيه عن ابن عباس . قال : سأل موسى ربه فقال : يا ربِّ أى عبادك أحبُّ إليك ؟ فقال : الذي يذكرني ولا ينساني . قال : فأى عبادك أقضي . قال : الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى ، قال : يا ربِّ أى عبادك أعلم . قال : الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هُدىً أو ترده عن ردىً . قال : فهل في الأرض أحد أعلم مني ؟ قال : نعم ، قال : يا ربِّ من هو ؟ قال : الخضر . قال : يا رب ، فأين أطلبه ؟ قال : على الساحل عند الصخرة ، فتأخذ معك حوتاً وتجعله في مكتل فحيثما فقدت الحوت وجدته . فأخذ معه حوتاً ، فجعله في مكتل ، ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسها فناما واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر واتخذ سبيله في البحر سرباً ، فجعل الله الحوت عَلَماً له ودليلاً على مكان الخضر ، وقد أمسك الله عن الحوت جرْيَةَ الماء ، فصار عليه مثل الطاق ، فلما استيقظ نسـى صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية

(١) الكهف : ٦٠.

يومهما وليلتهما ، ثم ذهب موسى إلى الخضر ليتعلم منه العلم ، وهذه القصة وإن كانت مستقلة عن القصتين السابقتين إلا أنها تعين على المقصود في القصتين السابقتين ، أما نفع هذه القصة في الرد على الكفار وهي القصة الثانية التي افتخر فيها الكفار على فقراء المسلمين بأموالهم وأنصارهم ، فهو أن موسى عليه السلام مع كثرة علمه وعمله وعلو منصبه الديني ، واستجماع موجبات الشرف التام ، ذهب إلى الخضر لطلب العلم منه ، وقد تواضع له ، وهذا يدل على أن التواضع خير من التكبر ، وأن العبرة بالإيمان لا بالمال وكثرته ولا بالأنصار وسلطانها . وأما نفع هذه القصة في قصة أصحاب الكهف فهو أن اليهود قالوا لكفار مكة : إن أخبركم محمد عن هذه القصة ، فهو نبي وإلا فلا ، وهذا ليس بشيء لأنه لا يلزم من كونه نبياً من عند الله تعالى أن يكون عالماً بجميع القصص والوقائع . كما لا يلزم من كون موسى نبياً من عند الله أن يمنع من أمر الله إياه أن يذهب إلى الخضر عليه السلام ليتعلم منه العلم ، ومع أنه لا يلزم كما قلنا علمه بالقصص كلها والأحداث جميعها فقد أحاطه الله بها .

ومما ذكرنا يظهر أن هذه القصة وإن كانت مستقلة بنفسها فهي نافعة في تقرير المقصود في القصتين المتقدمين ، والمقصود من موسى المذكور في الآية هو موسى بن عمران صاحب المعجزات الظاهرة والآيات الباهرة وهو الذي نزل عليه التوراة .

وعن سعيد بن جبير أنه قال لابن عباس : إن نوفاً ابن امرأة كعب يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل ، وإنما هو صاحب موسى بن ميشا بن يوسف عليه السلام - وقيل إنه كان نبياً قبل موسى بن عمران عليه السلام - فقال ابن عباس : كذب عدو الله .

ولهذه المناسبة نذكر أنه كان يوسف عليه السلام ولد له أفرائيم وميشاأو منشا كما جاء هذا في كتب أخرى فولد لإفرائيم نون وولد لنون يوشع وهو صاحب موسى وفتاه وولي عهده بعد وفاته ، وموسى هذا هو الذي طلب العلم ليتعلم ، والخضر هو الذي خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار ، ويؤيد صحة هذا ما

قيل من أن فتى موسى عليه السلام هو يوشع بن نون ما رواه القفال عن سفيان ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي هريرة عن أُبَيٍّ بن كعب عن النبي ﷺ يقول : فتاه يوشع بن نون ، ولما استفسر موسى من ربه عن المكان الذي به الخضر قال له : تأخذ حوتاً في مكتل فحيث فقدته عند الساحل تجد الخضر هناك . فقال موسى لفتاه : إذا فقدتَ الحوت فأخبرني . فذهبا يمشيان ورقد موسى واضطرب الحوت وطفر إلى البحر فلما جاء وقت الغداء طلب موسى الحوت فأخبره فتاه بوقوعه في البحر فرجع من ذلك الموضع إلى الموضع الذي طفَر الحوت فيه إلى البحر فإذا رجل مُسَجًّى بثوبه فسلم عليه موسى عليه السلام فقال : وأنّي بأرضك السلام . فعرَّفه نفسه وأنه الخضر فقال : يا موسى ، أنا على علم علمني الله لا تعلمه أنت ، وأنت على علم علمك الله لا أعلمه أنا .

فلما ركبا السفينة جاء عصفور فوقع على حرفها فنقر في الماء فقال الخضر : ما ينقص علمي وعلمك من علم الله مقدار ما أخذ العصفور من البحر ، وقوله : ﴿ لاَ أَبْرَحُ ﴾ أي : لا أسير ﴿ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ ﴾ وهو المكان الذي وُعِدَ فيه موسى بلقاء الخضر عليهما السلام وهو ملتقى بحرَي فارس والروم ، وبحر الروم ، مما يلي المغرب وبحر فارس مما يلي المشرق ﴿ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً ﴾[1] .. أو أسير أزماناً ودهوراً فلما بلغ موسى وفتاه مجمع البحرين : رأى المكان الذي بين البحرين ﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي البَحْرِ سَرَباً ﴾[2] .

وحاصل هذا الكلام أن الله عز وجل كان أعلم موسى حال هذا العَالِمْ ولم يُعَيِّن له موضعه ، فقال موسى عليه السلام : لا أزال أمضي وأسير حتى يجتمع البحران فيصيران بحراً واحداً أو أمضي دهراً طويلاً حتى أجد ذلك العالِم ، وقوله : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا ﴾[2] أي : فانطلقا إلى أن بلغا مجمع بينهما أي الموضع الذي يجتمع فيه موسى وصاحبه الذي يقصده وهو الخضر عليه السلام

---

(١) الكهف : ٦٠ . (٢) الكهف : ٦١

لأن ذلك الموضع الذي وقع فيه نسيان الحوت هو الموضع الذي كان يسكنه الخضر أو يسكن بقربه ، ولهذا المعنى لما رجع موسى وصاحبه بعد أن ذكرا الحوت صارا إليه ، وقوله : ﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ يدل على أنه تعالى بيّن لموسى عليه السلام أن هذا العالِمْ موضعه مجمع البحرين ، إلا أنه تعالى جعل انفلات الحوت حياً علامة على مسكنه المعين وقوله : ﴿ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً ﴾ [1] أى : أن الحوت اتخذ طريقه الذي سلكه في البحر سرباً ؛ أى اتخذه مسلكاً يسلكه وطريقاً يذهب إليه كالجحر الذي يأوي إليه نوع من الحيوان قال ابن عباس : جعل الحوت لا يَمُسُّ شيئاً من البحر إلا يَبُس حتى يكون صخرة ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا ﴾ [2] : أى موسى وفتاه مجع البحرين قال موسى لفتاه يوشع :﴿ آتِنَا غَدَاءَنَا ﴾ أى : جئنا بغدائنا وأعطناه ، ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً ﴾ [2] أى : لقد وجدنا ولقينا من سفرنا هذا تعباً وعناءً . قال موسى ذلك بعد ما جاوز الصخرة حين ألقى عليه الجوع ليتذكر الحوت فيرجع إلى موضع مطلبه ، قال فتى موسى لموسى حين قال له : ﴿ آتِنَا غَدَاءَنَا ﴾ لنطعم : ﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ ﴾ هنالك ، وما أنساني أن أذكر الحوت إلا الشيطان ﴿ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً ﴾[3] قال موسى ذلك ، يعجب من أثر الحوت في البحر ودوراته التي غاب فيها فوجد عندها الخضر عليه السلام .

قال موسى لفتاه : ﴿ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ أى : نسيانك الحوت هو الذي نبغي ، أى نلتمس ونطلب ، لأن موسى كان قيل له : صاحبك الذي تريده حيث تنسى الحوت ، وقوله : ﴿ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً ﴾ [4] : أى فرجعا إلى الطريق الذي كانا قطعاه ناكصين على أدبارهما يقصان آثارهما التي كانا سلكاها ، وقوله : ﴿ فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ﴾ [5] ... إلخ . فوجدا - أى موسى وفتاه - عند الصخرة حين رجعا إليها ﴿ عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا ﴾

---

(1) الكهف : 61 — (2) الكهف : 62 — (3) الكهف : 63
(4) الكهف : 64 — (5) الكهف : 65

هو الخضر عليه السلام ﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا ﴾ : أي وهبنا له رحمة من عندنا ، قال الأكثرون : إنه كان نبياً والرحمة هـــي النبوة بدليل قوله تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ (٢) ، والمراد من هذه الرحمة هي النبوة وقوله : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ﴾(٣) ، وهذا يقتضي أنه تعالى علّمه لا بواسطة تعليم ولا إرشاد يرشده ، وكل من علّمه لا بواسطة البشر كان نبياً لأنه إنما يعلم الأمور بواسطة الوحي أي من عند الله بدون واسطة .

ولما انتهى إليه موسى عند الصخرة فسلّم كل واحد منهما على صاحبه قال له موسى : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾ (٤) أي : تعلمني وترشدني مما علمت . . وهذه الآية تدل على أن موسى عليه السلام يراعي أنواعاً كثيرة من الأدب واللطف عندما أراد أن يتعلم من الخضر فإنه قد جعل نفسه تابعاً له إذ قال : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾ ثم إنه فضلاً عن ذلك فقد استأذن في إثبات التبعية بقوله : هل تأذن في أن أجعل نفسي تبعاً لك . وفي ذلك مبالغة عظيمة في التواضع ثم قال كذلك : ﴿ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾ وفي ذلك إقرار منه عليه السلام للخضر بالعلم وقوله : ﴿ مِمَّا عُلِّمْتَ ﴾ آية من آيات تواضعه عليه السلام ، ومَنْ غير الأنبياء يكون كامل الأدب عظيم التواضع ؟ ثم إنه تعالى حكى عن الخضر أنه قال : ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴾ (٥) ، فقوله : ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ أي : يثقل عليك الصبر لا أنه يستطيعه عليه السلام ويؤكد ذلك قوله : ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴾ فقد استبعد حصول الصبر على ما لم يقف الإنسان على حقيقته ، ثم حكى سبحانه وتعالى عن موسى أنه قال : ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْراً ﴾ (٦) وفي ذلك برهان وأي برهان على نهاية تواضع موسى عليه السلام

(١) الزخرف : ٣٢ — (٢) القصص : ٨٦ — (٣) الكهف : ٦٥
(٤) الكهف : ٦٦ — (٥) الكهف : ٦٧ – ٦٨ — (٦) الكهف : ٦٩

للخضر ، وهو يوجب على المتعلم التواضع بأقصى آياته وأبعد غاياته . وقال الخضر لموسى عليه السلام : ﴿ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً ﴾ (١) أي : لا تستخبرني عما تراه مني مما لا تعلم وجهه حتى أكون أنا المبتدئ لتعليمك إياه وإخبارك به .

يُعَبِّر عن هذه المعاني تعبيراً صادقاً قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً * فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً * فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً * قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً * قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً * فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً * قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً * قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً * قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْراً ﴾ (٢) .

* * *

• اعتراض موسى عليه السلام على ما أتى به الخضر من أفعال ظاهرها مستنكر ورده على ذلك :

اعلم أن موسى والخضر عليهما السلام لما تشارطا على الشرط المذكور وسارا فيها فانتهيا إلى موضع احتاجا فيه إلى ركوب السفينة فركباها ، وأقدم الخضر على خرقها : أي على خرق جدارها لتصير السفينة بسبب ذلك الخرق معيبة كل العيب ظاهرته ، فلا يتسارع الغرق إلى راكبيها فعند ذلك قال له موسى :

(١) الكهف : ٧٠.

(٢) الكهف : ٦٠ - ٦٩

﴿ أخرقتها لتُغرق أهلها ﴾ ؟ [1] ، فلما رأى موسى ذلك الأمر المنكر بحسب الظاهر وشاهده عياناً نسي ذلك الشرط الذي أخـــذه الخضر عليه فلهذا قال : ﴿ أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً ﴾ [1] ، ثم إنه تعالى حكى عن الخضر أنه لما خالف موسى الشرط لم يزد على قوله : ﴿ ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ [2] فعند ذلك اعتـذر موسى بقوله : ﴿ لا تؤاخذني بما نسيت ﴾ [3] ، أراد بذلك أنه نسي وصيته ولا مؤاخذة على الناسي بشيء ﴿ ولا ترهقني من أمري عسراً ﴾ [3] : أي ولا تعسّر على متابعتك ويسّرها بالإغضاء وترك المناقشة في هذا الشأن وقوله : ﴿ فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله ﴾ ، فلما قام بقتله قال موسى عليه السلام:﴿ أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً ﴾ ؟ [5] وظاهر الآية يدل على أن موسى عليه السلام استبعد أن يقتل النفس لا لأجل القصاص بالنفس ، وليس الأمر كذلك لأنه قد يحل دمه بسبب آخر غير القصاص. والذي حصل أن الخضر عليه السلام ما قام بقتله إلا للسبب الذي سيُذكر فيما بعد إن شاء الله تعالى وهو من القوة بحيث لا يتردد الخضر ومن نهج نهجه في قتله .

وغير خاف أن المنكر أعظم من الأمر في القبح وفي ذلك إشارة إلى أن قتل الغلام أقبح من خرق السفينة لأن ذلك ما كان إتلافاً للنفس إنما كان ذلك تفادياً من استيلاء ملك ذلك الوقت على السفينة ، أما في قتل الغلام فقد حصل الإتلاف فعلاً فكان أشد إنكاراً وأعظم قبحاً وقوله : ﴿ فانطلقا ﴾ :أي موسى والخضر ﴿ حتى إذا أتيا أهل قرية ﴾ قيل هي : أنطاكية ﴿ استطعما أهلها ﴾ أي طلبا من الطعام فلم يطعموهما واستضافوهم فلم يضيفوهما وأبوا ذلك ، ومع أنهم لم يستضيفوهما فإنهما قد وجدا حائطاً في القرية ﴿ يريد أن ينقض ﴾ أي : يسقط ويقع ، أي قارب على الانهيار والسقوط ﴿ فأقامه ﴾ وقد ذُكر عن ابن عباس أنه هدمه ثم أخذ يبنيه ، وقوله : ﴿ قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً ﴾ [5] :

---

(1) الكهف : ٧١ (2) الكهف : ٧٢ (3) الكهف : ٧٣
(4) الكهف : ٧٤ (5) الكهف : ٧٧

أي قال موسى لصاحبه : لو شئت لم تقم لهؤلاء القوم جدارهم حتى يعطوك على إقامتك لذلك الحائط أجراً . فقال بعضهم : إنما عَنَىَ موسى بالأجر الذي قال له ﴿ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْه أجْراً ﴾ القرى ، أي : ليقرونا . وقال آخرون : بل عني بذلك العوض والجزاء على إقامته الحائط الآيل للسقوط وهذا هو الظاهر، وقوله : ﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ، سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْه صَبْراً ﴾ [1] قال صاحب موسى لموسى : هذا الذي قلته ألا وهو قوله : ﴿ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْه أجْراً ﴾ فراق بيني وبينـك أي :مفرق بيني وبينكَ ، ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ﴾ أي سأخبرك بتأويل ﴿ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْه صَبْراً ﴾ أي : بما يؤول إليه عاقبة الأفعال التي فعلتها فلم تستطع على ترك المسألة عنها وعلى النكير عليَّ فيها صبراً .

يقول تعالى ذكره في ذلك :

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ، قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إمْراً * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً * قَالَ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً * فَانْطَلَقَا حَتَّى إذَا لَقِيَا غُلاَماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً * قَالَ إنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي ، قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً * فَانْطَلَقَا حَتَّى إذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ، قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيه أَجْراً * قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ، سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً ﴾[2] .

* * *

(١) الكهف : ٧٨

(٢) الكهف : ٧١ - ٧٨

• رد الخضر على اعتراضات موسى عليهما السلام :

لما كانت هذه المسائل الثلاث التي يعبر عنها تخريق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار مشتركة في شيء واحد وهو أن أحكام الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم مبينة على الظواهر ، ولما كان تصرف الخضر غير مقام على ظواهر الأمور في نظر موسى عليه السلام ، كان طبيعياً أن يُعلن الخضر الأسباب والأسرار الحقيقية التي يُوحي بها الواقع ، وتتحدث الأسرار والبواعث التي جعلت ذلك التصرف في نظر موسى عجباً وداعياً إلى الاستنكار لأن الظاهر يُحَرِّم التصرف في أموال الناس على الصورة التي تصرف بها الخضر ، كما يُحَرِّم التصرف في الأرواح بالشكل الذي لجأ إليه من غير أن يُبدي تلك الأسباب التي أقام عليها صحيح تصرفه وبنى عليها فعله العجيب ، لأن تخريق السفينة ضياع لملك الناس وتنقيص له بلا سبب ظاهر ، وقتل الإنسان تفويت وحرمان له من حقه في الحياة من غير سبب ظاهر أيضاً ، والإقدام على إقامة ذلك الجدار المائل يجعل منه تعباً ومشقة من غير سبب يدعو لذلك في الظاهر . فكل هذه الأمور تستدعي عجباً وتستوجب تحيراً وتفكيراً عميقاً ، فإن الحكم فيها ليس مبنياً على أسباب ظاهرة تطمئن لها القلوب وتقبلها النفوس والعقول ، لكن لما أقام الخضر الأسباب وأظهرها زال ذلك التحرك الذي أدهش القلوب وحركها وهي في الوقت نفسه قد تحدثت عما آتاه الله تعالى من القوة التي بها قدر على أن يشرف علي بواطن الأمور ، واستطاع أن يُجْلي الحقائق الباهرة لوقتها وتنطق بأسرار عظيمة الشأن رائعة التقدير ، فكانت مرتبة موسى مبنية على ظواهر الأمور ، ومرتبة الخضر مبنية على بواطنها والاطلاع على أسرارها ، والأسرار تظهر تماماً في أنه لو لم يحدث عيباً بالسفينة بذلك التخريق لاغتصبها ذلك الملك وأضاع تلك المنافع التي كان ملاكها ينتظرونها من وراء تلك السفينة ، وترك الغلام حياً كان مفسدة للوالدين في دينهم ودنياهم فكان قتله أقل ضرراً من بقائه بسبب تلك المفاسد التي كان سيلحقها بالوالدين . والمشقة الحاصلة بسبب الإقدام على إقامة الجدار أقل ضرراً من سقوطه لأن في سقوطه ضياعاً لأموال الأيتام .

والحاصل أن الخضر كان مخصوصاً بالوقوف على بواطن الأمور والاطلاع على حقائقها كما هي عليها ، وكان مخصوصاً ببناء الأحكام الحقيقية على تلك الأحوال الباطنة ، وأما موسى عليه السلام فقد كانت أحكامه مبنية على ظواهر الأمور .

* * *

• كمال الدرجات إنما يتم بكمال الظاهر والباطن :

ثم إن موسى عليه السلام لما كملت مرتبته في علوم الشريعة بعثه الله إلى الخضر ليُعَلِّمه ويُرشده إلى أن كمال الدرجة في أن ينتقل الإنسان من علوم الشريعة المبنية على الظواهر إلى علوم الباطن المبنية على الإشراف على بواطن الأمور والوقوف على حقائقها ، بمعنى أن يعلمه الله ويهبه حقائق علوم الشريعة وعلوم الحقيقة .

ثم إن الخضر عليه السلام قد كشف النقاب عن تصرفه في المسائل الثلاث فأجاب عن المسألة الأولى بقوله : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾[1] فكانت تلك السفينة لأقوام محتاجين للتعيش منها ، وقد كان ذلك الملك الظالم يغتصب السفن الخالية عن العيوب ، وذلك التخريق يجعلها في نظر الملك غير صالحة للاستعمال ولذلك قال : ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ أى : كل سفينة صالحة للاستعمال ، وقد أجاب عن المسألة الثانية وهى قتل الغلام بقوله : ﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ [2] والمراد من ذلك : أن الغلام كان يحمل أبويه على الطغيان والكفر ، وقد تأكد ذلك للخضر بوحى الله تعالى ، ثم قال تعالى : ﴿ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ [3]

---

(١) الكهف : ٧٩ (٢) الكهف : ٨٠ (٣) الكهف : ٨١

أى : أردنا أن يرزقهما الله تعالى ولداً خيراً من هذا الغلام ﴿ زَكَاةً ﴾ : أى ديناً وصلاحاً ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْماً ﴾ : أى يكون هذا البدل أقرب عطفاً ورحمة بوالديه ، وأما المسألة الثالثة وهي إقامة الجدار فقد أجاب عنها بقوله : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً ﴾ [1] ... إلخ . أى : أن الداعي له إلى ذلك أنه كان تحت ذلك الجدار كنز ، وكان ذلك الكنز ليتيمين في المدينة ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً ﴾ يذكر أن ذلك الجدار كان مشرفاً وآيلاً للسقوط ، ولو سقط وانهار ، ذلك الجدار لضاع ذلك الكنز على اليتيمين المشار إليهما فأراد الله تعالى أن يحفظ ذلك الكنز من الضياع وأن يبقيه رعاية لحقهما ورعاية لصلاح أبيهما ، فكانت إقامة الجدار رعاية لهذه المصالح ، وقوله : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً ﴾ يشهد بأن صلاح الآباء ينفع الأبناء ويفيدهم ، وعن جعفر بن محمد : كان بين الغلامين وبين الأب الصالح سبعة آباء . ويظهر من ذلك أن اليتيمين كانا جاهلين بذلك الكنز ، وقيل : كان بين الغلامين وبين الأب الصالح عشرة آباء . وعلى كل تقدير ففيه دلالة على أن الرجل الصالح يُحفظ في ذريته ، وقوله : ﴿ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ [2] دليل على أنه كان نبياً وأنه ما فعل شيئاً من تلقاء نفسه ، بل إنما فعله بأمر ربه فهو نبي لذلك ، وقيل : إنه رسول ، وقيل : ولي ، وأغرب من هذا من قال : إنه كان مَلَكاً . والله أعلم .

* * *

• قصة موسى وقارون :

كان قارون وزيراً لفرعون وطاغية من طغاته وجباراً عتياً من جبابرته ، تزينت له الدنيا فافتتن بها وتبرجت له فاستعبدته فأعطى من كنوزها كثيراً ودَّرت عليه أموالاً طائلة ، وكثرة الكنوز تُطغي وزيادة الأموال تُعمي ، وقد وصف الله ذلك الجبار في كتابه العظيم وبيَّن حاله الذميم في قولـه تعالى من سورة القصص : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ، وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا

(١) الكهف : ٨٢ (٢) الكهف : ٨٢

إنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ ، إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ، وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ * وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ ، إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ، أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً ، وَلاَ يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ، قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونَ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ، وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ، لَوْلاَ أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ، وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ * وَتِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) .

كان هذا عرضاً لحال ذلك المتكبر الجبار وتبياناً لسلوكه ومسلكه في هذه الحياة وتعبيراً عما انتهى إليه مصيره وآل إليه أمره ، وإيقاظاً لمن سوّلت له نفسه الجرى وراء زخارف هذه الحياة ومفاسدها وحببتها إليه ورغّبته ودفعته إليها .

قال الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان قارون ابن عم موسى . وكذلك قال ابراهيم النّخعي وعبد الله بن الحارث بن نوفل وسماك بن حرب وقتادة ومالك بن دينار وابن جريج وزاد فقال : هو قارون ابن يصهب بن قاهث ، وموسى بن عمران بن قاهث . قال ابن جرير : وهذا قول أكثر أهل العلم . وجاء هذا في النسخة المخطوطة لكن النسخة المطبوعة جاء فيها عن ابن جريج : أن ذلك تحريف . أي أنه ليس ابن عم موسى كما قال أكثر أهل العلم ، ورد قول ابن إسحاق أنه كان عم موسى ، قال قتادة : وكان يسمى المنوّر لحسن صوته بالتوراة ، ولكن الحقيقة الناطقة أن عدو الله نافق كما نافق

---

(١) القصص : ٧٦ - ٨٣ .

السامرى فأهلكه البغي لكثرة ماله . وقال شهر بن حوشب : زاد في نيابه شبراً طولا ترفعاً على قومه واستعظاماً ، وقد ذكر الله تعالى كثرة كنوزه حتى إن مفاتحه كان يثقل حَمْلهَا على الفئام [1] من الرجال الشداد ، وقد قيل : إنها كانت من الجلود وإنها كانت تُحمْل على ستين بغلاً ، وقد وجه إليه النصحاء من قومه وعظاً وتذكيراً قائلين له : ﴿ لاَ تَفْرَحْ ﴾ أى : لا تبطر بما أعطيت ولا تعلو وتفخر على غيرك ﴿ إنَّ اللَّهَ لاَ يُحبُّ الفَرحينَ * وَابْتَغ فيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخرَةَ ﴾ يقولون له : ينبغي أن تكون همتك مصروفة لتحصيل ثواب الله في الدار الآخرة فإنه خير لك وأبقى والعاقبة لمن وجه عنايته لذلك وعمل لما بعد الموت ، ومع هذا ﴿ لاَ تَنسَ نَصيبَكَ منَ الدُّنْيَا ﴾ أى : وتتناول منها بمالك ما أحل الله لك ولا تتجاوز ذلك فما وراء تمتعك بالطيب الحلال إلا حفظ نفسك من شرور الآخرة وويلاتها ، فمن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ،﴿ وأحْسنْ كَمَا أحْسَنَ اللَّهُ إلَيْكَ ﴾ أى : وأحسن إلى خلق الله كما أحسن الله خالقهم وبارئهم إليك فعاملهم بالتي هى أحسن وتصدّق عليهم من فيض مالك ، إن الله يجزي المتصدقين، ﴿ وَلاَ تَبْغ الفَسَادَ في الأرْض ﴾ أى : ولا تسىء إليهم ولا تنشر الفساد فيهم ولا تعاملهم بضد ما أمرت أن تعاملهم وتقابلهم به فيعاقبك ربك ويَسْلبك ما وهبك وأعطاك ،﴿ إنَّ اللَّهَ لاَ يُحبُّ المُفْسدينَ ﴾ . فما كان جوابه لقومه على إسدائهم إليه هذه النصيحة العظيمة والتوجيه الكريم إلا أن قال : ﴿ إنَّمَا أُوتيتُهُ عَلَى علْم عنْدي﴾ أى : أنا لست في حاجة إلى استماع ما ذكرتم ولا إلى ما إليه ذكرتم فإن الله إنما أعطاني هذا وساقه لي لعلمه أني أستحقه وأنني أهل له ، ولولا أن لي حظوة عنده ومقاماً لديه لما أعطاني ما أعطاني ، وقد كان هذا تخبطاً منه وبُعداً عن الصواب والحق ، ولذلك رد الله عليه رداً قاضياً على ما يزعمه وما سوّلته له نفسه إذ يقول : ﴿ أوَ لَمْ يَعْلَمْ أنَّ اللَّهَ قَدْ أهْلَكَ منْ قَبْله منَ القُرُون مَنْ هُوَ أشَدُّ منْهُ قُوَّةً وَأكْثَرُ جَمْعاً ، وَلاَ يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبهمُ المُجْرمُونَ ﴾ أى : أو لم يعلم أنَّا قد أهلكنا من الأمم

(١) الفئام : الجماعة من الناس .

الماضية بذنوبهم وخطاياهم من هو أشد من قارون قوة وبطشاً وأكثر أموالاً وأولاداً ، فلو كان ما قال صحيحاً لم نعاقب أحداً ممن كان أكثر أموالاً منه ، فلم يكن كثرة ماله دليلاً على محبتنا له واهتمامنا بشأنه ، يشهد بذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ (١) ، كما يرشد إليه قوله : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِن مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ، بَل لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ (٢) وقد جرّه ماله الوفير وكنوزه الهائلة إلى التفاخر والتباهي بما وصل إليه أمره ، يرشد إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾ ، ذكر كثير من المفسرين أنه خرج في تجمل عظيم ومواكب رائعة ، فلما رآه من يُعَظِّم زهرة الحياة الدنيا وتُلهيه آمالها تمنوا أن لو كانوا مثله وغبطوه بما هو عليه وله . فلما سمع مقالتهم العلماء وأولوا الألباب زهاد هذه الحياة قالوا : ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ ، فـ « ويلكم » كلمة تقريع وتنبيه لهم ، أي : ثوابَ الله في الدار الآخرة خير وأبقى وأجل وأسمى ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ (٣) ، قال الله تعالى : ﴿ وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ ﴾ أي : وما يلقي هذه النصيحة الغالية إلا الذين هُدوا إلى الطيب من القول وأوتوا الصبر وثبتت قلوبهم بالقول الثابت في هذه الحياة .

وما أحسن ما قال بعض السَلَف : إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشُّبهات والعقل الكامل عند حلول الشهوات ، ولما لم يتدبر عاقبة أمره ولم يفكر في المصير المحتوم ولم يعمل بالنصائح التي وجهها إليه قومه كان جزاؤه ما هدى إليه قوله : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ﴾ ، روى البخاري في هذا الشأن من حديث الزهري عن سالم عن أبيه عن النبي ﷺ قال : « بَيْنا رجل يجُر رداءه إذ خُسفَ بـه فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة » .

(١) سبأ : ٣٧ (٢) المؤمنون : ٥٥ - ٥٦ (٣) آل عمران : ١٨٥

ثم رواه البخاري من حديث جرير بن زيد عن سالم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه . وقد ذُكِرَ عن ابن عباس والسُّدي : أن قارون أعطى امرأة بغياً مالا على أن تقول لموسى عليه السلام وهو في ملأ من الناس : إنك فعلت بي كذا وكذا ، فيقال إنها قالت له ذلك فأُرعد من الفَرَق وصلى ركعتين ثم أقبل عليها فاستحلفها وقال : ما حملك على هذا ؟ فذكرت أن قارون هو الذي دفعها إلى ذلك ، وعندئذ استغفرت الله تعالى وتابت إليه ، وما بلغ الأمر ما بلغه من الرجوع إليه تعالى خَرَّ موسى ساجداً لله تعالى ودعا الله على قارون ، فأوحى الله إليه أني قد أمرت الأرض أن تُطيعك فيه . فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره فكان ذلك .

وقد رُوِيَ عن قتادة أنه قال : يُخسف بهم كل يوم قامة إلى يوم القيامة . وعن ابن عباس أنه قال : خُسِفَ بهم إلى الأرض السابعة . وما نفعتهم زينتهم التي خرجوا فيها ولا مواكبهم التي كانوا يباهون بها ويختالون في نواحيها ولا كثرة المال ، ولذلك قال تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ﴾ فلم يكن له في ذلك الوقت ناصر من نفسه ولا من غيره كما قال تعالى : ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ ﴾ [1] ، ولما حَلَّ ما حُلَّ به من الخسف وذهاب الأموال وخراب الدار وإهلاك النفس والأهل والعقار ندم من كان تَمنّى أم يكون له مثل قارون وما أُوتيه من العطايا شكروا الله تعالى الذي يُدَبِّر عباده بما يشاء من حسن التدبير ، ولهذا قالوا : ﴿ لَوْلاَ أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ، وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الكَافِرُونَ ﴾ .

وقد قال قتادة في قوله : ﴿ وَيْكَأَنَّهُ ﴾ بمعنى ألم تر أن ، ولم يدعهم سبحانه وتعالى في حيرة من أمر الآخرة فقد أخبر عنها أنها لمن ﴿ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً ﴾ وهي الدار التي يُغبط من يُعطاها ويُعزّى من

(١) الطارق : ١٠ .

حُرمها إنما هي مُعدة ﴿ لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً ﴾ . فالعلو هو التكبر والفخر والأثر والبَطَرْ . والفساد هو عمل المعاصي اللازمة والمتعدية من أخذ أموال الناس وإفساد معايشهم والإساءة إليهم وعدم النصح لهم .

وقصة قارون هذه قد تكون قبل خروجهم من مصر لقوله تعالى : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ ﴾ فإن الدار ظاهرة في البنيان ، وقد تكون بعد ذلك في التِّيه وتكون الدار عبارة عن المحلة التي تُضرب فيها الخيام ، وقد ذكر اللّه تعالى مذمة قارون في غير ما آية من القرآن الكريم قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [1] (من آيات سورة غافر) . وقال تعالى في سورة العنكبوت بعد ذكر عاد وثمود وقارون وفرعون وهامان : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ * فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ ، فَمِنْهُم مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [2] فالذي خُسفَ به الأرض هو قارون كما تقدم الكلام عنه ، والذي أغرق إنما هو ﴿ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا ﴾ [3] ، ولقد قال الإمام أحمد : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا سعيد ، حدثنا كعب بن علقمة عن عيسى بن هلال الصدفي عن عبد اللّه بن عمرو عن النبي ﷺ أنه ذكر الصلاة يوماً فقال : « من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة ، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأُبَيّ بن خلف » انفرد به أحمد رحمه اللّه تعالى .

* * *

(١) غافر : ٢٣ - ٢٤ (٢) العنكبوت : ٣٩ - ٤٠ . (٣) القصص : ٨

● **فضائل موسى عليه السلام :**

لو أردنا أن نتحدث عن فضائل موسى عليه السلام ونكتب عن شمائله وجلال قدره وعلو شأنه ، وطاوعنا القلم ووهبنا الله نوراً يشق أمامنا الطريق إلى ذلك وأعطانا قوة الصبر واحتماله على سلوك هذا الطريق ، ما وسعت الصحف التي نسجل فيها الآيات إلا قليلاً منها تاركين الكثير إلى القرآن الكريم والأحاديث النبوية ، فإنها التي عرضت عرضاً كريماً تلك الفضائل والآيات ، ولا يخفى أن أحداً من الأنبياء والمرسلين لم يبلغ مقام رسولنا الأعظم سيدنا محمد ﷺ ولم يصل إلى الدرجات العُلا التي امتاز بها عنهم ، وإنا ندع الحديث عن ذلك فإن هذه الحياة كلها لا نستطيع التعبير عنها ولا الحديث فيها . يقول الأباصيري :

ومبلغ العلم فيه أنه بشر ... وأنه خير خلق الله كلهم

ويقول الشاعر :

وعلى تفنن واصفيه بحسنه ... يفني الزمان وفيه ما لم يوصف

* * *

ونعود إلى الحديث عن موسى عليه السلام قال الله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى ، إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً * وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً * وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً ﴾ (١) . وقال تعالى : ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ ﴾ (٣) ... إلى أن قال : ﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ، وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً ﴾ (٤) ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ، وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴾(٥) .

(١) مريم : ٥١ - ٥٣ . (٢) الأعراف : ١٤٤ . (٣) النساء : ١٦٣ .
(٤) النساء : ١٦٤ . (٥) الأحزاب : ٦٩ .

قال الإمام أبو عبد الله البخاري : حدثنا إسحاق بن ابراهيم بن رَوْح بن عُبادة عن عوف عن الحسن ومحمد وخلاس عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن موسى كان رجلا حيياً ستِّيرا لا يُرى من جلده شيء استحياءً منه ، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل ، فقالوا : ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده ، إما برص وإما أُدرة [1] وإما آفة ، وإن الله عز وجل أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى ، فخلا يوماً وحده ، فوضع ثيابه على الحَجَر ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها وأن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول : ثوبي حجر .. ثوبي حجر . حتى انتهى إلى ملأٍ من بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله ، وأبرأه مما يقولون ، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضرباً بعصاه ، فوالله إن بالحجر لندَباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً ، فذلك قوله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ، وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴾ .

وقد رواه الإمام أحمد من طريق عبد الله بن شقيق وهمام بن منبه عن أبي هريرة به ، وهو في الصحيحين من طريق عبد الرزاق عن معمر عن همام عنه به ، ورواه مسلم من حديث عبد الله بن شقيق العقيلي عنه قال بعض السلف : كان من وجاهته أنه شفع في أخيه عبد الله [2] وطلب منه أن يكون معه وزيراً فأجابه الله إلى سؤاله وأعطاه طلبته وجعله نبياً كما قال : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً ﴾ [3] .

ثم قال البخاري : حدثنا أبو الوليد ، حدثنا شعبة عن الأعمش . قال : سمعت أبا وائل ، قال : سمعت عبد الله قال : قَسَم رسول الله ﷺ قَسْماً فقال رجل : إن هذه لقسْمَة ما أُريد بها وجه الله ، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته ، فغضب حتى رأيت الغضب في وجهه . ثم قال : « يرحم الله موسى ، لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر » ، وكذا رواه مسلم من غير وجه عن سليمان بن مهران الأعمش به .

---

(١) الأدرة : انتفاخ الخصية . (٢) المعروف بهارون . (٣) مريم : ٥٣

فأثنى القرآن على موسى كثيراً كما أثنت عليه الأحاديث ، وما من شك في أنه من أولي العزم من الرسل يقول تعالى معبراً عن ذلك : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِيثَاقاً غَلِيظاً ﴾ (١) . وإلى هنا يكفي ما قدمناه في الإعراب عن يسير فضائله عليه السلام .

* * *

• حجه وصفته عليه السلام :

دلت الأحاديث الصحيحة والآثار العظيمة على أنه عليه السلام حج البيت وأدى ذلك النسك ، قال الإمام أحمد : حدثنا هشام ، هدثنا داوود بن أبي هند عن أبي العالية عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ مر بوادي الأزرق فقال : أي واد هذا ؟ قالوا : وادي الأزرق : قال : « كأني أنظر إلى موسى وهو هابط من الثنية وله جؤار إلى الله عز وجل بالتلبية . حتى أتى على ثنية هرشاء ، فقال : أي ثنية هذه ؟ قالوا : هذه ثنية هرشاء ، قال : كأني أنظر إلى يونس بن متى على ناقة حمراء عليه جبة من صوف خُطَامُ ناقته خُلْبة - قال هُشَيْمْ يعني ليفاً - وهو يُلَبي » . أخرجه مسلم من حديث داوود بن أبي هند به ، وروى الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً : « إن موسى حج على ثور أحمر » وهذا غريب جداً .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يونس ، حدثنا شيبَان قال : حُدث قتادة عن أبي العالية ، حدثنا ابن عمكم ابن عباس قال : قال نبي الله ﷺ : « رأيت ليلة أسرى بي موسى بن عمران رجلاً طويلاً جعداً كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى ابن مريم مربوع (٢) الخلق إلى الحمرة والبياض سبط (٣) الرأس . قالوا : فإبراهيم ؟ قال : انظروا إلى صاحبكم » - يعني نفسه عليه الصلاة والسلام - وأخرجاه من حديث قتادة به .

* * *

---

(١) الأحزاب : ٧ .
(٢) المربوع : الوسط بين الطويل والقصير .
(٣) سبط الرأس : أي المسترسل الشعر .

• وفاته عليه السلام :

قال البخارى في صحيحه : « وفاة موسى عليه السلام » : حدثنا يحيى بن موسى ، حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة، قال : أرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام فلما جاءه صَكَّه فرجع إلى ربه عز وجل فقال : أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت . قال : ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور فله مما غَطت يده بكل شعرة سنة قال : أى رب ثم ماذا ؟ قال: ثم الموت قال : فالآن . قال : فسأل الله عز وجل أن يدنيه من الأرض المقدسة رَمية بحجر ، قال أبو هريرة فقال رسول الله ﷺ : « لو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر » .

قال : وأنبأنا معمر عن همام عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه ، وقد روى مسلم الطريق الأول من حديث عبد الرزاق به ، ورواه الإمام أحمد من طريق حماد بن سلمة عن عمار بن أبي عمار عن أبي هريرة مرفوعاً ، وقال السدّي عن أبي مالك لأبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة قالوا : ثم إن الله تعالى أوحى إلى موسى إني متوف هارون فائت به جبل كذا وكذا . فانطلق موسى وهارون نحو ذلك الجبل ، فإذا هم بشجرة لم تُر شجرة مثلها إذا هم ببيت مبني وإذا هم بسرير عليه فُرُش وإذا فيه ريح طيبة ، فلما نظر هارون إلى ذلك الجبل والبيت وما به أعجبه ، قال : يا موسى إني أحب أن أنام على هذا السرير ، قال له موسى : فنم عليه . قال : إني أخاف أن يأتي رب هذا البيت فيغضب عليّ . قال له : لا ترهب أنا أكفيك رب هذا البيت . قال : يا موسى بل نم معي فإن جاء رب هذا البيت غضب عليّ وعليك جميعاً . فلما ناما أخذ هارون الموتُ . فلما وجدَ حسَّه قال : يا موسى خدعتني . فلما قُبِض رُفِع ذلك البيت وذهبت تلك الشجرة ورُفِع السرير به إلى السماء .

فلما رجع موسى إلى قومه وليس معه هارون قالوا : إنَّ موسى قتل هارون وحَسَدَه على حب بني إسرائيل له ، وكان هارون أكفَّ عنهم وألين لهم من موسى

وكان في موسى بعض الغلظة عليهم ، فلما بلغه ذلك قال لهم : ويحكم .. كان أخي أفتَرَوني أقتله ؟! فلما أكثروا عليه قام فصلى ركعتين ثم دعا الله فنزل السرير حتى نظروا إليه بين السماء والأرض .

ثم إنَّ موسى عليه السلام بينما هو يمشي ويوشع فتاه ، إذ أقبلت ريح سوداء فلما نظر إليها يوشع ظن أنها الساعة فالتزم موسى وقال : تقوم الساعة وأنا ملتزم موسى نبيَّ الله . فاستَلَّ موسى عليه السلام من تحت القميص وتَرِك القميص في يدى يوشع ، فلما جاء يوشع بالقميص أخذته بنو إسرائيل وقالوا : قتلت نبيَّ الله . فقال : لا والله ما قتلته ولكنه استَلَّ مني ، فلم يصدقوه وأرادوا قتله قال : فإذا لم تصدقوني . فأخروني ثلاثة أيام . فدعا الله فأتي كلُّ رجل ممن كان يحرسُه في المنام فأخبر أن يوشع لم يقتله وإنَّا قد رفعناه إلينا فتركوه . ولم يبق أحد ممن أبى أن يدخل قرية الجبارين مع موسى إلا مات ولم يشهد الفتح . وفي بعض هذا السياق نَكَارة وغرابة .. والله أعلم [1] .

وقد تَقَدَّم أنه لم يخرج أحد من التِّيه ممن كان مع موسى سوى يوشع بن نون وكالب بن يوفنا وهو زوج مريم أخت موسى وهارون ، وهما الرجلان اللذان أشارا على ملأ بني إسرائيل بالدخول عليهم .

وذكر وهب بن منبه أن موسى عليه السلام مرَّ بملأ من الملائكه يحفرون قبراً فلم ير أحسن ولا أنفس ولا أبهج منه فقال : ياملائكة الله ، لمن تحفرون هذا القبر ؟ فقالوا : لعبد من عباد الله كريم ، فإن كنت تحب أن تكون هذا العبد فادخل هذا القبر وتمدَّد فيه وتوجه إلى ربك وتنفس أسهل تنفس .. ففعل ذلك فمات - صلوات الله وسلامه عليه - فصلَّت عليه الملائكة ودفنوه .

وذكر أهل الكتاب وغيرهم أنه مات وعمره مائة وعشرون سنة .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا أمية بن خالد ويونس ، قالا : حدثنا حماد بن سلمة عن عمار بن أبي عمار عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال يونس : رفع هذا الحديث إلى النبي ﷺ قال : « كان مَلَك الموت يأتي الناس عَياناً . قال : فأتي

---

(١) لعل هذا من الاسرائليات المدسوسة ، ولهذا نرى المؤلف رحمه الله يقول : « وفي بعض هذا السياق نكارة وغرابة .. والله أعلم » (المراجع) .

موسى عليه السلام فلطمه ففقأ عينه ، فأتى ربه فقال : يا رب عبدك موسى فقأ عيني ولولا كرامته عليك لعتبتُ عليه - وقال يونس : لشققت عليه - قال له : اذهب إلى عبدي فقل له فليضع يده على جلد - أو مَسْكَ - ثور فله بكل شعرة وارت يده سنة ، فأتاه فقال له ، فقال : ما بعد هذا ؟ . قال : الموت . قال : فالآن . قال : فَشَمَّه شمَّةً فقبض روحه » .

قال يونس : فردَّ الله عليه عينه وكان يأتي الناس خُفْية . وكذا رواه ابن جرير عن أبي كريب عن مصعب بن المقدام عن حماد بن سلمة به فرفعه أيضاً .

رحم الله هارون وموسى

*   *   *

قصة يوشع وذكر نبوته

يجدر بنا أن نتحدث عن قصة يوشع بعد أن تحدثنا عن قصة موسى عليه السلام ، لأن الارتباط الذي كان يقوم بين موسى ويوشع هو الذي يحملنا على ذلك ويدعونا إلى ذكر نبوته وقصته بعد الحديث عن قصة موسى والتطوارت التي صاحبته في مراحل حياته ، لكن قبل أن نتكلم عن قصته ينبغي أن نستعرض نسبه إتماماً للفائدة ، علماً بأنه قام بأعباء بنى إسرائيل بعد هارون وموسى عليهما السلام ، أما نسبه فهو : يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم صلوات الله وسلامه .

وقد ذكره الله تعالى في كتابه الكريم غير مصرح باسمه في قصة الخضر مع موسى عليهما السلام إذ يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً ﴾ (١) ، ويقول :﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً ﴾ (٢) . وقد قدَّمنا ما ثبت في الصحيح من أن المراد به يوشع ، إذ جاء في رواية أُبَيّ بن كعب عن النبي ﷺ ، ومن أنه « يوشع بن نون » وهو متفق على نبوته عند أهل الكتاب فإن طائفة منهم وهم السامرة لا يقرون بنبوة أحد بعد موسى سوى يوشع بن نون لأنه مُصَرَّح به في التوراة ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم في زعمهم فعليهم لعائن الله إلى يوم القيامة .

والجدير بالذكر في هذا المجال أن الذي خرج ببني إسرائيل من التِّيه وقصد بهم بيت المقدس هو يوشع بن نون . فقد ذكر أهل الكتاب وغيرهم من أهل التاريخ أنه قطع ببني إسرائيل نهر الأردن وانتهى إلى « أريحا » وكانت من أحصن المدائن سوراً وأعلاها قصوراً وأكثرها أهلاً ، فحاصرها مع من جهزهم من

---

(١) الكهف : ٦٠ .
(٢) الكهف : ٦٢ .

جيوش بني إسرائيل ستة أشهر ، ثم إنهم أحاطوا بها يوماً ، وضربوا بالأبواق وكبّروا تكبيرة رجل واحد مع أن عدد المقاتلة كان خمسمائة ألف وواحد وسبعون ألفاً وستمائة وستة وخمسون ، ولذلك تفسّخَ سورها ، وسقط وجبَةً واحدة ، فدخلوها وأخذوا ما وجدوا فيها من الغنائم ، وقتلوا اثنى عشر ألفاً من الرجال والنساء ، وحاربوا ملوكاً ، ويُقال : إن يوشع ظهر على أحد وثلاثين ملكاً من ملوك الشام . وذكروا أنه انتهى محاصرته إلى يوم جمعة بعد العصر ، فلما غربت الشمس - أو كادت تغرب ويدخل عليهم السبت الذي جُعِلَ عليهم وشُرِعَ لهم ذلك الزمان - قال لها : إنك مأمورة وأنا مأمور ، اللّهم احبسها عليَّ . فحبسها اللّه عليه حتى تمكن من فتح البلد ، وأمر القمر فوقف عند الطلوع وهذا يقتضي أن هذه الليلة كانت الليلة الرابعة عشرة من الشهر الأول ، وهو غير قصة الشمس المذكورة في الحديث الذي سيأتي ذكره فيما بعد ، وأما قصة القمر فمن عند أهل الكتاب وظاهر أن الحصار المذكور والفتح المذكور إنما كان لبيت المقدس لأنه المقصود بالذات فى الحملة المذكورة وليس فتح أريحا ، فإنه كان ليس مقصوداً لذاته ، وإنما هو وسيلة إلى المقصود ولذلك ينبغي أن يُفهم أن الأتجاه إنما كان اتجاهاً للمقصود الأعظم ؛ ألا وهو فتح بيت المقدس ، وأما فتح أريحا - كما قلنا - فقد كان وسيلة إليه .

قال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا أبو بكر ، عن هشام ، عن ابن سيرين ، عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس » . (انفرد به أحمد من هذا الوجه . وهو على شرط البخاري) .

* * *

• فتح بيت المقدس :

وفيه دلالة على أن الذي فتح بيت المقدس هو يوشع بن نون عليه السلام لا موسى ، وأن حَبْس الشمس كان في فتح بيت المقدس لا في أريحا ، وفيه أن هذا كان من خصائص يوشع عليه السلام .

ولا يفوتني أن أذكر بالحمد والتقدير موسى عليه السلام ، فإن يوشع وإن كان هو الذي خرج بالمقاتلة من بني إسرائيل من التِّيه ، لكن الذي قام بإعدادهم وتجهيزهم هو موسى عليه السلام قبل وفاته ، فجزاه الله عن الدين خيراً .

ولا يخفى من قيام ذلك الحصار أن يوشع والمقاتلين خاضوا هذه المعركة وصبروا عليها صبراً جميلاً انتهى بذلك الفتح العظيم والنصر المبين ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ ﴾ (١) .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مصر ، عن همام ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « غزا نبي من الأنبياء فقال لقومه : لا يتبعني رجل قد ملك بُضع امرأة وهو يريد أن يَبني بها ولما يَبْنِ ، ولا آخر قد بنى بنياناً ولم يرفع سُقُفَها ، ولا آخر قد اشترى غنماً أو خليفات (٢) وهو ينتظر أولادها . قال : فغزا فدنا من القرية حين صُلّى العصر أو قريباً من ذلك فقال للشمس : أنت مأمورة وأنا مأمور ، اللَّهم احبسها عليّ شيئاً . فحُبست عليه حتى فتح الله عليه ، فقال : فجمعوا ما غنموا فأتت النار لتأكله فأبت أن تُطْعَمه ، فقال : فيكم غُلُول فليبايعني من كل قبيلة رجل ، فبايعوه فلصقت يد رجل بيده ، فقال : فيكم الغُلول فلتبايعنى قبيلتك ، فبايعته قبيلته ، قال : فلصقت بيد رجلين أو ثلاثة ، فقال : فيكم الغُلول أنتم غَلَلتم ، قال : فاخرجوا له مثل رأس بقرة من ذهب ، قال : فوضعوه بالمال وهو بالصعيد ، فأقبلت النار فأكلته فلم تحل الغنائم لأحد من قبلنا ، ذلك بأن الله رأى ضعفنا وعجزنا فطَيَّبها لنا » . (انفرد به مسلم من هذا الوجه) ، وقد روى البزار من طريق مبارك بن فضالة عن عبيد الله عن سعيد المقّبري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه . قال : ورواه محمد بن عجلان عن سعيد المقْبري ، قال : ورواه قتادة عن سعيد بن المسيِّب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ .

والمقصود : أنه لما دخل بهم باب المدينة أمروا أن يدخلها سجَّداً - أى رُكَّعاً متواضعين - شاكرين لله عز وجل على ما مَنَّ به عليهم من الفتح العظيم الذي كان

---

(١) آل عمران : ١٦٠ .

(٢) الخليفات : النوق الحوامل .

الله وعدهم إياه ، وأن يقولوا حال دخولهم « حطة » : أي حط عنا خطايانا التي سَلَفت من نكولنا الذي تَقَدَّم منا . ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ يوم فتح مكة دخلها وهو راكب ناقته ، وهو متواضع حامداً شاكراً حتى إن عُثْنُونه - طرف لحيته - ليمس مَورك رَحْله مما يطاطئ رأسه خضعاناً لله عز وجل ومعه الجيوش والجنود ممن لا يُرى منه إلا الحَدَق ولا سيما الكتيبة الخضراء التي فيها رسول الله ﷺ ، ثم لما دخلها اغتسل وصلى ثماني ركعات وهي صلاة الشكر التي قام بها الرسول الأعظم ﷺ اعترافاً بفضل الله على نصره إياهم ، وذلك هو الذي نَصَّ عليه العلماء والمشهور في هذا الشأن ، وقيل : إنها صلاة الضحى ، وما حمل هذا التأويل على قوله هذا إلا لأنها وقعت الضحى .

وأما بنو إسرائيل فإنهم خالفوا ما أُمروا به قولاً وفعلاً ، فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم وهم يقولون : حبة في شعيرة ، وفي رواية : حنطة في شعيرة .

وحاصل هذه المرحلة أنهم بدّلوا ما أُمروا به واستهزأوا به ، كما قال تعالى حاكياً عنهم في سورة الأعراف - وهي مكية - : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِه الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُم وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُم خَطِيئَاتِكُمْ ، سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ (١) .

وقال في سورة البقرة وهي مدنية مخاطباً لهم : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ، وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) الأعراف : ١٦١ - ١٦٢ (٢) البقرة : ٥٨ - ٥٩ .

وقال الثوري عن الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : ﴿ وَادْخُلُوا البَابَ سُجَّداً ﴾ : رُكّعاً من باب صغير ، رواه الحاكم وابن جرير وابن أبي حاتم . وقال مجاهد والسّدي والضحاك : والباب هو باب حطّة من بيت إيليا من بيت المقدس .

قال ابن مسعود : فدخلوا مُقَنّعِي رؤوسهم ضد ما أُمروا به ، وهذا لا ينافي قول ابن عباس : إنهم دخلوا يزحفون على أستاههم ، قال البخاري : حدّثنا من حدّثنا عن عبد الرحمن بن مهدي عن المبارك عن معمر عن همام بن مُنَبّه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : « قيل لبني إسرائيل : ﴿ وادْخُلُوا البَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ﴾ فبدّلوا فدخلوا يزحفون على أستاههم ، وقالوا : حبة في شعرة » . وكذا رواه النسائي من حديث ابن المبارك ببعضه ، ورواه عن محمد بن إسحاق عن ابن مهدي بهم موقوفاً .

وقد قال عبد الرزاق : أنبأنا معمر عن هشام بن مُنَبّه أنه سمع أبا هريرة يقـــول : قال رسول الله ﷺ : « قال الله لبني إسرائيل : ﴿ وادْخُلُوا البَابَ سُجَّداً وقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ﴾ فبَدّلوا فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم فقالوا : حبةَ في شعرة » ، ورواه البخاري ومسلم والترمذي من حديث عبد الرزاق ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

ولما استقرت يد بني اسرائيل على بيت المقدس استمروا فيه وبين أظهرهم نبي الله يوشع يحكم بينهم بكتاب الله « التوراة » حتى قبضة الله إليه وهو ابن مائة وسبع وعشرين سنة ، فكانت مدة حياته بعد موسى سبعاً وعشرين سنة .

* * *

قصتا الخضر وإلياس عليهما السلام
ودليل نبوة الخضر

تحدّث القرآن الكريم في سورة الكهف عن قصتي موسى والخضر عليهما السلام ، وقد دلّ سياق الحديث عنهما على نبوته من وجوه . أحدها : قوله تعالى : ﴿ فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ﴾[1] .

والثاني : قول موسى له : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً * قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً * قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْراً * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً ﴾[2] .

فلو كان ولياً - كما يقول البعض - وليس بنبي لم يخاطبه موسى بهذه المخاطبة ولم يرد على موسى هذا الرد ، وفضلاً عن ذلك فإن موسى سأل صحبته لينال ما عنده من العلم الذي اختصه الله به دونه ، ولما اجتمع به تواضع له وعظمه واتبعه في صورة مستفيد منه ، فدلّ ذلك أيضاً على أنه نبي مثله يوحى إليه كما يوحى إليه ، ولو لم يكن نبياً لما احتج الرُمّاني بهذا المسلك بعينه على نبوة الخضر عليه السلام .

الثالث : أن الخضر ما أقدم على قتل ذلك الغلام إلاّ بوحى إليه من الملك العظيم ، وهذا دليل مستقل على نبوته وبرهان قويم على عصمته ، لأن الولي لا يجوز له الإقدام على قتل النفوس بمجرد ما يُلقي في خُلده وروعه ، لأن خاطره ليس بواجب العصمة إذ يجوز عليه الخطأ بالاتفاق ، ولما أقدم الخضر على قتل ذلك الغلام الذي لم يبلغ الحُلُم علماً منه بأنه إذا بلغ يكفر ويحمل أبويه على

---

(١) الكهف : ٦٥ .
(٢) الكهف : ٦٦ - ٧٠ .

الكفر لشدة محبتهما له فيتابعانه عليه ، ففي قتله مصلحة عظيمة تربو على بقاء مُهجته صيانة لأبويه عن الوقوع في الكفر وعقوبته ، فدل ذلك على نبوته وأنه مؤيد من الله بعصمته .

الرابع : أنه لما قام الخضر بتأويل الأفاعيل لموسى ووضّح له عن حقيقة أمره وجلّي له حاله قال بعد ذلك كله : ﴿ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ [1] ؛ يعني ما فعلته من تلقاء نفسي ، بل كان ذلك بناء عن أمر أمرتَ به وأوحيَ إليَّ فيه ، فكل هذه الوجوه التي أثبتناها قد برهنت على نبوته ونطقت بها ، ولا ينافي ذلك حصول ولايته ، بل ولا رسالته كما قاله آخرون ، وإذا ثبتت نبوته كما حققته الأدلة والآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي سنذكرها ، لم يبق لمن قال بولايته ، وأن الولي قد يُطْلِع على حقيقة الأمور دون أرباب الشرع الظاهر مستند يستندون إليه ولا معتمد يعتمدون عليه .

* * *

• الخلاف في وجوده إلى زماننا هذا :

وأما الخلاف في وجوده إلى هذا الزمن ، فالجمهور على أنه باق وموجود إلى اليوم ، وقد استشهدوا على ذلك بأخبار ستتحدث عنها فيما بعد .

وهذه وصيته لموسى حين قال : ﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ، سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً ﴾ [2] فقيل : إنه أوصاه بوصايا عدة ولكننا لم نقف لها على مؤيد قوي ، ولذلك آثرنا أن لا نذكرها هنا وإنما الذي نستطيع أن نتحدث عنه ونثبته في مجالنا هذا هو بقاؤه .

قال عبد الرزاق : أنبأنا معمر عن الزهري ، أخبرني عبد الله بن عبد الله ابن عتبة : أن أبا سعيد قال : حدّثنا رسول الله ﷺ حديثاً طويلاً عن الدّجال وقال فيما يحدثنا : « يأتي الدجال وهو مُحَرّمٌ عليه أن يدخل نقاب المدينة ، فيخرج إليه

---

(1) الكهف : ٨٢ .

(2) الكهف : ٧٨ .

يومئذ رجل هو خير الناس - أو من خيرهم - فيقول : أشهد أنك أنت الدجال الذي حدثنا عنك رسول الله ﷺ بحديثه ، فيقول الدجال : أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته أتشكون في الأمر ؟ فيقولون : لا ، فيقتله ثم يحييه ، فيقول حين يحيا : والله ما كنت أشد بَصيرة فيك مني الآن ، قال : فيريد قتله الثانية فلا يُسلط عليه » .

قال معمر : بلغني أنه يجعل في حلقه صحيفة من نحاس ، وبلغني أنه الخضر الذي يقتله الدجال ثم يحييه ، وهذا الحديث مُخَرَّج في الصحيحين من حديث الزهري به . وقال أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سفيان الفقيه الراوي عن مسلم : الصحيح أن يُقال إن هذا الرجل الخضر ، وكل ما جاء في هذا الشأن ووقفنا عليه فيه هو هذا الخبر ، وقال مكحول عن كعب : أنبياء أربعة أحياء ، اثنان في الأرض : إلياس والخضر ، واثنان في السماء : إدريس وعيسى عليهما السلام .

* * *

• إلياس عليه السلام والحديث عنه :

لقد أقمنا الأدلة علي نبوة الخضر عليه السلام ، ونريد أن نقص عليك قصة إلياس عليه السلام ، وقبل أن نتحدث عن أمره نذكر نسبه إبقاء بحق القَصص ، قال علماء النسب : هو إلياس (إليسين) ، ويقال : ابن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران ، وقيل : إلياس بن العازر بن العيزار ابن هارون بن عمران .

وقد جاء ذكره في القرآن الكريم إذ يقول تعالى بعد قصة موسى وهارون في سورة الصافات : ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلاَ تَتَّقُونَ * أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ * اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * وَتَرَكْنَا

عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ * سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

وقد كان إرساله إلى أهل بعلبك غربي دمشق فدعاهم إلى الله عز وجل وأن يتركوا عبادة صنم لهم كانوا يسمونه « بعلاً » ولهذا قال لهم : ﴿ أَلاَ تَتَّقُونَ * أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الخَالِقِينَ * اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴾ (٢) . فكذّبوه وخالفوه وأرادوا قتله ، فيقال إنه هرب منهم واختفى عنهم . قال أبو يعقوب الأذرعي عن يزيد بن عبد الصمد عن هشام بن عمار قال : وسمعت من يذكر عن كعب الأحبار أنه قال : إن إلياس اختفى من ملك قومه في الغار الذي تحت الدم عشر سنين حتى أهلك الله الملك وولى غيره ، فأتاه إلياس فعرض عليه الإسلام فأسلم وأسلم من قومه خلق عظيم غير عشرة آلاف منهم فأمر بهم فقُتلوا عن آخرهم .

وقال ابن أبي الدنيا : حدثني أبو محمد القاسم بن هشام ، حدثنا عمر بن سعيد الدمشقي ، حدثنا سعيد بن عبد العزيز عن بعض مشيخة دمشق قال : أقام إلياس عليه السلام هارباً من قومه في كهف جبل عشرين ليلة - أو قال : أربعين ليلة - تأتيه الغربان برزقه .

وقال محمد بن سعد كاتب الواقدي : أنبأنا هشام بن محمد السائب الكلبي عن أبيه قال : أول نبي بُعِثَ : إدريس ثم نوح ثم إبراهيم ثم إسماعيل وإسحاق ثم هود ثم صالح ثم شعيب ثم موسى وهارون ابنا عمران ثم إلياس (إلياسين) ابن العازر بن هارون بن عمران بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، هكذا قال وفي هذا الترتيب نظر .

وقال مكحول عن كعب : أربعة أنبياء أحياء ؛ اثنان في الأرض : إلياس والخضر ، واثنان في السماء : إدريس وعيسى عليهم السلام ، وقوله تعالى:

---

(١) الصافات : ١٢٣ - ١٣٢ (٢) الصافات : ١٢٤ - ١٢٦

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ إما في الدنيا والآخرة ، وإما في الآخرة ، والأول أظهر على ما ذكره المفسرون والمؤرخون ، وقوله : ﴿ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ : أي إلا من آمن منهم ، وقوله : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ ﴾ : أي أبقينا له ذكراً حسناً في العالمين فلا يذكر إلا بخير ولهذا قال تعالى : ﴿ سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ ﴾ : أي سلام على إلياس ، والعرب تلحق النون في أسماء كثيرة وتبدلها من غيرها كما قالوا : إسماعيل وإسماعين ، وإسرائيل وإسرائين ، وإلياس وإلياسين . وإلى هنا انتهى الحديث عن قصة إلياس عليه السلام .

* * *

أنبياء بني إسرائيل ومن جاء منهم بعد موسى عليه السلام

يجمل بنا الآن أن نتحدث عمن قاموا من بني إسرائيل بالدعوة إلى الله تعالى بعد موسى عليه السلام ، ثم نتبعهم بذكر داوود وسليمان عليهما السلام إلى آخر ما يهدينا إليه التوفيق مما لم نأت على ذكرهم ، قال ابن جرير في تاريخه : لا خلاف بين أهل العلم بأخبار الماضين وأمور السالفين من أمتنا وغيرهم : أن القائم بأمور بني إسرائيل بعد يوشع بن نون هو كالب بن يوفنا أحد أصحاب موسى عليه السلام ، وزوج أخته مريم ، وهو أحد الرجلين اللذين قاما بنصح بني إسرائيل حين نكلوا عن الجهاد ، والثاني : يوشع ، وقد أديا رسالتيهما ونصحهما على أكمل وجه إذ قالا لهم : ﴿ ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ البَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ، وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١) . قال ابن جرير : ثم بعده كان القائم بأمور بني إسرائيل : حزقيل بن بوذي وهو الذي دعا الله فأحيا الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت .

* * *

• قصة حزقيل عليه السلام :

قال محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه : إن كالب بن يوفنا لما قبضه الله إليه بعد يوشع خَلَف في بني إسرائيل حزقيل بن بوذي وهو الذي دعا للقوم الذين ذكرهم الله في كتابه بقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ المَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾ (٢) . فأحياهم الله

---

(١) المائدة : ٢٣ .
(٢) البقرة : ٢٤٣ .

تعالى بدعوته . قال ابن إسحاق : فروا من الوباء الذي حَلَّ بقريتهم التي يقال لها « داوودان » وهي قرية قبل « واسط » وقع بها الطاعون ، فخرج منها طائفة هاربين من ذلك الطاعون ، وبقيت طائفة فهلك أكثر من بقى بالقرية وسلم الذين خرجوا ، فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين فقال الذين بقوا : إن أصحابنا كانوا أحزم منا ، لو صنعنا كما صنعوا لبقينا ، ولئن وقع بها الطاعون ثانية لنخرجن إلى الأرض التي لا وباء فيها . فوقع الطاعون من قابل فهرب جميع أهلها وخرجوا حتى نزلوا وادياً أفْيَحْ ، فلما نزلوا المكان الذي يبتغون فيه النجاة والحياة إذا هم بَملك من أسفل الوادي وآخر من أعلاه يُنادي كل واحد منهما : أن موتوا . فماتوا جميعاً . فحظّروا عليهم حظيرة دون السباع ، فمضت عليهم دهور طويلة فمَّر بهم حزقيل عليه السلام ، فوقف عليهم متفكراً فقيل له : أتحب أن يبعثهم الله وأنت تنظر ؟ ، فقال : نعم ، فأمر أن يدعو تلك العظام أن تكتسي لحماً وأن يتصل العصب بعضه ببعض ، فناداهم عن أمر الله له بذلك فقام القوم أجمعون ، وكبّروا تكبيرة رجل واحد .

وقال أسباط عن السُّدى عن أبي مالك ، وعن أبي صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود وعن أُناس من الصحابة في قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾ قالوا : كانت قرية يقال لها « داوردان » قبل « واسط » وقع بها الطاعون ، فهرب عامة أهلها فنزلوا ناحية منها فهلك من بقي في القرية وسلم الآخرون فلم يمت منهم كثير ، فلما ارتفع الطاعون عنها رجعوا سالمين ، فقال الذين بقوا : أصحابنا هؤلاء كانوا أحزم منا ، لو صنعنا كما صنعوا لبقينا ، ولئن وقع الطاعون لنخرجن معهم ، فوقع في قابل فهربوا وهم بضعة وثلاثون ألفاً حتى نزلوا ذلك المكان وهو واد أفْيَحْ فناداهم مَلَك من أسفل الوادي وآخر من أعلاه : أن موتوا . فماتوا حتى إذا هلكوا وبَقِيَتْ أجسادهم مرَّ بهم نبيٌّ يقال له « حزقيل » فلما رآهم وقف عليهم ، فجعل يتفكر فيهم ويلوي شدْقيه وأصابعه فأوحى الله إليه : تريد أن أُريك كيف أُحييهم ؟ قال : نعم ، وإنما

كان تفكُره أنه تَعَجَّبَ من قدرة الله عليهم ، فقيل له : ناد . فنادى : يا أيتها العظام ، إن الله يأمرك أن تكتسي لحماً ، فاكتست لحماً ، ودماً ، وبثيابها التي ماتت فيها ، ثم قيل له : ناد . فنادى : أيتها الأجساد ، إن الله يأمرك أن تقومي . فقاموا .

قال أسباط : فزعم منصور عن مجاهد أنهم قالوا عندما أحيوا : « سبحانك اللّهم وبحمدك لا إلٰه إلا أنت » فرجعوا إلى قومهم أحياء يُعرفون أنهم كانوا موتى ، سِحْنَةُ الموت على وجوههم لا يلبسون ثوباً إلا عاد رسماً ، حتى ماتوا بآجالهم التي كُتبت لهم .

وعن ابن عباس : أنهم كانوا أربعة آلاف ، وعنه : ثمانية آلاف . وعن أبي صالح : تسعة آلاف ، وعن ابن عباس أيضاً : كانوا أربعين ألفاً . وعن سعيد بن عبد العزيز : كانوا من أهل أذرعات . وقال ابن جريج عن عطاء : هذا مثل ، يعني إنه سيق مثلاً مبيناً أنه لن يُغني حذر عن قدر ، وقول الجمهور أقوى . أي أن هذا وقع فعلاً .

وقد روى الإمام أحمد وصاحبا الصحيح من طريق الزهري عن عبدالحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، عن عبد الله بن الحارث بن نوفل ، عن عبد الله ابن عباس : أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام حتى إذا كان بـ « سَرْغ » لقيه أمراء الأجناد : أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه ، فأخبروه أن الوباء وقع بالشام ، فذكر الحديث - يعني في مشاورته المهاجرين والأنصار فاختلفوا عليه فجاءه عبدالرحمن بن عوف وكان متغيباً ببعض حاجته فقال : إن عندي من هذا علماً ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه ، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه » ، فحمد الله عمر ، ثم انصرف .

قال محمد بن إسحاق ولم يُذكر لنا مدة لبث حزقيل في بني إسرائيل ، ثم إن الله قبضَه إليه ، فلما قُبِضَ نسيَ بنو إسرائيل عهد الله إليهم وعظمت فيهم الأحداث ، وعبدوا الأوثان ، وكان في جملة ما يعبدونه من الأصنام صنم يقال له

« بعل » ، فبعث الله إليهم إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزاز بن هارون بن عمران ، وقد تحدثنا عن قصة إلياس تبعاً لقصة الخضر لأنهما يُقرنان في الذكر غالباً ، ولأنها بعد قصة موسى في سورة الصافات تعجلنا قصته لذلك ، ثم تنبأ فيهم بعد إلياس وَصيّه اليسع بن أخطوب عليه السلام .

* * *

● **قصة اليسع عليه السلام :**

قبل أن نكتب عن هذا النبي ونتكلم عن قصته ينبغي أن نثبت نسبه وإلى من ينتهي ذلك النسب . قال محمد بن إسحاق : هو اليسع بن أخطوب . وقال الحافظ أبوالقاسم بن عساكر (في حرف الياء من تاريخه) : اليسع وهو الأسباط بن عدي بن شوتلم بن أفرأثيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، ويقال هو ابن عم إلياس النبي عليهما السلام ، ويُقال إنه كان مستخفياً معه بجبل قاسيون من ملك بعلبك ثم ذهب معه إليها ، فلما رُفِعَ إلياس خَلَفَه اليسع في قومه ونبأه الله بعده .

وقد ذكره الله تعالى مع الأنبياء في سورة الأنعام في قوله : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً ، وَكُلاً فَضَّلْنَا عَلَى العَالَمِينَ ﴾[1] .

وقال تعالى في سورة ص : ﴿ واذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الكِفْلِ ، وَكُلٌّ مِنَ الأَخْيَارِ ﴾[2] قال ابن اسحاق : حدثنا بشر أبو حذيفة ، أنبأنا سعيد عن قتادة عن الحسن قال : كان بعد إلياس اليسع عليهما السلام ، فمكث ما شاء الله أن يمكث يدعوهم إلى الله مستمسكاً بمنهاج إلياس وشريعته حتى قبضه الله عز وجل إليه ، ثم خلف فيهم الخُلُوف وعَظُمت فيهم الأحداث والخطايا وكثرت الجبابرة وقتلوا الأنبياء ، وكان فيهم ملك عنيد طاغ ، ويقال : إنه الذي تَكَفَّل له ذو الكفل إن هو تاب ورجع دخل الجنة ، فسُميَّ ذا الكفل لذلك .

---

(١) الأنعام : ٨٦ .　　(٢) سورة ص : ٤٨ .

قال ابن جرير وغيره : ثم مرج أمرُ بني إسرائيل وعظمت فيهم الأحداث والخطوب والخطايا ، وقتلوا من قتلوا من الأنبياء ، وسَلّطَ الله عليهم بدل الأنبياء ملوكاً جبارين يظلمونهم ويسفكونَ دمائهم ، وكذلك سَلّط عليهم الأعداء من غيرهم ، وكانوا إذا قاتلوا أحداً من الأعداء يكون معهم تابوت الميثاق الذي كان في قُبّة الزمان ، وقد كانوا يُنْصَرون ببركته وبما جعل الله فيه من السكينة والبقيّة مما ترك آل موسى وآل هارون .

فلما كان في بعض حروبهم مع أهل غزة وعسقلان غلبوهم وقهروهم على أخذه فانتزعوه من بينهم . فلما علم بذلك ملك بني إسرائيل في ذلك الزمان مالت عنقه فمات كمداً ، وبقى بنو إسرائيل كالغنم بلا راع حتى بعث الله فيهم نبياً من الأنبياء يقال لهَ شمويل . فطلبوا منه أن يُقيم لهم مُلكاً ليقاتلوا معه الأعداء فكان من أمرهم ما سنذكره مما قصَّ الله في كتابه .

قال ابن جرير : فكان من وفاة يوشع بن نون إلى أن بعث الله عز وجل شمويل ابن بالي أربعمائة وستون سنة .

* * *

● قصة شمويل عليه السلام :

لما كثرت في بني إسرائيل الأحداث وانتشرت فيهم الجرائم وعظمت المظالم وقتلوا من قتلوا من الأنبياء ، سَلّطَ الله عليهم من لا يرحمهم من جبابرة الملوك ، وقد كانوا يستنصرون بتابوت الميثاق مما ترك آل موسى وآل هارون ، ولما مات ملكهم في ذلك الوقت وبعث الله فيهم نبياً يدعوهم إلى عبادة ربهم وتوحيد خالقهم ألا وهو شمويل عليه السلام ، طلبوا منه أن يُعَيِّن لهم مَلكاً يتبعونه ويقاتلون وراءه الأعداء ، وشمويل هذا هو : شمويل بن بالي بن علقمة ابن يرخام بن اليهو بن تهو بن صوف بن علقمة بن ماحث بن عموصا بن عزريا .

قال مقاتل : هو من ورثة هارون . وقال مجاهد : هو شمويل بن ملقانا ، ولم يرفع من نسبه أكثر من هذا .

ولما أوحى الله إلي شمويل أن يأمر طالوت بالمسير إلى جالوت من بيت المقدس بالجنود لم يتخلف عنه إلا كبير لهرمه أو مريض لمرضه أو معذور لعذره ، لأنهم لما رأوا التابوت اعتقدوا النصر فسارعوا إلى الجهاد . فقال طالوت : لا يتبعني إلا الشاب النشط الفارغ من كل مشاغل الحياة ومشاكلها . فاجتمع حوله كثير منهم فخرج بهم وقد كان الحر شديداً وقتئذ ، فشكوا إليه قلة الماء فيهم ، وطلبوا منه أن يَدْعُ الله تعالى ويسأله أن يُجري لهم نهراً . فقال لهم طالوت بأمر شمويل عليه السلام ﴿ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ ﴾ : أي مختبركم ليرى مدى طاعتكم له وهو أعلم بكم ، وهو نهر بين الأردن وفلسطين عذب الماء يقال له أدمي ﴿ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي ﴾ : أي ليس من أهل ديني وطاعتي ﴿ وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ ﴾ : أي من لم يشرب منه ﴿ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ : أي من أهل طاعتي وديني ، ثم استثنى ﴿ إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾ وهو ملء الكف ﴿ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ ﴾ [1] . قال السُّدِّيَ : كانوا أربعة آلاف . وقال غيره : كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً ، وهو الصحيح على ما ذهب إليه الثعلبي ، وقد أقام البرهان على ما ذهب إليه بحديث البَّراء ابن عازب قال : قال لنا رسول الله ﷺ يوم بدر : « أنتم اليوم على عدَّة أصحاب طالوت حين عبروا النهر وما جاوز معه إلا مؤمن » قال : وكانوا يومئذ ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً . فمن اغترف غُرْفة بيده كما أمر الله تعالى قوّى قلبه وصحَّح ورجَّح إيمانه وعبر النهر سالماً وكفته تلك الغرفة الواحدة لشربه وحمله ودوابه ، والذين شربوا وخالفوا أمر الله تعالى اسودت شفاههم وغلبهم العطش فلم يرووا واستمروا على شاطئ النهر وجبنوا عن لقاء العدو ولم يشهدوا الفتح .

---

(١) البقرة : ٢٤٩ .

فلما جاوز النهر مع طالوت ذلك القليل الذين ثبتوا معه ، قال الذين شربوا من النهر وخالفوا أمر الله تعالى : ﴿ لاَ طَاقَةَ لَنَا اليَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾، وانصرفوا ولم يتابعوه ولم يشهدوا قتال جالوت ، و ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُوا اللَّهِ ﴾ : أي يعلمون ويوقنون بذلك وهم القليل الذين ثبتوا مع طالوت : ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [(١)] .

قال وهب بن مُنَبِّه وغيره : كان بنو إسرائيل بعد موسى عليه السلام على طريق الاستقامة مدة من الزمان ، ثم أحدثوا الأحداث وعبد بعضهم الأصنام ، ولم يزل بين أظهرهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويقيمهم على منهاج التوراة إلى أن فعلوا ما فعلوا ، فَسَلَّط الله عليهم أعداءهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا خلقاً كثيراً وأخذوا منهم بلاداً كثيرة ، ولم يقاتلهم أحد إلا غلبوه ، وذلك أنه كانت عندهم التوراة والتابوت الذي أشرنا إليه ، وكان ذلك موروثاً لخَلَفِهم عن سَلَفِهم إلى موسى الكليم عليه السلام ، فلم يزل بهم تماديهم على الضلال حتى استلبه منهم بعض الملوك في بعض الحروب وأخذ التوراة من أيديهم ، ولم يبق من يحفظها فيهم إلا القليل ، وانقطعت النبوة عن أسباطهم ، ولم يبق من سبط لاوي الذي يكون فيه الأنبياء إلا امرأة حاملا من بعلها ، وقد قُتِلَ ، فأخذوها فحبسوها في بيت واحتفظوا بها لعل الله يرزقها غلاماً يكون نبياً لهم ، ولم تزل المرأة تدعو الله عز وجل أن يرزقها غلاماً ، فسمع الله لها ووهبها غلاماً فسمته « شمويل » ، فشب ذلك الغلام ونشأ فيهم وأنبته الله نباتاً حسناً ، فلما بلغ سن الأنبياء أوحى الله إليه وأمره بالدعوة إليه وتوحيده ، فدعا بني إسرائيل فطلبوا منه أن يُقيم لهم مَلكاً يقاتلون معه أعداءهم ، وكان المُلك أيضاً قد باد فيهم . فقال لهم النبي : فهل عسيتم إن أقام

---

(١) البقرة : ٢٤٩

الله لكم ملكاً أن لا تفوا بما التزمتم من القتال معه : ﴿ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ﴾ أي : وقد أخذت منا البلاد وسبيت الأولاد ، وقد قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [1] أي : أنهم ما وفوا بما وعدوا ، بل نكل عن الجهاد أكثرهم والله عليم بهم .

نعم إنه لما بلغ أشده ، بينما هو ذات ليلة نائم إذا صوت يأتيه من ناحية المسجد فانتبه مذعوراً فظنه الشيخ يدعوه فسأله : أدعوتني ؟ فكره أن يُفزعه فقال: نعم . فنام ، ثم ناداه الثانية فكذلك ، ثم الثالثة ، فإذا جبريل يدعوه فجاءه ، فقال : إن ربك قد بعثك إلى قومك ، فكان من أمره معهم ما قصَّ الله في كتابه العزيز .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى المَلأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا ، قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ، فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [1] .

ولما طلبوا من نبيهم أن يُعَيِّن لهم ملكاً ، كما قلنا ، فعيَّن لهم طالوت وكان رجلاً من أجنادهم ، ولم يكن من بيت الملك فيهم لأن الملك فيهم كان في سبط يهوذا ، ولم يكن هذا من ذلك السبط ، فلهذا قالوا : ﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ المُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالمُلْكِ مِنْهُ ﴾ : أي كيف يكون مَلكاً علينا : ﴿ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ المَالِ ﴾ : أي ثم هو مع هذا فقير لا مال له يقوم بالملك فأجابهم النبي قائلاً :﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي العِلْمِ

---

(١) البقرة : ٢٤٦ .

وَالجِسْمِ ، واللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [١] : أي فهو الحاكم والفعّال لما يُريد وما شاء فعل و ﴿ لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ [٢] لعلمه ورأفته بخلقه ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي : وهو واسع الفضل يختص برحمته من يشاء ، عليم بما يستحق الملك ممن لا يستحقه .

يوحي بذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً ، قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ المُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ المَالِ ، قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي العِلْمِ وَالجِسْمِ ، واللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ ، واللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [٣] .

وقد رَدَّ عليهم نبيهم لما اعترضوا بهذا الاعتراض أن علامة بركة مُلك طالوت عليكم أن يَرُدَّ اللَّه عليكم ذلك التابوت الذي كان قد أُخِذَ منكم وفيه ﴿ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ : أي وقار وجلالة تسكنون إليه وتطمئنون له ، وقد أوضح اللَّه الرد عليهم فقال تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ المَلائِكَةُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنتُم مُؤْمِنِينَ ﴾ [٤]

وقد أخبر اللَّه تعالى عن طالوت ملك بني إسرائيل حين خرج في جنوده ومن أطاعه من ملأ بني إسرائيل ، وكان جيشه يومئذ - فيما ذكره السدّي - ثمانين ألفاً ، وقد حكى اللَّه عنه أنه قال لهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ ﴾ [٥] . قال السدي : كان الجيش ثمانين ألفاً فشرب منه ستة وسبعون ألفاً وبقي معه أربعة آلاف كما أشرنا إلى ذلك .

ولما واجه حزب الإيمان - وهم قليل من أصحاب طالوت - بعـدوهم أصحاب

---

(١) البقرة : ٢٤٧ (٢) الأنبياء : ٢٣ (٣) البقرة : ٢٤٧

(٤) البقرة : ٢٤٨ . (٥) البقرة : ٢٤٩ .

جالوت وهم عدد كثير ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً ﴾ : أي أنزل علينا صبراً من عندك ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ في لقاء عدوك ، وجنبنا الفرار والعجز ﴿ وانْصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ ﴾ [1] . قال تعالى : ﴿ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللّه ﴾ : أي غلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم ﴿ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ المُلْكَ وَالحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ ممَّا يَشَاءُ ﴾ [2] ، وفي ذلك دلالة على شجاعة داوود وأنه قتله قتلاً أذل به جنده وكسر جيشه فغنم بذلك الأموال بعد قتل ملكهم وأسر أبطالهم ، وعلت كلمة الإيمان على عُبَّاد الأوثان وزُلزلوا زلزالاً شديداً ، والله متم نوره ولو كره الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يُحسنون صنعاً .

فقد رُوِى أن داوود – وكان أصغر أولاد أبيه الثلاثة عشر ذكراً – سمع طالوت ملك بني إسرائيل وهو يُحَرِّض بني إسرائيل على قتل جالوت وجنوده ، فما التقى الجيشان وتواجه الصفان ودارت رحى الحرب واشتدت المعارك حتى برز جالوت ودعا لنفسه فتقدم إليه داوود . فقال له : ارجع فإني أكره قتلك . فقال : لكني أحب قتلك . فما واجهه بهذا حتى اندفع إلى قتله فقتله ففر جيشه منهزماً ، وقد فرح المسلمون بهذا النصر فرحاً عظيماً وانصرفوا إلى مدينتهم سالمين غانمين نصر الله و ﴿ إِنْ تَنصُرُوا اللّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [3] ، فذلك قوله : ﴿ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللّه ﴾ [4] : أي بحول الله وقوته ، لا بقوتهم وعددهم ، فقد كان أعداؤهم على كثرة كبيرة وعدد وافر وهذا كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ، فَاتَّقُوا اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [5] .

* * *

(١) البقرة : ٢٥٠ . (٢) البقرة : ٢٥١ (٣) محمد : ٧
(٤) البقرة : ٢٥١ (٥) آل عمران : ١٢٣

قصة داوود عليه السلام

لما التقى الجمعان تحدثت شجاعة داوود ومواقفه بقوة إيمانه ، وتكلمت عن مدى عدم اكترائه بالأهوال والشدائد ، وقد كان جالوت على رأس جيشه وفي طليعة جنوده ﴿ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ ﴾ [1] ، ولما رأى جيشه ذلك وقع في قلوبهم الجبن والخور ولحقهم الضعف والخذلان ودب فيهم دبيب الفشل ، ففروا منهزمين بعد أن أصيب منهم من أصيب من رميات وضربات وُجهَتْ إليهم فباءوا بخُسران وأي خُسران .

وإنَّا لنتكلم عن نسبه عليه السلام ، وعقد ذلك النسب هو : داوود بن إيشا بن عويد بن عابر بن سلمون بن نحشون بن عويناذب بن ارم بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله ونبيه عليه السلام .

قال محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب بن مُنَبِّه : كان داوود عليه السلام قصيراً أزرق العينين قليل الشعر طاهر القلب ونَقيّه .

وقد أحبه بنو إسرائيل وعظّموه تعظيماً بالغاً لقتله جالوت وإلحاق الهزيمة بجيشه ، وقد كان ذلك عند قصر أم حكيم - كما قال ابن عساكر - بقرب مرج الصفر ، ودعاهم ذلك إلى الرغبة الشديدة في أن يكون ملكاً عليهم يدير شئونهم وينهض بهم ، وقد كان طالوت وعد داوود بالتنازل عن الملك له إذا حقق قتل جالوت ، وفعلاً تم لداوود ذلك التنازل فجمع الله له بذلك بين الملك والنبوة ، بين خيري الدنيا والآخرة بعد أن كان الملك في سبط والنبوة في آخر ، يُوحى إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[1] : أي لولا إقامة الملوك حكاماً على الناس

---

(١) البقرة : ٢٥١ .

لأكل قوي الناس ضعيفهم وبطش به ، ولهذا جاء في بعض الآثار : « السلطان ظل الله في أرضه » وقال أمير المؤمنين عليّ كرّم الله وجهه : « إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » .

وقد ذكر ابن جرير في تاريخه أن جالوت لما بارز طالوت فقال له : اخرج إليّ وأخرج إليك ، فَنَدَب طالوت الناس فانتدب داوود فقتل جالوت . قال وهب بن مُنَبِّه : فمال الناس إلى داوود حتى لم يكن لطالوت ذكر ، وخلعوا طالوت وولوا عليهم داوود ، وقيل : إن ذلك عن أمر شمويل ، حتى قال بعضهم إنه : ولاه قبل الوقعة . وسواء أكان ذلك أم أنه تنازل لداوود فقد انتهى الملك إليه .

قال ابن جرير : والذي عليه الجمهور : أنه إنما وليُّ ذلك بعد قتل جالوت .

وقد اختصه الله تعالى بآيات وكرامات ، فمنها أنه أنزل عليه الزبور بالعبرانية وكان عبارة عن مائة وخمسين سورة ، في خمسين منها ذكر ما يكون من بختنصر وأهل بابل ، وفي خمسين منها ذكر ما يلقون من الروم من أهل أيرون ، وفي خمسين منها موعظة وحكمة ، وذلك قوله تعالى ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً ﴾ (١) ، ومنها : الصوت الطيب والنغمة الطيبة والترجيع والألحان ، ولم يعط الله أحداً من خلقه مثل صوته ، وكان يقرأ الزبور بسبعين لحناً بحيث يعرق المحموم ويفيق المغمى عليه ، وكان إذا قرأ الزبور برز إلى البرية فيقوم وتقوم معه علماء بني إسرائيل خلفه ويقوم الناس خلف العلماء ويقوم الجن خلف الناس وتقوم الشياطين ، وتدنو الوحوش والسباع ويؤخذ بأعناقها وتُظلله الطيور مُصيحة ، ويركد الماء الجاري ويسكن الريح ، وما صُنعَتْ المزامير والصنوج وأمثالها إلا على صوته ... إلى غير ذلك من العطايا والفضائل .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً ، يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيرَ ، وَأَلَنَّا لَهُ الحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ، وَاعْمَلُوا

(١) النساء : ١٦٣ .

صَالحاً ، إنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصيرٌ ﴾ [1] . وقال : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ، وَكُنَّا فَاعلينَ * وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ، فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ [2] .

فأعانه الله تعالى على عمل الدروع من الحديد لتحصين المقاتلة من الأعداء وأرشده إلي صنعتها وكيفيتها فقال : ﴿ وَقَدِّر فِي السَّرْدِ ﴾ : أي لا تدق المسمار فيفلق ولا تغلظه فيفصم ، قاله مجاهد وقتادة والحكم وعكرمة .

وقال الحسن البصري وقتادة والأعمش : كان الله قد ألآن له الحديد حتى كان يفتله بيده لا يحتاج إلى نار ولا إلى مطرقة . قال قتادة : فكان أول من عمل الدروع من زَرْدٍ ، وإنما كانت قبل ذلك من صفائح . قال ابن شَوْذَب : كان يعمل كل يوم دِرعاً يبيعها بستة آلاف درهم .

وقد ثبت في الصحيح أن « أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وأن نبي الله داوود كان يأكل من كسب يده » .

* * *

• أنواع هذه القصـــة :

ففي هذ القصة ثلاثة أنواع ، الأول : تفصيل ما أتى الله داوود من الصفات التي توجب كمال السعادة الدنيوية والأخروية .

الثاني : شرح تلك الواقعة التي وقعت له من أمر الخصمين .

الثالث : استخلاف الله له بعد وقوع تلك الواقعة .

---

(1) سبأ : ١٠ - ١١ (2) الأنبياء : ٧٩ - ٨٠ .

أما النوع الأول : فهو شرح الصفات التي أتاها الله داوود . والصفات التي أوتيها عشرة :

الأولى : قوله لسيدنا محمد ﷺ : ﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ﴾[1] فأمر سيدنا محمداً ﷺ مع جلاله وعلو منزلته وعظيم قدره أن يقتدي في الصبر على طاعة الله تعالي بداوود ، وذلك تشريف عظيم لداوود .

الثانية : أنه تعالى قال : ﴿ عَبْدَنَا دَاوُودَ ﴾ وذلك تشريف كريم أيضاً، ألا ترى أنه سبحانه وتعالى لما أراد أن يُشَرِّف رسوله سيدنا محمد ﷺ ليلة الإسراء والمعراج قال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَا ﴾[2] . وهذا ما يُوحى بتشريف داوود .

والثالثة : قوله : ﴿ ذَا الأَيْدِ ﴾ أي ذا القوة على أداء الطاعة والاحتراز من المعاصي . والقوة التي تُوجب المدح العظيم ليست إلا القوة على القيام بفعل ما أمر الله به وترك ما نهى عنه، وهذه الأيد المذكورة في قوله : ﴿ ذَا الأَيْدِ ﴾ كالقوة المذكورة في قوله : ﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾[3] .

الرابعة : قوله : ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أي : إن داوود كان رجاعاً في أموره كلها إلى طاعتي ، وقوله ﴿ أَوَّابٌ ﴾ من آب إذا رجع .

الخامسة : قوله : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ، كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾[4] وهذه الآية كقوله : ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾[5] أي : جعل الله في الجبل حياة وعقلاً وقدرة فصار الجبل بذلك يسير حيث يُريد داوود ويُسبِّح متى سبَّحَ وقوله : ﴿ يُسَبِّحْنَ ﴾ يدل على حدوث التسبيح من الجبل شيئاً بعد شئ وحالاً بعد حال، وقوله : ﴿ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ﴾ أي : في الصباح والمساء ، ومعنى ذلك قيام تسبيحه في كل وقت لأن داوود كان دائم التسبيح .

---

(١) سورة ص : ١٧ (٢) الإسراء : ١ (٣) مريم : ١٢
(٤) سورة ص : ١٨ - ١٩ (٥) سبأ : ١٠ .

السادسة : قوله : ﴿ والطَّيْرَ مَحْشُورَةً ، كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ [(١)] أي : كما سَخَّرنا الجبال معه يُسَبِّحْنَ بالعَشي والإشراق فكذلك سَخَّرنا الطير محشورة . قال ابن عباس رضى الله عنهما : كان داوود إذا سَبَّحَ جاوبته الجبال واجتمعت إليه الطير فسَبَّحتَ معه ، وإجتماعها إليه حشرها .

السابعة : قوله : ﴿ كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ أي : كلما رجع داوود إلى التسبيح رجع الجبل والطير إلى التسبيح كذلك .

الثامنة : قوله : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾[(٢)] أي : قويناه فجعلنا له حراساً يقومون بحراسته . روى الواحدي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما : أنه كان يحرسه كل ليلة ستة وثلاثون ألفاً من الرجال ، فإذا أصبح قيل : ارجعوا فقد رضى عنكم نبي الله داوود ، هذا هو الشد في الدنيا ، أما الأسباب الدينية الموجبة للشد فهي : الصبر والتأمل التام والتدبر في آيات الله .

التاسعة : قوله : ﴿ وآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ ﴾[(٢)] ، ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ﴾[(٣)] ؛ والفضائل التي أشار إليها قوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً ﴾[(٤)] على ثلاثة أقسام : النفسانية والبدنية والخارجية ، والفضائل النفسانية محصورة في قسمين : العلم والعمل ، أما العلم فهو أن تصبر النفس بالتصورات الحقيقية والتصديقات النفسانية بمقتضى الطاقة البشرية ، وأما العمل فهو أن يكون الإنسان آتياً بالعمل الأصلح الأصوب الذي يُوحي بمصالح الدنيا والآخرة فهذا هو الحكمة ، وإنما سُمِّيَ هذا بالحكمة لأن اشتاق الحكمة من إحكام الأمور وتقويتها .

العاشرة : قوله : ﴿ وَفَصْلَ الخِطَاب ﴾[(٥)] أي : يحصل له إدراك وشعور ويحصل عنده قدرة على تعريف غيرهِ الأحوال المعلومة له ، وتعريف الأحوال المعلومة

---

(١) سورة ص : ١٩ (٢) سورة ص : ٢٠ . (٣) البقرة : ٢٦٩ .

(٤) سبأ : ١٠ . (٥) سورة ص : ٢٠ .

عنده يكون بالنطق والخطاب فقوله : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ، كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾[1] ؛ وذلك كما قلنا : إن هذا نظير « يسبح » كقوله تعالى : ﴿ يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾ [2] أي : سبحي معه ، قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد في تفسير هذه الآية : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ﴾ أي : عند آخر النهار وأوله ، وذلك أن الله تعالى كان قد وهبه من الصوت العظيم ما لم يُعْطَهُ أحد بحيث إنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه يقف الطير في الهواء يُرَجِّعُ بترجيعه ويُسَبِّح بتسبيحه ، وكذلك الجبال تُجيبه وتُسَبِّح معه كلما سبَّحَ بَكرة وعَشيا صلوات الله وسلامه عليه . وقال الأوزاعي : حدثنا عبد الله ابن عامر قال : أُعْطِيَ داوود من حُسن الصوت ما لم يُعْطَ أحدٌ قَط حتى إن الطير والوحش كان ينعكف حوله حتى يموت عطشاً وجوعاً ، وحتى إن الأنهار لتقف . وقال وهب بن منبه : كان لا يسمعه أحد إلا حَجَلَ كهيئة الرقص ، وكان يقرأ الزبور بصوت لم تسمع الآذان بمثله فيعكف الجن والإنس والطير والدواب على صوته حتى يهلك بعضها جوعاً .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت : سمع رسول الله ﷺ صوت أبي موسى الأشعري وهو يقرأ فقال : « لقد أوتي أبو موسى من مزامير آل داوود » . (وهذا على شرط الشيخين ولم يخرجاه من هذا الوجه) .

وقال أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا حماد بن سلمة عن محمد بن عمر عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لقد أعطى أبو موسى من مزامير داوود » (على شرط مسلم) .

وقد كان - مع هذا الصوت الرخيم - سريع القراءة لكتابه الزبور كما قال الإمام

---

(١) سورة ص : ١٨ - ١٩ (٢) سبأ : ١٠ .

أحمد : حدثنا عبدالرزاق ، حدثنا معمر عن همام عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « خُفف على داوود القراءة ، فكان يأمر بدابته فَتُسرجَ فكان يقرأ القرآن من قبل أن تُسْرجَ دابته ، وكان لا يأكل إلا من عمل يديه » ، وكذلك راوه البخاري منفرداً به عن عبد الله بن محمد عن عبدالرزاق به ولفظه : « خُفِّفَ على داوود القراءة ، فكان يأمر بدوابه فُتسرج فكان يقرأ القرآن قبل أن تُسْرجِ دوابه ، وكان لا يأكل إلا من عمل يديه » . ثم قال البخاري : ورواه موسى بن عقبة عن صفوان - هو ابن سليم - عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، والمراد بالقرآن ههنا الزبور الذي أنزله الله عليه وأوحاه إليه ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً ﴾[1] . وقوله : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطَابِ ﴾[2] وقد تكلمنا عن هذا بما فيه الكفاية .

* * *

- **قصة الخصمين :**

روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس : أن رجلين تداعيا إلى داوود عليه السلام في بقر . ادّعَى أحدهما على الآخر أنه اغتصبها منه فأنكر المُدّعَى عليه فأرجأ أمرهما إلى اللّيل ، فلما كان اللّيل أوحى الله إليه أن يقتل المُدّعَي، فلما أصبح قال له داوود : إن الله أوحى إليّ أن أقتلك فأنا قاتلك لا محالة ، فما خبرك فيما ادعيته علي هذا ؟ . قال : يا نبي الله ، والله إنني لَمُحِقٌ فيما ادعيت عليه ، ولكني كنت اغتلتُ أباه قبل هذا . فأمر به داوود فقُتِلَ ، فَعَظُمَ أمر داوود في بني إسرائيل جداً وخضعوا له خضوعاً عظيماً .

---

(١) النساء : ١٦٣ . (٢) سورة ص : ٢٠ .

قال ابن عباس : وهو قوله تعالى : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ ﴾ أي : النبوة ﴿ وَفَصْلَ الخطَاب ﴾ (١) . قال شريح والشعبي وقتادة وأبو عبد الرحمن السُلمي وغيرهم : ﴿ فَصْلَ الخطَاب ﴾ : الشهود والأيمان ، يعنون بذلك : « البَيِّنَةُ على من ادعى واليمينَ على من أنكـــر » وقال مجاهد والسديّ : هو إصابة القضاء وفهمه ، وقال مجاهد : هو الفصل في الكلام والحكم ، واختاره ابن جرير .

وهذا لا ينافي ما رُوِيَ عن أبي موسى أنه قول « أما بعد » ، وقال وهب بن مُنَبِّه : لما كثر الشر وشهادات الزور في بني إسرائيل ، أعطى داوود سلسلة لفصل القضاء ، فكانت ممدودة من السماء إلى صخرة بيت المقدس ، وكانت من ذهب . . فإذا تشاجر الرجلان في حَقٍّ فأيهما كان مُحقاً نالها ، والآخر لا يصل إليها ، فلم يزل كذلك حتى أودع رجلٌ رجلاً لؤلؤة فَجحدها منه وأخذ عُكّازاً وأودعها فيه ، فلما حضرا عند الصخرة تناولها المُدَّعي ، فلما قيل للآخر : خذها بيدك . عمد إلى العكاز فأعطاه المُدَّعي وفيه تلك اللؤلؤة وقال : اللّهم إنك تعلم أني دفعتها إليه . ثم تناول السلسلة فنالها ، فأشكل أمرها على بني إسرائيل ثم رفعت سريعاً من بينهم . ذكره بمعناه غير واحد من المفسرين . وقد رواه إسحاق بن بشر عن إدريس بن سنان عن وهب به بمعناه .

قال تعالى : ﴿ وَهلْ أتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إذْ تَسَوَّرُوا المحْرَابَ * إذْ دَخَلُوا عَلَى داوُودَ فَفَزِعَ منْهُمْ ، قَالُوا لاَ تَخَفْ ، خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بالَحَقّ ولاَ تُشْططْ وَاْهدنَا إلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إنَّ هَذَا أخِي لَهُ تسعٌ وَتسْعُونَ نَعْجَةً وَلَيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أكْفلْنيها وَعَزَّني فيَ الخطَاب * قَالَ لقَدْ ظَلَمَكَ بسُؤَال نَعْجَتِكَ إلى نَعاجه ، وَإنَّ كَثيراً مِنَ الخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إلاَّ الّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحَاتِ وَقَليلٌ مَا هُمْ ، وَظَنَّ داوُودَ أنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ راكِعاً وَأنَابَ ﴾(٢) .

---

(١) سورة ص : ٢٠ .

(٢) سورة ص : ٢١ - ٢٤

وقد ذكر كثير من المفسرين وغيرهم من السَلَف والخَلَف في هذا الشأن قصصاً وأخباراً أكثرها إسرائيليات ، ومنها ما هو مقطوع بكذبه ، ولذا تركنا التعرض لها في كتابنا هذا قصداً اكتفاءً بما ورد في شأنها من قَصص القرآن العظيم واقتصاراً على مجرد تلاوتها منه حتى لا نزل ولا ننزلق في هذا الموضوع الخطير الذي يتعلق بنبي عظيم القدر جليل الخطر ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [1] .

هذا .. وقد اختلف الآئمة في سجدة (ص) هل هي من عزائم السجود أو ليست كذلك على قولين ، ويمكن الرجوع إلى ذلك في كتب الأئمة الأربعة ، لأن كل واحد منهم له وجهة هو موليها في تقديره لسجدة (ص) .

* * *

● **المدة التي عاشها في هذه الحياة وكيفية وفاته :**

جاء في الأحاديث التي وردت في خلق آدم : أن اللّه تعالى لما استخرج ذريته من ظهره فرأى فيهم الأنبياء عليهم السلام ، ورأى فيهم رجلاً يُزْهر . فقال : أي رَبِّ ، مَنْ هذا ؟ قال : هذا ابنك داوود . قال : أي رَبِّ ، كم عمره ؟ قال : ستون عاماً . قال : أي رَبِّ ، زِدْ في عمره ؟ قال : لا ، إلا أن أزيده من عمرك . وكان عمر آدم ألف عام ، فزاده أربعين عاماً ، فلما انقضى عمره جاءه مَلَك الموت ، فقال : بقي من عمري أربعون عاماً ، ونَسِيَ آدم ما كان وهبه لولده داوود فأتمها اللّه لآدم ألف سنة ، ولداوود مائة سنة . (رواه أحمد عن ابن عباس والترمذي ، وصححه عن ابي هريرة وابن خزيمة وابن حبان ، وقال الحاكم : على شرط مسلم) .

---

(١) البقرة : ٢١٣ .

وأما وفاته عليه السلام . فقال الإمام أحمد في مسنده : حدثنا قتيبة ، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن بن محمد بن عمرو بن أبي عمرو ، عن المطلب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كان داوود عليه السلام فيه غيرة شديدة فكان إذا خرج أغلق الأبواب ، فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع . قال : فخرج ذات يوم وغلقت الدار فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار فإذا رجل قائم وسط الدار . فقالت لمن في البيت : من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة ؟! والله لنفتضحن بداوود . فجاء داوود فإذا الرجل قائم وسط الدار . فقال له داوود : من أنت ؟ فقال : أنا الذي لا أهاب الملوك ولا أمتنع عن الحُجّاب .فقال داوود : أنت والله إذن مَلَك الموت ، مرحباً بأمر الله . فزمل داوود مكانه حتى قُبضت نفسه ، فلما غُسِّل وكُفِّن وفُرِغ من شأنه ، طلعت عليه الشمس . فقال سليمان للطير : أظلّي على داوود. فأظلته الطير حتى أظلمت عليه الأرض.فقال سليمان للطير : اقبضي جناحاً . قال أبو هريرة : فطفق رسول الله ﷺ يُرينا كيف فعلت الطيــر ، وقبض رســول الله ﷺ بيده وغلبت عليه يومئذ المَضْرَحية ». (انفرد بإخراجه الإمام أحمد وإسناده جيد قوي ، ورجاله ثقات) .

ومعنى قوله : وغلبت عليه يومئذ المَضْرحية ، أي : وغلبت على التظليل عليه المَضْرحية وهي الصقور الطوال الأجنحة . واحداها : مَضْرَحي . قال الجوهري : وهو الصقر الطويل الجناح .

وقال السدِّي عن أبي مالك عن ابن مالك عن ابن عباس قال : مات داوود عليه السلام فجأة ، وكان بِسَبْت ، وكانت الطير تُظله ، وقال السدِّي أيضاً ، عن أبي مالك وعن سعيد بن جبير قال : مات داوود عليه السلام يوم السبت فجأة .

وقال إسحاق بن بشر عن سعيد بن أبي عَرُوبة عن قتادة عن الحسن قال : مات داوود عليه السلام ، وهو ابن مائة سنة ، ومات يوم الأربعاء فجأة .

وقال أبو السكن الهجري : مات إبراهيم الخليل فجأة ، وداوود فجأة ، وابنه سليمان فجأة . صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . (رواه ابن عساكر).

قال إسحاق بن بشر : أنبأنا وافر بن سليمان عن أبي سليمان الفلسطيني عن وهب بن منبه قال : إن الناس حضروا جنازة داوود عليه السلام فجلسوا في الشمس في يوم صائف . قال : وكان قد شيع جنازته يومئذ أربعون ألف راهب عليهم البرانس سوى غيرهم من الناس ، ولم يمت في بني إسرائيل بعد موسى وهارون أحد كانت بنو إسرائيل أشد جزعاً عليه منهم على داوود . قال : فآذاهم الحر فنادوا سليمان عليه السلام أن يجعل لهم وقاية لما أصابهم من الحر ، فخرج سليمان فنادى الطير فأجابت ، فأمرها فأظلت الناس فتراص بعضها إلى بعض من كل وجه حتى استمسكت الريح فكاد الناس أن يهلكوا غماً، فصاحوا إلى سليمان عليه السلام من الغم ، فخرج سليمان فنادى الطير : أن أظلّي الناس من ناحية الشمس وتَنحّيْ عن ناحية الريح ، ففعلت ، فكان الناس في ظل وتهب عليهم الريح ، فكان ذلك أول ما رأوه من مُلك سليمان عليه السلام .

* * *

قصة سليمان عليه السلام

في آيات القرآن الكريم وبيناته ، وفي رسالته لخلقه ، وهداياه لعباده ، حكم وأسرار وعبر وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . وفي طيات قصصه وجواهر عظاته إيقاظ للقلوب ، وتوجيه لها إلى طريق الحق وإلى الصراط السوي ، ومن اهتدى ، نعم فيها كثير من آيات العبر وبينات الذكرى وموجبات الشكر على المنعم الكبير المتعال ، فمن أراد الهداية وشاء الله له التوفيق ، فلينظر من بين آياته وعبره ومدى تفضله سبحانه وتعالى بإرشاد خلقه إلى ما ينفعهم ديناً ودنيا ، ويوجههم إلى ما فيه سعادتهم الأبدية ، وإلى ما جاء في إطار تلك الرسالة ، وفي نطاق الآيات مما أكرم الله به سليمان بن داوود عليهما السلام من آيات لها آثارها وتقديرها في هذه الحياة ، وما تفضل به عليه من عطايا عظيمة الخطر ، كبيرة الأثر ، قويمة التأثير ، عجيبة الشأن ، تتحدث وحدها عن مدى جلالها ، وتتكلم عن بالغ عظمتها وهائل أمرها ، والتاريخ الحي لا يفوته تسجيل هذه الآيات في صحائف فخره ، ولا إثباتها في سور الفضل العظيم والعطايا الجليلة لتكون عبرة لأولي الألباب ، وحديثاً لمن كان له قلب يشهد آيات ربه ويتذكر نعمه على عباده ، ويشكره على هداياه إليهم ، ويقدسه ويحمده على جزيل عطاياه وجليل إحسانه ، والله ذو الفضل العظيم .

قال الحافظ ابن عساكر : هو سليمان بن داوود بن إيشا بن عويد بن عابر بن سلمون بن نحشون بن عمينا داب بن إرم بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم صلوات الله وسلامه .

جاء في بعض الآثار أنه دخل دمشق ، قال ابن ماكولا : فارص بالصاد المهملة ، وذكر نسبه قريباً مما ذكر ابن عساكر قال الله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ

سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ، وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ (١) .

أي ورثه في النبوة والملك ، وليس المراد أنه ورثه في المال لأنه قد كان له بنون غيره ، فما كان ليُخَصَّ بالمال دونهم ، ولأنه قد ثبت في الصحاح من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال : « لا نُوَرَّثْ ، ما تركناه فهو صدقة » وفي لفظه : « نحن معاشر الأنبياء لا نُوَرَّثْ » فأخبر الرسول الأعظم ﷺ أن الأنبياء لا تُوَرَّثْ أموالهم عنهم كما يُوَرَّثْ غيرهم ، بل تكون أموالهم من بعدهم صدقة على الفقراء وذوى الحاجة ، لا يخصون بها أقرباؤهم ، لأن الدنيا كانت أهون عليهم وأحقر عندهم من أن يرثوها أو يلتفتوا إليها ، أو يهتموا بها ، سنة الله فيمن أرسلهم واصطفاهم وجعلهم قدوة للعالمين وقال : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يعني أنه عليه السلام كان يعرف ما تتخاطب به الطيور بلغاتها ، ويعبر للناس عن مقاصدها وإرادتها.

وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقي : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ ، أنبأنا عليّ ابن حشاد ، حدثنا إسماعيل بن قتيبة ، حدثنا علي بن قُدامة ، حدثنا أبو جعفر الأسواني - يعني محمد بن عبد الرحمن - عن أبي يعقوب العُمِّي ، حدثنا أبو مالك ، قال : مَرَّ سليمان بن داوود بعصفور يدور حول عصفورة ، فقال لأصحابه : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : وما يقول يا نبي الله ؟ قال : يخطبها إلى نفسه ويقول : « تزوجيني أسكنك أيَّ غرف دمشق شئت » . قال سليمان عليه السلام : لأن غرف دمشق مبنية بالصخر ، لا يقدر يسكنها أحد ، ولكن كل خاطب كـذّاب ، رواه ابن عساكر عن أبي القاسم زاهر بن طاهر عن البيهقي به . وكذلك ما عداها من الحيوانات وسائر صنوف المخلوقات ، والدليل على ذلك قوله بعد هذا من الآيات: ﴿ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي : من كل ما يحتاج

(١) النمـــل : ١٦ .

الملك إليه من العُدَد والآلات والجنود والجيوش والجماعات من الجن والإنس والطيور والوحوش والشياطين السارحات والعلوم والتعبير عن ضمائر المخلوقات من الناطقات والصامتات ، ثم قال : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الفَضْلُ المُبِينُ ﴾ أي : الذي تفضل به علينا باريء البريات وخالق الأرض والسموات ، يدل على ذلك ويُوحي به قوله تعالى : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَيَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ (1) .

بهذه الآيات الكريمة يُخبر تعالى عن عبده ونبيه وابن نبيه سليمان بن داوود عليهما السلام ، أنه ركب يوماً في جيشه من الجن والإنس والطير ، فالجن والإنس يسيرون في موكبه ، والطير تسير معه تُظلّله بأجنحتها من الحَرّ وغيره ، وعلى كل من هذه الجيوش وزَعة - أي نقباء - يردُّون أوله على آخره ، فلا يتقدم أحد عن موضعه الذي يسير فيه ، ولا يتأخر عنه بل يلتزم النظام الذي وُضِعَ لهذا الموكب الذي أخذ في المسير ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ فأمرت وحذّرت واعتذرت عن سليمان وجنوده بعدم الشعور .

ولما وجهت خطابها ذلك تُحذّرهم من الظهور على سطح الأرض خشية هلاكهم فهم سليمان عليه السلام ما خاطبت به تلك النملة لأمتها من الرأي السديد والأمر الحميد وتبسم من ذلك على وجه الاستبشار والفرح والسرور بما أطلعه الله عليه دون غيره ، ولما كانت هذه الخوارق تستوجب الشكر فقد سأل ربه بقوله : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي ﴾ أي: ألهمني وأرشدني ﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ

---

(1) النمل : 17 - 19 .

عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ فطلب من الله تعالى أن يقيضه للشكر على ما أنعم به عليه وعلى ما خَصَّه به من المزية على غيره ، وأن يُيسر عليه العمل الصالح ، وأن يحشره إذا توفاه مع عباده الصالحين ، وقد استجاب الله له ذلك الطلب وحقق له ما سأل .

والمراد بوالديه : داوود عليه السلام وأمه ، وقد كانت من العابدات الصالحات كما قال سنيد بن داوود عن يوسف بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر عن النبي ﷺ قال : « قالت أم سليمان بن داوود : يا بني ؛ لا تكثر النوم بالليل فإن كثرة النوم بالليل تدع العبد فقيراً يوم القيامة » . (رواه ابن ماجه عن أربعة من مشايخه به نحوه) .

وقال عبد الرزاق عن معمر عن الزهري : إن سليمان ، بن داوود عليه السلام خرج هو وأصحابة يستسقون ، فرأى نملة قائمة رافعة إحدى قوائمها تستسقي . فقال لأصحابه : ارجعوا فقد سقيتم ، إن هذه النملة استسقت فاستُجيب لها .

قال ابن عساكر : وقد رُوِيَ مرفوعاً ، ولم يذكر فيه سليمان ، ثم ساقه من طريق محمد بن عزيز عن سلامة بن روح بن خالد عن عقيل عن ابن شهاب : حدثني أبو سلمة عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقون الله تعالى ، فإذا هم بنملة رافعة بعض قوائمها إلى السماء، فقال النبي : ارجعوا فقد استُجيب لكم من أجل هذه النملة » .

وقال السدِّي : أصاب الناس قحط على عهد سليمان عليه السلام ، فأمر الناس فخرجوا فإذا بنملة قائمة على رجليها باسطة يديها وهي تقول : « اللّهم إنّا خلق من خلقك ولا غناء بنا عن فضلك » قال فَصَبَّ الله عليهم المطر .

* * *

• سليمان والهدهد وبلقيس ملكة سبأ وقصتها :

لما غاب الهدهد عن الطيور وتفقده سليمان عليه السلام فيهم سأل عنه .
فقال : ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ؟ وقد قص الله علينا هذه القصة فقال : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لاَ أَرَى الهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الغَائبِينَ * لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابَاً شَديداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحطتُ بِمَا لَمْ تُحطْ به وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأ بِنَبأ يَقينٍ * إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُون اللَّه وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيل فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ * أَلاَّ يَسْجُدُواْ للهِ الذّي يُخْرِجُ الخَبْءَ فِي السَّمَوات وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلنُونَ * اللَّهُ لاَ إِلَه إِلاَّ هُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ ﴾ (١) .

﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الكَاذِبِينَ * اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقه إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ * أَلاَّ تَعلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلمِينَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِى مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُون * قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَديد وَالأَمْرُ إِلَيْك فَانْظُرى مَاذَا تَأْمُرِينَ * قَالَتْ إِنَّ المُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلهَا أَذِلَّةً ، وكَذَلكَ يَفْعَلُونَ * وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المُرْسَلُونَ * فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُم بَلْ أَنْتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ * ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لاَ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) النمل : ٢٠ - ٢٦ .

(٢) النمل : ٢٧ - ٣٧

هذه هي القصة أثبتناها كما تحدّث عنها القرآن الكريم لجلالها وخطورة أمرها واستعرضناها أمام الأبصار والبصائر كما أنزلت لتكون هُدى وعبرة للّذين يريدون الوصول إليه تعالى ويخافون سوء الحساب ، ففيها يذكر تعالى ويُخبر ما كان من أمر سليمان والهدهد ، وذلك أن الطيور كان على كل صنف منها أن يقدم مقدّموه ما يطلب منهم ويحضرونه عنده بالنّوبة كما هي عادة الجنود مع الملوك .
وكانت وظيفة الهدهد على ما ذكره ابن عباس وغيره : أنهم كانوا إذا أعوزوا الماء في القفار في حال الأسفار يجئ فينظر لهم هل بهذه البقاع من ماء ، وفيه من القوة التي أودعها الله فيه أن ينظر إلى الماء تحت تخوم الأرض ، فإذا دلّهم عليه حفروا له واستنبطوه واستخرجوه واستعملوه لحاجتهم ، فلما تطلبه سليمان ذات يوم فقده ولم يجده في موضعه من محل خدمته ﴿ فَقَالَ مَالِيَ لاَ أَرَى الهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الغَائِبِينَ ﴾ أي : ماله مفقود من ههنا أو قد غاب عن بصري ، فلا يحضرني ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ . توعدّه بنوع من العذاب اختلف المفسرون فيه ، والمقصود حاصل على كل تقدير ﴿ أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أي : بحجة تنجيه من هذه الورطة وتُخرجه منها. فجاء الهدهد ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أي : غاب الهدهد غيبة ليست بعيدة المدى ، ثم قدم منها ﴿ فَقَالَ ﴾ لسليمان ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ أي : اطلعت على ما لم تطلع عليه ﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ أي : جئتك بخبر لا شك فيه ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ يذكر الهدهد في هذا الشأن ما كان عليه ملوك سبأ في بلاد اليمن من المملكة العظيمة والتّبابعة المتوّجين ، وكان الملك في ذلك الزمان قد آل إلى امرأة منهم ، وهي ابنة ملكهم لم يخلف غيرها فملّكوها عليهم .

وذكر الثعلبي أن قومها ملّكوا عليهم بعد أبيها رجلاً فَعمَّ به الفساد ، فأرسلت إليه تخطبه فتزوجها ، فلما دخلت عليه سقته خمراً ، ثم حزت رأسه ونصبته على بابها فأقبل الناس عليها وملّكوها عليهم .

وإنّا لنتحدث عن نسبها فهي : بلقيس بنت السيرح وهو الهدهاد ، وقيل :

شراحيل بن ذي جَدَن بن السيرح بن الحارث بن قيس بن صَيْفي بن سبأ بن يَشْجُب ابن يعرب بن قحطان ، وكان أبوها من أكابر الملوك ، وقد أبى أن يتزوج من أهل اليمن . فيقال إنه تزوج بامرأة من الجن اسمها ريحانة بنت السكن ، فولدت له هذه المرأة واسمها تلقمة . ويقال لها بلقيس ، ويظهر أن في زواجه من جِنِّية ضعفاً والله أعلم . وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث عوف عن الحسن عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ لما بلغه أن أهل فارس ملَّكوا عليهم ابنة كسرى قال : « لن يفلح قوم ولَّوا أمرهم امرأة » ، ورواه الترمذي والنسائي من حديث حميد عن الحسن عن أبي بكرة عن النبي ﷺ بمثله ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

وقوله : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي : مما من شأنه أن تؤتاه الملوك ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ يعني بذلك سرير مملكتها فقد كان مزخرفاً بأنواع الجواهر واللآلئ والذهب والحُلي الباهر .

ثم ذكر له كفرهم بالله وعبادتهم للشمس من دون الله تعالى وإضلال الشيطان لهم وصده إياهم عن عبادة الله الذي يخرج الخَبء في السموات والأرض ويعلم ما يُخفون وما يُعلنون ، أي يعلم السرائر والظواهر المحسوسات والمعنويات يقول الله تعالى حاكياً ذلك عن الهدهد ﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ ومعنى ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي : لا إله يُعبد سواه ولا يستحق العبادة غيره فإنه ﴿ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ أي : الذي لا يُقاس به عروش ولا يوجد أعظم منه في المخلوقات ، فعند ذلكَ بعث معه سليمان عليه السلام كتابه الذي يتضمن دعوته لهم إلى طاعة الله وطاعة رسول والإنابة إليه تعالى والإذعان إلى الدخول في الخضوع لملكه وسلطانه ولهذا قال لهم : ﴿ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ ﴾ أي: لا تستكبروا عن طاعتي وامتثال أوامري ﴿ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ أي :

وأقدِموا عليَّ سامعين مطيعين بلا معاوَدَة ولا مراوَدة ، فلما جاءها الكتاب مع الطير - ومن ثمَّ اتخذ الناس البطائق ولكن أين الثريا من الثرى - تلك البطاقة كانت مع طائر سامع مطيع فاهم عالم بما يقول ويقال به ، فذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم أن الهدهد حمل الكتاب وجاء إلى قصرها فألقاه إليها وهي في خلوة لها ثم وقف ناحية ينتظر ما يكون من جوابها عن كتابه فجمعت أمراءها ووزراءها وأكابر دولتها إلى مشورتها ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ ثم قرأت عليهم عنوانه أولاً ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ ﴾ ثم قرأته ﴿ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ ثم شاورتهم في أمرها وما قد حَلَّ بها وتأهبت معهم وخاطبتهم وهم يسمعون ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُون ﴾ تعني بذلك : ما كنت لأبتُّ أمراً إلا وأنتم حاضرون ﴿ قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ يعنون : لنا قوة وقدرة على الجلاد والقتال ومقاومة الأبطال ، فإن أردت منا ذلك فإنَّا عليه من القادرين ، ومع أن استعدادنا كذلك استعرضناه لتكوني على علم بقدرتنا وقوتنا ﴿ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ فبذلوا لها السمع والطاعة وأخبروها بما عندهم من الاستعدادت وفوضوا إليها في ذلك الأمر لترى فيه ما هو الأرشد لها ولهم ، فكان رأيها أحكم وأتم من رأيهم ، وقد علمت أن صاحب هذا الكتاب لا يُغالَب ولا يُمانَع ولا يُخالف ولا يُخادَع ﴿ قَالَتْ إِنَّ المُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ تقول برأيها السديد أن هذا الملك لو قد غَلَبَ على هذه المملكة لم يخلص الأمر بينكم إلا إلي ولم تكن الحدة والشدة والسطوة البليغة إلا عليَّ ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المُرْسَلُونَ ﴾ أرادت أن تصانع عن نفسها وأهل مملكتها بهدية ترسلها وتُحفَ تبعثها ، ولم تعلم أن سليمان عليه السلام لا يقبل منهم والحالة هذه صرفاً ولا عدلاً لأنهم كافرون ، وهو وجنوده قادرون عليهم متمكنون منهم بحوله

تعالي وقوته فعاد رسلها إلى سليمان عليه السلام يحملون كتابها ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ والهدية التي حُملت إلى سليمان عليه السلام كانت عظيمة الشأن على جانب كبير من التقدير . قال وهب بن مُنَبِّه وغيره من أهل الكتب : عمدت بلقيس إلى خمسمائة جارية وخمسمائة غلام ، وألبست الجواري لباس الغلمان الأقبية والمناطق ، وألبست الغلمان لباس الجواري ، وجعلت في سواعدهم أساور من ذهب وفي أعناقهم أطواقاً من ذهب وفي آذانهم أقراطاً وشنوفاً مرصعات بأنواع الجواهر ، وحملت الجواري على خمسمائة فرس ، والغلمان على خمسمائة برذون ، على كل فرس سرج من ذهب مرصع بالجواهر غواشيها من الديباج الملون ، وبعثت إليه أيضاً خمسمائة لَبِنَة من ذهب وخمسمائة لبنة من فضة وتاجاً مكللاً بالدر والياقوت المرتفع ، وأرسلت إليه كميات من المسك والعنبر والعود والأترج ، وعمدت إلى حُقّه فجعلت فيها دُرّة ثمينة غير مثقوبة وجذع خرزة مثقوبة معوجة الثقب ، ودعت رجلاً من أشراف قومها يقال له المنذر بن عمرو وضمت إليه رجالاً من قومها أصحاب رأي وعقل ، وكتبت معهم كتاباً بنسخة الهدية وقالت في الكتاب : إن كنت نبياً فميز بين الوصائف والوصفاء ، وأخبرنا بما في الحُقّة قبل أن تفتحها ، واثقب الدُرة ثقباً مستوياً ، وأدخل خيطاً في الخرزة . ثم أمرت بلقيس الغلمان فقالت لهم : إذا كلمكم سليمان بكلام فكلموه بكلام فيه تأنيث وتخنيث يشبه كلام النساء ، وأمرت الجواري أن يكلموه بكلام فيه غلظة يشبه كلام الرجال ، ثم إنها قالت للرسول : انظر إلى الرجل إذا دخلت عليه ، فإن نظر إليك نظر غضب فاعلم أنه ملك فلا يهولك منظره فإنّا أعز منه ، وإن رأيته رجلاً بشّاشاً لطيفاً فاعلم أنه نبي مرسل فتفَهَّم كلامه ورد الجواب . فانطلق الرسل بالهدايا فلما رأى الهدهد ذلك أقبل مسرعاً إلى سليمان وأخبره بالخبر كله ، فأمر سليمان الجن أن يصنعوا له لَبِنَة من الذهب والفضة ففعلوا ذلك ثم أمرهم أن يبسطوا له من موضعه الذي هو فيه إلى تسع فراسخ ميداناً واحداً بلبنات الذهب والفضة وأن يجعلوا حول

الميدان حيضاناً مشرفة من الذهب والفضة ففعلوا ذلك . فقال لهم : أيَّ الدواب أحسن مما رأيتم في البر والبحر؟ فقالوا : يا نبي الله ؛ إنَّا رأينا في بحر كذا دواب مختلفة ألوانها لها أجنحة وأعراف ونواص . فقال سليمان : عليَّ بها الساعة . فأتوه بها ، فقال : شُدُّوها عن يمين الميدان وعن يساره على لبنات الذهب والفضة وألقوا لها علوفة فيها ، ثم قال للجن : عليَّ بأولادكم . فاجتمع خلق كثير فأقامهم فيها عن يمين الميدان وعن يساره ، ثم قعد سليمان في مجلسه على سريره ووضع أربعة آلاف كرسي عن يمينه ومثلها عن يساره ، وأمر الشياطين أن يصطفوا صفوفاً فراسخ ، وأمر الإنس أن يصطفوا فاصطفوا فراسخ وأمر الوحوش والسباع والهوام والطيور فاصطفوا فراسخ ، كذلك عن يمينه وعن يساره . فلما أقبل القوم ودنوا من الميدان ونظروا إلى ملك سليمان ورأوا الدواب التي لم تر أعينهم مثلها تروث على لَبِنِ الذهب والفضة ، تقاصرت إليهم أنفسهم ورموا بما معهم من الهدايا، وهناك روايات أخرى تشير إلى الهدايا وجلالها ولا داعي للحديث فيها .

ثم قال لرسولها إليه ووافدها الذي قَدمَ بالهدايا عليه والناس حاضرون يسمعون ﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [1] يقول سليمان عليه السلام : ارجع بهديتك التي قدمت بها إلى مَن أرسلها ومَنَّ بها ، فإن عندي مما قد أنعم الله علي وأسداه إلي من الأموال والتحف والرجال ما هو أضعاف هذا وخير من هذا الذي تفرحون به وتفخرون على أبناء جنسكم بسببه ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ﴾ أي : فلأبعثن عليهم بجنود لا يستطيعون دفاعهم ولا قتالهم ، ولأخرجنهم من بلدهم وحوزتهم ودولتهم أذلة ﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ أي : عليهم الصغار والعار .

* * *

(١) النمــل : ٣٧ .

• قصة عرش بلقيس ومن أتى به من اليمن إلى بيت المقدس :

فلما بلغهم ذلك عن نبي الله لم يكن لهم بُدٌّ من السمع والطاعة فبادروا إلى إجابته واستجابته إلى ما دعاهم إليه في تلك الساعة وأقبلوا صحبة الملكة سامعين مطيعين ، فلما سمع بقدومهم عليه ووفودهم إليه قال لمن بين يديه مما هو مُسَخَّرٌ له من الجان ما قصَّهُ الله في القرآن ﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ، وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ، فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِراً عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ، وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ * قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لاَ يَهْتَدُونَ * فَلَما جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ، قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ، وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ * وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ * قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ، فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا ، قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ ، قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

* * *

• عرش بلقيس :

فاستعرض القرآن الكريم هذه القصة بهذه الصورة ، ونريد أن نستعرضها بحسب ما يمليه علينا توفيق الله من مراده ومقصوده ، مما توحي به المعاني وترشد

---

(١) النمل : ٣٨ - ٤٤ .

الآيات والأسرار التي تُجَلّيها ، وإليك بيان معانيها وقصصها ، فقد طلب سليمان من الجان أن يُحضروا له عرض بلقيس وهو سرير مملكتها الذي تجلس عليه وقت حكمها قبل قدومها عليه ، ولما طلب منهم ذلك ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ﴾ أي : قبل أن ينقضي مجلس حكمك ، وقد كان فيما يُقال من أول النهار إلى قريب الزوال يتصدى في مجلسه هذا لمهمات بني إسرائيل وما لهم من الأشغال ﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ أي : وإني لذو قُدرة على إحضاره إليك وإني لأمين على ما فيه من الجواهر النفيسة ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ : المشهور أنه آصف بن برخيا وهو ابن خالة سليمان ، وقيل : هو رجل من مؤمني الجان كان - فيما يقال - يحفظ الاسم الأعظم ، وقيل : رجل من بني اسرائيل من علمائهم ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ قيل : معناه قبل أن تبعث رسولاً إلى أقصى ما ينتهي إليه طرفك من الأرض ثم يعود إليك ، وقبل أن يصل إليك أبعد منْ تراه من الناس ، وقيل : قبل أن يرجع إليك طرفك إذا نظرت به إلى أبعد غاية منك ثم أغمضته ، وهذا أقرب الأقوال وهو ما نراه مقبولاً ومعقولاً في نظرنا وفي نظر الجمهور من ذوي الأبصار والبصائر ﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ ﴾ أي : فلما رأى عرش بلقيس مستقراً وحاضراً عنده في هذه المدة القريبة من بلاد اليمن إلى بيت المقدس في طرفة عين ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ أي : هذا من فضل الله عليّ وفضله على عبيده ليختبرهم على الشكر أو خلافه ﴿ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ أي: إنما يعود نفع ذلك عليه ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ أي : غني عن شكر الشاكرين ، ولا يتضرر بكفر الكافرين .

ثم أمر سليمان أن يغير حُلّي هذا العرش ويُنَكّر لها ليختبر فهمها وعقلها ، ولهذا قال : ﴿ نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لاَ يَهْتَدُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ، قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ وهذا من فطنتها وغزارة فهمها لأنها استبعدت أن يكون عرشها لأنها تركته وراءها بأرض اليمن ، ولم

تكن تعلم أن أحداً يقدر على هذا الصُنع العجيب . وقد قال الله تعالى إخباراً عن سليمان وقومه في هذا الشأن : ﴿ وَأُوتِينَا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ * وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ أي : ومنعها عبادة الشمس التي كانت تسجد لها هي وقومها من دون الله اتباعاً لدين آبائهم وأسلافهم لا لدليل قادهم إلى ذلك ولا حداهم على ذلك .

وكان سليمان قد أمر ببناء صَرح من زجاج ، وعمل في ممره ماء وجعل عليه سقفاً من زجاج ، وجعل فيه من السمك وغيرها من دواب الماء ، وأمرَت بدخول الصَرح وسليمان جالس على سريره ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا ، قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ ، قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ .

وبكشف ساقيها ظهر ما عليها من الشعر ، ولما أراد سليمان إزالته حين وطّن العزم على تزوجها . قال له الإنس : إنما يزول ذلك بالموسى ، ولما سأل الجن عما يُزيله صنعوا له النّورة ووضعوا له الحمَّام فكان عليه السلام أول من دخل الحمَّام ، فلما وجد مَسَّه قال : أوه من عذاب ، أوه .. أوه !!

وقد ذكر الثعلبي وغيره : أن سليمان لما تزوجها أقرها على مملكة اليمن وردها إليه ، وكان يزورها في كل شهر مرة ، فيقيم عندها ثلاثة أيام ثم يعود على البساط ، وأمر الجان فبنوا له ثلاثة قصور في اليمن : غُمدان ، وسالحين ، وبيتون .

* * *

● **زواج سليمان عليه السلام من بلقيس :**

وقد روى ابن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب بن مُنَبِّه أن سليمان لم يتزوجها بل زوَّجها بملك هَمْدَان ، وأقرها على مُلك اليمن ، وسخَّر زوبعة ملك اليمن فبنى لها القصور الثلاثة التي ذكرنا إقامتها وبناءها باليمن ، ولكن الأولاد أشهر وأظهر ، وهو أنه تزوجها عليه السلام ، وإلى هنا انتهى أمر بلقيس .

وقد ذكر اللّٰه تعالى أنه وهب لداوود سليمان عليهما السلام إذ يقول في سورة (ص) : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ ، نِعْمَ الْعَبْدُ ، إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي ، حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ ، فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ * وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ [1] .

لقد أخبرنا سبحانه وتعالى بأنه وهب لداوود سليمان عليهما السلام ، كما أخبرنا بأنه أثنى عليه إذ يقول جل شأنه : ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ ، إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أي : إنه رجَّاع إلى اللّٰه مطيع له . ثم ذكر تعالى ما كان من أمره في الخيل الصافنات وهي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة ، والجياد هي المضمرة السراع .

وقد شغله عليه السلام ما رآه من الخيل وما اتصفت به من جلائل الصفات عن

---

(١) سورة ص : ٣٠ - ٤٠ .

ذكر الله تعالى حتى خرج وقت صلاة العصر فقال : ﴿ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي ، حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ أي : غابت الشمس وتوارت عن الأنظار ، يُوحى بذلك قوله : ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ، فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ ﴾ قيل : مسح عراقيبها وأعناقها بالسيوف . وقيل : مسح عنها العرق لما أجراها وسابق بينها بين يديه على القول الآخر . والذي عليه أكثر السلف : الأول ، إذ قالوا : اشتغل بعرض تلك الخيول حتى خرج وقت العصر ، وقد غربت الشمس . رُوِيَ هذا عن عليّ بن أبي طالب . وهذه الرواية في اعتقادي أنها ضعيفة الإسناد والذي يجب أن يُقطع به أنه لم يترك الصلاة عمداً من غير عذر ، بل إنه إنما تركها لانشغاله بإعداد الخيول للجهاد ظناً منه بأن الوقت لا يزال باقياً ، وقد يُقال : إن تأخير الصلاة كان جائزاً في شريعتهم ، لا سيما وأنه كان مشغولاً بالأسباب التي يستوجبها الجهاد ودوافعه ووجوب عرض الخيل في تلك الساعة استعداداً للخطر الداهم الذي كان يقوم في تلك العهود .

وقد ادعى طائفة من العلماء في تأخير النبي ﷺ صلاة العصر يوم الخندق أن هذا كان مشروعاً إذ ذاك حتى نُسِخَ بصلاة الخوف . قاله الشافعي وغيره ، وقال مكحول والأوزاعي : إنه حكم مُحْكم إلى اليوم أنه يجوز تأخيرها بعذر القتال الشديد . وقال آخرون : بل كان تأخير النبي ﷺ صلاة العصر يوم الخندق نسياناً لانشغاله الشديد بالقتال ، وعلى هذا التقدير المقبول عقلاً وشرعاً فيحمل فعل سليمان عليه السلام على هذا المعنى .

وأما من قال الضمير في قوله : ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ عائد على الخيل وأنه لم تنته وقت صلاة ، وأن المراد بقوله : ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ، فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ ﴾ يريد مسح العَرَق عن عراقيبها وأعناقها كما تقدم ذلك فقد اختار هذا القول ابن جرير ورواه الوالبي عن ابن عباس في مسح العرق . ووجهة هذا القول في نظر ابن جرير وتوجيهه : أنه ما كان لِيُعَذِّب الحيوان بالعرقبة ويُهْلك مالاً بلا سبب ولا ذنب لها . وهذا الذي قاله ابن جرير فيه نظر ، لأن هذا قد يكون سائغاً في ملتهم .

وقد ذهب بعض علمائنا إلى أنه إذا خاف المسلمون أن يظفر الكفار بشئ من الحيوانات من أغنام ونحوها ، جاز ذبحها وإهلاكها لئلا يَتَقَوَّوْا بها ، وعليه حُمِل منع جعفر بن أبي طالب يوم عقر فرسه بمؤتة ، وقد قيل : إنها كانت خيلاً عظيمه ، قيل : إنها كانت عشرة آلاف فرس ، وقيل كانت عشرين ألف فرس ، وقيل : كان فيها عشرون فرساً من ذوات الأجنحة .

قال بعض العلماء : لما ترك الخيل لله عوَّضه الله عنها بما هو خير له منها وهو الريح التي كان غدوها شهر ورواحها شهر ، وسنتحدث عنها في موضعها وذلك كما قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال عن أبي قتادة وأبي الدهماء - وكانا يُكثران السفر نحو البيت - : أتينا على رجل من أهل البادية ، فقال البدوي : أخذ بيدي رسول الله ﷺ فجعل يُعَلِّمني مما علّمه الله عز وجل وقال : « إنك لا تدع شيئاً اتقاء الله عز وجل إلا أعطاك الله خيراً منها » .

* * *

• فتنة سليمان عليه السلام :

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيهِ جَسَداً ﴾ قال أهل التحقيق : إن فتنة سليمان أنه وُلِدَ له ابن فقالت الشياطين : إن عاش ولده صار مُسَلّطاً علينا مثل أبيه فسبيلنا أن نقتله ونتخلص منه ، فعلم سليمان ذلك فكان يُربيه في السحاب ، فبينما هو مشتغل بمهماته إذ ألقى ذلك الولد ميتاً على كرسيه فتنبه لخطئه في أنه لم يتوكل فيه على الله فاستغفر ربه وأناب . هذا ، وهناك رأي ثان في فتنة سليمان ، رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال : « قال سليمان : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة تأتي بفارس يُجاهد في سبيل الله - ولم يقل إن شاء الله - فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل فجئ به على كرسيه فَوُضِعَ في حجره ، والذي نفسي بيده لو قال : إن شاء الله ، لجاهدوا كلهم في سبيل الله فرساناً أجمعون فذلك قوله : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا

سُلَيْمَانَ ﴾ » ، ويمكن أن يُجاب عن ذلك بأن الإنسان لا ينفك ألبتة عن ترك الأفضل والأولى ، وحينئذ يحتاج إلى طلب المغفرة ، لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، لأنهم أبداً في مقام هضم النفس وإظهار الذلة والخضوع كما قال ﷺ : « وإني لأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة » . ولا يبعد أن يكون المراد من هذه الكلمة هذا المعنى ، ثم قال تعالى : ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾ دلت هذه الآية ألا وهي قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِيَ وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ، إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ ﴾ على أنه يجب تقديم مُهم الدين على مهم الدنيا ، لأن سليمان طلب المغفرة أولاً ثم طلب المملكة بعد ذلك ، وتدل الآية أيضاً على أن طلب المغفرة سبب لانفتاح أبواب الخيرات في الدنيا ، لأن سليمان طلب المغفرة أولا ثم توسل به إلى طلب المملكة ، ونوح عليه السلام هكذا فعل أيضاً لأنه تعالى حكى عنه أنه قال : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ﴾ [1] وقال لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ واصْطَبِرْ عَلَيْهَا ، لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً ، نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ، وَالعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ [2] .

وكان سؤاله المُلك الذي لا ينبغي لأحد من بعده بعد إكماله بيت المقدس . قال الإمام أحمد والنسّائي وابن ماجه وابن خُزيمة وابن حبّان والحاكم بأسانيدهم عن عبد الله بن فيروز الديلمي ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال رسول الله ﷺ : « إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه عز وجل خلالاً ثلاثاً فأعطاه اثنتين ، ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة . سأله حُكماً يصادف حكمه فأعطاه إياه ، وسأله مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه ، وسأله أيُما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه ، فنحن نرجو أن يكون الله قد أعطانا إياها » .

---

(١) نوح : ١٠ - ١٢ .   (٢) طه : ١٣٢ .

فأما الحكم الذي يوافق حكم الله تعالى ، فقد أثنى الله تعالى عليه وعلى أبيه في قوله : ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ، وَكُلاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ (١) .

* * *

• حكم داوود وسليمان عليهما السلام في شأن الغنم :

ذكر شريح القاضي وغير واحد من السَلَف في هذا الشأن : أن هؤلاء القوم كان لهم كَرْم فنفشت فيه غنم قوم آخرين - أي رعته بالليل - فأتت على شجره جميعا فأكلته فتحاكموا إلى داوود عليه السلام فحكم لأصحاب الكَرْم بقيمته . فلما خرجوا على سليمان قال : بِمَ حكم لكم نبي الله ؟ ، فقالوا : بكذا وكذا . فقال : أما لو كنت أنا لما حكمت إلا بتسليم الغنم إلى أصحاب الكَرْم فيستغلونا نتاجاً وَدَرًّاً حتى يُصلح أصحاب الغنم كَرْم أولئك ويردُّوه إلى ما كان عليه ثم يتسلموا غنمهم . فبلغ داوود عليه السلام ذلك فحكم به .

وقريب من هذا ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي الزِّياد عن الأعرج عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما امرأتان معهما ابناهما إذ عدا الذئب فأخذ ابن إحداهما فتنازعتا في الآخر ، فقالت الكبرى : إنما ذهب بابنك ، وقالت الصغري : بل إنما ذهب بابنك . فتحاكمتا إلى داوود فحكم به للكبرى فخرجتا على سليمان فقال : ائتوني بالسكين أشقه نصفين لكل واحدة منكما نصفه . فقالت الصغرى : يرحمك الله هو ابنها . فقضى به لها .

ولعل كُلاً من الحكمين كان سائغاً في شريعتهم ، ولكن ما حكم به سليمان أرجح،

---

(١) الأنبياء : ٧٨ - ٧٩ .

ولهذا أثنى اللّه عليه بما ألهمه إياه ومدح بعد ذلك أباه فقال : ﴿ وَكُلاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ، وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ، وَكُنَّا فَاعِلِينَ * وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ، فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾[1] .

ثم واصل سبحانه وتعالى تعداد آلائه ونعمه على سليمان فقال : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾ أي : وسخّرنا لسليمان الريح عاصفة ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ، وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ * وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ ، وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾[2] .

وأعاد سبحانه وتعالى تعداد نعمة تسخير الريح له عليه السلام لكن بأحداث جدية ومعلومات خلت عنها الصورة السابقة فانظر إلى قوله تعالى في سورة (ص) : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً[3] حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ، وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ[4] فِي الأَصْفَادِ[5] * هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ .

يخبرنا جل شأنه بأن سليمان عليه السلام لما ترك الخيل ابتغاء وجه اللّه تعالي عوّضه اللّه منها الريح التي أسرع سيراً وأعظم وأقوى جرياً منها ، وفضلاً عن ذلك فإنه لا كلفة عليه بشأنها ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ أي : حيث أراد من أي البلاد . كان له بساط مركّب من أخشاب بحيث إنه يسع جميع ما يحتاج إليه من الدور المبنية والقصور والخيام والأمتعة والخيول والجمال والأثقال والرجال من الإنس والجان إلى غير ذلك من الحيوانات والطيور . فإذا أراد سفراً أو مستنزهاً أو قتال ملك من الملوك أو أي عدو من أعداء اللّه من أي بلد شاء من بلاد اللّه وحمل هذه الأمور المذكورة على البساط ، أمر

---

(١) الأنبياء : ٧٩ - ٨٠ . لبوس : دروع .

(٢) الأنبياء : ٨١ - ٨٢

(٣) رخاء : أي رخوة لينة .

(٤) مقرنين : أي مقيدين .

(٥) الأصفاد : الأغلال (والآيات من سورة ص : ٣٦ - ٤٠) .

الريح فدخلت تحته فرفعته .. فإذا استقلّ بين السماء والأرض أمر الرخاء فسارت به ، فإن أراد أسرع من ذلك أمر العاصفة فحملته أسرع ما يكون فوضعته في أي مكان شاء بحيث إنه كان يرتحل في أول النهار من بيت المقدس فتعدو به الريح فتضعه بـ « اصطخر » مسيرة شهر فيقيم هناك إلى آخر النهار ثم يروح في آخره فترده إلى بيت المقدس حيث ابتدأ سفره ، يُوحى بذلك قوله تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ، وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ ، وَمِنَ الجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ، اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ (1) . وقد جاءت هذه الآيات بسورة سبأ معلنة ما أسبغه الله عليه من النعم الأخرى التي تشير إليها تلك الآيات .

قال الحسن البصري : كان يغدو من دمشق فينزل بـ « اصطخر » فيتغدى بها ، ويذهب رائحاً منها فيبيت بـ « كابل » ، وبين دمشق وبين اصطخر مسيرة شهر ، وبين اصطخر وكابل مسيرة شهر ، واصطخر هذه بنتها الجان لسليمان ، وكان بها قرار ومستقر ملك الترك قديماً ، وكذلك غيرها من بلدان شتى كـ « تدمر » وبيت المقدس وباب جَيْرُون وباب البريد اللذان بدمشق كما قيل ذلك .

وأما القطر قال الله عنه : ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ ﴾ فقد قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة وغير واحد : هو النحاس . قال قتادة : وكانت باليمن أنبعها الله له . قال السدى : ثلاثة أيام فقط أخذ منها جميع ما يحتاج إليه للبنايات وغيرها .

ومن بين النعم التي أنعم الله بها على سليمان عليه السلام ما يُرشد إليها قوله الله . ﴿ وَمِنَ الجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ أي : وَسَخَّرَ اللَّهُ مِنَ الجن عمالاً يعملون

---

(1) المحاريب : الأبنية الرفيعة ، يشير إلى هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَسَوَّرُوا المِحْرَابَ ﴾ (سورة ص : 21) التماثيل : ما يكون فيها من النقوش . الجفان : المواعين التي تستعمل في المساكن للأكل ، كالجواب : الجواب - جمع جابية - وهي الحوض الكبير الذي يجبي الماء أي يجمعه ، راسيات : أي ثابتات لا تنقل لكبرها (والآيات من سورة سبأ : 12 - 13) .

له ما يشاء لا يفترون ولا يخرجون عن طاعته ، ومن خرج منهم عن الأمر عذّبه ونكّل به ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ ﴾ : وهي الأماكن الحسنة وصدور تلك الأماكن والمجالس ﴿ وَتَمَاثِيلَ ﴾ وهي الصور في الجدران ، وقد كان هذا جائزاً في شريعتهم وملتهم ﴿ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ ﴾ الجفان : الحياض والأوعية التي تُحفظ فيها الماء ، والجواب ، جمع جابية وهي الحوض الذي يُجبى فيه الماء أي يجمع فيه ﴿ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ﴾ قال عكرمة : يعني إنهن ثوابت لا يزلن عن أماكنهن ، وهكذا قال مجاهد وغير واحد .

ولما كان هذا المقام يتحدث عن إطعام الطعام والإحسان إلى الخلق من إنسان وحيوان وهذه النعَمْ تستوجب شكراً وتستدعي حمداً من المنعم عليه ، فقال تعالى : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً ، وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ (١) .

وقال تعالى من بين ما عدّه الله من النعَمْ التي تفضّل بها على سليمان : ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ ﴾ (٢) يعني : أن منهم من سخّره الله تعالى للبناء ، ومنهم من يأمره بالغوص في الماء لاستخراج ما هنالك من الجواهر واللآلئ ، وغير ذلك مما لا يوجد إلا في الماء ، وقوله : ﴿ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ ﴾ أي : قد عصوا فَقُيِّدوا مقرنين اثنين اثنين في الأصفاد وهي القيود . وهذا كله من جملة ما أعده الله تعالى ، وسخّر له من النعم التي هى من تمام الملك الذي طلبه من الله تعالى بقوله : ﴿ لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾(٣) وكذلك لم يكن أيضاً لمن كان قبله .

وقد ذكر غير واحد من السَلَف : أنه كانت لسليمان من النساء ألف امرأة ، سبعمائة بمهور وثلاثمائة سراري . وقيل بالعكس : ثلاثمائة حرائر وسبعمائة من الإماء .

قال البخاري : حدثنا خالد بن مخلد ، حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « قال سليمان بن داوود

---

(١) سبأ : ١٣ (٢) سورة ص : ٣٧ - ٣٨ (٣) سورة ص : ٣٥

لأطوفن اللّيلة على سبعين امرأة تحمل كل امرأة فارساً يُجاهد في سبيل الله . فقال له صاحبه : إن شاء الله ، فلم يقل ، فلم تحمل شيئاً إلا واحداً ساقطاً أحد شقيه » . فقال النبي ﷺ : « لو قالها لجاهدوا في سبيل الله » . وقال شعيب وابن أبي الزناد : تسعين ، وهو أصح ، (تفرد به البخاري من هذا الوجه) .

وقال أبو يعلي : حدثنا زهير ، حدثنا يزيد ، أنبأنا هشام بن حسان عن محمد عن أبي هريرة . قال : قال رسول الله ﷺ : « قال سليمان بن داوود : لأطوفن الليلة على مائة امرأة كل امرأة منهن تلد غلاماً يضرب بالسيف في سبيل الله ، ولم يقل : إن شاء الله ، فطاف تلك الليلة على مائة امرأة فلم تلد منهن امرأة إلا امرأة ولدت نصف إنسان . فقال رسول الله ﷺ : « لو قال : إن شاء الله ، لولدت كل امرأة منهن غلاماً يضرب بالسيف في سبيل الله عز وجل » (إسناده على شرط الصحيح ، ولم يخرجوه من هذا الوجه) .

وقد كان له عليه السلام من أمور الملك واتساع الدولة وكثرة الجنود وتنوعها مالم يكن لأحد قبله ، ولا يعطيه الله أحداً بعده كما قال : ﴿ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ ﴾ (٢) . وقد أعطاه الله ذلك بنص الصادق المصدوق .

ولما ذكر الله تعالى ما أنعم عليه وأسداه من النعم العظيمة الكاملة إليه قال : ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾(٣) أي : أعط من شئت واحرم من شئت فلا حساب عليك في ذلك ، أي : تصرف في المال كيف شئت ، فإن الله قد أجاز وسوَّغ لك ما تفعله من ذلك فإنه لا حساب يوجه إليك على تصرفك . وهذا شأن النبي الملك بخلاف العبد الرسول فإن من شأنه أن لا يُعطي أحداً إلا بإذن الله له في ذلك .

---

(١) النمل : ١٦ . (٢) سورة ص : ٣٥ . (٣) سورة ص : ٣٩ .

وقد خُير نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه بين هذين المقامين فاختار صلى الله عليه وسلم أن يكون عبداً رسولاً ، علماً بأن الله سبحانه وتعالى جعل الخلافة والملك من بعده في أمته إلى يوم القيامة ، فلا تزال طائفة من أمته ظاهرين حتى تقوم الساعة ، فلله الحمد والشكر .

ولما ذكر تعالى ما وهبه لنبيه سليمان عليه السلام من خير الدنيا نبّه على ما أعده الله له من الثواب الجزيل والأجر العظيم والفوز الكبير في الآخرة حيث يقول : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ (١) .

* * *

● **ذكر وفاة سليمان عليه السلام وكم كانت مدة ملكه ومدى حياته :**

كان سليمان يقف في عبادة الله ليلة كاملة ويوماً تاماً ، وفي بعض الأوقات يزيد عليه ، وكان له عصا يتكئ عليها واقفاً بين يدي ربه ، وبينما كان في بعض الأوقات واقفاً على عادته في عبادته إذ توفى ، فلم يخطر ببال جنوده إلا أنه لم يزل في العبادة ، وبقي كذلك أياماً ، وتمادى ذلك شهوراً وقدّر الله وأراد تعالى أن وقفت دابة الأرض تأكل عصاه فوقع وعُلِمَ حاله ، فذلك قوله :﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ﴾(٢) قال أصبغ بن الفرج وعبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم قال : قال سليمان لملك الموت إذا أمرت بي فأعلمني . فأتاه فقال : يا سليمان ، قد أُمرت بك فقد بقيت لك سويعة ، فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحاً من قوارير ليس له باب ، فقام يُصلي فاتكأ على عصاه قال : فدخل عليه مَلَك الموت فقبض روحه وهو متوكئ على عصاه ، ولم يصنع ذلك فراراً من مَلَك الموت قال : والجن تعمل بين يديه ، وينظرون إليه يحسبون أنه حي ، قال : فبعث الله دابة الأرض - يعني إلى منسأته - فأكلتها حتى إذا أكلت جوف

(١) سورة ص : ٤٠ .
(٢) سبأ : ١٤ .

العصا ضعفت وثقل عليها فَخَرَّ ، فلما رأت الجن ذلك انفضُّوا وذهبوا ، قال : فذلك قوله : ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْته إلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ منْسَأَتَهُ ، فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَت الجِنُّ أنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ مَا لَبِثُوا في العَذَابِ المُهِينِ ﴾ [(١)] .

وقال أصبغ : وقد بلغني عن غيره أنها مكثت سنة تأكل من منْسَأته حتى خَرَّ ، وقد رُوِيَ نحو هذا عن جماعة من السَّلَف وغيرهم . والله أعلم .

قال إسحاق بن بشر عن محمد بن إسحاق عن الزهري وغيره : إن سليمان عليه السلام عاش اثنتين وخمسين سنة وكان مُلكه أربعين سنة ، وقال إسحاق : أنبأنا أبو روق عن عِكرمة ، عن ابن عباس : أن مُلكه كان عشرين سنة والله أعلم . وقال ابن جرير : فكان جميع عمر سليمان بن داوود عليهما السلام نيفاً وخمسين سنة .

وفي سنة أربع من ملكه ابتدأ ببناء بيت المقدس فيما ذُكِرَ ، ثم ملك بعده ابنه رحبعام مدة سبع عشرة سنة فيما ذكره ابن جرير قال : ثم تفرقت بعده مملكة بني إسرائيل .

هذه سيرة سيدنا سليمان وقصته العجيبة التي تهدي إلى مدى فضل الله على عبده سليمان ، وهو يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

* * *

---

(١) سبأ : ١٤ .

أنبياء من بني إسرائيل

لم يُعلم على التعيين في أي زمن كانوا

نظراً لأننا أخذنا على كاهلنا أن نتحدث عن قصص الأنبياء ، وأن نذكر ما نقف عليه منهم بقدر ما يهدينا إليه توفيق الله تعالى إتماماً للفائدة ، ولما كنا قد اهتدينا إلى أن هناك أنبياء من بنى إسرائيل لم يُعرف الزمن الذى كانوا فيه على التعيين ، فقد رأينا أن نستعرض منهم ما وقفنا عليه حتى نكون قد أدينا رسالتنا على أكمل وجه ممكن ، وكل ما يمكن أن نشير إليه ونرشد له ، هو أنهم كانوا بعد داوود عليه السلام ، وقبل زكريا ويحيى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

• شعيا بن أمصيا :

أما من وقفنا عليه ، فمنهم شَعْيَا بن أمْصِيَا . قال محمد بن إسحاق : وكان قبل زكريا ويحيى ، وهو الذي بَشَّرَ بعيسى ومحمد عليهما السلام ، وكان في زمانه ملك اسمه « حِزْقيا » على بني إسرائيل ببلاد المقدس . سبق أن تحدثنا عنه وكان سامعاً مطيعاً لشَعْيَا فيما يأمره به وينهاه عنه من المصالح ، وكانت الأحداث قد عظمت في بني إسرائيل ، فمرض ذلك الملك ، وظهرت في رجله قرحة ، وقصد إلى بيت المقدس في ذلك الزمان ملك بابل وهو سنحاريب . قال ابن إسحاق : في ستمائة ألف راية ، وفزع الناس لهذا فزعاً عظيماً ، وقال الملك للنبي شُعْيَا : ماذا أوحى الله إليك في أمر سنحاريب وجنوده ؟ فقال : لم يُوحَ إليّ فيهم شئ بعد ، ثم نزل عليه الوحي بالأمر للملك حزْقيا بأن يُوصي ويستخلف على ملكه من يشاء ، فإنه قد اقترب أجله ، فلما أخبره بذلك أقبل الملك علي القبلة فصلى وسبَّح ودعا وبكى ، فقال وهو يبكي ويتضرع إلى الله عز وجل بقلب مخلص وتوكل وصبر : اللّهم رَبّ الأرباب ، وإله الآلهة ، يا رحمن يا رحيم ، يا من لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم ، اذكرني بعلمي وفعلي وحُسن قضائي على بني إسرائيل ، وذلك كله كان منك ، فأنت أعلم به من نفسي ، سري وإعلاني لك

قال : فاستجاب الله له ورحمه وأوحى الله إلى شَعْيا أن يبشره بأنه قد رحم بكاءه وقد أخَّر في أجله خمس عشرة سنة ، وأنجاه من عدوه سنحاريب ، فلما قال له ذلك ذهب منه الوجع ، وانقطع عنه الشر ، وذهب عنه الحزن ، وخر ساجداً لله تعالى . وقال في سجوده : اللّهم أنت الذي تُعطي المُلك من تشاء ، وتنزعه ممن تشاء ، وتُعز من تشاء ، وتُذِل من تشاء ، عالِم الغيب والشهادة ، فأنت الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وأنت ترحم وتستجيب دعوة المضطرين .

فلما رفع رأسه أوحى الله إلى شَعْيا أن يأمره أن يأخذ ماء التين فيجعله على قرحته ، فَيُشْفَى ويصبح قد برئ ، ففعل ذلك فشُفِيَ .

وأرسل الله على جيش سنحاريب الموت ، فأصبحوا وقد هلكوا كلهم سوى سنحاريب وخمسة من أصحابه منهم بختنصَّر ، فأرسل ملك بني إسرائيل فجاء بهم فجعلهم في الأغلال ، وطاف بهم في البلاد على وجه التنكيل بهم والإهانة لهم سبعين يوماً ، ويُطعم كل واحد منهم كل يوم رغيفين من شعير ، ثم أودعهم السجن ، وأوحى الله إلى شَعْيا أن يأمر الملك بإرسالهم إلى بلادهم لينذروا قومهم متى رجعوا إليهم ما حَلَّ بهم ، فلما عادوا جمع سنحاريب قومه وأخبرهم بما قد كان من أمرهم ، فقال له السحرة والكهنة : إنّا أخبرناك عن شأن ربهم وأنبيائهم فلم تطعنا ، وهي أمة لا يستطيعها أحد لعظمة ربهم وقدرة خالقهم وقهره وأنه الفعال لما يريد . فكان أمر سنحاريب مما خوَّفهم الله من آياته عجباً ، ثم مات سنحاريب بعد سبع سنين .

قال ابن إسحاق : ثم لما مات حزِقْيا - ملك بني إسرائيل - مَرَجَ أمرهم واختلطت أحداثهم وازداد شرهم ، فأوحى الله تعالى إلى شَعْيا فقام فيهم فوعظهم وذكَّرهم آيات ربهم وسلطان خالقهم وقدرة مولاهم ورازقهم ، وأخبرهم

عن الله بما هو أهله وأنذرهم بأسه وعقابه إن هم خالفوه وكذّبوه ، فلما فرغوا من مقالته عَدَواْ عليه وطلبوه ليقتلوه فهرب منهم ، وبينما هو في طريق الهرب إذ مَرَّ بشجرة فانفلقت له فدخل فيها ، وأدركه الشيطان فأخذ بهَدبة ثوبه فأبرزها ، فلما رأوه على هذا الحال جاءوا بالمنشار فوضعوه على الشجرة فنشروها ونشروه معها ، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون ، هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون .

* * *

• أرميا من أنبياء بني إسرائيل ، ولم يحدد أيضاً الزمن الذي جاء فيه :

تحدثنا عن شَعْيا بن أمْصيا عليه السلام ، ويجمل بنا أن نتحدث عن نبي آخر من أنبياء بني إسرائيل ممن لم يُعرف في أي زمن على التعيين كان أولئك الأنبياء ، ذلك النبي الذي نتكلم عنه هو أرميا بن حلقيا من سِبط لاوي بن يعقوب عليه السلام .

قال ابن عساكر : جاء في بعض الآثار أنه وقف على دم يحيى بن زكريا وهو يفور بدمشق . فقال : أيها الدم فَتَنْتَ الناس فاسكن ، فسكن ورسب حتى غاب .

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثني عليّ بن أبي مريم عن أحمد بن حباب عن عبد الله بن عبدالرحمن قال : قال أرميا : أيْ رَبِّ .. أيُّ عبادك أحب إليك ؟ قال : أكثرهم لي ذكراً الذين يشتغلون بذكري عن ذكر الخلائق ، الذين لا تعرض لهم وساوس الفناء ولا يُحَدِّثون أنفسهم بالبقاء ، الذين إذا عُرِضَ لهم عيش الدنيا قَلَوْه ، وإذا زُوِي عنهم سُرُّوا بذلك ، أولئك أنحَلُهم محبتي وأعطيهم فوق غاياتهم .

وقد كان فما أنزل الله تعالى على موسى عليه السلام خبر بني إسرائيل من

أحداثهم وما هم فاعلون بعده كما قال تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً ﴾ [١] .. إلى قولـه : ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ﴾ [٢] فكانت بنو إسرائيل يركبون الأحداث والذنوب .

قال وهب بن مُنَبِّه : أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل ذلك وهو أرميا حين ظهرت فيهم تلك المعاصي : أن قم بين ظهراني قومك فأخبرهم أن لهم قلوباً ولا يفقهون ، وأعيناً ولا يبصرون ، وآذاناً ولا يسمعون ، وإني تذكرت صلاح آبائهم فعطفني ذلك على أبنائهم فَسَلْهُم كيف وجدوا غِبَّ طاعتي ، وهل سَعِدَ أحدٌ ممن عصاني بمعصيتي ، وهل شقِيَ أحد ممن أطاعني بطاعتي ، إنَّ الدواب تذكر أوطانها فتنتزع إليها ، وإنَّ هؤلاء القوم تركوا الأمر الذي أكرمتُ عليه آباءهم والتمسوا الكرامة من غير وجهها ، أما أحبارهم فأنكروا حقي ، وأما قراؤهم فعبدوا غيري ، وأما نُسَّاكُهم فلم ينتفعوا بما عَلِموا ، وأما وُلاتُهم فكذبوا عليَّ وعلى رُسلي ، خَزَنوا المكْرَ في قلوبهم ، وعوَّدوا الكَذِبَ ألسنتهم . وإني أُقسم بجلالي وعزتي لأُهَيِّجَنَّ عليهم جُيولا يفقهون ألسنتهم ولا يعرفون وجوههم ولا يرحمون بكاءهم ، ولأبعثن فيهم ملكاً جباراً له عساكر كقطع السحاب ومواكب كأمثال الفِجَاج ، كأن خفقَانَ راياته طَيَران النُّسُور ، وكأنَّ حُمْلَ فرْسَانِه كرُّ العقبان ، يُعيدُون العمران خراباً ، ويتركون القُرَى وحشة ، فياويل إيليا وسكانها كيف أذللُهَم للقتل ، وأسلط عليهم السبا ، وأعيد بعدَ لَجب الأعراس صراخاً ، وبعد صهيل الخيل عواء الذِّئاب ، وبعد شُرُفات القُصُور مساكن السباع ، وبعد ضوء السُّرُج وهج العَجاج ، وبالعزِّ ذُلاً وبالنعمة العُبُودِّيَة

(١) الإسراء : ٤ .

(٢) الإسراء : ٨ .

وأبْدَلَنَّ نساءهم بعد الطيب التراب ، وبالمشي على الزرابي الخَسَبَ ، ولأجْعَلن أجسادهم زبلا للأرض ، وعظامُهُنّ ضاحية للشمس ، ولأدُسَنهُن بألوان العذاب ، ثم لآمُرَن السماء فتكون طبقاً من حديد ، والأرض سبيكة من نحاس ، فإن أمطرت لم تُنبت الأرض ، وإن أنبتت شيئاً في خلال ذلك فبرحمتي للبهائم ، ثم أحبسه في زمان الزرع وأُرسله في زمان الحصاد ، فإن زرعوا في خلال ذلك شيئاً سلطتُ عليه الآفة ، فإن خلص منه شئ نزعتُ منه البركة ، فإن دعوني لم أجبهم ، وإن سألوا لم أعطهم ، وإن بكوا لم أرحمهم ، وإن تضرّعوا صرفتُ وجهي عنهم ، (رواه ابن عساكر بهذا اللفظ) .

وقال إسحاق بن بشر : أنبأنا إدريس عن وهب بن مُنَبِّه . قال : إن الله تعالى لما بعث أرميا إلى بني إسرائيل وذلك حين عظمت الأحداث فيهم فعملوا بالمعاصي وقتلوا الأنبياء ، طمع بختنصر فيهم وقذف الله في قلبه وحدّث نفسه بالمسير إليهم لما أراد الله أن ينتقم به منهم ، فأوحى الله إلى أرميا إني مهلك بني إسرائيل ومنتقم منهم ، فقم على صخرة بيت المقدس يأتيك أمري ووحيي ، فقام أرميا فشقّ ثيابه وجعل الرماد على رأسه وخر ساجداً وقال : يارب ، وددتُ أن أمي لم تلدني حين جعلتني آخر أنبياء بني إسرائيل فيكون خراب بيت المقدس وبوار بني إسرائيل من أجلي . فقال له : ارفع رأسك . فرفع رأسه فبكى ، ثم قال : يارب ، من تُسَلّط عليهم ؟ فقال : عبدة النيران ، لا يخافون عقابي ولا يرجون ثوابي ، قم يا أرميا فاستمع وَحْيي أُخبرك خبرك وخبر بني إسرائيل .. من قبل أن أخلقك اخترتك ، ومن قبل أن أُصَوِّرك في رحم أمك قدّسْتُك ، ومن قبل أن أخرجك من بطن أمك طهّرتك ، ومن قبل أن تبلغ نَبّأتُك ، ومن قبل أن تبلغ الأشد اختبرتك ، ولأمر عظيم اجتبيتك ، فقم مع الملك تُسَدِّده وترشده ، فكان يرشده ويأتيه الوحي من الله حتى عظمت الأحداث ونَسُوا ما نجّاهم الله به من عدوهم سنحاريب وجنوده ، فأوحى الله إلى أرميا : قم فاقصص عليهم ما آمرك به

وذكِّرهم نعمتي عليهم وعَرِّفهم أحداثهم . فقال أرميا : يارب ، إني ضعيف إن لم تُقَوِّني ، عاجز إن لم تُبَلِّغني ، مخطئ إن لم تُسَدِّدني ، مخذول إن لم تنصرني ، ذليل إن لم تعزني . فقال الله تعالى : « أو لم تعلم أن الأمور كلها تصدر عن مشيئتي ، وأن الخلق والأمر كله لي ، وأن القلوب والألسن كلها بيدي ، فأقلبها كيف شئت فتطيعني ، فأنا الله الذي ليس شئ مثلي ، قامت السموات والأرض وما فيهن بكلمتي ، وإنه لا يخلص التوحيد ولا تتم القدرة إلا لي ، ولا يعلم ما عندي غيري ، وأنا الذي كلمت البحار ففهمت قولي ، وأمرتها ففعلت أمري ، وحدَّدْتُ عليها حدوداً فال تعدو حدِّي ، وتأتي بأمواج كالجبال ، فإذا بلغت حدي ألبستها مذلة لطاعتي ، وخوفاً واعترافاً لأمري ، وإني معك ولن يصل إليكَ شئ معي ، وإني بعثتك إلى خلق عظيم من خَلقي لتُبَلِّغهم رسالاتي فتوجب لذلك أجر من اتَّبعكَ ولا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، انطلق إلي قومك فقم فيهم وقل لهم : إن الله قد ذكركم بصلاح آبائكم فلذلك استبقاكم يا معشر أبناء الأنبياء ، وكيف وجد آباؤكم مغبة طاعتي وكيف وجدتم مغبة معصيتي ، وهل وجدوا أحداً عصاني فسعد بمعصيتي ، وهل علموا أحداً أطاعني فَشقِي بطاعتي ، إن الدواب إذا ذكرت أوطانها الصالحة نزعت إليها ، وإن هؤلاء القوم رتعوا في مُرُوج الهلكة وتركوا الأمر الذي أكرمت به آباءهم وابتغوا الكرامة من غير وجهها .

فأما أحبارهم ورهبانهم ، فاتخذوا عبادي خَولاً يتعبدونهم ويعملون فيهم بغير كتابى حتى أجهلوهم أمري وأنسَوْهم ذكرى وسنتي ، وغرُّوهم عني فَدَان لهم عبادي بالطاعة التي لا تُبتغي إلا لي فهم يطيعونهم في معصيتي .

وأما ملوكهم وأمراؤهم ، فبطروا نعمتي وأمِنُوا مكري ، وغرَّتهم الدنيا حتى نبذوا كتابي ونسوا عهدي ، فهم يُحَرِّفون كتابي ويفترون على رسلي جرأة منهم عليَّ وغرةً بي ، فسبحان جلالي وعلو مكاني وعظمة شأني ، هل ينبغي أن

يكون لي شريك في ملكي ، وهل ينبغي لبشر أن يُطاع في معصيتي ، وهل ينبغي لي أن أخلق عباداً أجعلهم أرباباً من دوني أو آذن لأحد بالطاعة لأحد وهي لا تنبغي لأحد إلا لي ،

وأما قراؤهم وفقهاؤهم فيدرسون ما يتخيرون ، فينقادون للملوك فيتابعونهم على البدع التي يبتدعون في ديني ، ويطيعونهم في معصيتي ، ويوفون لهم بالعهود الناقضة لعهدي ، فهم جهلة بما يعلمون ، لا ينتفعون بشيء مما علموا من كتابي .

وأما أولاد النبيين فمقهورون ومفتونون ، يخوضون مع الخائضين ، يتمنون مثل نصري آباءهم ، والكرامة التي أكرمتهم بها ، ويزعمون أنه لا أحد أولى بذلك منهم بغير صدق منهم ولا تفكر ، ولا يذكرون كيف كان صَبْرُ آباءهم ، وكيف كان جهدهم في أمري حين اغترَّ المُغْتَرُّون وكيف بذلوا أنفسهم ودماءهم فصبروا وصدقوا حتى عز أمري وظهر ديني ، فتأنيت هؤلاء القوم لعلهم يستحيون مني ويرجعون فتطوّلت عليهم وصفحت عنهم ، فأكثرت ومددت لهم في العمر وأعذرت لهم لعلهم يتذكرون ، وكل ذلك أمطر عليهم السماء ، وأنبت لهم الأرض ، وألبسهم العافية ، وأظهرهم على العدو ، ولا يزدادون إلا طغياناً وبعداً مني .. فحتَّى مَتَى هذا ؟ .

أبي يسخرون ، أم بي يتحرشون ، أم إياي يخادعون ، أم عليّ يجترئون ؟؟

فإني أقسم بعزتي لأتيحن عليهم فتنة يتحير فيها الحكيم ويضل فيها رأي ذوي الرأي وحكمة الحكيم ، ثم لأسلطن عليهم جباراً قاسياً عاتياً ألبسهَ الهيبة وأنزع من قلبه الرأفة والرحمة ، وآليت أن يتبعه عدد وسواد مثل اللَّيل المظلم ، له فيه عساكر مثل قطع السحاب ، ومواكب مثل العجاج ، وكأن خفيق راياته طيران النسور ، وحمل فرسانه كسرب العقبان ، يعيدون العمران خراباً ، والقرى وحشة ، ويعيثون فى الأرض فساداً ، ويُتبِّرون ما علوا تتبيراً . قاسية قلوبهم لا يكترثون ولا يرقبون ولا يرحمون ولا يبصرون ولا يسمعون يجولون في الأسواق بأصوات مرتفعة مثل زئير الأسد تقشعر من هيبته الجلود ، وتطيش من

سمعها الأحلام بألسنة لا يفقهونها ، ووجوه ظاهر عليها المنكر لا يعرفونها ، فوعزتي لأعطِّلَنَّ بيوتهم من كتبي وقدسي ، ولأُخْلِيَنَّ مجالسهم من حديثها ودروسها ، ولأوحشَنَّ مساجدهم من عمَّارها وزوّارها ، الذين كانوا يتزينون بعمارتها لغيري ، ويتهجدون فيها ويتعبدون لكسب الدنيا بالدين ، ويتفقهون فيها لغير الدين ، ويتعلمون فيها لغير العمل ، لأبدلن ملوكها بالعز الذل ، وبالأمن الخوف ، وبالغنى الفقر ، وبالنعمة الجوع ، وبطول العافية والرخاء ألوان البلاء ، وبلباس الديباج والحرير مدارع الوبر والعباء ، وبالأرواح الطيبة والأدهان جيف القتلى ، وبلباس التيجان أطواق الحديد والسلاسل والأغلال ، ثم لأعيدن فيهم بعد القصور الواسعة والحصون الحصينة الخراب ، وبعد البروج المشيدة مساكن السباع ، وبعد صهيل الخيل عواء الذئاب ، وبعد ضوء السراج دخان الحريق ، وبعد الأنس الوحشة والقفار ، ثم لأبدلن نساءها بالأسورة الأغلال ، وبقلائد الدر والياقوت سلاسل الحديد ، وبألوان الطيب والأدهان النَّقْع والغبار ، وبالمشي على الزرابي عبور الأسواق والأنهار والخبب إلى الليل في بطون الأسواق ، وبالخدور والسُتُور الحُسُور عن الوجوه والسُوق والأسفار والأرواح السموم ، ثم لأدوسنَّهم بألوان العذاب حتى لو كان الكائن منهم في حالق لوصل ذلك إليه ، إني إنما أكرم من أكرمني ، وإنما أهين من هان عليه أمري ، ثم لآمرن السماء خلال ذلك فلتكونن عليهم طبقاً من حديد ، ولآمرن الأرض فلتكونن سبيكة من نحاس ، فلا سماء تُمطر ولا أرض تُنبت ، فإن أمطرت خلال ذلك شيئاً سلّطت عليهم الآفة ، فإن خلص منه شئ نزعت منه البركة ، وإن دعوني لم أجبهم ، وإن سألوني لم أعطهم ، وإن بكوا لم أرحمهم ، وإن تضرعوا إليَّ صرفت وجهي عنهم ، وإن قالوا : اللّهم أنت الذي ابتدأتنا وآباءنا من قبلنا برحمتك وكرامتك ، وذلك بأنك اخترتنا لنفسك وجعلت فينا نبوتك وكتابك ومساجدك ، ثم مكنت لنا في البلاد واستخلفتنا فيها ، وربيتنا وآباءنا من قبلنا بنعمتك صغاراً ، وحفظتنا وإياهم برحمتك كباراً ، فأنت أوفى المنعمين ، وإن غيَّرنا ، ولا تبدّل وإن بدّلنا ، وأن تتم فضلك ومنّك وطَوْلك وإحسانك ، فإن

قالوا ذلك قلت لهم : إني أبتدئ عبادي برحمتي ونعمتي ، فإن قبلوا أتممت ، وإن استزادوا زدت ، وإن شكروا ضاعفت ، وإن غَيَّروا غيَّرت ، وإذا غيرت غضبت ، وإذا غضبت عذبت ، وليس يقوم شئ بغضبي » .

* * *

• **خراب بيت المقدس :**

قال كعب : فقال أرميا : بوجهك أصبحت أتعلم بين يديك ، وهل ينبغي ذلك لي وأنا أذل وأضعف من أن ينبغي لي أن أتكلم بين يديك ، ولكن برحمتك أبقيتني لهذا اليوم ، وليس أحد أحق أن يخاف هذا العذاب وهذا الوعيد مني بما رضيت به مني طولاً ، والإقامة في دار الخائفين وهم يعصونك حولي بغير نكر ولا تغيير مني ، فأن تعذبني فبذنبي ، وإن ترحمني فذلك ظني بك .

ثم قال : يارب .. سبحانك وبحمدك وتباركت ربنا وتعاليت ، أتهلك هذه القرية وما حولها وهي مساكن أنبيائك ومنزل وحيك ؟ يارب .. سبحانك وبحمدك وتباركت ربنا وتعاليت ، لمخرب هذا المسجد وما حوله من المساجد ومن البيوت التي رُفِعَتْ لذكرك . يارب .. سبحانك وبحمدك وتباركت وتعاليت ، لمقتل هذه الأمة وعذابك إياهم وهم من ولد إبراهيم خليلك وأمة موسى نجيك وقوم داوود صفيك . يارب .. أي القري تأمن عقوبتك بعدُ ، وأي العباد يأمنون سطوتك بعد ولد خليلك إبراهيم وأمة نجيك موسى وقوم خليفتك داوود ، تسلط عليهم عبدة النيران .

قال اللّه تعالى : « يا أرميا .. من عصاني فلا يستنكر نقمتي فإني إنما أكرمت هؤلاء القوم على طاعتي ، ولو أنهم عصوني لأنزلتهم دار العاصين إلا أن أتداركهم برحمتي » .

قال أرميا : يارب .. اتخذت إبراهيم خليلاً وحفظتنا به ، وموسى قربْتَه نجياً ، فنسألك أن تحفظنا ولا تتخطفنا ولا تُسَلط علينا عدواناً . فأوحى اللّه إليه : « يا أرميا .. إني قدستك في بطن أمك ، وأخرتك إلى هذا اليوم ، فلو أن

قومك حفظوا اليتامى والأرامل والمساكين وابن السبيل ، لكنت الداعم لهم وكانوا عندي بمنزلة جنة ناعم شجرها طاهر ماؤها ، ولا يغور ماؤها ولا تبور ثمارها ولا تنقطع ، ولكن سأشكو إليك بني إسرائيل ، إني كنت لهم بمنزلة الراعي الشفيق أُجَنِّبهُم كل قحط وكل عسرة ، وأنبع بهم الخصب حتى صاروا كباشاً ينطح بعضها بعضاً ، فياويلهمَ ، إنما أكرم من أكرمني وأهين من هان عليه أمري ، إن من كان قبل هؤلاء القوم من القرون يستخفون بمعصيتي ، وإن هؤلاء القوم يتبرعون بمعصيتي تبرعاً فيظهرونها في المساجد والأسواق وعلى رؤوس الجبال وظلال الأشجار ، حتى عَجَّت السماء إليَّ منهم ، وعجَّت الأرض والجبال ، ونفرت منها الوحوش بأطراف الأرض وأقاصيها ، وفي كل ذلك لا ينتهون ولا ينتفعون بما علموا من الكتاب » .

فلما بلَّغهم أرميا رسالة ربهم وسمعوا ما فيها من الوعيد والعذاب عصوه وكذبوه واتهموه ، وقالوا : كذبت وأعظمت على الله الفرية ، فتزعم أن الله معطل أرضه ومساجده من كتابه وعبادته وتوحيده ، فمن يعبده حين لا يبقى له في الأرض عابد ولا مسجد ولا كتاب ، لقد أعظمت الفرية على الله واعتراك الجنون ، فأخذوه وقيدوه وسجنوه ، فعند ذلك بعث الله عليهم بختنصر فأقبل يسير بجنوده حتى نزل بساحتهم ثم حاصرهم ، فكان كما قال تعالى : ﴿ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ﴾ [1] .

قال : فلما طال بهم الحصر نزلوا على حكمه ففتحوا الأبواب وتخللوا الأزقة ، وذلك قوله : ﴿ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ﴾ ، وحكم فيهم حكم الجاهلية وبطش الجبارين ، فقتل منهم الثلث وسبى الثلث ، وترك الزمنى والشيوخ والعجائز ، ثم وطئهم بالخيل ، وهدم بيت المقدس ، وساق الصبيان ، وأوقف النساء في الأسواق حاسرات ، وقتل المقاتلة وخرَّب الحصون وهدم المساجد وحرق التوراة ، وسأل عن دانيال الذي كان قد كتب له الكتاب فوجده

(١) الإسراء : ٥

قد مات وأخرج أهل بيته الكتاب إليه ، وكان فيهم دانيال بن حزقيل الأصغر وميثائيل وعزرائيل وميخائيل ، فأمضى لهم ذلك الكتاب ، وكان دانيال بن حزقيل خلفاً من دانيال الأكبر ، ودخل بختنصر بجنوده بيت المقدس ووطىء الشام كلها وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم ، فلما فرغ منها انصرف راجعاً وحمل الأموال التي كانت بها وساق السبايا فبلغ معه عدة صبيانهم من أبناء الأحبار والملوك تسعين ألف غلام ، وقذف الكناسات في بيت المقدس وذبح فيه الخنازير ، وكان عدد الغلمان سبعة آلاف غلام من بيت داوود ، وأحد عشر ألفاً من سبط يوسف بن يعقوب وأخيه بنيامين ، وثمانية آلاف من سبط إيشي بن يعقوب ، وأربعة عشر ألفاً من سبط زبالون ونفتالي ابني يعقوب ، وأربعة عشر ألفاً من سبط دان بن يعقوب ، وثمانية آلاف من سبط يستاخر بن يعقوب ، وألفين من سبط زبالون بن يعقوب ، وأربعة آلاف من سبط روبيل ولاوي ، وإثني عشر ألفاً من سائر بني إسرائيل ، وانطلق حتى قدم أرض بابل .

قال إسحاق بن بشر : قال وهب بن مُنَبِّه : فلما فعل ما فعل قيل له : كان لهم صاحب يحذرهم ما أصابهم ويصفك وخبَرَك لهم ويخبرهم أنك تقتل مقاتلتهم وتُسْبِي ذراريهم وتهدم مساجدهم وتحرق كنائسهم ، فكذَّبوه واتهموه وضربوه وقيدوه وحبسوه ، فأمر بختنصر فأخرج أرميا من السجن فقال له : أكنت تحذر هؤلاء القوم ما أصابهم ؟ قال : نعم . قال : فإني علمت ذلك . قال : أرسلني الله إليهم فكذَّبوني . قال : كذَّبوك وضربوك وسجنوك ؟ . قال : نعم . قال : بئس القوم قوم كذَّبوا نبيهم وكذَّبوا رسالة ربهم ، فهل لك أن تلحق بي فأكرمك وأواسيك ، وإن أحببت أن تقيم في بلادك فقد أمَّنتك . قال له أرميا : إني لم أزل في أمان الله منذ كنت لم أخرج منه ساعة قط ، ولو أن بني إسرائيل لم يخرجوا منه لم يخافوك ولا غيرك ، ولم يكن لك عليهم سلطان ، فلما سمع بختنصر هذا القول منه تركه ، فأقام أرميا مكانه بأرض إيليا .

وهذا سياق غريب وفيه حكم ومواعظ وأشياء مليحة ، وفيه غرابة من جهة التعريب .

وقال هشام بن محمد بن السائب الكلبي : كان بختنصر أفضى بهذا لما بين الأهواز إلى الروم للملك على الفرس ، وهو لهراسب ، وكان قد بنى مدينة بلخ التي تلقب بالخنساء ، وقاتل الترك وألجأهم إلى أضيق الأماكن ، وبعث بختنصر لقتال بني إسرائيل بالشام ، فلما قدم الشام صالحه أهل دمشق ، وقد قيل : إن الذي بعث بختنصر إنما هو بهمن ملك الفرس بعد بشتاسب بن لهراسب ، وذلك لتعدي بني إسرائيل على رسله إليهم .

وقد روى ابن جرير عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب عن سليمان بن بلال عن يحيى بن سعيد الأنصاري عن سعيد بن المسيب : أن بختنصر لما قدم دمشق وجد بها دماً يغلي على كبا - يعني القمامة - فسألهم : ما هذا الدم ؟ فقالوا : أدركنا آباءنا على هذا ، وكلما ظهر عليه الكبا ظهر . قال : فقتل على ذلك سبعين ألفاً من المسلمين وغيرهم فسكن ، وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن المسيِّب ، وقد تقدَّم من كلام الحافظ ابن عساكر ما يدل على أن هذا دم يحيى بن زكريا ، وهذا لا يصح لأن يحيى بن زكريا بعد بختنصر بمدة ، والظاهر أن هذا دم نبي متقدم أو دم لبعض الصالحين أو من شاء الله ممن الله أعلم به .

قال هشام بن الكلبي : قدم بختنصر بيت المقدس فصالحه ملكها وكان من آل داوود وصانعه عن بني إسرائيل وأخذ منه بختنصر رهائن ورجع ، فلما بلغ طبرية بلغه أن بني إسرائيل ثاروا على ملكهم فقتلوه لأجل أنه صالحه ، فضرب رقاب من معه من الرهائن ورجع إليهم فأخذ المدينة عنوة وقتل المقاتلة وسبى الذرية .

قال : وبلغنا أنه وجد في السجن أرميا النبي فأخرجه وقصَّ عليه ما كان من أمره إياهم وتحذيره لهم عن ذلك فكذَّبوه وسجنوه . فقال بختنصر : بئس القوم قوم عصوا رسول الله ، وخلّى سبيله وأحسن إليه ، واجتمع إليه من بقي من ضعفاء بني إسرائيل . فقالوا : إنا قد أسأنا وظلمنا ، ونحن نتوب إلى الله عز وجل مما صنعنا ، فادع الله أن يقبل توبتنا . فدعا ربه فأوحى الله إليه أنه غير

فاعل ، فإن كانوا صادقين فليقيموا معك بهذه البلدة ، فأخبرهم ما أمره الله تعالى به .

فقالوا : كيف نقيم بهذه البلدة ، وقد خربت ، وقد غضب الله على أهلها فأبوا أن يقيموا .

قال ابن الكلبي : ومن ذلك الزمان تفرّقت بنو إسرائيل في البلاد ، فنزلت طائفة منهم الحجاز ، وطائفة يثرب ، وطائفة وادي القرى ، وذهبت شرذمة منهم إلى مصر ، فكتب بختنصر إلى ملكها يطلب منه من شَرَدَ مِنْهُم إليه فأبى عليه ، فركب في جيشه فقاتله وقهره وغلبه وسَبَى ذراريهم ، ثم ركب إلى بلاد المغرب حتى بلغ أقصى تلك الناحية . قال : ثم انصرف بِسَبْى كثير من أرض المغرب ومصر وأهل بيت المقدس وأرض فلسطين والأردن ، وفي السبى دانيال ، والظاهر أن دانيال - المشارإليه والذي وقع في السبى - هو دانيال الأصغر لا الأكبر على ما ذكره وهب بن مُنَبِّه .

* * *

• دانيال عليه السلام وذكر شئ من قصصه وأخباره :

لما قدم بختنصر بيت المقدس وصالحه ملكها على رهائن ، وما وصل طبرية حتى وصل إلى علمه أن بني إسرائيل ثاروا على ذلك الملك الذي صانع بختنصر من أجلهم فقتلوه ، فقضى على من عنده من الرهائن ورجع إليهم واستولى عنوة على المدينة بعد أن قتل المقاتلة وسبى الذرية ، وفي خلال حركته هذه وجد أرميا في السجن شقاً منهم لعصا الطاعة عليه فأخرجه ، ولما خرج التف حوله من بقى من ضعفاء بني إسرائيل ، ومع أنهم اعتذروا عما وقع منهم بالنسبة إليه فما لبثوا أن خالفوا أمر ربه الذي بلّغهم إياه فأبوا أن يقيموا ببيت المقدس وقالوا : كيف نسكن مدينة خربة ؟ . فغضب الله عليهم لمخالفة أوامره وعدم انصياعهم لرسوله عليه السلام ، ومن ذلك الزمن تفرّقوا في البلاد ، ولم يقف أمر بختنصر

عند بيت المقدس ، بل ظلت حركته تسير في طريقها إلي بلاد أخرى ، وقد كان من بين من تفرقوا دانيال ، وقد وقع في يده .

ولهذه المناسبة يجدر بنا أن نتحدث عن هذا النبي عليه السلام ، وذكر شئ من أخباره .

قال ابن أبي الدنيا : حدثنا أحمد بن عبد الأعلى الشيباني . قال : إن لم أكن سمعته من شعيب بن صفوان ، فحدثني بعض أصحابنا عنه عن الأجلح الكندي عن عبد الله بن أبي الهذيل قال : ضرب بختنصر أسدين فألقاهما في جب ، وجاء بدانيال فألقاه عليهما فلم يهيجاه ، فمكث ما شاء الله ثم اشتهى ما يشتهى الآدميون من الطعام والشراب ، فأوحى الله إلى أرميا وهو بالشام : أن أعدد طعاماً وشراباً لدانيال . فقال : يارب أنا بالأرض المقدسة ، ودانيال بأرض بابل من أرض العراق . فأوحى الله : أن أعدد ما أمرتك به فإنا سنرسل من يحملك ويحمل ما أعددت ، ففعل وأرسل إليه من حمله وما أعدَّه حتى وقف على رأس الجب . فقال دانيال : من هذا ؟ قال : أنا أرميا . فقال : ما جاء بك ؟ فقال : أرسلني إليك ربك . قال : وقد ذكرني ربي ؟ قال : نعم . فقال دانيال : الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره ، والحمد لله الذي يجيب من رجاه ، والحمد لله الذي من وثق به لم يكله إلى غيره ، والحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحساناً .

وقال يوسف بن بكير عن محمد بن إسحاق عن أبي خالد بن دينار : حدثنا أبو العالية قال : لما افتتحنا تَسْتُر وجدنا في مال بيت الهرمزان سريراً عليه رجل ميت عند رأسه مصحف فأخذنا المصحف ، فحملناه إلى عمر بن الخطاب فدعا له كعباً فَنسخَه بالعربية ، فأنا أول رجل من العرب قرأه ، قرأته مثل ما أقرأ القرآن هذا . فقلت لأبي العالية : ما كان فيه ؟ قال : سِيَرَكم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد . قلت : فما صنعتم بالرجل ؟ قال : حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة ، فلما كان باللَّيل دفناه وسوَّينا القبور كلها لنُعَميه على

الناس فلا ينبشونه . قلت : فما يرجون منه ؟ قال : كانت السماء إذا حُبستْ برزوا بسريره فيُمطرون . قلت : كم كنتم تظنون للرجل ؟ قال : رجل يقال له دانيال . قلت : منذ كم وجدتموه قد مات ؟ قال : منذ ثلاثمائة سنة . قلت : ما تَغَيَّر منه شيء ؟ . قال : إلا شعيرات من قفاه . إن لحوم الأنبياء لا تُبليها الأرض ولا تأكلها السباع . وهذا إسناد صحيح إلى أبي العالية . ولكن إن كان تاريخ وفاته محفوظاً من ثلاثمائة سنة فليس بنبي ، بل هو رجل صالح ، لأن عيسى ابن مريم ليس بينه وبين رسول الله ﷺ نبي بنص الحديث الذي أورده البخاري في هذا الشأن ، والفترة التي كانت بينهما أربعمائة سنة - وقيل ستمائة سنة ؛ وقيل ستمائة وعشرون سنة - وقد يكون تاريخ وفاته من ثمانمائة سنة ، وهو قريب من وقت دانيال إن كان كونه دانيال هو المطابق لما في نفس الأمر فإنه قد يكون رجلاً آخر ، إما من الأنبياء أو الصالحين ، ولكن قربت الظنون أنه دانيال لأن دانيال كان قد أخذه ملك الفرس فأقام عنده مسجوناً كما تقدم الكلام عن ذلك .

وقد قال أبو بكر بن أبي الدنيا في كتاب أحكام القبور : حدثنا أبو بلال محمد بن الحارث بن عبد الله بن أبي بُرْدَة بن أبي موسى الأشعري ، حدثنا أبو محمد القاسم بن عبد الله عن أبي الأشعث الأحمري قال : قال رسول الله ﷺ : « إن دانيال دعا ربه عز وجل أن تدفنه أمة محمد » ، فلما افتتح أبو موسى الأشعري تَسْتَر وجده في تابوت تضرب عروقه ووريده ، وقد كان رسول الله ﷺ قال : « من دَلَّ على دانيال فبشِّروه بالجنة » . فكان الذي دَلَّ عليه رجل يقال له « حرقوص » ، فكتب أبو موسى إلى عمر يخبره ، فكتب إليه عمر : ان ادفنه وابعث إليَّ حرقوص فإن النبي ﷺ بَشَّره بالجنة .

وهذا مرسل من هذا الوجه وفي كونه محفوظاً نظر .. والله أعلم .

ثم قال ابن أبي الدنيا : حدثنا أبو بلال ، حدثنا قاسم بن عبد الله عن عنبسة ابن سعيد - وكان عالماً - قال : وجد أبو موسى مع دنيال مصحفاً وجَرَّة فيها

ودك ودراهم وخاتمه ، فكتب أبو موسى بذلك إلى عمر فكتب إليه عمر : أما المصحف فابعث به إلينا ، وأما الودك فابعث إلينا منه ومُرْ من قبلَك من المسلمين يستشفون به ، واقسم الدراهم بينهم ، وأما الخاتم فقد نَفَّلناكَهُ .

وروى ابن أبي الدنيا من غير وجه : أن أبا موسى لما وجده وذكروا له أنه دانيال التزمه وعانقه وقبّله ، وكتب إلى عمر يذكر له أمره وأنه وجد عنده مالاً موضوعاً قريباً من عشرة آلاف درهم ، وكان من جاء اقترض منها فإن ردّها وإلا مرض ، وإن عنده ربعة [1] ، فأمر عمر بأن يُغَسَّل بماء وسدر ويُكَفَّن ويُدفن ويُخفى قبره فلا يعلم به أحد ، وأمر بالمال أن يُرَد إلى بيت المال ، وبالربعة فتُحمل إليه ، ونفَّله خاتمه .

وقال ابن أبي الدنيا : حدثني إبراهيم بن عبد الله ، حدثنا أحمد بن عمرو ابن السرح ، حدثنا ابن وهب عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال : رأيت في يد ابن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري خاتماً نقش فصه أسدان بينهما رجل يلحَسَان ذلك الرجل ، قال أبو بردة : وهذا خاتم ذلك الرجل الميت الذي زعم أهل هذه البلدة أنه دانيال أخذه أبو موسى يوم دفنه . قال أبو بُرْدة : فسأل أبو موسى علماء تلك القرية عن نقش ذلك الخاتم فقالوا : إن الملك الذي كان دانيال في سلطانه جاء المنجمون وأصحاب العلم فقالوا له : إن يُولد كذا وكذا غلام يعور [2] ملكك ويفسده ، فقال الملك : والله لا يبقي تلك الليلة غلام إلا قتلته ، إلا أنهم أخذوا دانيال فألقوه في أجمة الأسد ، فبات الأسد ولبؤته يلحسانه ولم يضرّاه ، فجاءت أمه فوجدتهما يلحسانه فنجاه الله بذلك حتى بلغ ما بلغ . قال أبو بردة : قال أبو موسى : قال علماء تلك القرية : فنقش دانيال صورته وصورة الأسدين يلحسانه في فصّ خاتمه لئلا ينسى نعمة الله عليه (في ذلك إسناد حسن) .

يُستخلص من ذلك أننا إنما نتحدث عن دانيال عليه السلام فإن الروايات قد دلّت على ذلك . . والله أعلم .

* * *

---

(١) الربعة : الصندوق .

(٢) يعور : يذهب به أو يتلفه .

● عمارة بيت المقدس والمسجد الأقصى :

تحدثنا عما آل إليه بيت المقدس من تخريب بختنصر وجنوده ، ويهمنا أن نتكلم عن أنه سبحانه وتعالى لم يدع بيوته خراباً بل تفضّل فعمد إلى عمارتها ، فقد اجتمع الملأ من بني إسرائيل بعد تفرقهم في بقاع الأرض وشعابها عدة سنين ونزلوا بالشام كما أمروا بذلك . يوحى بعمارة بيت المقدس ما جاء في قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِى هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ، فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ، قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ، قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ، وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ، وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) .

قال هشام بن الكلبي : ثم أوحى الله تعالى إلى أرميا عليه السلام - فيما بلغني - إني عامر بيت المقدس فاخرج إليها فانزلها . فخرج حتى قدمها وهي خراب فقال في نفسه : سبحان الله ، أمرني الله أن أنزل هذه البلدة وأخبرني أنه عامرها ، فمتى يعمرها ومتى يحييها الله بعد موتها ؟!

ثم وضع رأسه فنام ومعه حماره وسلة من طعام ، فمكث في نومه سبعين سنة حتى هلك بختنصر والملك الذي فوقه واسمه « لهراسب » وكان ملكه مائة وعشرين سنة وقام بعده ولده بشتاسب بن لهراسب ، وكان موت بختنصر في دولته ، فبلغه عن بلاد الشام أنها خراب وأن السباع قد كثرت في أرض فلسطين ، فلم يبق بها أحد من الإنس ، فنادى في بني إسرائيل وقد كانوا بأرض بابل حينئذ :

---

(١) البقرة : ٢٥٩ .

أن من شاء أن يرجع إلى الشام فليرجع ، وملك عليهم رجلاً من آلي داوود وأمره أن يُعَمِّر بيت المقدس ويبني مسجدها ، فرجعوا فعمروها ، وفتح الله لأرميا عينيه ، فنظر إلى المدينة كيف تُبنى وكيف تُعَمَّر ، ومكث في نومه ذلك حتى تمت له مائة سنة ، ثم بعثه الله وهو لا يظن أنه نام أكثر من ساعة ، وقد عهد المدينة خراباً ، فلما نظر إليها عامرة آهلة بالسكان قال : ﴿ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

ثم أقام بنو إسرائيل بها ، وردّ الله عليهم أمرهم فمكثوا كذلك حتى غلبت عليهم الروم في زمن ملوك الطوائف ، وبعد ظهور النصارى عليهم ، لم يكن لهم جماعة ، ولم يقم لهم سلطان . حكى ذلك ابن جرير في تاريخه عنهم ، وذكر ابن جرير عن لهراسب : أنه كان ملكاً عادلا يسوس مملكته على قدم العدل والمساواة ، وظل كذلك حتى دانت له العباد والبلاد والملوك والقوّاد ، وقد كان سديد الرأي في عمارة الأمصار والأنهار والمعاقل وغيرها مما يتصل بحياة الإنسانية ونظام العمران ، ولما ضعف عن تدبير المملكة وإدارة شئونها كما ينبغي ، وذلك بعد مائة سنة ونيف ، نزل عن الملك لولده بشتاسب ، وقد ظهر في زمنه وعهده دين المجوسية ، وذلك أن رجلاً اسمه زرادشت كان قد صحب أرميا عليه السلام ، فأغضبه فدعا عليه أرميا فبرص زرادشت ، فذهب فلحق بأرض آذربيجان وصحب بشتاسب فَلَقَّنه دين المجوسية الذي اخترعه من تلقاء نفسه ، فقبله منه بشتاسب وحَمَلَ الناس عليه ، وقهرهم وظل ينشره فيهم ، وقد أبى كثير من الناس قبول ذلك الدين ، فقتل منهم خلقاً كثيراً ممن أبى الدخول فيه .

ثم كان بعد بشتاسب بهْمَن بن بشتاسب وهو من ملوك الفرس المشهورين والأبطال المذكورين ، وقد عَمَّرَ دهراً طويلاً قبَّحه الله .

وقد ذكر ابن جرير أن المقصود من قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ أن المار على هذه القرية هو أرميا عليه السلام ، قاله وهب بن مُنَبِّه وعبد الله بن عبيد بن عمير وغيرهما ، وهو قوي من

حيث السياق المتقدم . وقد رُوِيَ عن عليّ وعبد الله بن سلام وابن عباس والحسن وقتادة والسُّدي وسليمان بن بُردة وغيرهم : أنه عُزير ، وهذا أشهر عند كثير من السَلَف والخَلَف ، ولذلك فإنّا نتحدث عنه لهذا التقدير .

* * *

• قصة عُزير وهل كان نبياً ؟

نستعرض في هذا البحث قصة عُزير ، وما يدور حول نبوّته فيها ، وما يجري في هذا الشأن من خلاف بين العلماء ، وما انتهى إليه هذا الموضوع .. حتى نضع صورة صادقة تحت أنظار أولي الألباب ، والذين يهمهم الوقوف على الحقائق والاهتداء إليها .

قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر : هو عُزَير بن جروة . ويقال : ابن سوريق ابن عديا بن أيوب بن درزنا بن عرى بن تقي بن أسبوع بن فنحاص بن العازر بن هارون بن عمران ، ويقال عُزير بن سروخا . جاء في بعض الآثار أن قبره بدمشق . ثم ساق من طريق أبي القاسم البغوي عن داوود بن عمرو عن حبّان بن عليّ عن محمد بن كريب عن أبيه عن ابن عباس مرفوعاً : لا أدري العُزير بيع أم لا ؟ ولا أدري أكان عُزَيرٌ نبياً أم لا ؟ . .

ثم رواه من حديث مؤمل بن الحسن عن محمد بن إسحاق السِّجْزِي عن عبد الرزاق عن معمر عن ابن أبي زؤيب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه .

وقال إسحاق بن بشر عن سعيد عن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن عبد الله بن سلام : أن عُزيراً هو العبد الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه .

وقال إسحاق بن بشر : أنبأنا سعيد بن بشير عن قتادة عن كعب وسعيد بن أبي عَرُوبة عن قتادة عن الحسن ومقاتل وجويريه عن الضحّاك عن ابن عباس وعبد الله بن إسماعيل السُّدي عن أبيه عن مجاهد عن ابن عباس وإدريس عن

جده وهب بن مُنَبِّه . قال إسحاق : كل هؤلاء حدثوني عن حديث عُزير وزاد بعضهم علي بعض . قالوا بإسنادهم : إن عُزَيراً كان عبداً صالحاً حكيماً ، خرج ذات يوم إلى ضيعة له ليتعاهدها ، فلما انصرف أتى إلي خربة حين قامت الظهيرة وأصابه الحر ودخل الخربة وهو على حماره ، فنزل عن حماره ومعه سلة فيها تين ، وأخرى فيها عنب . فنزل يستظل بظل تلك الخربة ، وأخرج قصعة معه فاعتصر من العنب الذي كان معه في السلة ، ثم أخرج خبزاً يابساً معه فألقاه في تلك السلّة في العصير ليبتل ليأكله ، ثم استلقى على قفاه ، وأسند رجليه إلى الحائط ، فنظر سقف تلك البيوت ورأى ما فيها وهى قائمة على عروشها ، وقد باد أهلها عظاماً بالية فقال : ﴿ أَنَّي يُحْيِى هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ ، فلم يَشُك أن الله يحييها ولكن قالها ، فبعث الله ملك الموت فقبض الله روحه ﴿ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ﴾ .

فلما أتت عليه مائة عام ، وكانت فيما بين ذلك في بني إسرائيل أمور وأحداث . قال : فبعث الله إلي عُزير مَلَكاً فخلق قلبه ليعقل قلبُه وعينيه لينظر بهما فيعقل كيف يحيي الله الموتى ، ثم ركّب خلقَه وهو ينظر ، ثم كسى عظامه اللحم والشعر والجلد ، ثم نفخ فيه الروح - كل ذلك وهو يرى ويعقل - فاستوى جالساً فقال له الملك ﴿ كَمْ لَبِثْتَ ﴾ ؟ قَالَ : ﴿ لَبِثْتُ يَوْمَاً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ . وذلك أنه كان لبث صدْرَ النهار عند الظهيرة وبُعث في آخر النهار والشمس لم تغب . فقال : أو بعض يوم ولم يتم لي يوم ، فقال له الملك : ﴿ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ ﴾ . يعني الطعام الخبز اليابس وشرابه العصير الذي كان اعتصره في السلة ، فإذا هما علي حالهما لم يتغير العصير والخبز يابس فذلك قوله : ﴿ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ يعنى لم يتغير ، وكذلك التين والعنب ، غَضٌ لم يتغير شئ من حالهما فكأنه أنكر في قلبه فقال له الملك : أنكرتُ ما قلتُ لك . انظر إلى حمارك . فنظر إلى حماره قد بُليت

عظامه ، وصارت نخرة ، فنادى الملك عظام الحمار فأجابت وأقبلت من كل ناحية حتى ركّبه الملك وعُزير ينظر إليه ، فألبسها العروق والعصب ، ثم كساها اللّحم ، ثم أنبت عليها الجلد والشعر ، ثم نفخ فيه الملك ، فقام الحمار رافعاً رأسه وأذنيه إلى السماء ناهقاً ، يظن القيامة قد قامت ، فذلك قوله : ﴿ وانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ، وانْظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمَاً ﴾ . يعني : وانظر إلى عظام حمارك كيف يركب بعضها بعضاً في أوصالها حتى إذا صارت عظاماً مصوّراً حماراً بلا لحم ، ثم انظر كيف نكسوها لحماً ، فلما تبين له مدى قدرة الله قال : ﴿ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ على إحياء الموتى وغير الإحياء .

قال : فركب حماره حتى أتى محلته ، فأنكره الناس ، وأنكر هو الناس ، وأنكر منزله فانطلق على وهم منه حتى وصل إلى منزله ، فإذا هو بعجوز عمياء مقعدة قد مرَّ عليها مائة وعشرين سنة ، كانت هذه العجوز أمَةً لهم ، وقد تركها عُزير وهي ابنة عشرين سنة ، وطبعاً كانت تعرفه في ذلك الوقت ، فلما أصابها الكبر أصابها ضعف العقل والزمانة . فقال لها عُزير : يا هذه ، أهذا منزل عُزَير ؟ قالت : نعم هذا منزل عُزَير . فبكت وقالت : ما رأيت أحداً من كذا وكذا سنة ، يذكر عُزيراً وقد نسيه الناس وخفي عليهم . قال : فإني أنا عُزَير كان الله أماتني مائة سنة ، ثم بعثني . قالت : سبحان الله ، فإن عُزَيراً قد فقدناه منذ مائة سنة ، فلم نسمع له بذكر ! قال : فإني أنا عُزَير . قالت : فإن عُزيراً رجل مستجاب الدعوة ، يدعو للمريض ولصاحب البلاء بالعافية والشفاء ، فادع الله أن يرد عليَّ بصري حتى أراك ، فإن كنت عُزَيراً عرفتُك ، فدعا ربه ومسح بيديه على عينيها فأبصرت وصحَتَا وأخذ بيدها وقال : قومي بإذن الله ، فأطلق الله رجليها فقامت صحيحة كأنما نشطت من عقال ، فنظرت فقالت : أشهد أنك عُزَير .

وانطلقت إلى محلة بني إسرائيل وهم في أنديتهم ومجالسهم وابن لعُزير كان موجوداً بينهم ، وهو شيخ كبير يُقَدَّر سنه بمائة وثماني عشر سنة ، وبنى بنيه شيوخ كذلك ، وكلهم موجودون بالمجلس ، فنادتهم فقالت : هذا عُزير قد جاءكم . فكذّبوها . فقالت : أنا فلانة مولاتكم دعا لي ربه فردّ عليّ بصري وأطلق رجليّ وزعم أن الله أماته مائة سنة ثم بعثه ، فنهض الناس فأقبلوا إليه ، فنظروا إليه فقال ابنه : كان لأبي شامة سوداء بين كتفيه ، فكشف على كتفيه فإذا هو عُزير لأنهم وجدوا العلامة التي أشار إليها ابنه موجودة . فقالت بنو إسرائيل : فإنه لم يكن فينا أحد حفظ التوراة فيما حُدِّثنا غير عُزير ، وقد حرق بختنصر التوراة ولم يبق منها شئ إلا ما حفظت الرجال فاكتبها لنا ، وكان أبوه « سروخا » قد دفن التوراة أيام بختنصّر في موضع لم يعرفه أحد غير عُزير ، فانطلق بهم إلى ذلك الموضع فحفره فاستخرج التوراة ، وكان قد عَفِنَ الورق ودرس الكتاب .

* * *

• تجديد التوراة بعد أن درست :

ثم جلس عُزير في ظل شجرة وبنو إسرائيل حوله فجَدَّد لهم التوراة ونزل من السماء شهابان حتى دخلا جوفه فتذكر التوراة فجدَّدها لبني إسرائيل ، ومن هنا قالت اليهود : عُزير ابن الله ، للذى كان من أمر الشهابين وتجديده التوراة وقيامه بأمر بني إسرائيل ، وقد كان جدَّد لهم التوراة بأرض السواد بدير حِزْقيل ، ولا يفوتنا أن نضع أمام الناس اسم القرية التي مات فيها للتاريخ والعلم ، فقد كانت اسمها « سيراباذ » .

قال ابن عباس : فكان عُزير كما قال الله تعالى : ﴿ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ يعني لبني إسرائيل ، وذلك أنه كان يجلس مع بنيه وهم شيوخ وهو شاب لأنه مات وهو ابن أربعين سنة . فبعثه الله شاباً كهيئته التي مات عليها . وأحياه على تلك الصورة . قال ابن عباس : بُعث بعد بختنصر ، وكذلك قال الحسن .

وقد أنشد أبو حاتم السجستاني في معنى ما قاله ابن عباس هذه الأبيات:

واسودَّ رأسٍ شابَ من قبله ابنُهُ ... ومن قَبله ابنُ ابنه فهو أكبرُ

يَرَى ابنَه شيخاً يدبُّ على عصا ... ولحيتُهُ سَوداء والرأسُ أشقرُ

ولا لابنه حَيْلٌ ولا فَضْلُ قوةٍ ... يقومُ كما يمشي الصبيُّ فيعثُر

يعدّ ابنه في الناس تسعينَ حجةً ... وعشرينَ لا يجري ولا يَتَبخْتَرُ

وعُمْرُ أبيهِ أربَعُون أمرّها ... ولابنَ ابنَه تِسعُون في الناسِ غبَّرُ

فما هُو في المعقولِ إن كنتَ دارياً ... وإن كنتَ لا تدْري فبالجَهْلِ تُعذَرُ

* * *

• عُزير نبي من أنبياء بني إسرائيل :

لقد قام خلاف بين العلماء فيما يتعلق بنبوة عُزير كما أشرنا إلى ذلك ، وقام عليه التقدير ، وقد انتهت مراحل البحث في هذا الموضوع إلى أن المشهور أن عُزيراً نبي من أنبياء بني إسرائيل ، وأنه كان فيما بين داوود وسليمان وبين زكريا ويحيى ، وأنه لما لم يبق في بني إسرائيل من يحفظ التوراة ألهمه الله حفظها ، فسردها على بنى إسرائيل كما قال وهب بن منبه ، أمر الله مَلَكاً فنزل بغرفة من نور فقذفها في عُزير فنسخ التوراة حرفاً بحرف حتى فرغ منها .

وقد روى عبد الرزاق وقتيبة بن سعيد عن جعفر بن سليمان عن أبي عمران الجَوْني عن نَوْف البكالي قال : قال عُزير فيما يناجي ربه : يارب . . تخلق خلقاً فتضل من تشاء وتهدي من تشاء . فقيل له : أعرض عن هذا ، فعاد فقيل له : لتُعرِضَنَّ عن هذا أو لأمْحُوَنَّ اسمك من الأنبياء ، إني لا أسئل عما أفعل وهم يُسئلون ، وهذا يقتضي وقوع ما توّعد عليه لو عاد فما مُحيي .

وقد روى الجماعة سوى الترمذي من حديث يونس بن يزيد عن

سعيد وأبي سلمة عن أبي هريرة ، وكذلك رواه شعيب عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فلدغته نملة فأمر بجهازه ، فأُخرج من تحتها ثم أمر بها فأحرقت بالنار ، فأوحى الله إليه : فهلاَّ نملة واحدة . فروى إسحاق بن بشر عن ابن جريج عن عبدالوهاب بن مجاهد عن أبيه : أنه عُزير . وكذا رُوِي عن ابن عباس والحسن البصري : أنه عُزير .

وهذا ما استخلصناه ورجَّحناه من الروايات التي اطلعنا عليها واتجه بحثنا إليها وتقديرنا لها . . والله أعلم .

* * *

قصة زكريا وابنه يحيى عليهما السلام

يهمني أن أبين في هذا المجال وأشير في مقدمة هذه القصة إلى ما ينبغي ذكره وما توحي به ، حتى نكون على هدي وبينة منها وذكرى لأولي الألباب الذين يهمهم أن يقفوا على آيات الله في خلقه وأسرار قدرته في عباده ، فإن زكريا عليه السلام قد بلغ سبعين سنة ولم يولد له . وقد أحب أن تلد امرأته ليكون ذكرى لهما بعد وفاتهما ووارثاً يرثهما بعد مماتهما . فحقق الله هذا التمني واستجاب ذلك الأمل ، وقد ذكر القرآن الكريم تطورات حياته عليه السلام ومراحل أطواره فقال عز من قائل : ﴿ كَهيعَصَ * ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيًّا ﴾ [1] . رُوِيَ عن ابن عباس أن قوله : ﴿ كهيعَصَ ﴾ ثناء من الله تعالى على نفسه ، - فالكاف معناها أنه كاف لأمور عباده ، والهاء هاد لهم ، والياء حكيم ، والعين عالِم ، والصاد صادق - وقوله : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ﴾ أي هذا المتلو من القرآن ذكر رحمة ربك ﴿ عَبْدَهُ ﴾ مفعول الذكر وقوله : ﴿ زَكَرِيًّا ﴾ عطف بيان . وقوله : ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾[2] أمر عظيم الشأن لأن نداءه بهذه الصورة أبعد عن الرياء وأدخل في الحسبة ولهذا فسَّره الحسن بأنه نداء لا رياء فيه . وقيل : إنه أسره من مواليه الذين خافهم وأخفى عليهم ذلك الطلب لكبره وشيخوخته ، وقيل : إنه إنما خفت صوته لضعفه وهرمه وكبر سنه . ويكون على هذا قد أتى بأقصى ما يقدر عليه من الصوت فكان خفياً لنهاية كبره .

وقد شرع في حكاية ندائه قائلاً : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾... إلى قوله : ﴿ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ [3] إشعاراً بما قدمه وأتى به من المساءلة .

---

(١) مريم : ١ - ٢ (٢) مريم : ٣ (٣) مريم : ٤ - ٦

قال علماء المعاني : في الآية لطائف وأصل الكلام : « ياربي قد شخت » فإن الشيخوخة تعطي صورة صادقة عن ضعف البدن ، وشيب الرأس ، وقد أجمل في ذلك ثم إنه ترك الإجمال إلى التفصيل لتوخي زيادة التقرير ، ثم سلك بعد ذلك طريق الإجمال والتفصيل ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ، وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً * يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً * قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً * قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ، قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً ﴾(١) .

﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً * يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً * وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً * وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً * وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً ﴾(٢) .

وقد جاء ذكر زكريا عليه السلام في مناسبة أخرى تتصل بالسيدة مريم رضى الله عنها ، فقال تعالى : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ، كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً ، قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا ، قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ * هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ، قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ، إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ * فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً

---

(١) مريم : ٤ - ١٠ .   (٢) مريم : ١١ - ١٥ .

بكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ، قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ * قَالَ رَبِّ اجْعَل لِي آيَةً * قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً ، وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴾[1] .

ثم انظر بعين البصيرة والتفكير إلى ما جاء في سورة الأنبياء من الاستجابة الباهرة لسؤاله وإعطائه مسألته عليه السلام إذ يقول جل شأنه : ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ، وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [2] .

وقد أقام الله تعالى أروع برهان وأصدق دليل على أنه استجاب لزكريا وحقق له ما سأل إذ يقول : ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ ، كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [3] .

أما عن نسبه عليه السلام فإنَّا نذكر ما جاء في شأن هذا العقد ، فقد قال الحافظ أبوالقاسم بن عساكر في كتابه التاريخ المشهور الحافل بالسير العظيمة : زكريا بن برخيا ، ويقال : زكريا بن لدن بن مسلم بن صدوق بن حشبان بن داوود ابن سليمان بن مسلم بن صديقة بن برخيا بن بلعاطة بن ناحور بن شلوم بن بهفاشاط بن إينامن بن رحبعام بن سليمان بن داوود ، أبو يحيى النبي من بني إسرائيل عليه السلام .

دخل البَثْنِيَّةَ من أعمال دمشق في طلب ابنه يحيى ، وقيل إنه كان بدمشق حين قتل ابنه يحيى ، والله أعلم بالحقائق . واعتماداً على ما تحت أيدينا من مراجع فقد ذكرنا نسبه المشار إليه ، وقد قيل غير ذلك في نسبه .

---

(١) آل عمران : ٣٧ - ٤١ (٢) الأنبياء : ٨٩ - ٩٠ . (٣) الأنعام : ٨٥

وقد أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقص علي الناس خبر زكريا عليه السلام ، وما كان من أمره حين تفضّل الله عليه فوهبه ولداً علي الكبر ، وقد كانت امرأته مع ذلك عاقراً ومُسِّنَةً حتى لا ييأس أحد من فضل الله ورحمته ، ولا يقنط من كرمه ومدى فضله وسابغ رحمته ، وقد قال قتادة في تفسير قوله تعالى : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً ﴾ : إن الله يعلم القلب النقي ويسمع الصوت الخفي . وقال بعض السلف : قام من الليل فنادي ربه مناداة أسرَّها عمن كان حاضراً عنده مخافته فقال : يارب يارب يارب ! فقال الله : لبيك لبيك لبيبك ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ العَظْمُ مِنِّي واشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً ﴾ ، ومعنى : ﴿ إِنِّي وَهَنَ العَظْمُ مِنِّي ﴾ : ضعف وخار من الكبر وقوله : ﴿ واشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً ﴾ أي : غلب على سواد الشعر شيبُه .

يذكر عليه السلام أن الضعف قد استولى عليه ظاهراً وباطناً واستحوذ على جميع جوارحه ، وهكذا قال زكريا عليه السلام : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ العَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً ﴾ ، وقوله : ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً ﴾ أي : ما عودتني فيما أسألك إلا الإجابة . وكان الباعث له على هذه المسألة أنه لما كفل مريم بنت عمران ، وكان كلما دخل عليها محرابها وجد عندها فاكهة في غير إبّانها ولا في أوانها ، وهذه من كرامات الأولياء ، فعلم أن الرازق الشئ في غير أوانه قادر على أن يرزقه ولداً وإن كان كبير السن ، ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ، قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ، إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ المَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً ﴾ قيل : المراد بالموالي « العصبة » وكأنه خاف تصرفهم بعده في بني اسرائيل بما لا يوافق شرع الله وطاعته فسأل ربه وجود ولد من صلبه يكون براً تقياً مرضياً ، ولهذا قال : ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ﴾ أي : من عندك بحولك وقوتك ﴿ وَلِيّاً يَرِثُنِي ﴾ أي : في النبوة والحكم في بني إسرائيل ﴿ وَيَرِثُ مِنْ آلِ

يَعقُوبَ ، وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً ﴾ ؛ يعني كما كان آباؤه وأسلافه من ذرية يعقوب أنبياء فاجعله مثلهم في الكرامة التي أكرمتهم بها من النبوة والوحي ، وليس المراد في هذا وراثة المال كما زعم ذلك من زعمه من الشيعة ووافقهم ابن جرير ههنا وحكاه عن أبي صالح من السَلَف ، نعم إنه ليس المراد وراثة المال لوجوه :

الأول : ما أشرنا إليه عند قوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ﴾[1] أي في النبوة والملك ، لما ذكر في الحديث المتفق عليه بين العلماء المروي في الصحاح والمسانيد والسنن وغيرها من طرق عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال : « لا نُوَرَّث ، ما تركناه فهو صدقة » فهذا نص على أن رسول الله ﷺ لا يُوَرَّث . ولهذا منع الصدِّيق أن يصرف ما كان يختص به في حياته إلى أحد من وراثه الذين لولا هذا النص لصُرِف إليهم وهم ابنته فاطمة وأزواجه التسع وعمه العباس رضى الله عنهم ، وقد احتج عليهم الصدِّيق في منعه إياهم بهذا الحديث ووافقه على روايته عن رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعليّ بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وأبو هريرة وآخرون رضي الله عنهم .

الثاني : أن الترمذي رواه بلفظ يعم سائر الأنبياء : « نحن معاشر الأنبياء لا نُوَرَّث » وصححه .

الثالث : أن الدنيا كانت أحقر عند الأنبياء من أن يكنزوا لها أو يلتفتوا إليها أو يهمهم أمرها حتى يسألوا الأولاد ليحوزوها ويتملكوها بعدهم .

الرابع : أن زكريا عليه السلام كان نجاراً يعمل بيده ويأكل من كسبها ، كما كان داوود عليه السلام يأكل من كسب يده ، والغالب ولا سيما من مثل حال الأنبياء أنه لا يُجهد نفسه في العمل إجهاداً يستفضل منه مالاً لا يكون ذخيرة له يَخْلفه من بعده وهذا أمر بَيِّن واضح لكل من تأمله وتدبَّره وتفهَّمه .

---

(١) النمل : ١٦ .

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد - يعني ابن هارون - أنبأنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أبي رافع عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « كان زكريا نجاراً » . وهكذا رواه مسلم وابن ماجه من غير وجه عن حماد بن سلمة به ، وقوله : ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾(١) وهذا مفسر بقوله : ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾(٢) .

فلما بُشّرَ بالولد وتحقق البشارة شرع يستعلم على وجه التعجب وجود الولد له والحالة هذه ، ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ أي : كيف يُوجد ولد من شيخ كبير ، قيل كان عمره إذ ذاك سبعاً وسبعين سنة ، وربما كان أسَنّ من ذلك ﴿ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا ﴾ يعني بذلك : وقد كانت امرأتي في حال شبيبتها عاقراً لا تلد ، ويشبه هذا كلام الخليل إذ يقول : ﴿ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾(٣) ، وقد قيل على وجه التعجب من سارة كذلك : ﴿ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ * إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾(٤) .

وهكذا أجيب زكريا عليه السلام إذ قال له المَلَكُ الذي يُوحى إليه بأمر ربه : ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أي : هذا سهل يسير عليه تعالى ، ويقيم البرهان على مدى يسره وسهولته عنده تعالى بقوله : ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ أي قدّرته ، والمعنى : أني أوجدتك ولم تكن شيئاً مذكوراً أفلا يُوجد منك ولداً وإن كنت شيخاً .

وقد أقام الدليل على مدى قدرته وتحقق ما وعده به إذ يوحي بذلك قوله : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾(٥) .

---

(١) مريم : ٧ . (٢) آل عمران : ٣٩ . (٣) الحجر : ٥٤ .
(٤) هود : ٧٢ - ٧٣ . (٥) الأنبياء : ٩٠ .

ومعنى إصلاح زوجته أنها كانت لا تحيض فحاضت ، وقد سأل ربه أن يجعل له علامة يعرف منها ذلك ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴾ أي : اجعل لي علامة على وقت تعلق مني المرأة بهذا الولد المبشر به ﴿ قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً ﴾ يقول جل شأنه : علامة ذلك أن يعتريك سَكْتٌ لا تنطق معه ثلاثة أيام إلا رمزاً . وأنت في ذلك سَوِيُّ الخَلْقِ صحيح المزاج معتدل البِنْيَة ، وقد أمر بكثرة الذكر في هذه الحال بالقلب واستحضار ذلك المعنى بفؤاده وذلك يكون بالعَشِيِّ والإبكار .

فلما بُشِّر بهذه البشارة خرج مسروراً بها على قومه من المحراب ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ .

والوحي ههنا هو الأمر الخفي إما بكتابة كما قاله مجاهد والسدي ، أو إشارة كما قاله مجاهد أيضاً ووهب وقتادة . قال مجاهد وعكرمة ووهب والسدِّي وقتادة : اعتُقِلَ لسانه من غير مرض . وقال ابن زيد : كان يقرأ وَيُسَبِّحْ ولكن لا يستطيع كلام أحد .

يُخبر سبحانه وتعالى عن وجود الولد وتحققه وفق البشارة الإلهية التي أوحى بها لأبيه زكريا عليه السلام كما يفيد جل شأنه أنه علَّمه الكتاب والحكمة وهو لا يزال صغيراً وفي حال صباه ، يُرشد إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ، وَآتَيْنَاهُ الحُكْمَ صَبِيّاً ﴾ .

قال عبد الله بن المبارك : قال معمر : قال الصبيان ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب . فقال : ما للعب خلقنا . قال : وذلك قوله : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الحُكْمَ صَبِيّاً ﴾ .

وأما قوله : ﴿ وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا ﴾ فروى ابن جرير عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس : أنه قال : « ما أدري ما الحنان » . وعن ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك : ﴿ وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا ﴾ أي : رحمة من عندنا رحمنا بها زكريا ، فوهبنا له هذا الولد وقوله : ﴿ وَزَكَاةً ﴾ فالمراد بالزكاة طهارة الخلق وسلامته من النقائص والرذائل ، وأما التقوى فهي عبارة عن امتثال

أوامره ، وترك زواجره ونواهيه والقيام بطاعة الله ، فقد وصفه الله تعالى بهذا الوصف العظيم وذلك بقوله : ﴿ وَكَانَ تَقِيّاً ﴾ .

ثم ذكر تعالى عنه أوصافاً عظيمة الشأن خطيرة التقدير ، نعم إنه ذكر برّه بوالديه وطاعته لهما أمراً ونهياً وترك عقوقهما قولاً وفعلاً فقال : ﴿ وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِياً ﴾ . وقوله : ﴿ وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً ﴾ يقول تعالى : وأمان من الله له يوم وُلِدَ من أن يناله الشيطان من السوء بما ينال به بني آدم ، وذلك أنه رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « كل بني آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب إلا ما كان من يحيى بن زكريا »، فهذه الأوقات الثلاثة التي جاءت في هذه الآية هي أشد ما تكون على الإنسان ، فإنه ينتقل في كل مرحلة منها من عالم إلى آخر فيفقد الأول بعد ما كان قد ألِفَهُ وعرفه ويصير إلى الآخر ولا يدري ما بين يديه ، ولهذا يَسْتَهِلُّ صارخاً إذا خرج من بين الأحشاء وفارق لينها وَضَمَّها ، وينتقل إلى هذه الدار ليكابد همومها ويكافح متاعبها وآلامها .

وكذلك إذا فارق هذه الدار وانتقل إلى عالم البرزخ ، وصار بعد الدور والقصور إلى عرصات الأموات ومساكن القبور ، فهذه المراحل الثلاث أشق مراحل هذه الحياة الأخرى ، وقد أمّنَهُ الله منها بقوله : ﴿ وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً ﴾ . ذلك فضل الله عليه ورحمته عليه والله ذو الفضل العظيم . وأما قوله : ﴿ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ فقيل : المراد بالحَصُور الذي لا يأتي النساء . وقيل غير ذلك وهو أشبه بقوله : ﴿ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ، إنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا عثمان ، حدثنا حماد ، أنبأنا عليّ بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ قال : « ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ أو هَمَّ بخطيئة ليس يحيى بن زكريا ، وما ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » .

قيل : عليّ بن زيد بن جُدْعان تكلم فيه غير واحد من الأئمة ، وهو منكر الحديث . وقد رواه ابن خزيمة والدارقطني من طريق أبي عاصم العبَّاداني عن عليّ بن زيد بن جُدْعان به مطولاً ، ثم قال ابن خزيمة : وليس على شرطنا .

* * *

• موت زكريا عليه السلام :

وقد اختلفت الرواية عن وهب بن منبه . هل مات زكريا عليه السلام موتاً أو قُتِلَ قتلاً على روايتين ، فروي عبد المنعم بن إدريس بن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه أنه قال : هرب من قومه فدخل شجرة ، فجاءوا فوضعوا المنشار عليهما فلما وصل المنشار إلى أضلاعه أنَّ فأوحى الله إليه : لئن لم يسكن أنينك لأقلبنَّ الأرض ومن عليها ، فَسَكَنَ أنينه حتى قُطع باثنتين .

وقد رُوِيَ هذا في حديث مرفوع سنورده بعد ذلك إن شاء الله .

وقد روي إسحاق بن بشر عن إدريس بن سنان عن وهب أنه قال : الذي انصدعت له الشجرة هو شَعْيَا ، فأما زكريا فمات موتاً ، والله أعلم بما كان وما يكون .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفَّان ، أنبأنا أبو خلف موسى بن خلف - وكان يُعَدُّ من البُدَلاء - حدثنا يحيى بن أبي كثير عن زيد بن سلام عن جده ممطور عن الحارث الأشعري أن النبي ﷺ قال : « إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن ، وكاد أن يبطئ فقال له عيسى عليه السلام : إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن ، وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن ، فإما أن تُبَلِّغَهُنَّ وإما أن أُبَلِّغَهُنَّ ، فقال : ياأخي ، إني أخشى إن سبقتني أن أعذب أو يُخسف بي . قال : فجمع يحيى بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقعد علي الشرف فحمد الله

وأثنى عليه ، ثم قال : إن الله عز وجل أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن ، وآمركم أن تعملوا بهن ، وأولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، فإن مثل ذلك مثل من اشترى عبداً من خالص ماله بَورِقٍ أو ذهبٍ فجعل يعمل ويؤدي غَلّته إلى غير سيده فأيكم يَسُرُّه أن يكون عبده كذلك ، وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً .

وآمركم بالصلاة ، فإن الله ينصب وَجْهَهُ قبلَ عبده ما لم يلتفت فإذا صليتم فلا تلتفتوا .

وآمركم بالصيام ، فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صُرَّةٌ من مِسك في عصابة كلهم يجد ريح المسك ، وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك .

وآمركم بالصدقة ، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسَرَهُ العدوُّ فشدُّوا يده إلى عنقه وقدّموه ليضربوا عنقه . فقال : هل لكم أن أفتدي نفسي منكم ؟ فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فَكَّ نفسه .

وآمركم بذكر الله عز وجل كثيراً ، فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً في إثره فأتى حصناً حصيناً فتحصَّنَ فيه ، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله عز وجل .

قال : وقال رسول الله ﷺ : « وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن : بالجماعة والسَّمع والطاعة والهجرة والجهاد في سبيل الله ، فإن من خرج عن الجماعة قيد شبر فقد خَلَعَ رِبقَ الإسلام من عنقه إلا أن يرجع ، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من حَثَا جهنم ، قالوا : يارسول الله ، وإن صام وصلّى ؟ قال : وإن صام وصلّى وزعم أنه مسلم ، ادعوا المسلمين بأسمائهم بما سماهم الله عز وجل المسلمين المؤمنين عباد الله عز وجل » .

وهكذا رواه أبو يعلى عن هُدْبة بن خالد عن أبان بن يزيد عن يحيى بن كثير به ، وكذلك رواه الترمذي من حديث أبي داوود الطيالسي وموسى بن إسماعيل كلاهما عن أبان بن يزيد بن العطار به ، ورواه ابن ماجه عن هشام بن عمار عن

محمد بن شعيب بن سابور عن معاوية بن سلام عن أخيه زيد بن سلام عن أبي سلام عن الحارث الأشعري به ، ورواه الحاكم من طريق مروان بن محمد الطاطري عن معاوية بن سلام عن أخيه به . ثم قال : تَفَرَّدَ به مروان الطاطري عن معاوية بن سلام وليس كما قال . ورواه الطبراني عن محمد بن عبدة عن أبي توبة الربيع بن نافع عن معاوية بن سلام عن أبي سلام عن الحارث الأشعري فذكر نحوه ، فسقط ذكر زيد بن سلام عن أبي سلام عن الحارث الأشعري ، فذكر نحو هذه الرواية ، ثم روى الحافظ بن عساكر من طريق عبد الله بن أبي جعفر الرازي عن أبيه عن الربيع بن أنس . قال : ذُكِر لنا عن أصحاب رسول الله ﷺ فيما سمعوا من علماء بني إسرائيل أن يحيى بن زكريا أرسل بخمس كلمات ؛ وذكر نحو ما تقدم .

* * *

• بم كان يأنس ويأكل يحيى بن زكريا ومدى خوفه من الله ؟

وقد ذكروا أن يحيى عليه السلام كان كثير الانفراد من الناس ، إنما كان يأنس إلى البراري ويأكل من ورق الأشجار ويرد ماء الأنهار ويتغذى بالجراد في بعض الأحيان ، ويقول : من أنعَمُ منك يا يحيى !!

وروى ابن عساكر : أن أبويه خرجا في تطلبه فوجداه عند بحيرة الأردن ، فلما اجتمعا به أبكاهما بكاءً شديداً لما هو فيه من العبادة والخوف من الله عز وجل .

وقال ابن وهب عن مالك عن حميد بن قيس عن مجاهد . قال : كان طعام يحيى بن زكريا العنب ، وإنه كان ليبكي من خشية الله حتى لو كان القَارُ على عينيه لخَرَقَهُ .

وقال محمد بن يحيى الذهلي : حدثنا اللَّيث ، حدثني عقيل عن ابن شهاب قال : جلستُ يوماً إلى أبي إدريس الخولاني وهو يقص . فقال : ألا أخبركم

بمن كان أطيب الناس طعاماً ؟ فلما رأى الناس قد نظروا إليه . قال : إنَّ يحيى ابن زكريا كان أطيب الناس طعاماً ، إنما كان يأكل مع الوحش كراهة أن يُخالط الناس في معايشهم .

وقال ابن المبارك عن وهيب بن الورد . قال : فقد ذكريا ابنه يحيى ثلاثة أيام فخرج يلتمسه في البرية . فإذا هو قد احتفر قبراً وأقام فيه يبكي على نفسه، فقال : يا بني ، أنا أطلبك من ثلاثة أيام وأنت في قبر قد احتفرته نائم تبكي فيـه ؟ فقال : يا أبت ؛ ألست أنت أخبرتني أن بين الجنة والنار مفازة لا تقطع إلا بدموع البكائين . فقال له : إبك يا بني ، فبكيا جميعاً . وهكذا حكاه وهب بن منبه ومجاهد بنحوه .

وروى ابن عساكر عنه أنه قال : إن أهل الجنة لا ينامون للذة ما هم فيه من النعيم ، فكذا ينبغي للصدِّيقين أن لا يناموا لما في قلوبهم من نعيم المحبة لله عز وجل ، ثم قال : كم بين النعيمين وكم بينهما .

وذكروا أنه كان كثير البكاء حتى أثَّر البكاء في خديه من كثرة دموعه .

* * *

• الأسباب التي استدعت قتل يحيى عليه السلام :

لقد ذكروا في قتله أسباباً ، ثم قالوا : من أشهرها أن بعض ملوك ذلك الزمان بدمشق كان يريد أن يتزوج ببعض محارمه ، أو من لا يحل له تزوجها ، فنهاه يحيى عليه السلام عن ذلك ، فبقي في نفسها منه ، فلما كان بينها وبين الملك ما يحب منها استوهبت منه دم يحيى فوهبه إليها فبعثت إليه من قتله ، وجاء برأسه ودمه في طِسْتٍ إلى عندها ، فيقال : إنها هلكت من فورها وساعتها .

وقيل : بل أحبته امرأة ذلك الملك وراسلته فأبى عليها ، فلما يئست منه تحيَّلت في أن استوهبته من الملك فتمنَّع عليها الملك ثم أجابها إلى ذلك فبعث من قتله وأحضر إليها رأسه ودمه في طِسْتٍ .

وقد ورد معناه في حديث رواه إسحاق بن بشر في كتابه « المبتدأ » حيث قال: أنبأنا يعقوب الكوفي عن عمرو بن ميمون عن أبيه عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ ليلة أسرى به رأى زكريا في السماء فسلّم عليه . وقال له : يا أبا يحيى ، خبرني عن قتلك كيف كان ، ولم قتلك بنو إسرائيل ؟ قال : يا محمد أخبرك أن يحيى كان خير أهل زمانه ، وكان أجملهم وأصبحهم وجهاً ، وكان كما قال الله تعالى : ﴿ وَسَيِّداً وَحَصُوراً ﴾ ، وكان لا يحتاج إلى النساء فهوته امرأة ملك بني إسرائيل وكانت بَغيِّة ، فأرسلت إليه وعصمه الله وامتنع يحيى وأبى عليها فأجمعت على قتل يحيى ، ولهم عيد يجتمعون في كل عام وكانت سُنّة الملك أن يَعِدَ ولا يُخلف ولا يكذب ، قال : فخرج الملك إلى العيد فقامت امرأته فشيعته وكان بها معجباً ولم تكن تفعله فيما مضى ، فلما أن شيعته قال الملك : سليني فما سألتني شيئاً إلا أعطيتك . قالت : أريد دم يحيى بن زكريا ، قال لها : سليني غيره . قالت : هو ذاك . قال : هو لك . قال : فبعثت الجلاوزة إلى يحيى وهو في محرابه يُصَلّي وأنا إلى جانبه أصلي . قال : فذُبح في طِسْتٍ وحُمل رأسه ودمه إليها . قال : فقال رسول الله ﷺ : فما بلغ من صبرك ؟ قال : ما انفلتُ من صلاتي .

قال : فلما حُمِل رأسه إليها فوضع بين يديها ولما أمْسَوْا خسف الله بالملك وأهل بيته وحشمه ، فلما أصبحوا قالت بنو إسرائيل : قد غضب إله زكريا لزكريا فتعالوْا حتى نغضب لملكنا فنقتل زكريا . قال : فخرجوا في طلبي ليقتلوني وجاءني النذير فهربت منهم وإبليس أمامهم يَدُلُّهم عليّ ، فلما تَخَوَّفتُ أن لا أعجزهم عرضت لي شجرة فنادتني وقالت : إليّ إليّ . وانصدعت لي ودخلت فيها .

قال : وجاء إبليس حتى أخذ بطرف ردائي والتأمت الشجرة وبقى طرف ردائي خارجاً من الشجرة وجاءت بنو إسرائيل فقال إبليس : أما رأيتموه دخل هذه الشجرة ؟ هذا طرف ردائه دخلها بسِحْره . فقالوا : نحرق هذه الشجرة . فقال إبليس : شُقُّوه بالمنشار شَقّاً . قال : فَشُقِقْتُ مع الشجرة بالمنشار .

قال له النبي ﷺ : هل وجدت له مُسّاً أو وجعاً ؟ قال : لا ، إنما وجدتْ ذلك الشجرة التي جعل الله روحى فيها . وقد قيل في هذا : إن إسناده غريب جداً وحديث عجيب ورفعه منكر ، وعلى كل حال ففيه ما يُنكر ، والذي قيل إن فيه ما يُنكر هو أنه لم يُر في شئ من أحاديث الإسراء ذكر شئ عن زكريا عليه السلام إلا في هذا الحديث ، وإنما المحفوظ في بعض ألفاظ الصحيح في حديث الإسراء : « فمررت بابني الخالة يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة » . فجاء على قول الجمهور كما هو ظاهر الحديث ؛ فإن أم يحيى « أشياع بنت عمران » أخت « مريم بنت عمران » وقيل : بل « أشياع » وهى امرأة زكريا أم يحيى هى أخت « حنة » امرأة عمران أم مريم ، فيكون يحيى ابن خالة مريم ، وهذا ما أمكن الوقوف عليه في هذا الشأن . والله تعالى أعلم .

ويتجه التقدير إلى أن ما جاء في هذا الحديث الذي قيل فيه : إن فيه ما يُنكر ، متفق مع الأسباب التي ذكرها المؤرخ في أول هذه الأسباب ، فإنه يجوز أن يكون نبينا ﷺ لما عرَج إلى السماء وجد زكريا وتحدَّث إليه ، ولكن هذا لم يرد في الأحاديث التي جاء ذكرها في الإسراء واطلع عليها ابن كثير .

* * *

● مقتل يحيى بن زكريا ، وهل كان بالمسجد الأقصى أم لا ؟

ثم إنه وقع اختلاف في مقتل يحيى بن زكريا هل كان بالمسجد الأقصى أو كان بغيره على قولين ، قال النووي عن الأعمش عن شمر بن عطية قال : قُتِلَ على الصخرة التي ببيت المقدس سبعون نبياً منهم يحيى بن زكريا عليه السلام .

وقال أبو عبيدة القاسم بن سلام : حدثنا عبد الله بن صالح عن اللَّيث عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيِّب قال : قدم بختنصرٌ دمشق فإذا هو بدم يحيى بن زكريا يغلي ، فسأل عنه فأخبروه ، فقتل على دمه سبعين ألفاً ، فسكن. وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن المسيِّب وهو يقتضي أنه قُتلَ بدمشق ، وأن بختنصرٌ كان بعد المسيح كما قاله عطاء والحسن البصري . والله بذلك أعلم .

وقد روى الحافظ ابن عساكر من طريق الوليد بن مسلم عن زيد بن وافد قال : رأيت رأس يحيى بن زكريا حين أرادوا بناء مسجد دمشق أُخرج من تحت ركن من أركان القبلة الذي يلي المحراب مما يلي الشرق ، فكانت البشرة والشعر على حاله لم يتغير . وفي رواية : كأنما قُتِلَ الساعة .

وذُكِرَ في بناء مسجد دمشق : أنه جُعِلَ تحت العمود المعروف بعمود السكاسكة .

وروى الحافظ ابن عساكر في « المستقصى في فضائل الأقصى » من طريق العباس بن صبح عن مروان عن سعيد بن عبدالعزيز عن قاسم مولى معاوية قال : كان ملك هذه المدينة – يريد دمشق – هداد بن هداد وكان قد زوّج ابنه بابنة أخته « أريل » ملكة صيدا ، وقد كان من جملة أملاكها سوق الملوك بدمشق وهو الصاغة العتيقة . قال : وكان قد حلف بطلاقها ثلاثاً ، ثم إنه أراد مراجعتها فاستُفتي يحيى بن زكريا فقال : لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره ، فحقدت عليه وسألت من الملك رأس يحيى بن زكريا وذلك بإشارة أمها ، فأبى عليها ثم أجابها إلى ذلك وبعث إليه وهو قائم يصلي بمسجد جيرون من أتاه برأسه في صينية فجعل الرأس يقول له : لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره . فأخذت المرأة الطبق فحملته على رأسها وأتت به أمها وهو يقول كذلك . فلما تمثلت بين يدي أمها خُسف بها إلى قدميها ثم إلى حقْوَيها ، وجعلت أمها تولول والجواري يصرخن ويلطُمْن وجوههن ثم خُسف بها إلى منكبيها ، فأمرت أمها السيَّاف أن يضرب عنقها لتتسلّى برأسها فَفعل . فلفظت الأرض جُثتها عند ذلك ووقعوا في الذل والفناء ، ولم يزل دم يحيى يفور حتى قدم بختنصَّر فقتل عليه خمسة وسبعين ألفاً .

قال سعيد بن عبد العزيز : وهي دم كل نبي ولم يزل يفور حتى وقف عنده أرْميا عليه السلام فقال : أيها الدم ، أفنيت بني إسرائيل فاسكن بإذن الله ، فسكَن فرُفِعَ السيف وهرب من هرب من أهل دمشق إلى بيت المقدس فتبعهم إليها فقتل خلقاً كثيراً لا يحْصَوْن كثَرة وسبَاَ منهم ثم رجع عنهم . والله أعلم .

* * *

قصة عيسى ابن مريم ، وامرأة عمران
ومريم ابنة عمران أم عيسى عليه السلام

قبل أن نتحدث عن قصة سيدنا عيسى عليه السلام والأحداث التي صحبته ، والآيات التي تجلّت في مراحل أطواره ، ودارت في مسيرة تطوراته ، ينبغي أن نتحدث عن امرأة عمران لاتصالها بجوهر الموضوع وارتباطها بأحداث وولادة مريم ، ثم نتكلم عن قصة مريم المليئة بالأحداث وعجائب الآيات والأسرار الربانية البالغة التقدير ، ثم نسير مع هذه التطورات والأحداث إلى روائع قصة سيدنا عيسى وعجائب تطوراتها وغرائب أطوارها .

فما من شك في أن الله تعالى اصطفى من آل عمران امرأة عمران التي وضعت مريم أم عيسى عليه السلام ، وقد سألت ربها أن يُعيذها وذُرِّيّتها من الشيطان الرجيم ، والمراد بالذُرِّية هنا عيسى عليه السلام ، فاستجاب الله دعوتها وحقّقَ آمالها ، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود يُولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخاً من نخسه إلا ابن مريم وأمه » ، ثم قال أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم : ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [1] فاستجاب الله دعاء أم مريمَ ، وإن لم يكن كذلك بَطلت الخصوصية بهما ولذلك سلك بها طريق السعادة .

وقد أتينا بهذه الكلمة الوجيزة من قصة امرأة عمران على سبيل الاستهلال ، إذ هي إشارة وجيزة فحسب ، والقصص إنما تستهدف عرضاً لجميع أطوارها وتطوراتها بقدر المستطاع حتى يمكن الوقوف على نواحي القضية التي يُراد الإهتداء إليها ، والإلمام بها ، وعلى هَدْيِ ما جاء في سورة آل عمران الذي يعتبر مبدأ لهذه القصص نسجلها ونستعرض آياتها تذكرة وعبرة لأُولي الألباب.

---

(١) آل عمران : ٣٦

فقد أنزل الله صدرها في الرد على النصارى الذين زعموا أن لله ولداً ، والآيات التي جاءت في هذا الشأن عبارة عن ثلاث وثمانين آية ، وكان قد قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ فجعلوا يذكرون ما هم عليه من الباطل من التثليث في الأقانيم ويدّعون بزعمهم أن الله ثالث ثلاثة وهم : الذات المقدسة ، وعيسى ، ومريم على اختلاف فرقهم ، فأنزل الله عز وجل صدر هذه السورة بيّن فيها أن عيسى عبدٌ من عباد الله خلقه وصوّره في الرحم كما خلق غيره من المخلوقات ، وأنه خلقه من غير أب كما خلق آدم من غير أب ولا أم . وقال له كن فكان ، سبحانه وتعالى ، وكما بيّن ذلك فقد بيّن أصل ميلاد أمه مريم وكيف كان من أمرها وكيف حملت بولدها عيسى ، وقد بسط ذلك أيضاً في سورة مريم ، فقال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي ، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى ، وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ، كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً ، قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا ، قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١) .

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ أي : اختارهم للنبوة على عالمي زمانهم ، واصطفى لهم دين الإسلام وفضّلهم بآيات ومميزات يمتازون بها عن سواهم ويفضلون بها غيرهم . فأما آدم فقد اختاره الله واصطفاه عن غيره بخمسة أشياء :

(١) آل عمران : ٣٣ - ٣٧ .

أولها : أنه خلقه بيده في أحسن صورة بقدرته .
والثاني : أنه علّمه الأسماء كلها .

والثالث : أمر الملائكة بأن تسجد له .

والرابع : أسكنه الجنة .

والخامس : جعله أبا البشر .

- واختار نوحاً بخمسة أشياء :

أولها : أنه جعله أبا البشر ، لأن الناس كلهم غرقوا وصار ذريته هم الباقين.

والثاني : أنه أطال عمره ويقال : « طوبى لمن طال عمره وحسن عمله ».
والثالث : أنه استجاب دعاءه على الكافرين والمؤمنين .

والرابع : أنه حمله على السفينة .

والخامس : أنه كان أول من نسخ الشرائع ، وكان قبل ذلك لم يحرم تزويج الخالات والعمّات .

- واختار إبراهيم خمسة أشياء :

أولها : أنه جعله أبا الأنبياء ، لأنه رُوِيَ أنه خرج من صلبه ألف نبي من زمانه إلى زمن النبي محمد ﷺ .

والثاني : أنه اتخذه خليلاً .

والثالث : أنه أنجاه من النار .

والرابع : أنه جعله إماماً للناس .

والخامس : أنه ابتلاه بالكلمات فوفّقه حتى أتمهن .

ثم قال تعالى : ﴿ وَآلَ عِمْرَانَ ﴾ فإن كان عمران أبا موسى وهارون فإنما اختارهما على العالمين ، حيث بعث على قومه المن والسلوى ، وذلك لم يكن لأحد من الأنبياء في العالم . وإن كان أبا مريم فإنه اصطفى له مريم بولادة عيسى بلا أب ، ولم يكن ذلك لأحد من العالمين ، وقوله : ﴿ عَلَى العَالَمِينَ ﴾ المراد والله أعلم : على عالمي زمانهم .

يذكر سبحانه وتعالى في تلك الآيات أنه اصطفى آدم عليه السلام والخُلَّص من ذريته المتبعين شرعه الملازمين طاعته ، ثم خَصَّصَ فقال : ﴿ وَآلَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ فدخل فيهم بنو إسماعيل ، ثم ذكر فضل هذا البيت الطاهر الطيب وهم : ﴿ آلَ عِمْرَانَ ﴾ والمراد بعمران هذا : والد مريم .

قال محمد بن إسحاق : هو عمران بن باشم بن أمون بن ميشا بن حزقيا بن أحريق بن موثم بن عزازيا بن أمصيا بن ياوش بن أحريهو بن يازم بن يهفاشاط ابن إيشا بن إيان بن رحبعام بن سليمان بن داوود .

وقال أبو القاسم بن عساكر : مريم بنت عمران بن ماثان بن العازر بن اليود بن أخنر بن صادوق بن عيازوز بن إلياقيم بن أيبود بن زريابيل بن شالتال بن يوحينا ابن برشا بن أمون بن ميشا بن حزقيا بن أحاز بن موثام بن عزريا بن يورام بن يوشافاط بن إيشا بن إيبا بن رحبعام بن سليمان بن داوود عليه السلام ، وفيه مخالفة لما ذكره محمد بن إسحاق في عقد ذلك النسب ، وربما يكون ابن عساكر على جانب كبير من الصواب . غير أن الذي لا خلاف فيه أنها من سلالة داوود عليه السلام ، وكان أبوها عمران صاحب صلاة بني إسرائيل في زمانه ، وكانت أمها وهي « حنة بنت فاقود بن قبيل » من العابدات ، وقد كان زكريا نبي ذلك الزمان زوج أخت مريم « أشياع » في قول الجمهور ، وقيل : زوج خالتها « أشياع » . والله أعلم .

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره أن أم مريم كانت لا تحبل ، فرأت يوماً طائراً يزق فرخاً له ، فاشتهت الولد فنذرت لله لئن ولدت لتجعلن ولدها مُحَرَّراً : أي حبيساً في بيت المقدس .

قالوا : فحاضت من فورها، فلما طهرت واقعها بعلها فحملت بمريم ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ فقولها: ﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى ﴾ والإناث لا يصلحن لخدمة بيت المقدس لأنهن عرضة لنزول الحيض بهن كما لا يصلحن لمخالطة الرجال ، وكانت ترجو أن يكون ذكراً ولذلك حرّرت . قال ابن عباس : إنما قالت هذا لأنه لم يكن يقبل في النذر إلا الذكور فقبل الله مريم ، ولما وضعتها لفّتها في خرقتها وأرسلت بها إلى المسجد ، ولهذا وفت بنذرها ، ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ لأنه تعالى لا يخفى عليه شئ ، فلم تقل امرأة عمران : واللهَ أعلم بما وَضَعْتُه على سبيل الإخبار، وإنما قالت على سبيل التعظيم والتنزيه لله تعالى لأن علم الله بكل شئ قد تقرر في نفس المؤمن لاسيما نفس امرأة عمران ، وهذا على ظن أنه من كلامها. وأما على قول الجمهور بأنه من كلام الله تعالى قد قُدِّم وتقديره أن يكون مؤخـــراً بعـد ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾، ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى ﴾ أرادت بكلامها هذا وقصدت أنها نذرت إذا ولدت ذكراً أن تهبه لخدمة المسجد أي : لخدمة مولاها ، وطاعة سيدها ، فلما وضعت أنثى اعتذرت لربها بأنها لا تصلح لخدمة المسجد لأنها عورة ، ولا يجوز اختلاط الرجال بالنساء في مثل هذه الأحوال ، ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا ﴾ أي : أحَصِّنُها وذُرِّيتها . والمراد بالذرية هنا كما قلنا : عيسى عليه السلام ، وهذا يدل على أن الذرية قد تُطلق ويراد بها الولد خاصة وقوله : ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ استُدلَ بذلك على تسمية المولود يوم يُولد . وكما ثبت في الصحيحين عن أنس في ذَهابه وأخيه إلى رسول الله ﷺ ، فحنَّك أخاه وسمَّاه عبد الله ، وجاء في حديث الحسن عن سَمُرة مرفوعاً : « كل غلام رهينةٌ بعقيقة تُذبح عنه يوم سابعه ويُسمى ويُحلق رأسه » . رواه أحمد وأهل السنن وصحَّحه الترمذي ، وجاء في بعض ألفاظه : « ويُدْعى » بدل « ويُسمى » وصحَّحه بعضهم .

وقولها : ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ . قد

استجيب لها في هذا كما تُقبِّل منها نذرها فقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن الزهري عن ابن المسيب عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « ما من مولود إلا والشيطان يمسّه حين يُولد فيستهل صارخاً من الشيطان إلا مريم وابنها » . ثم يقول أبو هريرة : واقرأوا إن شئتم : ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ أخرجاه من حديث عبدالرزاق ورواه ابن جرير عن أحمد بن الفرج عن بقية . عن عبد الله بن الزبيدي عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه .

وقال أحمد أيضاً : حدثنا اسماعيل بن عمر ، حدثنا ابن أبي ذؤيب عن عجلان مولى المُشْمعل عن النبي ﷺ قال : « كل مولود من بني آدم يمسّه الشيطان بأصبعه إلا مريم بنت عمران وابنها عيسى » .تفرد به من هذا الوجه ، ورواه مسلم عن أبي الطاهر عن ابن وهب عن عمر بن الحارث عن أبي يونس عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه .

وقوله : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ، كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً ، قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ * هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ، قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ، إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [(١)] .

فلما سألت ربها وقالت : ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ تفضل جل شأنه بالاستجابة إذ يقول : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً ﴾ أي : وجّهها توجيهاً صالحاً وسلك بها مسلكاً سعيداً ﴿ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً ﴾ سَوّى خَلقها في أحسن صورة وأروع تقويم ، وكانت تنبت في اليوم الواحد أعظم مما ينبت المولود في عام ، ثم زادها عناية ورعاية ، فكفلها زكريا بعد أن خرجت بها إلى المسجد فسلمتها إلى العبّاد والمقيمين به ، ولما دفعتها إليهم تنازعوا في أيهم يكفلها ، وكان زكريا بينهم

---

(١) آل عمران : ٣٧ - ٣٨ .

في ذلك الزمان ، فكفلها وقام بتربيتها على خير وجه وتولى رعايتها وحفظها والقيام بأمورها ، وتكفّل بضمها إليه وضمان مصالحها ، وألزم نفسه كفالتها ، وأوجب عليها دوام المحافظة والقيام بشئونها ، ومن شأن الكفيل أن يدخل على المكفول لرعاية شئونه ومصالحه . فكان كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقاً . وقد قيل : إن المحراب في اللّغة أكرم موضع في المجلس ، وفي الخبر أنها كانت في غرفة كان زكريا يصعد إليها بِسُلّم ليصل إليها . . روى أبو صالح عن ابن عباس قال : حملت امرأة عمران بعد ما أسنّت فنذرت ما في بطنها محرّراً فقال لها عمران : ويحك : ما صنعت ؟ أرأيت إن كانت أنثى ؟ ! فاغتما لذلك جميعاً ، فهلك عمران وحنّة حامل ، فولدت أنثى فتقبّلها الله بقبول حسن وكان لا يُحرَّر إلا الغلمان ، فكفلها زكريا وأخذ لها موضعاً ، فلما كبرت جعل لها محراباً لا يُرتقي إليه إلا بُسلّم واستأجر لها ظئراً وكان يُغلق عليها باب ، وكان لا يدخل عليها أحد إلا زكريا حتى كبرت ، وكانت إذا حاضت أخرجها إلى منزله فتكون عند خالتها (لأن امرأة زكريا كانت خالة لمريم فهي أخت لحنّة كما قاله الكلبي) ، وكان زكريا إذا دخل عليها يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء ، فقال : يا مريم ؛ أنّي لك هذا ؟ فقالت : هو من عند الله .

ولما رأى الحال على هذا الوضع طمع في الولد . وقال : إن الذي يأتيها بهذا قادر على أن يرزقني ولداً : أي إنه يقول لها من أين لك هذا ؟ ومن أي الجهات هو ؟ فقالت : من عند الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ، ﴿ هُنَالِكَ ﴾ أي : في ذلك الوقت ﴿ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ . فسأله سبحانه وتعالى : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ صالحة لا تحيد عن مراسم الدين وحدوده ﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ : أي إنك تستجيب لمن يسألك ويدعوك كما دل عليه قوله تعالى : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[1] والذرية

---

(١) غافر : ٦٠.

قد تُطلق على الجمع ، وقد تطلق على الواحد : ﴿ فَنَادَتْهُ المَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي المِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّداً وحَصُوراً وَنَبِياً مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١) ... إلى آخر ما جاء في قصتها التي سبق التحدث عنها .

* * *

• قصة مريم وعجائب أحداثها :

من الآيات التي جاءت بها الرسالة السماوية ذلك الحدث العظيم والأمر الخارق الذي تندهش له العقول وتتحير الألباب وتغوص في بحار من عجائب القدرة وتسبح في محيطات من معجزات القدر وروائع الأحداث ، وليس للعقول والأفهام إلا أن تستسلم وتقف عند هذه العجائب وتقر بجلال هذه الآيات وتعترف بالعجز عن إدراكها أو حتى عن ذرة منها ، وما جاء في قصة مريم من عبر وأحداث يُعَبِّر عما جاء في كل قصة من القصص وفي كل آية من الآيات ، فأعَدَّ الله مريم لهذا الأمر العظيم وهيأها لأكبر حادث تاريخي في هذه الحياة بعد حادث خلق آدم عليه السلام ، فاجتباها واصطفاها على نساء العالمين لذلك الأمر الجلل ، أما قصتها فإنه يوحى بها قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ المَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ العَالَمِينَ * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ * ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَاكُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِذْ قَالَتِ المَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ المُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ *

---

(١) آل عمران : ٣٩

قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ، قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَيُعَلِّمُهُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ * وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي المَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ، وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾[1] .

يقص علينا سبحانه وتعالى ويذكر أن الملائكة بشرت مريم باصطفاء الله لها من بين سائر نساء عالمي زمانها بأن اختارها لإيجاد ولد منها من غير أب ، وبشرتها كذلك بأنه يكون نبياً شريفاً : ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهْدِ وَكَهْلاً ﴾ أي : في صغره يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له . وكذلك في حال كهوليته ، فدلّ ذلك على أنه يبلغ الكهولة ويدعو إلى الله فيها ، وأمرت بكثرة العبادة والقنوت والسجود والركوع لتكون أهلاً لهذه الكرامة ولتقوم بشكر هذه النعمة ، وقد قيل : إنها كانت تقوم في الصلاة حتى تورمت قدماها رضي الله عنها ، ورحم أمها وأباها .

فقول الملائكة لها ﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ ﴾ أي : اختارك واجتباك ، ﴿ وَطَهَّرَكِ ﴾ من الأخلاق الرذيلة ، وأعطاك الصفات الجميلة ، ﴿ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ العَالَمِينَ ﴾ يحتمل أن يكون المراد من ذلك عالمي زمانها ، ونظير ذلك قوله تعالى لموسى عليه السلام : ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي ﴾[2] ، وقوله تعالى حكاية عن بني إسرائيل : ﴿ وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى العَالَمِينَ ﴾[3] ومعلوم أن إبراهيم عليه السلام أفضل من موسى ، وأن محمداً ﷺ أفضل منهما . وكذلك هذه الأمة أفضل

---

(١) آل عمران : ٤٢ – ٥١ . (٢) الأعراف : ١٤٤ . (٣) الدخان : ٣٢ .

من سائر الأمم وأكثر عدداً وأفضل علماً وأزكى عملاً من بني إسرائيل وغيرهم .
ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ العَالَمِينَ ﴾ ، للعموم فتكون أفضل نساء أهل الدنيا ممن كان قبلها أو جَدَّ بعدها . هذا هو مدى الاحتمال الثاني . وقد تحدثت في هذا الشأن أحاديث عدة ، وفيها ما يدل على أنها ليست بأفضل نساء العالمين على الإطلاق . ويؤكد هذا الرأي قوله تعالى : ﴿ مَا المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إلاَّ رَسولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِه الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صدِّيقَةٌ ﴾[1] ، كما يَرُدّ على من يزعم أنها نبية .

وقد جاء عن شعبه عن عمرو بن مُرَّة الهمداني عن أبي موسى الأشعري . قال : قال رسول الله ﷺ : « كَمُلَ من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » ، فإن هذا حديث كما ترى اتفق الشيخان على إخراجه. ولفظه يقتضى حَصْر الكمال في النساء في مريم وآسية . ولعل المراد بذلك أنهما كذلك في زمانهما فإن كلا منهما كفلت نبياً في حال صغره ، فآسية كفلت موسى ، ومريم كفلت ولدها عيسى ، وهذا لا ينفي كمال غيرهما في هذه الأمة كخديجة وفاطمة . فخديجة خدمت رسول الله ﷺ قبل البعثة خمسة عشر سنة ، وبعدها خدمته فوق عشر سنين . وأما فاطمة بنت رسول الله ﷺ فإنها خُصَّت بمزيد فضيلة على أخواتها ، لأنها أصيبت بوفاة رسول الله ﷺ وبقية أخواتها مِتْنَ في حياة رسول الله ﷺ ، وكان يحبها حباً يعظم عن الوصف لأنها بنت السيدة خديجة أول من بنى بها من النساء رضى الله عنها . وقد خففت من روعه كثيراً في أحداث عظيمة الخطر كبيرة التقدير .

وأما عائشة ؛ فإنها كانت أحب أزواج رسول الله ﷺ إليه ، ولم يتزوج بكراً غيرها ، ولا يُعرف في سائر نساء هذه الأمة ولا في غيرها أعلم منها. وقد غار الله لها حين قال لها أهل الإفك ما قالوا. فأنزل الله براءتها من فوق سبع سماوات .

---

(١) المائدة : ٧٥

وقد عَمرت بعد رسول الله ﷺ قريباً من خمسين سنة تُبَلِّغ عنه القرآن والسُّنة وتُفتي المسلمين وتُصلح بين المختلفين ، وهي أشرف أُمهات المؤمنين حتى خديجة بنت خويلد أم البنات والبنين - في قول طائفة من العلماء السابقين واللّاحقين - والأحسن الوقف فيهما . وما ذاك إلا أن قوله ﷺ : « وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » يحتمل أن يكون عاماً بالنسبة للمذكورات وغيرهن ، ويحتمل أن يكون عاماً بالنسبة إلى ما عدا المذكورات والله أعلم ، وهذا يدل على أن الله طهرها واصطفاها على نساء عالمي زمانها .

وقد ورد في حديث أنها تكون من أزواج النبي ﷺ في الجنة هي وآسية بنت مزاحم ، قال الطبراني : حدثنا عبد الله بن ناجية ، حدثنا محمد بن سعد العَوْفي ، حدثنا أبي ، أنبأنا عمي الحسين ، حدثنا يونس بن نفيع عن سعد بن جنادة - هو العَوْفي - قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله زَوَّجني في الجنة مريم بنت عمران وامرأة فرعون وأُخت موسى » .

وقال أبو يعلي الموصلي : حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا يونس بن أبي الفرات عن علياء بن أحمر عن عِكرمة عن ابن عباس قال : خط رسول الله ﷺ في الأرض خطوطاً . فقال : أتدرون ما هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . فقال رسول الله ﷺ : « أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خُوَيْلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون » ورواه النسائي من طرق عن داوود بن أبي هند .

وقد رواه ابن عساكر من طريق أبي بكر عبد الله بن أبي داوود سليمان بن الأشعث ، حدثنا يحيى بن حاتم العسكري ، أنبأنا بشر بن مهران بن حمدان ، حدثنا محمد بن دينار عن داوود بن أبي هند عن الشعبي عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « حَسْبُكَ منهن أربع سيدات نساء العالمين : فاطمة بنت محمد وخديجة بنت خُوَيْلِد وآسية بنت مزاحم ومريم بنت عمران » .

وقال الزبير بن بكار : حدثني محمد بن الحسن عن يعلي بن المغيرة عن أبي داوود . قال : دخل رسول الله ﷺ على خديجة وهي في مرضها الذي توفيت فيه . فقال لها : بالكره مني ما أرى منك يا خديجة ، وقد يجعل الله في الكره خيراً كثيراً ، أما علمت أن الله قد زوّجني معك في الجنة مريم بنت عمران وكلثم أخت موسي وآسية امرأة فرعون ؟ قالت : وقد فعل الله بك ذلك يارسول الله ؟ قال : نعم . قالت : بالرفاء والبنين .

وهذه الأحاديث لم تقطع بتفضيل مريم بنت عمران نعلى نساء العالمين كافة .

* * *

- **مريم وأطوار وتطورات حملها بعيسى عليه السلام ووضعها له:**

في كل حادث من أحداث مريم تطور جديد له تقديره في هذا الوجود ، وله أسراره الكبيرة في هذه الحياة ، فكلما أشرق أمرها عن آية أو تمخض عن حدث تجددت عجائب أخرى عظيمة الأهمية وتحدثت أغراض جديدة لما تقديرها في نفوس أرباب البصائر وأولي الألباب . وإنا ندع حادث حملها يتحدث وحده عن بالغ قدره ، ونترك وضع عيسي وكلامه في المهد يتكلم عن هذه الآية التي تتحرك لها الحياة وتهتز المشاعر والوجدانات بعد حادث آدم عليه السلام ، والآيات الآتية عرض لتلك الروائع والأحداث التي مرت بمريم ، ومرت مريم بها ، ولهذا فإنّا نوجهك إلى ما جاء عن هذه الأحداث في سورة مريم وينطق بها ويرشد إليها قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ مَرْيَمَ إذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِياً * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً * قَالَتْ إنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إنْ كُنْتَ تَقِيّا * قَالَ إنَّما أنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاَماً زَكِيّاً * قَالَتْ أنَّي يَكُونُ

لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ، وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا ، وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً * فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً * فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً ﴾ (١) ... إلى آخر ما جاء في هذه القصة .

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : واذكر في كتاب الله الذي أنزله عليك أمر مريم ابنة عمران حين اعتزلت من أهلها وتباعدت وانفردت عنهم على سرعة إلى المكان الذي يَلِي الشرق من المدينة التي تقيم بها ، ثم بيَنّ تعالى أنها مع هذا اتخذت من دون أهلها حجاباً مستوراً .

وظاهر هذه الآية يدل على أنها لم تقتصر على أن انفردت إلى موضع ، بل جعلت بينها وبينهم حائلاً من حائط مبالغة في الستر عنهم ، ولا بد وأن يكون في احتجابها ذلك غرض صحيح ، ذلك الغرض هو أنها لما رأت الحيض تباعدت عن مكانها المعتاد الذي اتخذته للعبادة لكي تنتظر الطُّهر فتغتسل وتعود ، والمكان الشرقي الذي اعتكفت فيه مريم عن أهلها هو الذي يَلِي شرقي بيت المقدس .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : إني لأعلم خلق الله لأي شئ اتخذت النصارى المشرق قبلة لقوله تعالى : ﴿ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِياً ﴾ فاتخذوا ميلاد عيسى قبلة .

ذكر الله تعالى في هذه القصة بعد قصة زكريا التي هي كالمقدمة لها والتوطئة

---

(١) مريم : ١٦ - ٢٦ .

قبلها كما ذكر في سورة آل عمران قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) ... إلى آخر ما جاء في ذلك العرض ، فقد قرن بينهما ، وإن كان هناك أحداثاً جديدة تبعث على الالتفات والتنبيه في سورة مريم أبعد مدى من تلك الأحداث التي جاءت في سورة آل عمران ، وكما قال ذلك . فقد جاء في سورة الأنبياء في قوله تعالى : ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ، وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ * وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾(٢).

وقد تقدّم أن مريم لما جعلتها أمها محرَّرة تخدم بيت المقدس وكفلها زوج أختها - أو خالتها - نبي ذلك الزمان زكريا عليه السلام ، وقد اتخذت لها محراباً ، وأنها لما بلغت اجتهدت في العبادة وظهر عليها من الأحوال ما غبطها به زكريا وخاطبتها الملائكة بالبشارة باصطفاء الله لها وبأنه سيهب لها ولداً زكياً يكون نبياً كريماً مؤيداً بالمعجزات ، فتعجبت لهذه الأحداث وكيف يكون لها ولد بلا والد ، وأخبرتها الملائكة بأن الله قادر على أن يقول للشئ كن فيكون ، استكانت لذلك وأنابت وسلّمت لأمر الله بالرغم من أنها تعلم أن وراء ذلك فيه محنة عظيمة لها ، وهي اتهامها في شرفها ورميها بقذائف الأقوال ، إذ أن الناس لا ينظرون إلا إلى ظواهر الأحوال ، ولا يتدبرون ما وراء ذلك ، ولو نظروا إلى عجائب الأسرار وجوامع الحكم وبواطنها لما واجهوها ووجهوا إليها ما وجهوه من غير تدبر ولا تعقل في ذلك الشأن العظيم .

وما كانت تخرج من المسجد الذي كانت تعبد الله فيه إلا في زمن حيضها أو عند اضطرار حاجة تدعوها لذلك ، وبينما هي قد خرجت يوماً لبعض شئونها

(١) آل عمران : ٤٢ . (٢) الأنبياء : ٨٩ - ٩١ .

وانتبذت - أي انفردت - وحدها شرقي المسجد الأقصى ، ذلك المكان الذي اتخذته للعبادة ، أرسل الله إليها جبريل عليه السلام ، فتمثل لها - أو تشبّه لها - في صورة رجل من بني آدم معتدل الخَلْق ، فخافت منه إذ تمثل لها بشراً سوياً وظنته رجلاً يريدها على نفسها ، فلما فزعت منه قالت : إني أستجير بالرحمن منك أن تنال مني ما حرّمه الله عليك إن كنت ذا تقوى تتقي محارمه وتجتنب معاصيه . فقال لها جبريل : ﴿ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ أرسلني إليك ليهب الله لك غلاماً زكياً ، فقالت مريم لجبريل : ﴿ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ ﴾ أي : من أي وجه يكون لي غلام أمن قبل زوج أتزوج به فأرزقه منه ؟ أم يبتدئ الله في خلقه ابتداء ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ من بني آدم بنكاح حلال ﴿ وَلَمْ أَكُ ﴾ إذ لم يمسني منهم أحد على وجه الحلال ﴿ بَغِيّاً ﴾ أي : فاجرة تبغي الرجال ، وقد أجابها جبريل بقوله : ﴿ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أي : فأجابها الملك عن تعجبها من وجود ولد منها ، والحالة هذه قائلا : ﴿ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾ أي : وعد أنه سيخلق منك غلاماً ولست بذات بعل ولا تكونين ممن تبغين . وذلك سهل ويسير عليه تعالى كما قال : ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ والله على ما يشاء قدير ، ولنجعل خلقه على هذه الصورة آية للناس ، فإن خلقه من غير أب آية بالغة التقدير عظيمة الشأن ، وكما نجعله آية باهرة ، فإنّا نجعله رحمة منا يُرحم عبادنا بإظهار هذه الآيات لهم ، فتقوم دليلاً على كمال قدرتنا وجلال إرادتنا وتنوع خلقنا ، فإنه تعالى خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، وخلق بقية الخلق من ذكر وأنثى ، فهو بذلك رحمة منا إذ هو يدعوهم فضلاً عن تلك الآيات التي نطقت بروائع قدرته إلى الله في صغره وكبره ، في طفولته وكهوليته ، بأن يفردوا الله بالعبادة وحده لا شريك له ، ويُنزهوه عن اتخاذ الصاحبة والأولاد والشركاء والأنداد والأضداد ، وقوله : ﴿ وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً ﴾ المراد أنه معلوم لعلم الله تعالى به فيمتنع وقوع خلافه ، فحملته وقد نفخ جبريل في جيبها ، فوصلت إلى الرحم فحملت ، فجاءتها أختها امرأة زكريا عليه السلام

تزورها ، فلما التزمتها علمت أنها حبلى وذكرت مريم لها حالها فقالت امرأة زكريا : إني وجدت ما في بطني يسجد لما في بطنك ، فذلك قوله تعالى : ﴿ مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١) وقيل : إن النفخة كانت في فيها فوصلت إلى بطنها فحملت في الحال ، فاعتزلت وانفردت وهو في بطنها واتخذت لها مكاناً بعيداً عن أهلها . فلما ضاقت به ذرعاً وعلمت أن كثيراً من الناس سيوجهون إليها كلاماً وتعبيراً اشتد عليها الأمر وتضاعف الخطب . وقد ذكر غير واحد من السَلَف منهم وهب بن منّبه أنها لما ظهرت عليها مخايل الحمل كان أول من فطن لذلك رجل من عُبّاد بني إسرائيل يقال له يوسف بن يعقوب النجار ، وكان ابن خالها ، فجعل يتعجب من ذلك عجباً شديداً ، وذلك لما يعلم من ديانتها ونزاهتها وعبادتها ، وهو مع ذلك يراها حُبلى وليس لها زوج فعرّض لها ذات يوم في الكلام فقال لها : يا مريم ؛ هل يكون زرع من غير بذر ؟ قالت : نعم ! فمن خلق الزرع الأول . ثم قال : فهل يكون ولد من غير ذكر ؟ قالت : نعم ! إن الله خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى !! قال لها : فأخبريني خبركَ . فقالت : إن الله بشرني ﴿ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٢) .

ويُروي عن زكريا عليه السلام أنه سألها مثل ذلك فأجابته بمثل ما أجابت به يوسف بن يعقوب النجار ، وقال أبو القاسم : قال مالك : بلغني أن عيسى ابن مريم ، ويحيى بن زكريا ابنا خالة ، وكان حملهما معاً . فبلغني أن أم يحيى قالت لمريم : إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك ! قال مالك : أرى ذلك لتفضيل عيسى عليه السلام لأن الله تعالى جعله يُحيي الموتى ويُبرئ الأكمه والأبرص . (رواه ابن أبي حاتم) .

ورُوِيَ عن مجاهد أنه قال : قالت مريم:كنت إذا خلوت حدثني وكلمني ، وإذا

(١) آل عمران : ٣٩ .

(٢) آل عمران : ٤٥ - ٤٦ .

كنت بين الناس سبَّح في بطني . . ثم الظاهر أنها حملت به تسعة أشهر كما يحمل النساء ويضَعْن لميقات حملهن ووضعهن ، إذ لو كان هناك خلاف ذلك لذُكِر .

وعن ابن عباس وعكرمة : أنها حملت به ثمانية أشهر . وعن ابن عباس أيضا : ما هو إلا أن حملت به فوضعته ، قال بعضهم : حملت به تسع ساعات ، واستأنسوا لذلك بقوله : ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً * فَأَجَاءَهَا المَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ [1] .

والصحيح أن تعقيب كل شئ بحسبه كقوله : ﴿ فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ [2] ، وكقوله : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ ﴾ [3] .

ومعلوم أن بين كل حالين أربعين يوماً كما ثبت ذلك في الحديث المتفق عليه .

قال محمد بن إسحاق : شاع واشتهر في بني إسرائيل أنها حامل ، فما دخل علي أهل بيت ما دخل على آل بيت زكريا .

وقوله : ﴿ فَأَجَاءَهَا المَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ أي : فألجأها واضطرها الطلق إلى جذع النخلة وهو بنص الحديث الذي رواه النسائي بإسناد لا بأس به ، عن أنس مرفوعاً والبيهقي بإسناده وصححه عن شداد بن أوس مرفوعاً أيضاً ببيت لحم الذي بني عليه بعض ملوك الروم هذا البناء الهائل المشاهَد حتى الآن ، ولما فاجأها المخاض قالت :﴿ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً ﴾ ، ذلك لأنها علمت أن الناس يتهمونها ولا يصدقونها ، بل قاموا يكذبونها حين جاءتهم بغلام على يدها مع أنها كانت عندهم من العابدات ولها شأن كبير في هذا المجال ، وفضلاً عن أنها من الناسكات المعتكفات للعبادة في المسجد فهي

---

(١) مريم : ٢٢ - ٢٣ . (٢) الحج : ٦٣ . (٣) المؤمنون : ١٤ .

من بيت النبوة فَحَمَلَتْ بسبب ذلك من الهَمّ ما جعلها تتمنى أن لو كانت قد ماتت قبل هذا الحال أو كانت ﴿ نَسْياً مَنْسياً ﴾ : أي تمنت أن لم تخلق بالكلية ولم تك شيئاً مذكوراً وذلك أهنأ وأولى من ولادتي من غير بعل ، وقوله : ﴿ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا ﴾ أي عيسى عليه السلام إذ هو الذي كان تحتها حينئذ لأنه لما نزل منها نزل تحتها قائلا تسلية وتطميناً لها أن : لا تخافي ولا تحزني ، وهو قول الحسن وسعيد بن جبير ، وقوله : ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً ﴾ أي نهراً صغيراً تشرب منه ، قال زيد في قوله : ﴿ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي ﴾ قالت : كيف لا أحزن وأنت معي لا ذات زوج فأقول من زوج ولا مملوكة فأقول من سيدي ، أي شئ عذري عند الناس ؟ ﴿ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسياً ﴾ فقال لها عيسى : أنا أكفيك الكلام وأرد على كل ما يواجهونك به . ولما سمعت منه ذلك اطمأنت نفسها واستسلمت لأمر الله ، وحملته حتى أتت به قومها ، فلما رأوا مريم ورأوا معها ولدها قالوا : ﴿ يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِياً ﴾ (١) : أي لقد جئت بأمر عجيب وأحدثت حدثاً عظيماً ، ومرادهم بذلك أنك أتيت منكراً ، فيكون ذلك منهم على وجه الذم وهذا أظهر لقولهم بعده : ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً ﴾ (٢) لأن هذا القول ظاهره التوبيخ . وأما نسبتها إلى هارون فليس المراد منه هارون أخي موسى ، وإنما المراد به رجل من بني إسرائيل كان معروفاً بالصلاح ، وكان ينسب إليه كل من عُرف بذلك ، وقد كانت مريم مشهورة بالزهد معروفة به ، والمراد من كلامهم أنهم يقولون : إنك كنت فى الزهد والصلاح كهذا الرجل فكيف صرت هكذا ؟ وهو قول قتادة وكعب وابن زيد ، وقيل : إن المراد به هارون أخو موسى عليه السلام ، وقيل : كان لها أخ يسمى هارون من صلحاء بني إسرائيل فَعُيِّرت به ، وهذا أقرب الأقوال للمراد من قولهم : ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً ﴾ لأن الأصل في الكلام الحقيقة ، وإنما يكون ظاهر الآية محمولاً على

(١) مريم : ٢٧ .

(٢) مريم : ٢٨ .

حقيقتها لو كان لها أخ مسمى بـ « هارون » ، وإنما أضيفت إليه وَوُصِفَ أبواها بالصلاح وحينئذ يصير التوبيخ أشد ، لأن من كان حال أبويه وأخيه بهذا الشأن يكون صدور ذلك الحدث عنه أشد نكراً . ولما بالغوا في توبيخها ووجّهوا إليها من القول أنكره ، أشارت إلى عيسى عليه السلام بأنه هو الذي يجيبكم ويتولى الرد عني إذا وجهتم إليه سؤالاً واستنطقتموه ، ولما أشارت إليه قالوا :﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً ﴾ (١) أي : كيف تحيلينا في الجواب على صبي صغير لا يعقل الخطاب ؟ والمراد بالمهد حجرها لما روى أنها أخذته في خرقة فأتت به قومها ، فلما رأوها قالوا لها ما قالوا ، فأشارت إليه وهو في حجرها ولم يكن لها منزل معد للإقامة به حتى يُعَدَّ لها المهد فقال : ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً * وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً * وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً * وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾ (٢) فوصف نفسه عليه السلام .

* * *

● **قصة عيسى عليه السلام وأول كلام ابتدأه في هذه الحياة :**

لقد كان أول كلام تفوّه به عيسى عليه السلام قوله : ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً * وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً ﴾ ... إلى قوله : ﴿ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾ فوصف نفسه عليه السلام بأوصاف تسعة :

الأول – قوله : ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ .

الثاني – قوله : ﴿ آتَانِيَ الْكِتَابَ ﴾ .

---

(١) مريم : ٢٩ .

(٢) مريم : ٣٠ – ٣٣ .

الثالث - قوله : ﴿ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً ﴾ .

الرابع - قوله : ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ ﴾ .

الخامس - قوله : ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً ﴾ .

السادس - قوله : ﴿ وَبَرّاً بِوَالِدَتِي ﴾ .

السابع - قوله : ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً ﴾ .

الثامن - قوله : ﴿ وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ ﴾ .

التاسع - قوله : ﴿ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾ .

فكان أول ما تكلم به وهو في المهد أن قال : ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ اعترف لربه تعالى بالعبودية فنزّه بذلك ربّهُ عن قول الظالمين ومفتراهم أنه ابن الله ، بل هو عبده ورسوله وابن أمته ، ثم برّأ أمّه مما نسبها إليه الجاهلون وقذفوها به ورموها بسببه بقوله : ﴿ أَتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً ﴾ فإن الله لا يُعطي النبوة كما زعم الكفار من أنه ابن الله ، وقد برأها سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً ﴾ [1] . وذلك أن طائفة من اليهود في ذلك الزمان قالوا إنها حملت به من زنا في زمن الحيض - لعنهم الله - فبرأها الله من ذلك وأخبر عنها أنها صدّيقة ، واتخذ ولدها نبياً مرسلاً أحد أولي العزم الخمسة الكبار الذين قال الله فيهم : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً ﴾ [2] . ولهذا قال : ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ ﴾ ؛ وذلك أنه حيث كان دعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له وإلى تنزيهه سبحانه عن النقص والعيب من اتخاذ الصاحبة والولد ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً ﴾ [3] . ثم قال : ﴿ وَأَوصَانِي بِالصَّلاَةِ والزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً ﴾

---

(1) النساء : ١٥٦ . (2) الأحزاب : ٧ . (3) الإسراء : ٤٣ .

وهذه وظيفة العبيد في القيام بحق العزيز الحميد بالصلاة ، والإحسان إلى خلقه بالزكاة ، وسائر وجوه الطاعات وأنواع التكاليف والقربات ، وفضلاً عن ذلك فقد بيّن ما أكرمه الله به من جميل الصفات فقال : ﴿ وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً ﴾ أي : وجعلني برّاً بوالدتي الذي تأكّد حقها عليه لتمحّض جهتها إذ لا والدَ له سواها ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً ﴾ أي : ولم يجعلني فظاً ولا غليظاً ، فلا يصدر مني قول ولا فعل يُشْتَم منه ذلك عن قُرْب أو بُعْد ﴿ وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾ . وهذه المواطن الثلاثة هي أروع المواطن التي إذا تجلى الله فيها على عبد من عبيده فقد فاز فوزاً عظيماً ، وقد تقدّم الكلام عنها في قصة يحيى عليه السلام ، وقوله : ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ (1) . لا شبهة في أن المراد بقوله : ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ الإشارة إلى ما تقدّم من اتصافه بصفات المخلوقين في قوله : ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً * وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً ﴾ (2) أي : ذلك الموصوف بهذه الصفات هو عيسى ابن مريم ، وفي قوله : ﴿ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ إشارة إلى أنه وَلَدُ هذه المرأة وابنها لا أنه ابن الله كما يزعمون ، وقوله تعالى : ﴿ قَوْلَ الْحَقِّ ﴾ (3) أي : فذلك الخبر الذي قصصته عليكم وبيّنْتُه لكم وأخبرتكم به هو قول الله وحده لا خبر غيره الذي يقع فيه الوهم والشك والزيادة والنقصان ، ثم ابتدأ الخبر الذي فيما فيه تمترى الأمم من أمر عيسى هو هذا القول الذي أخبر به الله عنه عباده دون غيره ، وقوله : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ ﴾ (3). يعني : لقد كفر الذين قالوا إن عيسى ابنَ الله وأعظموا الفرية عليه ، وما ينبغي لله أن يتخذ ولداً ، ولا يصلح له ذلك ولا يكون ، بل كل شئ دونه فهو الذي خلقه . وقوله : ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ تنزيهاً له وتبرئة لذاته العظيمة التي أضاف إليه الكافرون تخبطهم بقولهم إن عيسى ابن الله ، وقوله : ﴿ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (3) . يقول

---

(1) مريم : ٣٤ (2) مريم : ٣٠ - ٣١ (3) مريم : ٣٥

جل ثناؤه : إنما ابتدأ عيسى ابتداءً ، وأنشأه إنشاءً لا من أب اتصل بأمه ولكنه قال له : كن فكان ، لأنه كذلك يبتدع الأشياء ويخترعها ، وإذا قضى خلق شئ أو أنشأه ﴿ يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونَ ﴾ موجوداً حادثاً فلا يعظم عليه خلقه وإيجاده بمعاناة وكلفة ، ولا ينشئه بمعالجة وشدة ، وقوله : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ (١) أي : إنه بعد أن تحدثت البراهين القاطعة ودلّت الآيات الباهرة على أن عيسى عبد الله قام الدليل أيضاً على أن مدبر الناس ومتولي أمورهم هو الله تعالى ولذلك قال : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ ﴾ أي : لا ربّ للمخلوقين غيره . وذلك يدل على كمال التوحيد . أما قوله : ﴿ فَاعْبُدُوهُ ﴾ ، فقد ثبت في أصول الفقه أن ترتيب الحكم على الوصف المناسب مشعر بالعلّية ، فهذا الأمر بالعبادة وقع مرتباً على ذكر الربوبية ، وإذا كان كذلك فقد لزمتنا عبادته لأنه إنما لزمنا ذلك لكونه رباً لنا ومنعماً علي الجميع بأصول النعم وفروعها .

وبهذه الآية – أن الله لما كان رباً ومربياً لعباده – فقد وجبت علينا عبادته ، أما قوله : ﴿ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ (١) يعني القول بالتوحيد ونفي الولد والصاحبة : صراط مستقيم ، وسمي ذلك بالصراط المستقيم تشبيهاً بالطريق لأنه المؤدي إلى الجنة الموصل لها .

فالحق سبحانه وتعالى لما ذكر قصته على الجليّة وبيّن أمرها وشرح ما عساه يكون خافياً على غير أولي الألباب من صفات المخلوقين فقال : ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ، قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ (٢) . وذلك كما قال تعالى بعد ذكر قصته وما كان من أمره في سورة آل عمران : ﴿ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ * إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ، خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا

(١) مريم : ٣٦ . (٢) مريم : ٣٤ .

وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الكَاذِبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ القَصَصُ الحَقُّ ، وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلاَّ اللَّهُ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ * فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾[1].

ولهذا لما قَدِم وفد نجران وكانوا حوالي ستين راكباً يرجع أمرهم إلى أربعة عشرة منهم ويؤول أمر الجميع إلى ثلاثة هم أشرافهم وساداتهم وهم : العاقب ، والسيد ، وأبو حارثة بن عَلْقَمَة ، فجعلوا يناظرون رسول الله ﷺ في أمر المسيح فأنزل الله صَدْرَ آل عمران في ذلك ، وقد أمر الله رسوله ﷺ بأن يُباهلهم إن لم يستجيبوا له ويتبعوه ، فلما رأوا ما رأوا نكلوا وامتنعوا عن المباهلة وعدلوا إلى المسالمة والمُوَادَعة وقال قائلهم – وهو العاقب عبد المسيح : يا معشر النصارى ؛ لقد علمتم أن محمداً لنبيٌّ مرسل ، ولقد جاء بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم أنه ما لاعَنَ قوم نبياً قط فبقى كبيرهم ولا نبت صغيرهم، وإنها للاستئصال منكم إن فعلتم .... إلى آخر ما جاء في هذه القصة في السيرة النبوية لابن كثير ، وقد جاء ذكر وفد نجران كما قلنا ونزل به آي الذكر الحكيم وقصته في سورة آل عمران ، والمقصود أن الله تعالى بيَّن لرسوله أمر المسيح فقال : ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ، قَوْلَ الحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾[2] .... إلى آخر ما قدمنا في هذا الشأن وأتينا في هذا البحث والمجال ، وقوله : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾[3] . هو من تمام كلام عيسى لهم في المهد ، إذ أنه أخبرهم بأن الله ربه وربهم وإلهه وإلههم ، وأن هذا هو الصراط المستقيم والطريق الذي يجب أن يُسلك ويتعين السير فيه ، والذي يُلفت النظر ويؤدي إلى التفكير العميق والحيرة المدهشة ويُوجه العقول السليمة إلي الحق وإلى طريق مستقيم اختلاف اليهود على بعضهم في أمرالمسيح وتفرقهم في شأنه ، فمن قائل من اليهود : إنه ولد زِنْيَة ! واستمروا على كفرهم وعنادهم .

---

(١) آل عمران : ٥٨ – ٦٣ .

(٢) مريم : ٣٤

(٣) مريم : ٣٦

وقابلهم آخرون في الكفر .فقالوا : هو الله ! وقال آخرون : هو ابن الله ! ولذلك قال تعالى : ﴿ فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [1] أي : فاختلف أهل ذلك الزمان ومن بعدهم فيه .

وأما المؤمنون فقد قالوا : إنه عبد الله ورسوله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وهؤلاء هم الناجون المثابون ، ومن خالفهم في شئ من هذه القيود فهم الكافرون الضالون ، وقد توعدهم العلي العظيم بقوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

قال البخاري : حدثنا صدقة بن الفضل ، أنبأنا الوليد ، حدثنا الأوزاعي ، حدثني عُمَيْر بن هانئ ، حدثني جُنَاده بن أبي أمية عن عُبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله وسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق ، والنار حق : أدخله الله الجنة على ما كان من العمل ».

قال الوليد : فحدثني عبد الرحمن بن يزيد عن جابر عن عُمير عن جُنادة وزاد : « من أبواب الجنة الثمانية أيُّها شاء » .

وقد رواه مسلم عن داوود بن رشيد عن الوليد عن جابر به . ومن طريق أخرى عن الأوزاعي به .

* * *

• حكم الله تعالى بالكفر على من زعم أُلوهية المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام :

لقد تحدثنا عن اختلاف اليهود في أمر عيسى ، وقام ذلك الاختلاف فيهم على أشده ، وقد استمروا على كفرهم وعنادهم وضلالهم ، ولما كانت النصارى من

(١) مريم : ٣٧ .

أشهر الذين قام الاختلاف بينهم في شأنه ، فزعمت طائفة منهم إلى أنه هو الله تعالى ، وقالت أُخرى إنه ابن الله ، وزعم آخرون إلى أنه ثالث ثلاثة - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - لهذا قام الرد فقضى عليهم بقوله تعالى في سورة المائدة : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) .

فأخبر تعالى عن جهلهم وكفرهم وبيّن أنه الخالق القادر على كل شئ ، وقد قال في أواخرها : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢) .

فقضى سبحانه وتعالى بكفرهم ودحض مفترياتهم وبطلان ما زعموه وأسندوا إليه من الشركاء والصفات التي لا تليق بجلاله وكماله ، نعم ..حكم تعالى بكفرهم شرعاً وقدراً ، فأخبر أن هذا صدر منهم مع أن الرسول إليهم هو عيسى ابن مريم وقد بيّن لهم أنه عبدٌ مَرْبُوبٌ مخلوقٌ مُصَوَّرٌ في الرحم ، داع إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وقد توعدهم على خلاف ذلك بالنار فقال : ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ .

* * *

---

(١) المائدة : ١٧ .

(٢) المائدة : ٧٢ - ٧٣ .

- **بيان حال عيسى وأمه وشهادة الله لهما بالعبودية والرسالة لعيسى عليه السلام :**

وبعد أن أبطل مدعاهم وقضى على مفترياتهم وأقام البراهين المشرقة على هدم تلك العقائد الباطلة من أساسها ، أوضح حال المسيح وأمه وأنه عبد رسول وأمه صدِّيقة .أي ليست بفاجرة كما يقوله اليهود . فقال عز من قائل : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ، كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ ﴾ [1] ؛ وقال : ﴿ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ ﴾ كناية عن خروجه منهما كما يخرج من غيرهما ، أي : ومن كان بهذه المثابة كيف يكون إلهاً ؟!

ولما أثبت بالبراهين عبوديتهما واتصافهما بما يتصف به الخلائق والعبيد ، أخبر أنه يسأل عيسى ابن مريم يوم القيامة على سبيل الإكرام له ، والتقريع والتوبيخ لعابديه ممن كذب عليه وافترى وزعم أنه ابن الله ، أو أنه الله ، أو أنه شريك له . فقال عز من قائل في سورة المائدة : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [2] ؛ فقوله : ﴿ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، قَالَ سُبْحَانَكَ ﴾ أي : تعاليت أن يكون معك شريك ، وقوله : ﴿ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ أي : ليس هذا يستحقه أحد سواك ﴿ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ وهذا تأديب عظيم في الخطاب والجواب ، ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ﴾

(١) المائدة : ٧٥ .
(٢) المائدة : ١١٦ - ١١٧ .

أي : ما قلت غير ما أمرتني به حين أرسلتني إليهم وأنزلت عليّ الكتاب الذي كان يُتلى عليهم ، ثم فسَّر ما قال لهم بقوله : ﴿ أن اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ أي : خالقي وخالقكم ورازقي ورازقكم . ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي ﴾ أي : رفعتني إليك حين أرادوا قتلي وصلبي فرحمتني وخلَّصتني منهم ، وألقيتَ شبهي على أحدهم حتى انتقموا منه ، فلما تم ذلك وكان ما أردتَ من رفعي وخلاصي منهم ﴿ كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِم ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

ثم قال عيسى على وجه التفويض للرب والاستسلام له باعتباره الخالق لهم : ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ [1] أي : وهم يستحقون ذلك ، ﴿ وإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ وهذا التفويض والإسناد إلى المشيئة لا يقتضي وقوع ذلك ، ولهذا قال : ﴿ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ولم يقل : « الغفور الرحيم » .

وقد روى الإمام أحمد عن أبي ذر : « أن رسول الله ﷺ قام بهذه الآية الكريمة ليلة حتى أصبح : ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ، وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [1] وقال : « إني سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي فأعطانيها وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يُشرك بالله شيئاً » . وقال : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ * بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ، وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ * وَلَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَمَنْ عِنْدَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ ﴾ [2] فالمعبود بحق هو الله تعالى الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

* * *

(١) المائدة : ١١٨ .
(٢) الأنبياء : ١٦ - ٢٠ .

• نشأة عيسى عليه السلام وبدء الوحي إليه :

وُلِدَ عيسى عليه السلام ببيت لحم - مدينة قريبة من بيت المقدس - وبولادته خرّت الأصنام ، وأشفق ملك الفرس لظهوره وخاف إشراق شمسه في تلك الآفاق .

وقد ذكر وهب بن منّبه : أنه لما خرّت الأصنام في مشارق الأرض ومغاربها ، حارت في ذلك الشياطين حتى كشف لهم إبليس الكبير أمْرَ عيسى فوجدوه في حجْرِ أمه والملائكة مُحْدقةٌ به ، وأنه ظهر نجم عظيم في السماء ، وأن ملك الفرس أشفق من ظهوره فسأل الكهنة عن ذلك ، فقالوا : هذا لمولد عظيم في الأرض . فبعث رسله ومعهم ذهب ومُرٌّ ولبَان ، هدية منه إلى عيسى . فلما قدموا الشام سألهم ملكها عما أقدمهم ، فذكروا له ذلك ، فسأل عن ذلك الوقت فإذا قد وُلِدَ فيه عيسى ابن مريم ببيت المقدس واشتهر أمره بسبب كلامه في المهد ، فأرسلهم إليه بما معهم وأرسل معهم من يعرفه له ليتوصل إلى قتله إذا انصرفوا عنه ، فلما وصلوا إلى مريم بالهدايا ورجعوا قيل لها : إن رسل ملك الشام إنما جاءوا ليقتلوا ولدك ، فاحتملته فذهبت به إلى مصر فأقاما بها حتى بلغ عمره اثنتي عشرة سنة وظهرت عليه كرامات ومعجزات في حال صغره .

وقد ذُكِرَ منها أن الدهقان الذي نزلوا عنده افتقد مالاً من داره ، وكانت داره لا يسكنها إلا الفقراء والضعفاء والمحاويج ، فلم يدر مَنْ أخذها وعزَّ ذلك على مريم عليها السلام ، وشَقَّ على الناس وعلى رب المنزل وأعياهم أمرها ، فلما رأى عيسى عليه السلام ذلك عمد إلى رجل أعمى وآخر مُقعد من جملة من هو منقطع إليه ، فقال للأعمى : احمل هذا المقعد وانهض به . فقال : إني لا أستطيع ذلك . فقال : بلى كما فعلت أنت وهو حين أخذتما هذا المال من تلك الكوّة من الدار . فلما قال ذلك صدّقاه فيما قال وأتيا بالمال فعَظُمَ عيسى في أعين الناس وهو صغير جداً .

ومن ذلك أن ابن الدهقان عمل ضيافةً للناس بسبب طهور أولاده ، فلما اجتمع الناس وأطعمهم ثم أراد أن يسقيهم شراباً - يعني خمراً - كما كانوا

يصنعون في ذلك الزمان ، لم يجد في جرّاره شيئاً فشقّ ذلك عليه . فلما رأى عيسى ذلك منه قام فجعل يمر على تلك الجرار ويُمَرِّرْ يده على أفواهها فلا يفعل بجرّة منها ذلك إلا امتلأت شراباً من خيار الشراب ، فتعجّب الناس من ذلك جداً وعظّموه وعرضوا عليه وعلى أمه مالاً جزيلاً فلم يقبلاه ، وارتحلا قاصدين بيت المقدس .

وقال إسحاق بن بشر : أنبأنا عثمان بن ساج وغيره عن موسى بن وردان عن أبي نضرة عن أبي سعيد وعن مكحول عن أبي هريرة قال : إن عيسى ابن مريم أول ما أطلق الله لسانه بعد الكلام الذي تكلم به وهو طفل فمجّد الله تمجيداً لم تسمع الآذان بمثله ، لم يدع شمساً ولا قمراً ، ولا جبلاً ولا نهراً ولا عيناً ، إلا ذكره في تمجيده ، فقال :

« اللّهم أنت القريب في علوّك ، المتعال في دُنُوكَ ، الرفيع على كل شئ من خلقك ، أنت الذي خَلَقت سبعاً في الهواء بكلماتك مستويات طباقاً ، أَجَبْنَ وهن دخان من فَرَقك فأتَيْن طائعات لأمرك فيهن ، ملائكتك يُسَبِّحون قُدْسَك لتقديسكَ ، وجعلت فيهن نوراً على سواد الظلام ، وضياء من ضوء الشمس بالنهارَ ، وجعلت فيهن الرعد المسبِّح بالحمد ، فبعزتك يجلو ضوء ظلمتك ، وجعلت فيهن مصابيح يهتدي بهن في الظلمات الحيران ، فتباركت اللّهم في مفطور سمواتك ، وفيما دَحَوْتَ من أرضك ، دحوتَها على الماء فسَمَكتها على تيار الموج الغامر فأذلَلْتَها إذلال التظاهر ، فَذَلَّ لطاعتك صعبها ، واستحيا لأمرك أمرها ، وخضعت لعزتك أمواجها ، ففجرّت فيها بعد البحور الأنهار ، ومن بعد الأنهار الجداول الصغار ، ومن بعد الجداول ينابيع العيون الغزار ، ثم أخرجت منها الأنهار والأشجار والثمار ، ثم جعلت على ظهرها الجبال فَوَدَّدْتَها أوتاداً على ظهر الماء فأطاعت أطوادها وجلمودها .. لا إله إلا أنت سبحانك ، أمرتَ أن نستغفرك من كل ذنب ، لا إله إلا أنت سبحانك ، ستَرْتَ السموات عن الناس ، لا إله إلا أنت سبحانك ، إنما يخشاك من عبادك الأكياس ، نشهد أنك لست بإله استحدثناك ، ولا رب يَبيدُ ذكره ، ولا كان معك شركاء فندعوهم ونَذَرَك ، ولا أعانك على خلقنا أحد فنشك فيك . نشهد أنك أحد صمد ، لم تلد ولم تُولد ، ولم يكن لك كُفواً أحد » .

وروى ابن لَهيعة عن عبد الله بن هبيرة قال : كان عبد الله بن عمر يقول : كان عيسى ابن مريم وهو غلام يلعب مع الصبيان فكان يقول لأحدهم : تريد أن أخبرك ما خَبَأت لك أمك ؟ فيقول : نعم . فيقول : خبأت لك كذا وكذا . فيذهب الغلام منهم إلى أمه فيقول لها : أطعميني ما خبأت لي . فتقول : وأي شئ خبأتُ لك ؟ فيقول : كذا وكذا ، فتقول له : من أخبرك ؟ فيقول : عيسى ابن مريم . فقالوا : والله لو تركتم هؤلاء الصبيان مع ابن مريم ليُفسدنَّهم ، فجمعوهم في بيت وأغلقوا عليهم فخرج عيسى يلتمسهم فلم يجدهم ، فسمع ضوضاءهم في بيت فسأل عنهم فقالوا : إنما هؤلاء قردة وخنازير . فقال : اللهم كذلك ، فكانوا كذلك ، ورواه ابن عساكر.

وقال إسحاق بن بشر عن جويبر ، ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال : وكان عيسى يرى العجائب في صباه إلهاماً من الله ، ففشا ذلك في اليهود ، وترعرع عيسى فهَمَّت به بنو إسرائيل فخافت أمه عليه ، فأوحى الله إلى أمه أن تنطلق به إلى أرض مصر ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ (١) .

وقد اختلف السَلَف والمفسرون في المراد بهذه الرَبوة التي ذكر الله من صفتها أنها ذات قرار ومعين ، وهذه صفة غريبة الشكل وهي أنها رَبوة - وهو المكان المرتفع من الأرض الذي أعلاه مستو يُقَرُّ عليه - وارتفاعه متسع ومع علوه فيه عيون الماء المعين ، وهو الجاري والسارح على وجه الأرض ، فقيل : المراد المكان الذي ولدت فيه المسيح وهو محلة بيت المقدس ، ولهذا ناداها من تحتها : ﴿ أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً ﴾ (٢) ؛ وهو النهر الصغير في قول جمهور السَلَف ، وعن ابن عباس بإسناد جيد : أنها أنهار دمشق . فلعله أراد تشبيه ذلك المكان بأنها دمشق .

---

(١) المؤمنون : ٥٠ . (٢) مريم : ٢٤ .

وقال إسحاق بن بشر : قال لنا إدريس عن جده وهب بن منبّه قال : إن عيسى لما بلغ ثلاث عشرة سنة أمره الله أن يرجع من بلاد مصر إلى بيت إيليا قال : فقدم عليه يوسف ابن خال أمه فحملهما على حمار حتى جاء بهما إلى إيليا وأقام بها حتى أحدث الله له الإنجيل وعلّمه التوراة وأعطاه إحياء الموتى وإبراء الأسقام والعلم بالغيوب مما يدخرون في بيوتهم ، وتحدّث الناس بقدومه وفزعوا لما كان يأتي من العجائب ، فجعلوا يعجبون منه ، فدعاهم إلى الله ففشا فيهم أمره .

* * *

• نزول الكتب الأربعة ومواقيتها :

قال أبو ذُرعة الدمشقي : حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثني معاوية بن صالح عُمَّنْ حدثه قال : أنزلت التوراة على موسى في ست ليال خلت من شهر رمضان ، ونزل الزبور على داوود في اثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان وذلك بعد التوراة بأربعمائة واثنتين وثمانين سنة ، وأنزل الإنجيل على عيسى ابن مريم في ثمانية عشر ليلة خلت من شهر رمضان فيما بعد الزبور بألف وخمسين عاماً ، وأنزل الفرقان على محمد ﷺ في أربع وعشرين من شهر رمضان .

وذكر ابن جرير أن الإنجيل أنزل علي عيسى ابن مريم وهو ابن ثلاثين سنة ، ومكث حتى رُفِعَ إلى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة .

وقال إسحاق بن بشر : أنبأنا سعيد بن أبي عَرُوبة عن قتادة ، ومقاتل عن قتادة عن عبدالرحمن بن آدم عن أبي هريرة قال : أوحى الله عز وجل إلى عيسى ابن مريم : « يا عيسى جدّ في أمري ولا تهن ، واسمع وأطع يابن الطاهرة البكر البتول ، إنك من غير فحل وأنا خلقتك آية للعالمين ، إياي فاعبد وعليّ فتوكل ، خذ الكتاب بقوة ، فَسِّر لأهل السريانية ، بَلِّغ من بين يديك أني أنا الحق الحيّ القائم الذي لا أزول ، صدّقوا النبي الأمي العربي صاحب الجمل والتاج – وهي العمامة – والمِدْرَعَة والنعلين والهراوة – وهي القضيب – الأنْجَلْ العينين ،

الصلت الجبين ، الواضح الخدين ، الجعد الرأس ، الكث اللحية ، المقرون الحاجبين ، الأقنى الأنف ، المفَلَّج الثنايا ، البادي العنقفة ، الذي كأن عنقه إبريق فضة وكأن الذهب تجري في تَرَاقيه ، له شَعْرات من لَبتّه إلى سُرَّته تجري كالقضيب ، ليس على بطنه ولا على صدره شعر غيره ، شثْن الكف والقدم ، إذا التفت التفت جميعاً ، وإذا مشى كأنما يتقلّع من صخر وينحدر من صَبَب ، عَرَقه في وجهه كاللؤلؤ وريح المسك ينفح منه ، ولم يُرْ قبله ولا بعده مثله ، الحسن القامة ، الطيب الريح ، نكاّح النساء ، ذا النسل القليل ، إنما مثله من مباركة لها بيت – يعني في الجنة – من قَصَب لا نَصَبَ فيه ولا صَخب ، تكفُله يا عيسى في آخر الزمان كما كفل زكريا أمك ، له منها فرخَان مستشهدان ، وله عندي منزلة ليست لأحد من البشر ، كلامه القرآن . ودينه الإسلام ، وأنا السلام . طوبى لمن أدرك زمانه وشهد أيامه وسمع كلامه .

قال عيسى : يارب ؛ وما طوبى ؟ قال : غرس شجرة أنا غرستها بيدي فهي للجنان كلها ، أصلها من رضوان ، وماؤها من تسنيم ، وبردها برد الكافور ، وطعمها طعم الزنجبيل ، وريحها ريح المسك ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً .

قال عيسى : يارب ؛ أسقني منها . قال : حرام على النبيين أن يشربوا منها حتى يشرب ذلك النبي ، وحرام على الأمم أن يشربوا منها حتى تشرب منها أُمّة ذلك النبي .

قال : يا عيسى ، أرفعك إليّ . قال : رَبِّ ولم ترفعني ؟ قال : أرفعك ثم أُهبطك في آخر الزمان لترى من أُمّة ذلك النبي العجائب ، ولتُعينهم على قتال اللّعين الدّجال ، أُهبطك في وقت صلاة ثم لا تُصلّي بهم لأنها مرحومة ، ولا نبي بعد نبيهم » .

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا الفضل بن موسى البصري ، حدثنا ابراهيم بن بشار ، سمعت سفيان بن عيينة يقول : لقي عيسى ابن مريم إبليس فقال له إبليس : يا عيسى ابن مريم .. أنت الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنك تكلمت في المهد صبياً ولم يتكلم فيه أحد قبلك ؟ قال : الربوبية للإله الذي أنطقني ثم يميتني ثم يحييني . قال : فأنت الذي بلغ من عِظَم ربوبيتك أنك

تُحيي الموتى ؟ قال : بل الربوبية لله الذي يُحيي ويُميت . قال : والله إنكَ لإلهٌ في السماء وإلهٌ في الأرض ! قال : فصَكّه جبريل صكّةً بجناحيه فما نبّاها دون قرون الشمس ، ثم صكّه أخرى بجناحيه فما نبّاها دون العين الحامية ، ثم صكّه أخرى فأدخله بحار السابعة فأساخه . وفي رواية : فأمسكه فيها حتى وجد طعم الحمأة فخرج منها وهو يقول : ما لقى أحد من أحد ما لقيت منك يا ابن مريم .

وقد روى أبو حذيفة إسحاق بن بشر بأسانيده عن كعب الأحبار ووهب بن منّبه وابن عباس وسلمان الفارسي – دخل حديث بعضهم في بعض – قالوا : لما بُعِث عيسى ابن مريم وجاءهم بالبينات جعل المنافقون والكافرون من بني إسرائيل يعجبون منه ويستهزؤن به فيقولون : ما أكل فلان البارحة ؟ وما ادخر في منزله ؟ فيخبرهم ، فيزداد المؤمنون إيماناً والكافرون والمنافقون شكاً وكفراناً .

وكان عيسى مع دلك ليس له منزل يأوي إليه ، إنما يسيح في الأرض ، ليس له قرار ولا موضع يُعرف به ، فكان أول ما أحيا من الموتى أنه مَرَّ ذات يوم على امرأة قاعدة عند قبر وهي تبكي ، فقال لها : مالك أيتها المرأة ؟ فقالت : ماتت ابنة لي لم يكن لي ولد غيرها ، وإني عاهدت ربي أن لا أبرح من موضعي حتى أذوق ما ذاقت من الموت أو يحييها الله لي فأنظر إليها . فقال لها عيسى : أرأيت إن نظرت إليها أراجعة أنتِ ؟ قالت : نعم . قالوا : فصلّي ركعتين ثم جاء فجلس عند القبر فنادى : يا فلانة ؛ قومي بإذن الرحمن فاخرجي . قال : فتحرّكَ القبر ، ثم نادى الثانية فانصدع القبر بإذن الله ، ثم نادى الثالثة فخرجت وهي تنفُضْ رأسها من التراب ، فقال لها عيسى : ما أبطأ بكِ عني ؟ فقالت : لما جاءتني الصيحة الأولى بعثَ اللهُ لي مَلكاً فركّب خَلْقِي ، فلما جاءتني الصيحة الثانية فرجَع إليّ روحي ، ثم جاءتني الصيحة الثالثة فخفت أنها صيحة القيامة فشاب رأسي وحاجباي وأشفار عيني من مخافة القيامة ، ثم أقبلت على أمها فقالت : يا أماه ، ما حملكِ على أن أذوق كربَ الموت مرتين ، يا أماه اصبري واحتسبي فلا حاجة لي في الدنيا ، ياروح الله وكلمته ، سل ربي أن يردني إلى الآخرة وأن يُهوِّن عليّ كرب الموت . فدعا ربه

فقبضها إليه واستوت عليها الأرض . فبلغ ذلك اليهود فازدادوا عليه غضباً .

وقد روى السدِّي عن أبي صالح وأبي مالك عن ابن عباس في خبر ذكره ، وفيه : أن مَلِكاً من ملوك بني إسرائيل مات وحُمل على سريره ، فجاء عيسى عليه السلام فدعا الله عز وجل ، فأحياه الله عز وجل ، فرأى الناس أمراً هائلا ومنظراً عجيباً .

* * *

● تذكير الله عيسى مدى نعمه عليه وعلى أمه عليهما السلام :

ثم أخذ سبحانه وتعالى يُذكِّر عيسى بجلائل نعمه وعظائم آلائه عليه وعلى أمه من جميع الجوانب وسائر الزوايا في آفاق هذه الحياة ، فقال تعالى وهو أصدق القائلين : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً ، وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ ، وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي ، وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي ، وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي ، وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ * وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ (١) .

ففي هذه الآيات البينات والرسائل العظيمة يُذكِّره بنعمه عليه وإحسانه إليه في خَلْقه إياه من غير أب ، بل من أم بلا ذكر ، وجعله له آية للناس ودلالة على كمال قدرته ، ثم إرساله بعد هذا كله ، وكما يُذكِّره بذلك فإنه يُذكِّره بفضله على والدته بقوله : ﴿ وَعَلَى وَالِدَتِكَ ﴾ وذلك باصطفائها واختيارها لهذه النعمة

---

(١) المائدة : ١١٠ - ١١١ .

العظيمة وإقامة البرهان على براءتها مما نسبها إليه الجاهلون ، ولهـذا قـال : ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ القُدُسِ ﴾ وهو جبريل بإلقاء روحه إلى أمه وقرنه معه في حال رسالته ومدافعته عنه لمن كفر به ﴿ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً ﴾ أي: تدعو الناس إلى الله في حال صغرك في مهدك وفي كهولتك ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ ﴾ أي : الخط والفهم ؛ نص على ذلك بعض السَلَف ﴿ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ ﴾ أي : كما علمتك الكتاب والحكمة ، فكذلك علمتك التوراة والإنجيل ، وفضلاً عن ذلك فقد جعلتك ﴿ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي ﴾ أي : تُصوِّره وتُشكِّله من الطين على هيئة الطير عن أمر الله بذلك ﴿ فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي ﴾ أي : بأمري ، يؤكد تعالى بذكر الإذن له في ذلك لرفع التوهُّم ، وقوله : ﴿ وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ ﴾ قال بعض السَلَف : وهو الذي يُولد أعمى ولا سبيل لأحـد من الحكماء إلى مداواته ، ﴿ وَالأَبْرَصَ ﴾ وهو الذي لا طبٌ فيه بل مرض بالبرص وصار داؤه عضالاً ، ﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى ﴾ أي : من قبورهم أحياء ﴿ بِإِذْنِي ﴾ ، وقوله : ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ ، وذلك حين أرادوا صلبه فرفعه الله إليه وأنقذه من بين أظهرهم صيانة له ولحياته عن الأذى ، وقوله : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ قيل : المراد بهذا الوحي وحي إلهام ، أي : أرشدهم الله إليه ودلّهم عليه ، وهذا المعنى الذي أشرنا إلى أنه المراد نظيره قوله :﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ، فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليَمِّ ﴾(٢) ، وقيل : المراد وحي بواسطة الرسول وتوفيق في قلوبهم لقبول الحق ، ولهذا استجابوا قائلين : ﴿ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ .

وهذا من جملة نِعَم الله على عبده ورسوله عيسى ابن مريم ، نعم ..إن من نِعَم

---

(١) النحل : ٦٨ . (٢) القصص : ٧ .

الله عليه أن جعل له أنصاراً وأعواناً ينصرونه ويدعون معه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وذلك كما قال تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ : ﴿ هُوَ الَّذي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(١) وهذه الآيات قد جاءت بسورة الأنفال ، وجاء في سورة آل عمران قوله تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ * وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ ، وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي المَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ ، وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ، وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ ، قَالَ الحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ ، وَاللهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ ﴾ (٢) فكانت معجزة كل نبي في زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان ، فهذه معجزات عيسى ، ومعجزات موسى أن قوم فرعون كانوا سحرة ، فكانت معجزاته ما تعلمون ، ومعجزات سيد الخلق عليه الصلاة والسلام القرآن العظيم لأن قومه كانوا بلغاء فصحاء . وهكذا جاءت معجزة كل نبي بما يناسب المبعوث إليهم .

والمقصود : أن عيسى ابن مريم لما أقام عليهم الحجج والبراهين استمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم وطغيانهم ، فانتدب له من بينهم طائفة كانوا له أنصاراً وأعواناً قاموا بمتابعته ونُصرته ومناصحته ، وذلك حين هَمَّ به بنو إسرائيل روشَوْا به إلى بعض ملوك ذلك الزمان ، فعزموا على قتله وصلبه ،

---

(١) الأنفال : ٦٢ - ٦٣ .

(٢) آل عمران : ٤٨ - ٥٤ .

فأنقذه الله منهم ورفعه إليه من بين أظهرهم ، وألقى شبهه على أحد أصحابه فأخذوه فقتلوه وصلبوه وهم يعتقدونه عيسى ، وهم في ذلك خاطئون وللحق مكابرون ، وسلّم لهم كثير من النصارى ما ادعوه وكِلا الفريقين مخطئون ، وعن الحق والصواب بعيدون .

* * *

● **بشارة عيسى بمحمد الرسول النبي الأُمي عليهما الصلاة والسلام:**

وبعد أن تحدثت الرسالة من بين ما تحدثت به عن مدى فضل الله على عيسى وأمه ، وإنقاذه من بنى إسرائيل بعد عزمهم على قتله وصلبه إلى آخر ما جاء في هذا المجال ، أخذت تتحدث عن مراحل أخرى جديرة بالاهتمام ، وأطوار عظيمة الشأن وتطورات بعيدة المدى ، أعرب عنها قوله عز وجل : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلامِ ، وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (١) .... إلى أن قال بعد ذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ، فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ، فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ (٢) .

فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني إسرائيل وقد قام فيهم خطيباً فبشّرهم بخاتَم الأنبياء بعده ونوّه باسمه وذكر لهم صفته ليعرفوه ويتابعوه إذا

(١) الصف : ٦ - ٨ . (٢) الصف : ١٤ .

شاهدوه إقامة للحجة عليهم وإحساناً من الله إليهم ، كما قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [(١)] .

قال محمد بن إسحاق : حدثني ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا : يا رسول الله ، أخبرنا عن نفسك . قال : « دعوة أبي إبراهيم ، وبُشرى عيسى ، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بُصري من أرض الشام » .

وقد رُوِيَ عن العرباض بن سارية وأبي أمامة عن النبي ﷺ نحو هذا وفيه : « دعوة أبي إبراهيم وبُشرى عيسى » ، وذلك أن إبراهيم لما بني الكعبة قال : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ ﴾[(٢)] ، ولما انتهت النبوة في بني إسرائيل إلى عيسى قام فيهم خطيباً فأخبرهم أن النبوّة قد انقطعت عنهم وأنها بعده في النبي العربي الأمي خاتَم الأنبياء على الإطلاق أحمد . وهو محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب بن هاشم ، الذي هو سُلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهم السلام .

ولما قام عيسى عليه السلام بنشر الدعوة إلى الله تعالى في بني إسرائيل وسارع إلى إرشادهم وبث روح الدين فيهم آمنت به طائفة منهم وكفرت طائفة ، وقد حَثَّ الله تعالى عباده المؤمنين على نُصرة الإسلام وأهله ، ونُصرة نبيه ومؤازرته ومعاونته على القيام بهذه الدعوة وذيوعها في الآفاق فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ،

(١) الأعراف : ١٥٧ . (٢) البقرة : ١٢٩ .

فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ، فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ (١) يقول عيسى للحواريين : مَنْ يساعدني في الدعوة إلى الله والقيام بها كما ينبغي ؟ قال الحواريون : ﴿ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴾ ، وقد كان ذلك في قرية يقال لها الناصرة فسُمُّوا بذلك النصارى - نسبة إلى الناصرة - ثم يقول تعالى معبِّراً عما صار إليه أمرهم : ﴿ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ﴾ يعني : لما دعا عيسى بني إسرائيل وغيرهم إلى عبادة الله تعالى انقسموا قسمين ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، وكان ممن آمن به أهل أنطاكية بكمالهم فيما ذكره غير واحد من أهل السير والتواريخ والتفسير ، بعث إليهم رسلاً ثلاثة - أحدهم شمعون الصفا - فآمنوا واستجابوا لدعوته وليس هؤلاء هم الذين جاء ذكرهم في سورة يس في قصة أصحاب القرية في قوله : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ ﴾ (٢) . فأما الذين كفروا من بني إسرائيل فهم جمهور اليهود ، فَأَيَّد اللهُ الذين آمنوا من بني إسرائيل على مَنْ كفر منهم وأصبحوا على عدوهم ظاهرين قاهرين لهم ، كما قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ (٣) فكل من كان إليه أقرب كان عالياً على من دونه .

ولما كان قول المسلمين فيه هو الحق الذي لا شك فيه ، وهو أنه عبد الله ورسوله ، كانوا ظاهرين على النصارى الذين غَلَوا فيه وأطْرُوه وأنزلوه فوق ما أنزله الله به ، وقد تقدم ما جاء في هذا الشأن . ولما كان النصارى أقرب في الجملة مما ذهب إليه اليهود ، كان النصارى قاهرين اليهود في زمن الفترة إلى زمن الإسلام وأهله ، وإلى هذا يوحي قوله تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ، وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ

(١) الصف : ١٤ (٢) يس : ١٣ - ١٤ (٣) آل عمران : ٥٥

آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ، ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (١)

* * *

• طلب المائدة ونزولها :

قال أبو جعفر بن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثني حجاج عن ليث عن عقيل عن ابن عباس : أنه كان يُحَدِّث عن عيسى ابن مريم أنه قال لبني إسرائيل : هل لكم أن تصوموا لله ثلاثين يوماً ثم تسألوه فيُعطيكم ما سألتم ، فإن أجر العامل على من عمل له . ففعلوا ، ثم قالوا : يا معلم الخير ، قلت لنا : إن أجر العامل على من عمل له ، وأمرتنا أن نصوم ثلاثين يوماً ففعلنا ولم نكن نعمل لأحد ثلاثين يوماً إلا أطعمنا حين نفرغ طعاماً ، فهل ﴿ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ ؟ قال عيسى : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) . قالوا : ﴿ نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ * قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ ، وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ، فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾(٣) . قال : فأقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة حتى وضعتها بين أيديهم ، فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم .

كذا رواه ابن جرير ورواه ابن أبي حاتم عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب عن الليث عن عقيل عن ابن شهاب قال : كان ابن عباس يُحَدِّث فذكر نحوه . وهناك آثار كثيرة وردت في هذا الشأن ، ومضمون تلك الآثار أن عيسى عليه السلام أمر الحواريين بصيام ثلاثين يوماً ، فلما أتموها سألوا من عيسى إنزال

---

(١) المائدة : ٨٢ (٢) المائدة : ١١٢ (٣) المائدة : ١١٣ - ١١٥

المائدة من السماء عليهم ليأكلوا منها وتطمئن بذلك قلوبهم فيعلموا أن الله قد تَقبَّل صيامهم وأجابهم إلى طَلبتهم ، وتكون لهم عيداً يُفـطِرُون عليها يـوم فطرهم ، وتكون كافية لأولهم وآخرهم ، لغنيهم وفقيرهم ، فوعظهم عيسى عليه السلام في ذلك وخاف عليهم أن لا يقوموا بشكرها ولا يؤدوا حق شروطها ، فأبوا عليه إلا أن يسأل لهم ذلك من ربه عز وجل .

فلما لم يُقْلِعوا عن ذلك وأصرُّوا عليه ، قام إلى مصلاَّه ولبس مَسْحاً من شَعر وصَفَّ بين قدميه وأطرق رأسه ، وأسبل عينيه بالبكاء وتضرع إلى الله في الدعاء والسؤال أن يُجابوا إلى ما طلبوا ، فأنزل الله المائدة من السماء والناس ينظرون إليها تنحدر بين غمامتين ، وجعلت تدنو قليلاً ، وكلما دنت سأل عيسى ربه عز وجل أن يجعلها رحمة لا نقمة ، وأن يجعلها بركة وسلاماً ، فلم تزل تدنو حتى استقرت بين يدي عيسى عليه السلام وهي مغطاة بمنديل ، فقام عيسى يكشف عنها وهو يقول : « بسم الله خير الرازقين » فإذا عليها سبعة من الحيتان وسبعة أرغفة ويقال : وخلّ . ويقال : ورُمّان وثِمار . ولها رائحة عظيمة جداً . قال الله تعالى لها : كوني ، فكانت .

ثم أمرهم بالأكل منها . فقالوا : لا نأكل حتى تأكل . فقال : إنكم الذين ابتدأتم السؤال لها . فأبوا أن يأكلوا منها ابتداءً ، فأمر الفقراء والمحاويج والمرضى والزَّمنى ، وكانوا قريباً من ألف وثلاثمائة فأكلوا منها ، فبرأ كلُّ من به عاهة وآفة أو مرض مزمن ، فندم الناس على ترك الأكل منها لما رأوا من إصلاح حال أولئك ، ثم قيل : إنها كانت تنزل كل يوم مرة فيأكل الناس منها ، يأكل آخرهم كما يأكل أولهم ، حتى قيل : إنه كان يأكل نحو سبعة آلاف ، ثم كانت تنزل يوماً بعد يوم كما كانت ناقة صالح يشربون لبنها يوماً بعد يوم ، ثم أمر الله عيسى أن يَقْصرها على الفقراء والمحاويج دون الأغنياء . فشَقَّ ذلك على كثير من الناس وتكلم منافقوهم في ذلك ، فَرُفِعَتْ نهائياً ومُسِخَ الذين تكلموا في ذلك خنازير .

وقد روى ابن أبي حاتم ، وابن جرير معاً : حدثنا الحسن بن قزعة الباهلي ، حدثنا سفيان بن حبيب ، حدثنا سعيد بن أبي عَرُوبة عن قتادة عن خِلاس عن عمار بن ياسر عن النبي ﷺ قال : نزلت المائدة من السماء خبز ولحم ، وأمروا أن لا يخونوا ، ولا يدخروا ، ولا يرفعوا لغد . فخانوا وادخروا ورفعوا ، فمُسِخُوا قِردة وخنازير . ثم رواه ابن جرير عن بندار عن ابن أبي عَدِي عن سعيد عن قتادة عن خِلاس عن عمّار موقوفاً ، وهذا أصح ، وكذا رواه من طريق سِمَاك عن رجل من بني عجل عن عمّار موقوفاً ، وهو الصواب .

وخِلاس عن عمّار منقطع ، فلو صَحَّ هذا الحديث مرفوعاً لكان فيصلاً في هذه القصة ، فإن العلماء اختلفوا في المائدة هل نزلت أم لا ؟ فالجمهور على أنها نزلت كما دلّت عليه الآثار ، وكما هو المفهوم من ظاهر سياق القرآن ولا سيما قوله : ﴿ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ كما قرره ابن جرير .

* * *

• الحواريون ونبيهم عيسى عليه السلام :

قال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا رجل سقط اسمه ، حدثنا حجاج بن محمد ، حدثنا أبو هلال محمد بن سليمان عن بكر بن عبد الله المزني ، قال : فَقَدَ الحواريون نبيهم عيسى عليه السلام ، فقيل لهم : توجّه نحو البحر ، فانطلقوا يطلبونه ، فلما انتهوا إلى البحر إذا هو يمشي على الماء يرفعه الموج مرة ويضعه أخرى وعليه كساء مرتَدٍّ بنصفه ومؤتزر بنصفه حتى انتهى إليهم . فقال له بعضهم - قال أبو هلال : ظننت أنه من أفاضلهم - : ألا أجئ إليك يا نبي الله ؟ قال : بلى . قال : فوضع إحدى رجليه على الماء ، ثم ذهب ليضع الأخرى . فقال : أوه .. غرقتُ يا نبيَّ الله . فقال : أرني يدك يا قصير الإيمان ، لو أن لابن آدم من اليقين قدر شعيرة لمشى على الماء .

رواه أبو سعيد الأعرابي عن إبراهيم بن أبي الجحيم عن سليمان بن حرب عن أبي هلال عن بكر بنحوه .

وقال إسحاق بن بشر ، عن هشام بن حسان عن الحسن ، قال : إن عيسى

رأس الزاهدين يوم القيامة . قال : وإن القرّارين بذنوبهم يُحشرون يوم القيامة مع عيسى .

قال : وبينما عيسى يوماً نائماً على حَجَرٍ قد توسَّدَه ، وقد وجد لَذة النوم ، إذ مَرَّ به إبليس فقال : يا عيسى ، ألستَ تزعم أنك لا تُريد شيئاً من عَرَض الدنيا ؟ فهذا الحجر من عَرَض الـدنيا . قال : فقام عيسى فأخذ الحجر فرمى به إليه . وقال : هذا لك مع الدنيا .

وقال معتمر بن سليمان : خرج عيسى على أصحابه وعليه جبة صوف وكساء وتُبَّان [1] ، حافياً باكياً شعثاً مصفَرُّ اللّون من الجوع يابس الشفَتين من العطـش . فقال : السلام عليكم يا بني إسرائيل . . أنا الذي أنزلت الدنيا منزلتها بإذن الله ولا عجب ولا فخر ، أتدرون أين بيتي ؟ قالوا : أين بيتك يا روح الله ؟ قال : بيتي المساجد ، وطيبي الماء ، وأُدامي الجوع ، وسراجي القمر بالليل ، وصلاتي في الشتاء مشارق الشمس ، وريحاني بُقول الأرض ، ولباسي الصوف ، وشعاري خوف رب العزة ، وجُلسَائي الزَّمنى والمساكين ، أصبح وليس لي شئ ، وأمسي وليس لي شئ ، وأنا طيب النفس غير مُكترث ، فمَن أغنى مني وأربح ؟ . (رواه ابن عساكر) .

وعن بعض السّلَف : أن عيسى عليه السلام كان يلبس الشَعر ، ويأكل من ورق الشجر ، ولا يأوى إلى منزل ولا أهل ولا مال ، ولا يدّخر شيئاً لغده . قال بعضهم : كان يأكل من غزل أمه صلوات الله وسلامه عليه .

وقال وهب بن منَبه : وقف عيسى وأصحابه على قبر وصاحبه يُدلّي فيه ، فجعلوا يذكرون القبر وضيقه ، فقال : قد كنتم فيما هو أضيق منه في أرحام أمهاتكم ، فإذا أحب اللهَ أن يُوَسِّع وَسَّعَ .

وقال أبو عمر الضرير : بلغني أن عيسى كان إذا ذُكِرَ الموت يقطر جلده دماً .

---

(١) التبان : سروال صغير يستر العورة المغلظة .

والآثار في مثل هذا كثيرة جداً وكلها تُعَبِّر عن مدى زهده في الدنيا ، وقد اقتصرنا منها على هذا القدر لأن المجال لا يتسع لأوسع من هذا . والله الموفق .

* * *

● **رفع عيسى عليه السلام إلى السماء والآيات التي تُوحي بذلك :**

تقوم تيارات مختلفة الاتجاهات حول رفع عيسى عليه السلام إلى السماء وتضارب الآراء العميقة في هذا الموضوع الذي لا ريب فيه ولا جدال في تحققه وثبوته ، والإيمان بذلك الرفع وهذه الآية العظيمة من مقتضيات الدين ومستلزمات الإيمان . فإن الآيات التي تُوحي بذلك وتتحدث به لا تحتمل تأويلاً ولا تقبل تحريفاً ، ودعوى اليهود والنصارى عدم الرفع ، إنما تقوم على غير هدى ولا تستند إلا على زيغ القلوب وانحرافها عن الصراط السوِّي ومن اهتدى ، وكذلك كذبهم في دعوى الصلب . قال الله تعالى في دحض تلك المفتريات والقضاء على غاسق الشبهات : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ، وَاللَّهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ * إذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إلَى يَوْمِ القِيَامَةِ ، ثُمَّ إلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (١) .

تحدثت هذه الآيات من سورة آل عمران بالرفع إليه تعالى كما أوحى بذلك ما جاء في سورة النساء إذ يقول جل شأنه : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إلاَّ قَلِيلاً * وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً * وَقَوْلِهِمْ إنَّا قَتَلْنَا المَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ، وَإنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ، مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ ، وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً * بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ

(١) آل عمران : ٥٤ – ٥٥

إلَيْه ، وكَانَ اللّهُ عَزيزاً حَكيماً * وَإنْ منْ أهْلِ الكتَاب إلاَّ ليُؤْمنَنَّ به قَبْلَ مَوْته ، وَيَوْمَ القيَامَة يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهيداً ﴾ (١) . فأخبر تعالى أنه رفعه إلى السماء بعد ما توفاه بالنوم على الصحيح المقطوع به وخاصة ممن كان أراد أن يؤذيه من اليهود الذين وشَوْا به إلى بعض الملوك الكفرة في ذلك الزمان . قال تعالى مُعَبِّراً عن المراد من التوفية وأنها النوم : ﴿ اللّهُ يَتَوَفَّى الأنْفُسَ حينَ مَوْتهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ، فَيُمْسكُ الَّتي قَضَى عَلَيْهَا المَوْتَ وَيُرْسلُ الأُخْرَى إلَى أجَلٍ مُسَمّىً ﴾ (٢) .

قال الحسن البصري ومحمد بن إسحاق : كان اسم ذلك الملك الكافر الذي وشى اليهود بعيسى إليه داوود بن فودا ، فأمر بقتله وصلبه ، فحاصروه في دار ببيت المقدس ، وذلك عشية الجمعة ليلة السبت ، فلما حان وقت دخولهم ألقى شبهه على بعض أصحابه الحاضرين عنده ورُفِعَ عيسى من رَوزنة من ذلك البيت إلى السماء وأهل البيت ينظرون ، ودخل الشُّرط فوجدوا ذلك الشاب الذي ألقى عليه شبهه فأخذوه ظانيِّن أنه عيسى فصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه إهانة له ، وسلّم لليهود عامّةُ النصارى الذي لم يشاهدوا ما كان من أمر عيسى أنه صُلِب وضلّوا بسبب ذلك ضلالاً بعيداً .

ومما لا جدال فيه أن عيسى عليه السلام سينزل في آخر الزمان ويحكم بشريعة نبينا محمد ﷺ ، ولما كان ذلك أمراً مُسَلّماً به فقد أخبر عنه بقوله : ﴿ وَإنْ منْ أهْلِ الْكتَاب إلاَّ لَيُؤْمنَنَّ به قَبْلَ مَوْته ﴾ أي : بعد نزوله إلى الأرض قبل قيام الساعة ، فإنه ينزل ويقتــل الخنزير ويكسر الصليب ، ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام .

وقد عبّرت الأحاديث أصدق تعبير عن مدى تحقق ذلك الرفع وثبوته وأعربت الآثار الباهرة بروائع آياتها عما جاء في هذا الشأن .

---

(١) النساء : ١٥٥ - ١٥٩ (٢) الزمر : ٤٢

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا أبو معاوية عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه وفي البيت اثنا عشر رجلاً منهم من الحواريين . يعني : فخرج عليهم من عين في البيت ورأسه يقطر ماءً فقال : إن منكم من يكفر بي اثنى عشرة مرة بعد أن آمن بي ، ثم قال : أيكم يُلقي عليه شبهي فيقتل مكاني فيكون معي في درجتي ؟ . فقام شاب من أحدثهم سناً ، فقال له : اجلس . ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال : أنا . فقال : أنت هو ذاك . فألقى عليه شبه عيسى ورُفع من رَوزنة في البيت إلى السماء . قال : وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه ، فكفر به بعضهم اثنى عشرة مرة بعد أن آمن به . وافترقوا ثلاث فرق .. فقالت طائفة : كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء ، وهؤلاء اليعقوبية . وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء النسطورية ، وقالت فرقة : كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء المسلمون ، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ . قال ابن عباس : وذلك قوله : ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ [(1)] .

وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس على شرط مسلم ، ورواه النسائي عن أبي كريب عن أبي معاوية به ونحوه ، ورواه ابن جرير عن مسلم بن جنادة عن أبي معاوية .

وهكذا ذكره عير واحد من السَلَف ، وممن ذكر ذلك مطولاً محمد بن إسحاق ابن يسار .

قال : وجعل عيسى عليه السلام يدعو الله عز وجل أن يؤخر أجله ليُبَلِّغ

(١) الصف : ١٤

الرسالة ويُكمل الدعوة ويكثر الناسُ الدخول في دين اللّه ، قيل : وكان عنده من الحواريين اثنا عشر رجلاً : بطرس ويعقوب بن زبدي ويحنس أخو يعقوب وأندراوس وفتاتيا وفيلبس وأبرثلما ومتى وتوماس ويعقوب بن حلقيا وتداوس ويودس بن كريايوطا ، وهذا هو الذي دل اليهود على عيسى .

قال ابن إسحاق : وكان فيهم رجل آخر اسمه سرجس ، كتمته النصارى ، وهو الذي أُلقى شبه المسيح عليه فصُلبَ عنه ، وبعض النصارى يزعم أنه الذي صُلب عن المسيح وأُلقى عليه شبهه هو يودس بن كريايوطا . وقال الضحّاك عن ابن عباس : استخلف عيسى شمعون ، وقتلت اليهود يودس الذي أُلقى عليه الشبه . ويهمني أن أسير في طريق الإثبات إلى أبعد مدى وأسمى غاية ، وأن أقدِّم للقراء وجمهور الباحثين من آيات الهُدي والفرقان ما يطرد عن القلوب ارتيابها ويشفيها من أمراضها لتؤمن برفع عيسى إلى السماء وتُصَدِّق بأن القدرة ألقت شبهه على آخر فقُتِلَ وصُلِبَ ، ويبقى عيسى آية للناس في كل القرون والعهود ، وذكرى لمن يستمعون إلى القول فيتبعون أحسنه ، والذكرى تنفع المؤمنين .

قال أحمد بن مروان : حدثنا محمد بن الجهم ، قال : سمعت الفرّاء يقول في قوله تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ، واللَّهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ ﴾ (١) قال : إن عيسى غاب عن خالته زماناً فأتاها . فقام رأس جالوت اليهودي ، فضرب علىَ عيسى حتى اجتمعوا على باب داره فكسروا الباب ودخل رأس جالوت ليأخذ عيسى ، فطمس اللّه عينيه عن عيسى ثم خرج إلى أصحابه فقال : لم أره ، ومعه سيف مسلول ، فقالوا : أنت عيسى وألقى اللّه شبه عيسى عليه فأخذوه فقتلوه وصلبوه ، فقال جل ذكره : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ (٢) .

(١) آل عمران : ٥٤ (٢) النساء : ١٥٧

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا يعقوب القُمِّي عن هارون بن عنترة عن وهب بن منبِّه . قال : أتى عيسى ومعه سبعة عشر من الحواريين في بيت فأحاطوا بهم ، فلما دخلوا عليهم صوَّرهم الله كلهم على صورة عيسى . فقالوا لهم : سحرتمونا ، لتبرزُن إلينا عيسى أو لنقتلنكم جميعاً . فقال عيسى لأصحابه : من يشتري منكم نفسه اليوم بالجنة ؟ من يرى اليوم الجنة ؟ فقال رجل : أنا . فخرج إليهم فقال : أنا عيسى وقد صوَّره الله تعالى صورة عيسى فأخذوه فقتلوه وصلبوه ، فمن ثَمَّ شُبِّه لهم وظنوا أنهم قد قتلوا عيسى ، فظنت النصارى مثل ذلك أنه عيسى ورفع الله عيسى من يومه ذلك .

قال ابن جرير : وحدثنا المثنَّى ، حدثنا إسحاق ، حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم ، حدثني عبد الصمد بن معقل أنه سمع وهباً يقول : إن عيسى ابن مريم لما أعلمه الله أنه خارج من الدنيا جزع من الموت وشَقَّ عليه ، فدعا الحواريين وصنع لهم طعاماً فقال : احضروني اللَّيلة فإن لي إليكم حاجة . فلما اجتمعوا إليه من اللَّيل عشَّاهم وقام يخدمهم ، فلما فرغوا من الطعام أخذ يغسل أيديهم ويوضئهم بيده ويمسح أيديهم بثيابه ، فتعاظموا ذلك وتكارهوه ، فقال : مَنْ رَدَّ عليَّ شيئاً اللَّيلة مما أصنع فليس مني ولا أنا منه . فأقرُّوه حتى إذا فرغ من ذلك قال : أما ما صنعت بكم اللَّيلة مما حدثتكم على الطعام وغسلت أيديكم بيدي ، فليكن لكم بي أُسوة فإنكم ترون أني خيركم فلا يتعاظم بعضكم على بعض ، وليبذل بعضكم لبعض نفسه كما بذلتُ نفسي لكم ، وأما حاجتي التي استعنتكم عليها فتدعون الله لي وتجتهدون في الدعاء بأن يؤخر أجلي .

فلما نصبوا أنفسهم للدعاء وأرادوا أن يجتهدوا أخذهم النوم حتى لم يستطيعوا دعاءً ، فجعل يُوقظهم ويقول : سبحان الله ، أما تصبرون لي ليلة واحدة تُعينوني فيها . فقالوا : والله ما ندري ما لنا ، والله لقد كنا نَسْمُر فَنُكْثِر السمر وما نطيق اللَّيلة سمراً وما نريد دعاء الله إلا حِيل بيننا وبينه .

فقال : يُذهب بالراعي وتتفرق الغنم . وجعل يأتي بكلام نحو هذا ينعي به

نفسه ، ثم قال : الحق ليكفرن بي أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات وليبيعني أحدكم بدراهم يسيرة وليأكُلنَّ ثَمَني .

فخرجوا وتفرَّقوا وكانت اليهود تطلبه فَأخذوا شمعون أحد الحواريين فقالوا : هذا من صحابه فجحد . وقال : ما أنا بصاحبه ، فتركوه ، ثم أخذه آخرون فجحد كذلك ، ثم سمع صوت ديك فبكى وأحزَنَه .

فلما أصبح أتى أحد الحواريين إلى اليهود فقال : ما تجعلون لي إن دللتكم على المسيح ؟ فجعلوا له ثلاثين درهماً فأخذها ودلَّهم عليه . وكان شُبِّهَ عليهم قبل ذلك فأخذوه واستوثقوا منه وربطوه بالحبل وجعلوا يقودونه ويقولون : أنتَ كنتَ تُحيي الموتى وتنتهر الشيطان وتُبرئ المجنون . . . أفلا تُنجي نفسك من هذا الحبل ؟ . . ويَبْصَقُون عليه ويُلْقون عليه الشوك حتى أتوا به الخشبة التي أرادوا أن يصلبوه عليها ، فرفعه الله إليه وصلبوا ما شُبِّهَ لهم فمكث سبعاً.

ثم إن أُمه والمرأة التي كان يداويها عيسى فأبرأها الله من الجنون جاءتا تبكيان حيث كان المصلوب . فجاءهما عيسى . فقال : علام تبكيان ؟ قالتا : عليك . فقال : إني قد رفعني الله إليه ولم يصبني إلا خير ، وإن هذا شئ شُبِّهَ لهم ، فأمرا الحواريين أن يَلْقُوني إلى مكان كذا وكذا ، فَلَقُوه إلي ذلك المكان أحَدَ عشر وفُقد الذي كان باعه ودَلَّ عليه اليهود . فسأل عنه أصحابه فقالوا : إنه ندم على ما صنع فاختنق وقتل نفسه . فقال : لو تاب لتاب الله عليه . ثم سألهم عن غلام كان يتبعهم يقال له يحيى . فقال : هو معكم فانطلقوا فإنه سيصبح كل إنسان منكم يُحَدِّث بِلُغة قوم فلينذرهم ولَيدْعُهُم . وهذا إسناد غريب عجيب وهو أصح مما ذكره النصارى - لعنهم الله - من أن المسيح جاء إلى مريم وهي جالسة تبكي عند جذعة فأراها مكان المسامير من جسده وأخبرها أن روحه رُفِعَتْ ، وأن جسده صُلِبَ ، وهذا محض افتراء وتوهم باطل لا نصيب له من الصحة ، فإنه رُفِعَ بروحه وجسده عليه السلام كما دَلَّ ظاهر القرآن

وتحـدثت الآثار والأخبار ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ ﴾ (١) فإن ما قالوه بُهْتٌ وكذب واختلاق وتحريف وزيادة باطلة في الإنجيل علي خلاف الحق ومقتضى الدليل .

* * *

• سؤال مريم عن عيسى بعد ما صُلِبَ المصلوب :

حكى الحافظ ابن عساكر من طريق يحيى بن حبيب ، فيما بلغه : أن مريم سألت من بيت الملك بعد ما صُلِبَ المصلوب بسبعة أيام ، وهي تحسب أنه ابنها أن يُنْزِل جسده ، فأجابهم إلى ما طلبوا ودُفِنَ هنالك ، فقالت مريم لأم يحيى : ألا تذهبين بنا نزور قبر المسيح . فذهبتا ، فلما دنتا من القبر قالت مريم لأم يحيى : ألا تستترين . فقالت : وممن أستتر . فقالت : من هذا الرجل الذي هو عند القبر . فقالت أم يحيى : إن لا أرى أحداً !! . فَرَجَتْ مريم أن يكون جبريل ، وكانت قد بَعُدَ عهدها به فاستوقفت أم يحيى ، وذهبت نحو القبر ، فلما دنت من القبر قال لها جبريل – وعَرَفَتَه – : يا مريم ؛ أين تريدين ؟ . فقالت : أَزُور قبر المسيح فأُسَلِّمُ عليه ، وأُحْدِثُ عهداً به . فقال : يا مريم ؛ إن هذا ليس المسيح ، إن الله قد رفع المسيح وطهَّره من الذين كفروا ، ولكن هذا الفتى الذي أُلقى شبهه عليه وصُلِبَ وقُتِلَ مكانه ، وعلامة ذلك أن أهله قد فقدوه فلا يدرون ما فُعِلَ به فهم يبكون عليه ، فإذا كان يوم كذا وكذا . . فأتِ غَيْضَةَ كذا وكذا فإنكِ تَلْقِين المسيح .

قال : فرجعت إلى أختها وصعد جبريل فأخبرتها عن جبريل ، وما قال لها من أمر الغَيْضَة ، فلما كان ذلك اليوم ذهبت فوجدت عيسى في الغَيْضَة ، فلما رآها أسرع إليها وأكَبَّ عليها فقبّل رأسها وجعل يدعو لها كما كان يفعل ، وقال : يا أمَّه .. إن القوم لم يقتلوني ولكن الله رفعني إليه وأذن لي في لقائك ، والموت يأتكِ قريباً

(١) يونس : ٦٩ ، النحل : ١١٦

فاصبري واذكري الله كثيراً ، ثم صعد عيسى فلم تَلْقَه إلا تلك المرة حتى ماتت .
قال : وبلغني أن مريم بقيت بعد عيسى خمس سنين ، وماتت ولها ثلاث وخمسون سنة . رضى الله عنها .

*   *   *

• عمر عيسى عليه السلام يوم رفعه إلى السماء :

وقال الحسن البصري : كان عمر عيسى عليه السلام يوم رُفِعَ أربعاً وثلاثين سنة ، وقد جاء في الحديث : « إن أهل الجنة يدخلون جُرْداً مُرْداً مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين » . وفي الحديث الآخر : « على ميلاد عيسى وحُسْن يوسف » .
وكذا قال حماد بن سلمة عن عليّ بن يزيد عن سعيد بن المسيِّب أنه قال : « رُفِعَ عيسى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة » .

فأما الحديث الذي رواه الحاكم في مستدركه ، ويعقوب بن سفيان الفَسْوي في تاريخه عن سعيد بن أبي مريم عن نافع بن يزيد عن عمارة بن غزيَّة عن محمد ابن عبد الله بن عمرو عن عثمان : « أن أمه فاطمة بنت الحسين حدَّثتهُ أن عائشة كانت تقول : أخبرتني فاطمة أن رسول الله ﷺ أخبرها أنه لم يكن نبي كان بعدَه نبي إلا عاش الذي بعده نصف عمر الذي كان قبله ، وأنه أخبرني أن عيسى ابن مريم عاش عشرين ومائة سنة ، فلا أراني إلا ذاهب على رأس ستين » هذا لفظ الفَسْوي . فهو حديث غريب . قال الحافظ ابن عساكر : والصحيح أن عيسى لم يبلغ هذا العمر وإنما أراد به مدة مقامه في أمته كما روى سفيان بن عُيينة عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة قال : قالت فاطمة : قال لي رسول الله ﷺ : « إن عيسى ابن مريم مكث في بني إسرائيل أربعين سنة » . وهذا منقطع .

وقال جرير والثوري عن الأعمش عن إبراهيم : مكث عيسى في قومه أربعين عاماً . ورُوِيَ عن أمير المؤمنين عليّ أن عيسى عليه السلام رُفِعَ ليلة الثاني والعشرين من رمضان ، وتلك الليلة في مثلها توفى عليّ بعد طعنه بخمسة أيام .

وقد روى الضحاك عن ابن عباس : أن عيسى لما رُفِعَ إلى السماء جاءته سحابة فدنت منه حتى جلس عليها ، وجاءته مريم فودعته وبكت ، ثم رُفِعَ وهي تنظر وألقى إليها عيسى بُرْداً له ، وقال : هذا علامة ما بيني وبينكِ يوم القيامة . وألقى عمامته على شمعون ، وجعلت أمه تودعه بأصبعها تشير بها إليه حتى غاب عنها ، وكانت تُحبه حباً شديداً لأنه موفر عليها حبه من جهتي الوالدين إذ لا أب له ، وكانت لا تفارقه سفراً ولا حَضَراً كما قال بعض الشعراء :

وكنتُ أرى كالموت من بَيْن ساعة — فكيف بِبَيْن كان موعده الحشر

* * *

• شمائل عيسى وفضائله وصفاته الحميدة وآياته المجيدة :

لو شاء البيان أن تُعَبِّر آياته عن شمائل عيسى أو أراد القلم أن يُسَطِّر فضائله لما وسعته هذه الصحائف ولا قبلته آفاق هذا المقام ، والقرآن الكريم هو الذي يستطيع أن يتحدث عنه ويُعَبِّر عن ذلك الجانب العظيم ، فعلى هَـدي الآيات نسير ، وعلى ضوئها وهَديها ندع الرسالة السماوية وحدهـا تتكلم قال تعالى : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ (١).

قيل سُمِّي المسيح لمسحه الأرض ، وهو سياحته فيها وفراره من الفتن بدينه في ذلك الزمان لشدة تكذيب اليهود له وافترائهم عليه وعلى أمه . وقال تعالى : ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ، وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ (٣) .

والآيات التي جاءت تعبيراً عن ذكره كثيرة جداً . وكما تَحدَّث القرآن فقد

---

(١) المائدة : ٧٥ — (٢) المائدة : ٤٦ — (٣) البقرة : ٨٧

أوحت السُّنة بذلك أيضاً ، إذ يهدي إليه ما جاء في الصحيحين : « ما من مولود إلا والشيطان يطعن في خاصرته حين يولد ، فيستهل صارخاً : إلا مريم وابنها ، ذهب يطعن فطعن في الحجاب » ، وقد جاء في حديث عمر بن هانئ عن جنادة عن عبادة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبد الله ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق ، والنار حق : أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » (رواه البخاري - وهذا لفظه - ومسلم) .

وروى البخاري ومسلم من حديث الشعبي عن أبي بُرْدة بن أبي موسى عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أدَّب الرجل أمته فأحسن تأديبها وعَلَّمها فأحسن تعليمها ، ثم أعتقها فتزوجها كان له أجران ، وإذا آمن بعيسى ابن مريم ثم آمن بي فله أجران » . (هذا لفظ البخاري) .

وقال البخاري كذلك : حدثنا إبراهيم بن موسى . أنبأنا هشـام عن معمر « ح » وحدثني محمود ، حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا مَعْمَر عن الزهري ، أخبرني سعيد بن المسيِّب عن أبي هريرة قال : رسول الله ﷺ : « ليلة أُسرى بي لقيتُ موسى - قال فَنَعَتَهُ - فإذا رجل حسبته قال - : مُضْطرب رَجِل الرأس كأنه من رجال شنوءة قال : ولقيتُ عيسى - فَنَعَتَهُ النبي ﷺ فقال - : ربعة [1] أحمر كأنما خرج من ديماس - يعني الحمام - ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به » .... الحديث .

ثم قال : حدثنا محمد بن كثير ، أنبأنا إسرائيل عن عثمان بن المغيرة عن مجاهد عن ابن عمر قال : قال النبي ﷺ : « رأيتُ عيسى وموسى وإبراهيم ؛ فأما عيسى فأحمر جَعْدة عريض الصدر ، وأما موسى فآدم جَسِيم سَبْط [2] كأنه من رجال الزُّط » (تفرَّد به البخاري) .

(١) الربعة : المتوسط بين الطول والقصر .

(٢) السبط : المسترسل الشعر .

وحدثنا إبراهيم بني المنذر ، حدثنا أبو ضَمْرَة ، حدثنا موسى بن عُقبة عن نافع قال : قال عبد الله بن عمر : ذكر النبي ﷺ يوماً بين ظهراني الناس المسيح الدَّجال فقال : « إن الله ليس بأعور ، إلا أن المسيح الدَّجال أعور العين اليُمنى كأن عينه عنبة طافية ، وأراني الليلة عند الكعبة في المنام فإذا رجل آدم كأحسن ما يُرى من أُدم الرجال تضرب لُمَّتهُ بين مَنكبيه رَجِلُ الشعر يقطر رأسه ماء واضعاً يديه على منكَبيْ رجُلين وهو يطوف بالبيت . فقلت من هذا ؟ فقالوا : المسيح ابن مريم ، ثم رأيتُ رجلاً وراءه جعداً [1] قططاً [1] أعور عين اليمنى كأشبه من رأيتُ بابن قَطن واضعاً يده على منِكب رجل يطوف بالبيت . فقلت : من هذا ؟ فقال : المسيح الدجال » . ورواه مسلم من حديث موسى بن عقبة . ثم قال البخاري : تابعه عبد الله بن نافع . ثم ساقه من طريق الزهري عن سالم بن عمر قال الزهري : وابن قطن رجل من خزاعة هلك في الجاهلية .

فبيَّن صلوات الله وسلامه عليه صفة المسيحيْن : مسيح الهدى ومسيح الضلالة ، ليُعْرَف هذا إذا نزل فيؤمن به المؤمنون ، ويُحذر الآخر فيحذره الموحِدون .

وقال البخاري : حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا عبد الرزاق : حدثنا معمر عن همام بن منبِّه ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « رأى عيسى ابن مريم رجلاً يسرق . فقال له : أسرقت ؟ قال : كلا والذي لا إله إلا هو . فقال عيسى : آمنتُ بالله وكذبتُ عيني » . وكذا رواه مسلم عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق . وقال أحمد : حدثنا عفَّان ، حدثنا حمَّاد بن سَلمة عن حميد الطويل عن الحسن وغيره عن أبي هريرة قال : ولا أعلمه إلا عن النبي ﷺ قال : « رأى عيسى رجلاً يسرق فقال : يا فلان أسرقت ؟ . فقال : لا والله ما سرقتُ ، فقال : آمنتُ بالله وكذَّبتُ بصري » .

---

(١) الجعد : خلاف السبط وهو المسترسل من الشعر .   (٢) القطط : الشديد الجعودة .

وهذا يدل على سجيّة طاهرة حيث قدّم حَلف ذلك الرجل وظن أن أحداً لا يحلف بالله كاذباً على ما شاهده منه عَياناً فقبل عذره ، ورجع على نفسه فقال : « آمنت بالله – أي صدّقتك – وكذّبتُ بصري – لحَلفكَ – » . وقال البخاري : حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان عن المغيرة بن النعمان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : تُحشرون حُفاة عُراة غُرْلاً ثم قرأ : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ، وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (١) . فأول الخلق يُكسَى إبراهيم ، ثم يؤخذ برجال من أصحابي ذات اليمين وذات الشمال فأقول : أصحابي . فيقال : إنهم لن يزالوا مُرْتَدِّين على أعقابهم منذ فارقتهم . فأقول كما قال العبد الصالح عيسى ابن مريم : ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ، وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢) . (تفرّد به دون مسلم من هذا الوجه) .

وقال أيضاً : حدثنا عبد الرحمن بن الزبير الحميدي ، حدثنا سفيان ، سمعتُ الزهري يقول : أخبرني عبد الله بن عبد الله عن ابن عباس أنه سمع عمر يقول على المنبر : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « لا تَطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، فإنما أنا عبدٌ ، فقولوا عبد الله ورسوله » .

وقال البخاري : حدثنا إبراهيم ، حدثنا جرير بن حازم عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : قال . « لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة : عيسى . وكان في بني إسرائيل رجل يُقال له : جُرَيج يُصلّي ، إذ جاءته أمه فدعته . فقال : أجيبها أو أصلي ؟ . فقالت : اللّهم لا تُمته حتى تُريه وجوه المومسات . وكان جُرَيج في صومعة فعرضت له امرأة وكلمّته فأبى . فأتت راعياً فأمكنته من نفسها فولدت غلاماً . فقيل لها : ممن ؟ قالت : من جُرَيج ، فأتوه وكسروا صومعته فأنزلوه وسبُّوه فتوضأ وصلّى ثم أتى الغلام فقال : من أبوك يا غلام ؟

(١) الأنبياء : ١٠٤ . (٢) المائدة : ١١٧ – ١١٨

قال : فلان الراعي . قالوا أنبني صومعتك من ذهب ؟ قال : لا إلا من طين . وكانت امرأة تُرضع ابناً لها في بني إسرائيل فمرٌ بها رجل راكب ذو شارة ، فقالت : اللّهم اجعل ابني مثله ، فترك ثديها وأقبل على الراكب فقال : اللّهم لا تجعلني مثله ، ثم أقبل على ثديها يَمُصُّه . قال أبو هريرة : كأني أنظر إلى النبي ﷺ يَمُصُّ أصبعه ، ثم مر بَأمة فقالت : اللّهم لا تجعل ابني مثل هذه . فترك ثديها ، فقال : اللّهم اجعلني مثلها . فقالت : لِمَ ذلك ؟ فقال : الراكب جبّار من الجبابرة ، وهذه الأمة يقولون سرقت وزنت ولم تفعل » .

وقال البخاري : حدثنا اليمان ، حدثنا شعيب عن الزهري ، أخبرني أبو سليمة أن أبا هريرة قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « أنا أولى الناس بابن مريم، والأنبياء أولاد عَلاَّت [1] ليس بيني وبينه نبي » . (تفرد به البخاري من هذا الوجه) .

ورواه ابن حبّان في صحيحه من حديث أبو داوود الحَفَري عن الثوري عن أبي الزّناد عن أبي سلمة عن أبي هريرة ، وقال أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان – هو الثوري – عن أبي الزّناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا أولي الناس بعيسى – عليه السلام – والأنبياء إخوة أولاد عَلاَّت وليس بيني وبين عيسى نبي » .

وهذا إسناد صحيح على شرطهما ولم يخرجوه من هذا الوجه ، وأخرجه أحمد عن عبد الرزاق عن مَعْمَر عن همام عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه . وأخرجه ابن حبّان من حديث عبد الرزاق به نحوه .

* * *

(١) العَلاَّت : الضرائر .

● نزول عيسى آخر الزمان ، وأعماله ، ومدة حكمه ، ووجوب الإيمان به ، ووفاته :

قال أحمد : حدثنا يحيى عن أبي عَرُوبة ، حدثنا قتادة عن عبد الرحمن بن آدم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « الأنبياء إخوة لعَلاَّت ودينهم واحد وأمهاتهم شتَّى ، وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم لأنه لم يكن بيني وبينه نبي ، وأنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه فإنه رجل مَربوع إلى الحُمْرة والبياض ، سَبْط كان رأسه يقطر وإن لم يُصبْه بَلَلٌ ، بين مخصرتين [1] ، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية . ويُعَطلُ الملَل حتى تهلكَ في زمانه كلها غير الإسلام ، ويُهلك الله في زمانه المسيح الدجاَل الكذَّاب ، وتقع الأمَنَة في الأرض حتى ترتع الإبل مع الأسد جميعاً ، والنمور مع البقر ، والذئاب مع الغنم ، ويلعب الصبيان والغلمان بالحيَّات لا يضر بعضهم بعضاً ، فيمكث ما شاء الله أن يمكث ، ثم يُتوفى فيُصَلّي عليه المسلمون ويدفنونه » .

ثم رواه أحمد عن عفّان عن همام عن قتادة عن عبد الرحمن عن أبي هريرة فذكر نحوه وقال : « فيمكث أربعين سنة حتى يُتوفى ويُصَلّي عليه المسلمون ».
ورواه أبو داوود عن هُدْبة بن خالد عن همَّام بن يحيى به نحوه . وروى هشام بن عروة عن صالح مولى أبي هريرة عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « فيمكث في الأرض أربعين سنة » .

وقال البخاري رحمه الله في كتاب ذكر الأنبياء من صحيحه المتلقى بالقبول : « نزول عيسى ابن مريم عليه السلام » : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا أبي عن صالح عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيِّب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده ليُوشكَنَّ أن ينزل فيكم ابن مريم حَكَماً عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجِزية ويفيضُ المال حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها » ثم يقول أبو هريرة :

---

(١) المخصرة : ما يتوكأ عليه كالعصا ، وما يأخذه الملك ليشير به إذا خاطب .

واقرأوا إن شئتم : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ﴾ [١] .

وكذا رواه مسلم عن الحسن الحُلْوَاني وعبد بن حميد كلاهما عن يعقوب به ، وأخرجه البخاري ومسلم أيضاً من حديث سفيان بن عُيينة عن الزهري به ، وأخرجاه من طريق اللَّيث عن الزهري به . ورواه ابن مردويه من طريق محمد بن أبي حفصة عن الزُهري عن سعيد بن المسيَّب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يوشك أن يكون فيكم ابن مريم حَكَماً عدلاً يقتل الدَّجال ، ويقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ويضع الجزية ، ويفيض المال ، وتكون السجدة واحدة لله رب العالمين » . قال أبو هريرة : واقرأوا إن شئتم : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ : موت عيسى ابن مريم . ثم يعيدها أبو هريرة ثلاث مرَات .

وعن أبي هريرة – من طريق أُخرى : قال الإمام أحمد : حدثنا روح ، حدثنا محمد بن أبي حفصة عن الزُهري عن حنظلة بن عليّ الأسلمي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « ليُهلَنَّ عيسى ابن مريم بفج الروحاء بالحج أو العمرة أو ليثنيهما جميعاً » . وكذا رواه منفرداً به من حديث سفيان بن عُيينة واللَّيث بن سعد ويونس بن يزيد ثلاثتهم عن الزُهرى به . وقال أبو عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه في سننه المشهورة : حدثنا عليّ بن محمد ، حدثنا عبد الرحمن المحاربي عن إسماعيل بن أبي رافع عن أبي زرعة الشيباني يحيى بن أبي عمرو عن أبي أمامة الباهلي . قال : خطب رسول الله ﷺ فكان أكثر خطبته حديثاً حدثناه عن الدَّجال وحذَّرناه ، فكان من قوله أن قال : « لم تكن فتنة في الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم عليه السلام أعظم من فتنة الدَّجال ، وإن الله لم يبعث نبياً إلا حذَّر أمته الدجال وأنا آخر الأنبياء ، وأنتم آخر الأمم ، وهو خارج فيكم لا محالة ، فإن يخرج وأنا بين ظهرانيكم ، فأنا حجيج لكل مسلم ، وإن يخرج من بعدي فكل امرىء حجيج نفسه والله خليفتي على كل مسلم ، وأنه يخرج من خَلَّة [٢] بين الشام والعراق فيعيث يميناً ويعيث شمالاً .

---

(١) النساء : ١٥٩

(٢) الخلة : طريق بينهما .

يا عباد الله . . أيُّها الناس : فاثبتوا وإني سأصفه لكم صفة لم يصفها إياه نبي قبلي ، إنه يبدأ فيقول : أنا نبي ، فلا نبي بعدي ، ثم يُثَنِّي فيقول : أنا ربكم ولا ترون ربكم حتى تموتوا ، وإنه أعور ، وإن ربكم عز وجل ليس بأعور ، وإنه مكتوب بين عينيه : كافر يقرأه كل مؤمن كاتب وغير كاتب ، وإن من فتنته أن معه جنة وناراً ، فناره جنة وجنته نار ، فمن ابتُلي بناره فليستغث بالله وليقرأ فواتح الكهف فتكون عليه بَرداً وسلاماً كما كانت النار على إبراهيم ، وإن من فتنته أن يقول لأعرابي : أرأيتَ إن بعثتُ لكَ أباك وأمك أتشهدَ أنِّي ربك ؟ فيقول : نعم . فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه فيقولان : يابُنى اتبعه فإنه ربك ، وإن من فتنة أن يُسَلَّط على نفس واحدة فيقتلها وينشرها بالمنشار حتى يُلْقَي شقين ، ثم يقول : انظروا إلى عبدي هذا فإني أبعثه الآن ، ثم يزعم أن له رباً غيري فيبعثه الله . فيقول له الخبيث : من ربك ؟ . فيقول : ربي الله ، وأنت عدو الله ، أنت الدَّجال ، والله ما كنت أشد بصيرة بك مني اليوم ».

قال أبو الحسن الطنافسي : فحدثنا المحاربي ، حدثنا عبد الله بن الوليد الوصَّافي عن عطية عن أبي سعيد . قال : قال رسول الله ﷺ : « ذلك الرجل أرفع أُمتي درجة في الجنة » . قال : قال أبو سعيد : والله ما كنا نُرَى ذلك الرجل إلا عمر بن الخطَّاب حتى مضى لسبيله .

قال المحاربي : ثم رجعنا إلى حديث أبي رافع . قال : « وإن من فتنته أن يأمر السماء أن تُمطر فتُمطر ، ويأمر الأرض أن تنُبت فتُنبت ، وإن من فتنته أن يسْمُر بالحى فيكذِّبونه فلا تبقى لهم سائمة إلا هلكت ، وإن من فتنته أن يمر بالحى فيصدِّقونه فيأمر السماء أن تُمطر فُتمطر ، ويأمر الأرض أن تُنْبت فتُنبت حتى تروح مواشيهم من يومهم ذلك أسمن ما كانت وأعظمه وأمَدَّه خواصر وأدرَّه ضروعاً ، وأنه لا يبقى شيء من الأرض إلا وطئه وظهر عليه إلا مكة والمدينة ، فإنه لا يأتيهما من نقب من نقابهما إلا لقيته الملائكة بالسيوف صَلْتة [١] حتى ينزل عند الظريب الأحمر [٢] عند منقطع السَّبَخَة [٣] فترجف المدينة بأهلها

(١) أصلت السيف : إذا جره من غمده . (٢) الظريب : جمع مظراب وهى الجبال الصغار .
(٣) السبخة : الأرض التي تعلوها الملوحة .

ثلاث رجفات ، فلا يبقى منافق ولا منافقة إلا خرج إليه فتنفى الخَبث منها كما ينفي الكِيرُ خَبَثَ الحديد ، ويُدعي ذلك اليوم يوم الخلاص » .

فقالت أم شريك بنت أبي البكر : يارسول الله ، فأين العرب يومئذ ؟ . قال : « هم قليل وجلهم ببيت المقدس وإمامهم رجل صالح ، فبينما إمامهم قد تَقَدَّم يُصَلِّي بهم الصبح إذ نزل عيسى ابن مريم عليه السلام الصبح ، فيرجع ذلك الإمام ينكص يمشي القهقري ليُقَدِّم عيسى يُصَلِّي بالناس فيضع عيسى عليه السلام يده بين كتفيه ثم يقول : تقدَّم فَصَلِّ فإنها لك أقيمت . فَيصَلِّي بهم إمامهم فإذا انصرف . قال لهم عيسى عليه السلام : افتحوا الباب . فيُفتح ووراءه الدّجال معه سبعون ألف يهودي كلهم ذو سيف محلي وساج [١] ، فإذا نظر إليه الدّجال ذاب كما يذوب الملح في الماء وينطلق هارباً . ويقول عيسى : إن لي فيك ضربة لن تستبقني بها . فيدركه عند باب اللُدّ الشرقي [٢] فيقتله ويهزم الله اليهود فلا يبقى شئ مما خلق الله تعالى يتوارى به اليهودي إلا أنطق الله ذلك الشئ - لا حجر ولا شجر ولا حائط إلا الغَرْقدة[٣] ، - فإنها من شجرهم لا تنطق - إلا قال : يا عبد الله المسلم . هذا يهودي فتعال اقتله » .

قال رسول الله ﷺ : « وإن أيامه أربعون سنة ، السنة كنصف السنة ، والسنة كالشهر ، والشهر كالجمعة ، وآخر أيامه كالشررة يُصبح أحدكم على باب المدينة ، فلا يبلغ بابها الآخر حتى يُمْسي » . فقيل له : يا نبي الله ، كيف نصلي في تلك الأيام القصار ؟ . قال : « تُقَدِّرون فيها الصلاة كما تُقَدِّرون في هذه الأيام الطوال ، ثم صَلُّوا » . قال رسول الله ﷺ : « فيكون عيسى ابن مريم في أمتي حَكَماً عدلاً ، وإماماً مُقْسِطاً يَدُقُّ الصليب [٤] ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويترك الصدقة فلا يُسْعَى على شاة ولا بعير ، وترتفع الشحناء والتباغض ، وتنزع حُمَة [٥] حتى يدخل الوليد يده في الحية فلا

---

(١) الساج : الطيلسان . (٢) اللُد : بلد بالشام . (٣) الغرقدة : شجر الشوك .
(٤) بدق الصليب : يكسره . (٥) الحمة - بضم الحاء وفتح الميم مخففة : إبرة العقرب التي يخرج منها السم .

تضره ، وتُفرُّ [1] الوليدة الأسد فلا يضرها ، ويكون الذئب في الغنم كأنه كلبــها ، وتَملأ الأرض من السلم كما يُملأ الإناء من الماء ، وتكون الكلمة واحدة فلا يُعبد إلا الله تعالى ، وتضع الحرب أوزارها ، وتسلب قريش ملكها وتكون الأرض كَفَاثور [2] الفضة تُنبت نباتها كعهد آدم حتى يجتمع النفر على القَطْفَ من العنب فيُشبعهم ، ويجتمع النفر على الرُّمَانة فتُشبعهم ، ويكون الثور بكذا وكذا من المــال ، ويكون الفرس بالدريهمات .

قيل : يارسول الله ، وما يُرَخِّص الفرس ؟ قال : لا تُركب لحرب أبداً . قيل له : فما يُغل الثور ؟ قال : تحُرْث الأرض كلها ، وإنَّ قَبْلَ خروج الدَّجال ثلاث سنوات شدَاد يُصيب الناس فيها جوع شديد ، يأمر الله السماء في السنة الأولى أن تحبسَ ثُلث مطرها ، ويأمر الأرض فتحبس ثُلث نباتها ، ثم يأمر الله السماء في السنة الثانية فتحبس ثُلثى مطرها ، ويأمر الأرض فتحبس ثُلثى نباتها ، ثم يأمر الله السماء في السنة الثالثة فتحبس مطرها كله فلا تَقْطر قطرة ، ويأمر الأرض أن تحبس نباتها كله فلا تُنبتُ خضراً ، فلا تبقى ذات ظِلف إلا هلكت إلا ما شاء .

فقيل : فما يُعَيِّشُ الناس في ذلك الزمان ؟ قال : التهليل والتكبير والتسبيح والتحميد ، ويجري ذلك عليهم مجرى الطعام . قال ابن ماجه : سمعت أبا الحسن الطنافسي يقول : سمعت عبد الرحمن المحاربي يقول : ينبغي أن يُدفع هذا الحديث إلى المؤدب حتى يُعلّمه الصبيان في الكُتّاب .

وقد جاء في تفسير ابن كثير أن هذا الحديث غريب جداً من هذا الوجه ، ولكنه قال : ولبعضه شواهد من أحاديث أُخر ، وحديث النوّاس بن سمعان الذي جاء في هذا الشأن يُشبه هذا الحديث ، وما دام هناك شبيه به يؤيد ما جاء في هذا الحديث ، فلا داعي لذكره لأنه يُعتبر تطويلاً ، والمقام لا يحتمل ذلك غير أننا نلفت النظر إلى ما ينبغي ذكره إتماماً للفائدة ، فعند نزوله عليه السلام في آخر الزمان لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا آمن .

---

(1) أي تحمله على الفرار .

(2) الفاثور : الخوان ، وقيل هو طست من فضة .

قال ابن جرير : وحدثني يعقوب ، حدثنا ابن عُلية ، حدثنا أبو رجاء عن الحسن : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ [1] ، قال : قبل موت عيسى ، والله إنه الآن حي عند الله ولكن إذا أنزل آمنوا به أجمعون .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عليّ بن عثمان اللاحق ، حدثنا جويرية بن بشر قال : سمعت رجلاً قال للحسن : يا أبا سعيد ، قول الله : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ قال : قبل مرت عيسى ، إن الله رفع عيسى وهو باعثه قبل يوم القيامة مقاماً يؤمن به البّر والفاجر ، وهناك أقوال أُخَر ولكن أولى هذه الأقوال بالصحة القول الذي يقول إنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى عليه السلام إلا آمن به قبل موته ، ولا شك أن هذا الذي قاله ابن جرير هو الصحيح ، وهو الذي عليه أهل الحق لأنه المقصود من سياق الآي في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه وتسليم من سَلّم لهم من النصارى الجهلة بذلك .

فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك ، وإنما شُبِّهَ لهم فقتلوا الشبيه وهم لا يتبينون ذلك ، ثم إنه رفعه إليه ، وإنه باقٍ حي ، وإنه سينزل ليوم القيامة ، وقد أخبرت هذه الآية الكريمة أنه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم ، ولهذا قال : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ﴾ أي : قبل موت عيسى الذي زعم اليهود ومن وافقهم من النصارى أنه قُتِلَ وصُلِبَ .

ومعنى قوله : « ويضع الجزية » أي لا يقبلها من أحد من أهل الأديان بل لا يقبل إلا الإسلام أو السيف ، وعيسى إذ ينزل على المنارة البيضاء بدمشق وقد أُقيمت صلاة الصبح - كما قلنا - فيقول له إمام المسلمين : تقدَّم يا روح الله فَصَلِّ . فيقول له : إنما أُقيمت الصلاة لك . فيُصَلِّي خلفه إلى آخر ما ذكرناه خاصاً بذلك ، وهذه المنارة الذي ينزل بها عيسى بدمشق ، إنما بنيت من حجارة

---

(١) النساء : ١٥٩

بيض ، وكذلك بنيت من أموال النصارى حين حرقوا التي هُدِمَت وما حولها ، وإنه يخرج من فجِّ الروحاء حاجاً أو معتمراً أو ليثنيهما ويقيمَ أربعين سنة ، ثم يموت فيُدفن - فيما قيل - في الحجرة النبوية عند رسول الله ﷺ وصاحبيه .

وقد ورد في ذلك حديث ذكره ابن عساكر في آخر ترجمة المسيح عليه السلام في كتابه عن عائشة مرفوعاً : أنه يُدفن مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر في الحجرة النبوية ، وقد قال ابن كثير : إنه لا يصح إسناده ، ولكن ابن كثير جانب الأحاديث والأقوال المشهورة في ذلك .

فقد قال أبو عليّ الترمذي : حدثنا زيد بن أخزم الطائي ، حدثنا أبو قتيبة مسلم بن قتيبة ، حدثني أبو مودود المدني ، حدثنا عثمان بن الضحاك عن محمد ابن يوسف بن عبد الله بن سلام عن أبيه عن جده ، قال : مكتوب في التوراة صفة محمد وعيسى ابن مريم - عليهما السلام - يُدفن معه . قال أبو مودود: وقد بقي من البيت موضع قبر . ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن كذا قال . والصواب : الضحاك بن عثمان المدني .

وقال البخاري : هذا الحديث لا يصح عندي ولا يُتابع عليه ، وليس معنى هذا أنه لا يصح عنده غيره ، فهناك أحاديث كثيرة قوية الإسناد عند غيره فيُؤخذ ويُعمل بها ويقتضى اعتبارها ، لا سيما وأن المشهور على لسان الأمة والمعروف عند جماهيرها أنه يُدفن مع حضرة رسولنا ﷺ ، وأول من تنشق عنهما الأرض يوم القيامة .

وروى البخاري عن يحيى بن حماد عن أبي عوانة عن عاصم الأحول عن أبي عثمان المهدي عن سلمان قال : الفترة ما بين عيسى ومحمد ﷺ ستمائة سنة ، وعن قتادة : خمسمائة وستون سنة ، وقيل : خمسمائة وأربعون سنة ، وعن الضحّاك : أربعمائة وبضع وثلاثون سنة ، والمشهور : أنها ستمائة سنة . ومنهم من يقول : إنها ستمائة وعشرون سنة بالقمرية فتكون ستمائة بالشمسية .

وقال ابن حبّان في صحيحه : « ذكر المدة التي بقيت فيها أُمة عيسى على هَدْيه » : حدثنا أبو يعلى ، حدثنا أبو همام ، حدثنا الوليد بن مسلم عن الهيثم ابن حميد عن الوضين بن عطاء عن نصر بن علقمة عن جُبير بن نُفَير عن أبي الدرداء . قال : قال رسول الله ﷺ : « لقد قبض الله داوود من بين أصحابه

فما فُتنوا ولا بدّلوا ، ولقد مكث أصحاب المسبح على سنته وهَدْيه مائتي سنة » .

وذكر ابن جرير عن محمد بن إسحاق : أن عيسى عليه السلام قبل أن يُرفع وصّى الحواريين بأن يدعوا الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وعيَّن كل واحد منهم إلى طائفة من الناس في إقليم من الأقاليم من الشام والمشرق وبلاد المغرب ، فذكروا أنه أصبح كل إنسان منهم يتكلم بلغة الذين أرسله المسيح إليهم ، وذكر غير واحد أن الإنجيل نقله عنه أربعة : لوقا ومتى ومرقس ويوحنا، وبين هذه الأناجيل الأربعة تفاوت كثير بالنسبة إلى كل نسخة ونسخة ، وزيادات كثيرة ونقص بالنسبة إلي الأخرى ، وهؤلاء الأربعة منهم اثنان ممن أدرك المسيح ورآه وهما متى ويوحنا ، ومنهم اثنان من أصحاب أصحابه وهما مرقس ولوقا.

وكان ممن آمن بالمسيح وصدّقه من أهل دمشق رجل يقال له « ضينا » وكان مختفياً في مغارة داخل الباب الشرقي قريباً من الكنيسة المصلبة خوفاً من بولس اليهودي وكان ظالماً غاشماً مغضباً للمسيح ، ولما جاء به وكان قد حلق رأس ابن أخيه حين آمن بالمسيح وطاف به في البلد ثم رجمه حتى مات رحمه الله رحمة واسعة ، ولما سمع بولس أن المسيح عليه السلام قد توجه نحو دمشق جهّز بِغَالَهُ وخرج ليقتله ، فتلقاه عند « كوكبا » فلما واجه أصحاب المسيح جاء إليه مَلَكٌ فضرب وجهه بطرف جناحه فأعماه ، فلما رأى ذلك وقع في نفسه تصديق المسيح فجاء إليه واعتذر مما صنع وآمن به فقبل منه ، وسأله أن يمسح عينيه لِيَرُدَّ الله عليه بصره فقال : اذهب إلى « ضينا » عندك بدمشق في طرف السوق المستطيل من المشرق فهو يدعو لك . فجاء إليه فدعا فردّ الله عليه بصره وحَسُنَ إيمان بولس بالمسيح عليه السلام أنه عبد الله ورسوله ، وبُنيت له كنيسة باسمه فهي كنيسة بولس المشهورة بدمشق من زمن فَتَحها الصحابة رضى الله عنهم حتى خربت .

* * *

• اختلاف أصحاب المسيح فيه بعد رفعه إلى السماء :

يجدر بنا أن نبُيِّن للناس مدى اختلاف أصحاب المسيح ومدى ما ذهبوا إليه في هذا الشأن ، حتى يكون الناس على بصيرة من أمر أصحابه ، وعلى هدي مما ذهبوا إليه لخطر هذا الأمر وعظَمِ قدره في هذه الحياة ، فقد كان اختلافهم فيه على أقوال كما قاله ابن عباس وغيره من أئمة السَلَف .

قال ابن عباس وغيره : قال قائلون منهم : كان فينا عبد الله ورسوله فرُفِع إلي السماء ، وقال آخرون : هو الله ، وقال آخرون هو ابن الله ، فالأول هوالحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والقولان الآخران كفر عظيم لا ريب فيــه ، ولا يـختلف فيه اثنان . يقول تعالى في ذلك : ﴿ فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [١] ، وقد تقدم ما يدل عَلَى ذلك ، ثم اختلفوا في نقلَ الأناجيلَ علىً أربعَة أقاويل ما بين زيادة ونقصان وتحريف وتبديل .

ثم بعد المسيح بثلاثمائة سنة حدثت فيه عظائم شتى وتغييرات بعيدة الأثر في توجيهات هذه الحياة ، اختلف البطاركة الأربعة وجميع الأساقفة والقساوسة والشمامسة والرهابين في المسيح على أقوال متعددة وآراء متنوعة ، لا تنحصر ولا تنضبط ، واجتمعوا وتحاكموا إلى الملك قسطنطين بأني القسطنطينية وهم المجمع الأول ، فصار الملك إلى قول أكثر فرقة اتفقت على قول من تلك المقالات فسُمُّوا الملائكة ، ودحض من عداهم وأبعدهم وتفردت الفرقة التابعة لعبد الله بن آريوس الذي ثبت على أن عيسى عبد من عباد الله ورسول من رسله ، فسكنوا البراري والبوادي وبنوا الصوامع والديَّارات والقلاَّيات ، وقنعوا بالعيش الزهيد ولم يخالطوا أُولئك الملل والنحل ، وبنت الملائكة الكنائس العظيمة وعمدوا إلى ما كان من بناء اليونان فحوَّلوا محاريبها إلى الشرق ، وقد كانت إلى الشمال إلي الجَدْي .

* * *

(١) مريم : ٣٧

• بناء بيت لحم :

وبنى الملك قسطنطين بيت لحم على محل مولد المسيح ، وبنت أمه هيلانة القمَامة يعنى على قبر المصلوب وهم يُسَلِّمون لليهود أنه المسيح .

وقد كفر هؤلاء وهؤلاء ، ووضعوا القوانين والأحكام التي تناسبهم وتتفق مع مشاربهم ومذاهبهم ، فمنها مخالف للعتيقة التي هي التوراة فأحلُّوا أشياء هي حرام بنص التوراة ، ومما أحلوه الخنزير ، وصَلُّوا إلى الشرق ولم يكن المسيح صَلَّى إلا إلى صخرة بيت المقدس وكذلك جميع الأنبياء بعد موسى فإنهم كانوا يستقبلونها ويُصَلُّون إليها ، وكذلك نبينا محمد ﷺ صَلَّى إليها بعد هجرته إلى المدينة المنَّورة ستة عشر - أو سبعة عشر شهراً - ثم حُوِّل إلى الكعبة التي بناها الخليل إبراهيم عليـــه السلام ، وفي ذلك يقـول اللّٰه لنبيه عليه الصلاة والسلام : ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ [١] .

وقد صوَّروا الكنائس ولم تكن مصوَّرة قبل ذلك ، ووضعوا العقيدة التي يحفظها أطفالهم ونساؤهم ورجالهم التي يسمونها بالأمانة وهي تسمية لا تتفق مع الواقع إذ هي الكفر بعينه والخيانة بنفسها ، وجميع الملكية التي قلنا إنهم سموا أنفسهم الملائكة ، والنسطورية أصحاب نسطورس أهل المجمع الثاني ، واليعقوبية أصحاب يعقوب البراذعي أصحاب المجمع الثالث ، يعتقدون هذه العقيدة ويختلفون في تفسيرها .

وها أنا أحكيها - وحاكي الكفر ليس بكافر - لأبن لكم على ما فيها من ركاكة الألفاظ وكثرة الكفر والخبال المُفْضي بصاحبه إلى النار وبئس المصير

(١) البقرة : ١٤٤

فيقولون : « نؤمن بإله واحد ضابط الكل خالق السموات والأرض كل ما يُرى وكل ما لا يُرى ، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الآب قبل الدهر ، نور من نور ، إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساو للآب في الجوهر الذي كان به كل شئ ، من أجْلنَا نحن البشر ، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسَّد من روح القدس ومن مريم العذراء وتأنَّسَ وصُلِبَ على عهد ملاطِسْ البنطي وتألَّم وقُبِرَ وقام في اليوم الثالث كما في الكتب وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الآب ، وأيضاً فسيأتي بجسده ليُدَبِّر الأحياء والأموات ، الذي لا فناء لملكه ، وروح القدس الرب المحيى المنبثق من الآب مع الآب والابن مسجود له ، وبمجد الناطق في الأنبياء ، كنيسة واحدة جامعة مقدسة يهولية ، وأعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا ، وإنه حيٌّ قيامَة الموتى وحياةَ الدهر العتيد كونه . . آمين » .

هذا ما وصل إليه الكفر وانتهى إليه التخبط العقلي والقلب المظلم ، فإن كانت لهم قلوب فإنهم لا يفقهون بها ، وإن كانت لهم أعين فإنهم لا يُبصرون بها ، وإن كانت لهم آذان فإنهم لا يسمعون بها ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ (١) .

فهذه سيرة النبي العظيم عيسى عليه السلام وقصته الخالدة ، أحطنا الحياة بها علماً ، وبسطنا فيها عجائب وآيات بالغة التقدير ، وسطرنا جناية أصحابه عليه وبراءته من كل ما ادعوه عليه ظلماً وبهتاناً من أكاذيب هو براء منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب عليه السلام ، وما اختلقوه من افتراءات جاءت من محض هواهم وقامت من السير على غير هدى ، وسارت على ما جاء بالرسوم التي خططها لهم جهلهم ورسمها الشيطان لهم فاعتقدوها ومشوا على العمل بها ، فضَلُّوا وأضَلُّوا كثيراً ، وكانت عاقبة أمرهم خُسراً ووبالاً عليهم ديناً ودنيا : ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ ﴾(٢) .

* * *

---

(١) الفرقان : ٤٤

(٢) الحج : ٤٦

هذا .. وقد انتهينا من الكتابة عن « قصص الأنبياء وأحداثها التاريخية وآياتها العجيبة وعبرها العظيمة » فتقصينا فيها كل ما يُستطاع تقصيه من بلوغ الحقائق ، وما يمكن الوصول إليه من كثير الأهداف وعظائم الحكم والأســـرار ، وتوخينا جهدنا في كتابتنا عنها ما جاء معبراً عن هَدْيها وهُداها ، بقدر ما وفقنا إليه المولى عز وجل ، وهدانا إليه وحي العناية الربانية ، ووجهتنا إليه الإمدادات الإلهية ، ولازمتنا الرعاية في كل قصة ، وصاحبتنا بدائع الإلهامات وعجائب الربوبية في كل مرحلة من مراحلها وكل طور من أطوارها ، حتى أتت على خير هدي وفي أروع إطار بحسب تقديرنا ، ولهذا وجب علينا أن نؤدي لله تعالى واجب الشكر وفروض الحمد على هذا التوفيق وذلك المدد وتلك الرعاية ، فإنها بعونه تعالي قد حققت الكثير من آمال الباحث ورغبات الطالب ، وما تصبو إليه القصص نفسها من روائع ومقاصد وغايات ، لنستطيع بمثلها وآياتها أن نحمل الناس إلى تداولها وأن ندعوهم لدراستها حتى يتمكنوا جميعاً من الانتفاع بعبرها وما دعت إليه وأوحت به من السير إلى الله تعالى ، ومجاهدة النفس ومكابدة الهوى ، ومحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنه الهمة عليه تعالى ، حتى يكون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ، والسلام على من اتبع الهدى .

« تم بحمد الله »

*   *   *

محتويات الكتاب

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

* * *

رقم الإيداع بدار الكتب ٤١٢٤ / ٨٩
الترقيم الدولي X - ١٨٨ - ٣٠٧ - ٩٧٧

طبع بالمطبعة الفنية ـــ ت : ٣٩١١٨٦٢